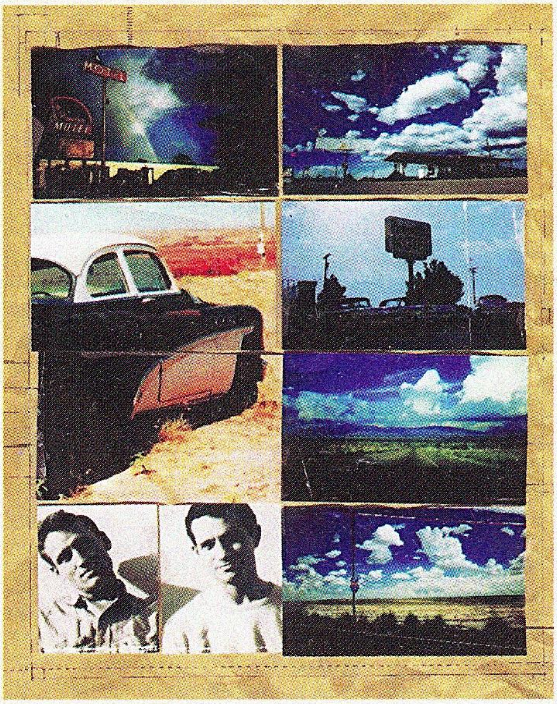
جاك كرواك

على الطريق



ترجمة : سامر أبو هواش

منشورات الجمل

رواية

جاك كرواك: على الطريق

جاك كرواك

على الطريق

رواية

ترجمة

سامر أبو هواش

منشورات الجمل

ولد **سامر أبو هواش** عام ١٩٧٢ بصيدا ـ لبنان. درس الإعلام والصحافة بالجامعة اللبنانية ١٩٩٦. كاتب وصحافي ومترجم. له العديد من الأعمال الشعرية والروائية والترجمات الأدبية، منها: **الحياة تُطبع في نيويورك**، شعر، بيروت ١٩٩٦؛ **تحية الرجل المحترم**، شعر، بيروت ١٩٩٩؛ **تذكّر فالنتينا**، شعر، بيروت ٢٠٠١؛ **جورنال اللطائف المصوّرة**، بيروت ٢٠٠٣؛ **نُزل مضاء بيافطات بيض**، شعر، بيروت ٢٠٠٥، **شجرتان على السطح**، شعر، بيروت ٢٠٠٥؛ كما يعد سلسلة ترجمات شعرية صدر منها ثمان مجموعات ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤. صدر له عن منشورات الجمل: **عيد العشّاق**، رواية، ٢٠٠٥؛ **يان مارتل: حياة باي**، ٢٠٠٦؛ **جاك كرواك: على الطريق**، رواية، ٢٠٠٧.

جاك كرواك: على الطريق، رواية، ترجمة: **سامر أبو هواش**

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

«على الطريق»
مانيفستو «جيل البيت» الأدبي

تحمل تسمية «الجيل الضائع» Lost Generation التي أطلقتها غرترود شتاين، دلالة واضحة: إنهم الكتّاب (الأميركيون خصوصاً) الذين نشأوا أو كتبوا انطلاقاً من تجربة الحرب العالمية الأولى، والذين عاش قسم كبير منهم في أوروبا في ذلك الوقت، أي خلال الحرب وبعيد انتهائها، ومنهم ف. سكوت فتزجيرالد، وعزرا باوند، وشيروود أندرسن، وت. أس إليوت، وجيمس جويس، وخصوصاً إرنست همنغواي الذي تحولت روايته «الشمس تشرق أيضاً» إلى بيان هذا الجيل، خصوصاً وأن همنغواي يفتتحها باقتباس عن شتاين: «أنتم جيل ضائع».

على عكس «الجيل الضائع» فإن تسمية «جيل البيت» Beat Generation، الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية (راجع الملحق رقم ٢، الذي «يعرّف» فيه جون كللون هولمز «جيل البيت» ويميز بينه وبين «الجيل الضائع»)، كانت، في البداية على الأقل، ملتبسة وحمّالة أوجه. وقد احتاجت إلى بعض الوقت لتستقر على المعنى الذي استقرت عليه في وقتنا الراهن. كانت الإشكالية في كلمة «بيت» Beat نفسها، وهي صفة في المحكية الأميركية اليومية للشخص المتعب، أو الرث، أو المنبوذ، أو الهامشي، وهي صفة لا يزال بعضهم يعتبرها مدخلاً شبه وحيد لـ«جيل

البيت» واختصاراً لتجربته، غير أن الدلالة الفعلية لـ«بيت» لا تتحقق إلا بإضافة المعنى المضاد، غير السلبي، للصفات السابقة، وهو تحديداً ما أنجزه جاك كِرواك في «على الطريق»، حين حوّل الشخصية «البيت»، خصوصاً عبر بطل روايته دين موريارتي (نيل كاسَدي، أنظر ملحق الأسماء الحقيقية لشخصيات الرواية)، التي يتمحور العمل حولها، إلى نوع من الأسطورة الجديدة، إلى حامل رسالة مقدسة، وإلى «بطل جديد من الغرب الأميركي» مثلما يقول في بداية الرواية، فاتحاً الطريق واسعة أمام جيل جديد من الشباب التواق إلى التعبير عن نفسه، الباحث عن هوية مغايرة لما تحاول المؤسسة الرسمية المحافظة، السياسية والاجتماعية والثقافية، إرساءه في أميركا بعد الحرب العالمية الثانية وبدايات «الحرب الباردة».

في المجال الأدبي، فإن إضافة تعبير «جيل» إلى «البيت»، كانت كافية للإشارة إلى ولادة شيء كبير ومهم وجوهري، يبحث أصحابه عن مكانة يرون أنهم يستحقونها، لتتحول «الهزيمة» في المحمول الأساسي للكلمة إلى «إنجاز»، و«التعب» إلى «صحوة»، و«الهامشية» إلى «حضور وانتشار»، و«الرثاثة» إلى «سمو ورفعة». في مقالة بعنوان «كرواك بلوز» يكتب جايمس كامبل عن هذا التحول في مدلول كلمة «بيت»: «في وقت ما عند مفترق العامين ١٩٤٨ و١٩٤٩ اكتسبت كلمة «**بيت**» فتنتها». فتحولت من الإشارة إلى حال الشخص المنبوذ والمحتقر، إلى حال يرغب المرء بأن يعيشها. فمثلما كانت تستعمل في أوساط العالم السفلي، عالم المخدرات والدعارة في الأحياء السوداء، كانت تضمر كلمة **بيت** تجربة الحزن والنبذ والإفلاس، أما في استعمالها البديل فقد انتقلت الكلمة من السلب إلى الإيجاب، فبدلاً من أن تكون مرفوضاً تصبح أنت الذي يرفض، وكجزء من هذا المسار تحولت **بيت** من كلمة سوداء إلى أخرى بيضاء» (مجلة «أنتيوش ريفيو»، ربيع ٢٠٠١).

هكذا يحوّل الراوية في «على الطريق» سال بارادايز (أي جاك كرواك، لاحظ الدلالة في اسم بارادايز؛ «الجنة») بطله دين موريارتي، من «خريج سجون مستلب بالاحتمالات الثقافية الرائعة» إلى «نبي» معاصر، «لم يمارس الاحتيال إلا لأنه إلى هذا الحدّ أراد أن يعيش»، ليصبح كرواك نفسه، على نحو ما، ناقل هذه الرسالة، وليصبح بالتالي «رسولاً» موازياً، ولتصبح «على الطريق» هي الرسالة بعينها.

وما هي هذه الرسالة؟ يختصر كرواك الإجابة بشكل غير مباشر في الجزء الأول من الرواية حين يصف سبب ولعه بشخصيات مثل دين موريارتي وكارلو ماركس (ألن غنسبرغ) قائلاً: «أما أنا فتبعتهما مثلما كنت أفعل طوال حياتي، أتبع أولئك الذين يثيرون اهتمامي، لأن الأشخاص الوحيدين الحقيقيين بالنسبة إلي هم المجانين، مجانين العيش، والتكلم، والبحث عن الخلاص، المشتهون لكل شيء، الذين لا يسأمون أو يتفوهون بأشياء عادية، بل يشتعلون، ويشتعلون، ويشتعلون كمفرقعات نارية تتفجر نجومها عنكبوتياً في كبد السماء وفي الوسط تفرقع الشعلة الزرقاء». الرسالة إذاً هي الحياة، إذ «في مكان ما على الطريق كنت أعرف أنه سيكون هناك فتيات، ورؤى، وكل شيء؛ في مكان ما على الطريق سأعثر على اللؤلؤة». هكذا تبدأ رحلة كرواك ـ الرائي من نوع جديد ـ من شرق أميركا إلى غربها «حيث الجانب الذي أجهله من البلاد»، وبطريقة ملغزة وسحرية أيضاً. فمثلما يتبع نبي نجمة سرية ما، يتبع كرواك «الخط الأحمر رقم ٦» الذي يفترض أن يقوده مباشرة من مدينته باترسون، نيوجيرزي، إلى دنفر حيث يفترض أن يلتقي موريارتي مجدداً ويستأنف الرحلة معه. لكن الخط الأحمر الموعود هذا ينتمي إلى عالم الأرض لا السماء، وهذا أول ما يكتشفه بارادايز على الطريق، حيث يجد نفسه عالقاً في دوامة، غير قادر على الانطلاق حقاً:

«كان حلمي ذاك هو الذي جعلني أخفق، تلك الفكرة الحميمة الرائعة بأن أعبر أميركا على خط أحمر هائل، بدلاً من تجربة شبكات طرق متعددة».

عدوى نيل كاسَدي

كان اللقاء الأول الذي جمع كرواك بكاسَدي هو الذي نقل إليه العدوى «وعندها بدأت تلك الدوامة المجنونة لما سيحدث مستقبلاً، والتي ستضع كل أصدقائي ومن تبقى من أسرتي في كتلة غبار ضخمة تخيم كغيمة فوق الليل الأميركي» مثلما يكتب في الرواية. لكن الأهم من ذلك اللقاء الأول المباشر في نيويورك كان اطلاع كرواك على رسائل كاسَدي إلى هال تشايز، والتي بعث بها من الإصلاحية حيث كان مسجوناً بسبب سرقة السيارات. رأى كرواك وبقية ثلاثي جامعة كولومبيا (بوروز الأكبر سناً، وغنسبرغ) في اللغة التي كتب بها كاسَدي رسائله شيئاً جديداً لم يألفوه هم أو الكتابة الأميركية من قبل. بالنسبة إلى كرواك كان الاكتشاف صادماً وباهراً ومبهجاً في آن. فتلك اللغة هي التي كان يبحث عنها. صحيح أنه كان يكافح من أجل إنهاء عمله الروائي الأول «البلدة والمدينة» (صدرت عام ١٩٥٠) غير أن كفاحه الأساسي ككاتب كان منصباً على العثور على لغة جديدة مختلفة، من دون أن يعرف ماهية هذه اللغة أو كيف ستكون. لم يرض كرواك، مثلما تشير آن تشارترز في تقديمها لـ«على الطريق» (طبعة بنغوين، ١٩٩١) «عما خلص إليه في «البلدة والمدينة»، التي كان لا يزال واقعاً فيها تحت تأثير لغة توماس وولف. لكن وعيه بأنها ليست اللغة التي يريد الكتابة بها بدأ حتى قبل إنجاز الرواية الأولى (كان لم ينجز سوى نصفها حين التقى نيل كاسَدي)، فبدأ يتحدث مع صديقيه ألن غنسبرغ وجون كللون هولمز عن «رؤيا جديدة» للكتابة، من دون أن يتمكن من الإمساك بخيطها، بل إن

محاولاته الأولى لتلمّس هذه اللغة جعلته يكتشف أنه حين لا يحاكي أسلوب توماس وولف لا يعود قادراً على تحويل أفكاره ومشاعره إلى لغة سردية، وكان ذلك مصدر إحباط كبير بالنسبة إليه.

تصف آن تشارترز، الدارسة الأبرز لكرواك، المخاض العسير الذي أدى إلى عثور كرواك على لغته:

حين عاد كاسَدي إلى دنفر بدأ يبعث الرسائل لكرواك التي أثارت اهتمام هذا الأخير إلى حدّ أنه قرر بعد إنهاء النصف الأول من «البلدة والمدينة»، أن يقوم بأولى رحلاته في ١٩٤٧ عبر البلاد، وبدأ يتنقل بالمجان ووجهته الأولى موعده مع كاسَدي في دنفر (. . .) وقد أثرت هذه الرحلة جداً عليه، حتى تداخلت مع البلدة والمدينة، وهيمنت على أفكاره إلى حدّ أنه حاول تأسيس كتاب جديد بناء عليها بعد الانتهاء من الرواية الأولى (. . .) وبعد فترة قصيرة من إنهائها بدأ كرواك يكتب أولى صيغ على الطريق مستعملاً ما أسماه طريقة «واقعية» أو طبيعية في الكتابة تأثراً بثيودور درايزر الذي كان قد قرأ رواياته خلال فصل دراسي عن الرواية في معهد «المدرسة الجديدة». وفي البداية مضى عمله بشكل جيد، مثلما تشهد يومياته في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٨ حيث يكتب: «كتبت ٣٢٥٠٠ كلمة منذ بدأت الكتابة في التاسع من الشهر. . . . تفرحني الأرقام دائماً لأنها دليل ملموس على حرية أكبر في الكتابة مما كان لدي في البلدة والمدينة.

غير أنه بعد شهر من العمل على هذه الصيغة الأولى وصل كرواك إلى حائط مسدود، شاعراً «بالفراغ وبالزيف حتى» لدى قراءته المخطوط الأولي. ذلك أن أسلوبه الجديد لم يتح له التعبير عن «المشاعر المجنونة المبجلة» التي تمكن من كتابتها في ما اعتبره أفضل مقاطع «البلدة والمدينة». وكان وصول كاسَدي إلى منزل أخته في نورث كارولينا بعيد

كريسمس ١٩٤٨، والذي يسرد تفاصيله لاحقاً في الجزء الثاني من «على الطريق»، بمثابة العذر لكرواك لكي يضع مشروعه الجديد جانباً وينطلق مع صديقه بسيارته الهادسون الجديدة، وتلك كانت المرة الأولى التي يسافران فيها معاً.

حين عاد كرواك إلى منزل أمه في فبراير ١٩٤٩ كان مدمراً بعد الأسابيع التي أمضاها مع كاسَدي بحيث إنه قرر أنه لا يستطيع إنقاذ محاولته «الواقعية» المهجورة في كتابه عن الطريق. فبدأ بمشروع آخر وهو «رواية قصيرة عن الأطفال والشر، خرافة الليلة الماطرة»، التي عاود العمل عليها لاحقاً ونشرت بعنوان «الدكتور ساكس». كما عاد لاستكمال صفه الدراسي حول الرواية الأميركية في المدرسة الجديدة، ليكتب مقالاً أخيراً عن توماس وولف. وفي سعيه للتخلص من تأثير هذا الأخير عليه والعثور على صوته الخاص، كان كرواك في مقاله ذاك شديد الانتقاد للغة وولف، التي شعر أنها لا تتمتع بالوضوح الفكري الكافي ولا العمق الروحي الذي أراده. كان كرواك يعاني بحسب تعبير هارولد بلوم من «قلق التأثّر» مجاهداً لتحرير نفسه من محاكاة لغة كاتب يكنّ له الكثير من الإعجاب.

بعد انتهائه من مقالته عن وولف بدأ كرواك بكتابة موجز لتصوراته حول كتابه الجديد الذي أسماه «على الطريق». وكان يراه في تلك المرحلة ككتاب «سعي» على غرار دون كيشوت، وكان بطله يحمل اسم راي سميث، ثم تخلى عنه وابتكر شخصية سميتي الذي سيلعب دور سانشو بانزا (في دون كيشوت) بالنسبة إلى شخصيته المحورية رد مولتري، وهو شاب في نهاية عشريناته كان لاعباً ثانوياً في فريق كرة قدم، وطبّال في فرقة جاز، وبحار سجن لتورطه في عملية سطو مسلح. وفي بداية الرواية قرر كرواك أن يجعل بطله يقرأ رواية «رحلة الحاج

لجون بانيان» بينما هو في السجن، بحيث إنه بعد إطلاق سراحه يمضي على الطريق بحثاً بحسب كلمات بانيان عن «إرث غير قابل للفساد، غير دنس، ولا يخبو».

ملأ كرواك دفتره بملحوظات تصف أفكاره لتطوير الشخصيات والثيمات في هذه الصيغة الأولى، لكن أهم ما في هذه اليوميات هو وصفه لأداء الجاز المجنون التي كان يستمع إليها طوال الوقت. كتب جاك: «لا يهمني ما يقوله أي كان لكن أشياء جامحة كهذه تثيرني بلا حدود، إنها ويسكي خالصة، دعونا لا نسمع المزيد من نقاد الجاز أولئك، أو أولئك الذين يتعجبون من موسيقى البيبوب. . . أحب أن تكون الويسكي التي أحتسيها حادة، أحب أن تكون ليلتي في الحانة مجنونة، أحب أن يكون المغني مولعاً بالنساء، أحب أن تنطلق الأشياء بقوة، أحب أن أكون منتشياً. . . .

هذه الصفات بالذات، هذا النوع من الولع بالحياة، هو ما رآه كرواك وعدد من أصدقائه ممثلاً بشكل نموذجي في نيل كاسَدي، «الكاتب» الوحيد في جيل البيت الذي لم يترك أثراً إبداعياً سوى رسائله تلك، وسيرة حياته الصاخبة. إنه الصعلوك المعاصر، المولع بالثقافة، إنما المختلف عن شلة المثقفين الذين عرفهم كرواك، خصوصاً في نظرته إلى الحياة وتطلبه منها، يكتب كرواك مقارناً: «. . .أما ثقافة دين فكانت منطقية ولماعة وكاملة مثلهم، من دون تلك الثقافوية السقيمة. ولم تكن إجراميته من النوع الذي ينم عن حرد أو ازدراء، إنما هي تسليم جامح ومطلق بالفرح الأميركي؛ كانت منتمية إلى عالم الوسترن، إلى رياح الغرب، قصيدة إنشادية من البقاع، نبوءة تنتمي إلى زمن سحيق، واحتاجت إلى وقت طويل حتى تصل (كان يسرق السيارات فقط لمتعة قيادتها). إلى جانب ذلك كان كل أصدقائي في نيويورك غارقين في مزاج

سلبي كابوسي، يحتقرون المجتمع وفقاً لحججهم الكتبية أو السياسية أو التحليل ـ نفسية المستهلكة، لكن دين كان يعدو في المجتمع فحسب، تواقاً إلى الخبز والحب، غير مكترث بما يحدث».

الندم الأبيض

هذا الولع بشخصية كاسَدي يتقاطع عند كرواك مع ولعين آخرين: الغرب الأميركي (الاحتمالات المجهولة، الاكتشاف...) وموسيقى الجاز (الروح والنبض والتدفق الارتجالي غير المحكوم بالضوابط التقليدية). لا يختلف «غرب» كرواك بما هو أرض الاحتمالات، والمجهول، ومثال الخرافة البكر، عن المكسيك مثلاً التي يتمحور الجزء الرابع من «على الطريق» حول رحلته إليها بصحبة كاسَدي، وإن كان كرواك يعبّر في سياق الرواية عن مقته الشديد للتقاليد الاحتفالية في الساحل الغربي، وعن ذهوله في المقابل وهو يرى المشهد المكسيكي المختلف. بالنسبة إلى معظم كتاب البيت، كان ثمة حاجة ماسة للذهاب إلى بلدان أخرى (تجربة طنجة الشهيرة)، واستكشاف تجارب جديدة، من أجل متعة العيش (البحث عن الجنس والمخدرات)، والبحث عن أفق كتابي وثقافي مختلف في آن، غير أنه بالنسبة إلى كرواك كان ثمة إحساس طاغ بأن هناك أميركا أخرى سوى تلك التي يعرفها عليه استكشافها «ثقافياً» وحياتياً، لا جغرافياً وعسكرياً مثل «الرواد الأوائل»، وهو ما نجده بوضوح في نقده الشديد لـ«الرجل الأبيض»: «فجأة وجدت نفسي في تايمز سكواير. قطعت ثمانية آلاف ميل حول القارة الأميركية وها قد عدت إلى هذه الساحة، وفي قلب زحمة السير، أيضاً، لأرى بالعينين البريئتين لمسافر على الطريق ذلك الجنون الفانتازي لمدينة نيويورك حيث ملايين البشر يتنازعون إلى الأبد من أجل دولار، وذلك الحلم المجنون، حلم القبض، والأخذ والعطاء، والتنهد والموت، فقط لكي يؤمّنوا مدفناً

في تلك المقابر وراء لونغ أيلاند. أبراج الأرض العالية، الطرف المقابل من الأرض، حيث ولدت أميركا البيروقراطية».

وفي مكان آخر يكتب: «. . .جلت في المساء المعتم في الناحية السوداء من دنفر، متمنياً لو كنت من «النيغرو»، شاعراً أن أفضل ما قدّمه العالم الأبيض ليس فيه ما يكفي من النشوة، ومن الحياة، ومن الفرح، ومن الإثارة، ومن العتمة، ومن الموسيقى، وليس ما يكفي من الليل (. . .) كانت حماسة والجو مليء بذبذبات الحياة الفرحة حقاً التي لا تعرف شيئاً عن خيبة الأمل والندم الأبيض».

في أحد المقاطع يسجّل كرواك السبب الجوهري لإعجابه بالمكسيك: «. . . وكنت مستغرقاً في تأملاتي، والطريق تمضي مباشرة كسهم، ولم يكن الأمر شبيهاً بالقيادة في كارولينا أو تكساس أو أريزونا أو إلنوي، بل في العالم، وإلى الأماكن التي سنتعرف فيها أخيراً إلى أنفسنا بين الهنود الفلاحين، هنود العالم، العصب الجوهري للكائن البدائي الأساسي (. . .) هؤلاء البشر كانوا بلا شك هنوداً وليسوا بيدرو وبانشو في التقاليد الأميركية السخيفة المتحضرة، وليسوا ببلهاء، ولا مهرجين، بل عظماء، هنود عظماء هم أصل الإنسانية وآباؤها. الموج عنصر صيني، أما التربة فهندية، وبقدر ما الصخور عضوية في الصحراء فهم كذلك في صحراء «التاريخ». وهم يدركون ذلك جيداً، وإذ نمر نحن بأرضهم، كيس مال أميركي متخم بالتقدير الزائف للذات جاء للهو في بلادهم، فإنهم يعرفون جيداً من هو أب ومن هو ابن الحياة القديمة على الأرض، ولا يعلقون. فبالنسبة إليهم سيحل الدمار بوماً على دنيا «التاريخ» وستتحقق قيامة الفلاحين مثلما حدث مرات عديدة سابقة، وسيظل الناس يحدقون بالعيون نفسها من كهوف المكسيك كما من كهوف بالي، حيث بدأ كل شيء وحيث رضع آدم المعرفة».

ولعل الإعجاب بالسود وتجربتهم يندرج في الإطار نفسه، مثلما يعبّر عنه ولع كرواك بموسيقى الجاز. لكن تنبغي الإشارة هنا إلى أن هذا الإعجاب الفائق بنمط العيش الأسود وإذا استثنينا موسيقى الجاز، كان إلى حدّ كبير إعجاباً سطحياً وإكزوتياً، وهو ما توقف عنده عدد من النقّاد لم يكن كرواك، مثلما معظم كتاب البيت البيض، ينظر إلى حياة السود في أميركا أبعد من موسيقى الجاز، فلا يرى عمق معاناتهم مع التمييز العنصري مثلاً، ولا يأخذ إنجازاتهم الثقافية والإبداعية في الاعتبار. كان يراهم فقط بعين المفتون بهم، بل و«يحسدهم» على نمط حياتهم البائس ذاك. ومن بين المفارقات مثلاً أن كرواك الذي كان يبحث عن لغة مختلفة، تغاضى كلياً عن زملائه من الكتّاب السود الذين بدأوا يختبرون لغة الجاز كاحتمال جديد، ولا يذكر من تلك المرحلة الأولى أي اختلاط له أو لغيره من «البيت» بكتّاب ومثقفين سود بارزين وقتذاك.

النثر التلقائي

بالعودة إلى قضية اللغة التي ستصبح فيما بعد البصمة الأساسية لكرواك في الأدب الأميركي المعاصر، أي النثر «العفوي» أو «التلقائي»، فقد لعبت موسيقى «الجاز» (البيبوب تحديداً) دوراً محورياً فيها. كانت «الجاز»، مثلما يشرح كرواك في «على الطريق» تعيش فترة ذهبية، حيث شهدت بدايات التجريب والبحث في احتمالاتها الكامنة عن طريق الارتجال. والسؤال الذي أرّق كرواك هو كيف يمكن تحويل روح «الجاز» هذه إلى كتابة. كان بوروز، وهو الأكثر ثقافة بين أصحابه (يصفه كرواك بالمعلم) بدأ باختباراته اللغوية التي ستقوده إلى كتبه «جانكي» و«كوير» و«الغداء العاري»، وقد أجابت هذه التجارب عن جزء من تساؤلات كرواك، ثم جاءت رسائل كاسَدي المكتوبة بلغة فطرية جامحة غير متكلفة، لتكون بمثابة الحجر الأخير في «البازل» بالنسبة إلى كرواك.

لكن تجربة كتابة «على الطريق» لم تكن بمثل هذه الميكانيكية وقتذاك، إذ تداخلت معها عناصر أخرى يمكن وصفها بالعاطفية، أدت إلى ولادة «أسطورة» كتابة «على الطريق». نعود إلى سرد آن تشارترز:

بالإضافة إلى كتابات بورورز ورسائل كاسَدي كان لكرواك رد فعل قوي على عمل شخص آخر في المجموعة هو جون كللون هولمز الذي أعطاه في مارس ١٩٥١ نسخة من مخطوطه المكتمل لرواية تحمل عنوان «جيل البيت»، شخصياتها مستوحاة منه ومن زوجته وشخصيات غنسبرغ وكرواك وكاسَدي. كان كرواك سرد بعض تفاصيل حياة هذه المجموعة في البلدة والمدينة وأبدى هولمز إعجابه بها، لكنه في روايته هذه ذهب أبعد بكثير من كرواك، مقتبساً حوارات أجراها مع غنسبرغ وكرواك. انزعج هذا الأخير أيما انزعاج من إدماج هولمز «الحياة الحقيقية» في روايته، إذ أن هذا ما كان شخصياً يطمح لتحقيقه (. . .) بعد فترة وجيزة من ذلك باع هولمز حقوق نشر الكتاب الذي بدّل عنوانه إلى «انطلق» بدفعة مقدمة بلغت عشرين ألف دولار، مما أشعل غضب كرواك. وبحسب ما روى لكاتب سيرته جيرارد نيكوسيا فإنه قال لهولمز عقب ذلك إنه «كان يكافح لابتكار خلفيات وأوضاع عائلية مناسبة لشخصياته وعليه أن يقرّ أخيراً بأنه لم يتمكن من فعل ذلك. . . سوف أنسى كُل هذا الهراء. . . سوف أكتب التجربة مثلما حدثت».

كان كرواك قد شجع بورورز وكاسَدي على كتابة تجربتهما الحياتية وراح يقنع زوجته جوان بأن تصف حياتها «بأدق التفاصيل من البداية حتى النهاية»، وقال لكاسَدي بهذا الخصوص «إنها حقاً تجيد الكتابة انطلاقاً من الغريزة والبراءة (. . .) وكانت جوان قد سألته: «ما الذي فعلتماه معاً أنت ونيل؟». فقرر كتابة «على الطريق» كأنما ليخبرها بما جرى معهما في رحلاتهما، قبل زواجه منها (. . .).

كونه سريع جداً في استعمال الآلة الكاتبة خطرت لكرواك فكرة الكتابة بلا توقف حتى يصل إلى «ذروة الكتابة» التي كان يريدها. ومثل الشاعر هارت كراين الذي كان مقتنعاً بأن تدفقه الكتابي يعوقه اضطراره إلى تبديل الورقة عند نهايتها. فقام كرواك بلصق أوراق الرسم، التي قص أطرافها بحيث تلائم الطابعة، حتى صارت بطول ١٢ قدماً. وحين زاره هولمز في شقته، وهو يكتب «على الطريق» ذهل من الصوت الرهيب الذي يصدر عن جاك أثناء الكتابة بلا توقف.

كانت جوان تعمل نادلة، وحين كانت ترجع إلى البيت كانت تغذي جاك بالحساء والقهوة، وكان هو يتناول البنزدرين لكي يبقى صاحياً. وقد تأثرت جوان من حقيقة أن جاك كان يتصبب عرقاً أثناء الكتابة إلى حدّ أنه كان يبدّل تيشرتات عدة خلال اليوم ويعلقها في أرجاء الشقة لكي تجف. بحلول التاسع من أبريل كان قد كتب ٣٤ ألف كلمة، وبحلول العشرين من الشهر نفسه وصل الرقم إلى ٨٦ ألفاً. في ٢٧ أبريل كان الكتاب قد أنجز، وكان قد وصل طول اللفيفة الورقية إلى ١٢٠ قدماً. وحين عرضها بافتخار على هولمز دهش الأخير من منظرها، وقد تذكر بعد ذلك أن كرواك كان متحمساً للغاية لتأسيسه «نمطاً جديداً في الأدب الأميركي».

على الرغم من كونه صاحب تجربة «النثر التلقائي» ونظرية أنه على الكاتب ألا يجري أي تعديل على عمله بعد الانتهاء منه، فإن «على الطريق» وهو أهم كتبه وأكثرها شعبية وتأثيراً، خضع عبر السنوات، منذ إنجاز صيغته الأولى عام ١٩٥١ وحتى نشره عام ١٩٥٧، إلى تعديلات عدة، وإلى «عمل تحريري» قام هو بالجزء الأساسي منه نزولاً عند رغبة دار النشر (فايكنغ) التي رأى محررها الأدبي أنه يمكن اختزال عدد من المقاطع المطولة وتكثيفها حفاظاً على الإيقاع. من المعروف أن كرواك استعمل في «على الطريق»، وفي كل أعماله الأخرى، الأسماء الأصلية،

لكنه ولأسباب قانونية اضطر إلى استبدالها بأسماء مستعارة، كما اضطر حتى إلى تغيير أسماء بعض الأمكنة والمدن تمويهاً للأحداث. إضافة إلى ذلك «حذف» كرواك بعض المقاطع أو أعاد تحويرها، ومنها مثلاً تلك المتعلقة بالعلاقة الجنسية بين غنسبرغ وكاسَدي. لكن وعلى الرغم من هذا التناقض، ينبغي القول أيضاً أن كرواك لم يكن صاغ نظرية «النثر التلقائي» بشكل معلن ورسمي بعد وقت كتابته «على الطريق»، ناهيك عن أن الجسم الأساسي للرواية كُتب عملياً بهذه التقنية وإن لم تكن قد سمّيت بعد.

كان كرواك يحلم بإنجاز عمل كبير، لكنه ظل حتى النهاية غير واثق من أنه فعل ذلك حقاً، وظل في دخيلته مشككاً بأنه قادر على فعله. حين لاقت «على الطريق» النجاح الشعبي الهائل الذي لاقته وجد كرواك نفسه بين ليلة وضحاها، وقد أصبح نجماً تتهافت الصحف والمجلات ومحطات التلفزة والإذاعة على إجراء المقابلات معه. وعلى الرغم من أنه كان تواقاً لمثل هذا النجاح في البداية، غير أنه وجد نفسه، بعد وصوله إليه، في ورطة فعلية. إذ أن الاهتمام العام كله انصب على حكاية أو ظاهرة «جيل البيت» وشخصياته الغريبة، وليس على إنجازه الأدبي والتعبيري، مما خيّب أمله ووضعه في موضع الدفاع الدائم عن النفس. لم ينتبه كرواك إلى أن إنجازه تجاوز الأدب إلى تغيير الوعي الاجتماعي في أميركا، وإلى مساهمة وسائل الإعلام المختلفة في ذلك، وهو ما يسجله بوروز: «بعد ١٩٥٧ أدت **على الطريق** إلى بيع ترليون بنطال ليفيز ومليون آلة إكسبرسو، وأرسلت أعداداً لا تحصى من الشباب على الطريق. جزء من هذا عائد طبعاً إلى انتهازية الميديا التي تدرك أهمية قصة ما حين تراها... و**حركة البيت** كانت قصة وقصة كبيرة... لقد جاءت هذه الحركة في الوقت المناسب تماماً وقالت شيئاً

ينتظر ملايين الناس عبر العالم ومن مختلف الجنسيات سماعه... لا يمكنك أن تخبر أحداً شيئاً لا يعرفه سلفاً. الإحساس بالاغتراب، والتعب، وعدم الرضى، كانت كلها موجودة تنتظر حين جاء كرواك وأشار إلى الطريق».

على الرغم من إشارة جون كللون هولمز في «هذا هو جيل البيت» إلى أن هذا الجيل لم يكن راغباً بوضع «مانيفستو» خاص به، غير أن أعمال كتاب هذا الجيل الأساسيين، ولا سيما قصيدة «عواء» لألن غنسبرغ (أول قراءة عامة لها كانت في ١٩٥٥ ونشرت عام ١٩٥٦؛ ترجمها إلى العربية سركون بولص)، ورواية «الغذاء العاري» (١٩٥٩) لوليم بوروز ورواية «على الطريق» لجاك كرواك، والتي ظهرت جميعها في فترات متقاربة من خمسينات القرن الفائت، شكّلت هذا البيان غير المعلن، إذ عكست بقوة موقفاً من العالم والحياة المعاصرة والثقافة واللغة والسياسة، والأهم من ذلك عكست فهماً مختلفاً وجديداً للكتابة ومهّدت الطريق لظهور تيار أدبي وفني جديد لا يزال حاضراً إلى وقتنا هذا، وعبر أسماء تستمر بالظهور، وإن كان معظم كتاب البيت الأساسيين غابوا عن هذا العالم.

كرواك كان الأبكر إلى الرحيل (١٩٦٩)، ومثله كاسَدي (١٩٦٨) بطله ومصدر إلهامه (بطل خمسة أعمال أخرى أساسية لكرواك)، وهما وإن شهدا في حياتيهما جزءاً من انتشار «البتنكس» ومساهماتها اللاحقة (في ظهور الهبية مثلاً والحركة المناهضة لحرب فييتنام... الخ)، غير أنهما لم يعيشا ليشهدا تحوّل كل واحد منهما، عن طريق الآخر، إلى ظاهرة وأسطورة معاصرة، ولعل موتيهما المأساوي والمبكر جداً ساهم في ذلك، غير أن الإسهام الأكبر تمثل في قدرتهما على بث روح اكتشاف جديدة، وإعادة صياغة فكرة البحث عن معنى، والبحث عنه

على الطريق وليس في الغرف المقفلة، في وقت كانت الحرب الباردة وهواجس الحرب النووية والثقافة الاستهلاكية الناشئة في أميركا، تدفع الناس إلى الانزواء والهروب إلى الداخل، إلى هوياتهم الضيقة، ولعل هذا المعنى بالتحديد هو ما يقيم وزناً لـ«على الطريق» بالعربية، اليوم، حيث تجد الأجيال الشابة نفسها مدفوعة، عبر الحروب المفروضة وهواجس الدمار الشامل المهيمنة والثقافة الاستهلاكية الأكثر تعقيداً وتطلباً، إلى أحد خيارين: إما التسليم بهذا الواقع والتأقلم معه والكف عن المطالبة بأي تغيير، وإما رفضه عبر الحركات الأصولية والسلفية التي لا تجد سوى الراديكالية العنف وسيلة للخلاص. تقترح «على الطريق» بحثاً من نوع آخر، قد لا يوصل إلى جنة أرضية أو سماوية، فردية أو جماعية، لكنه على الأقل، يكفي لتقديس الحياة نفسها، وفكرة البحث عن احتمالات أخرى لعيشها، وطرح الأسئلة على الكثير من صورها الراهنة.

سامر أبو هواش

في ٧/٧/٢٠٠٦

الكاتب

ولد جان لوبري دي كرواك في ١٢ مارس ١٩٢٢ في لويل، ماساتشوستس، لعائلة فرنسية كندية هاجرت باكراً إلى أميركا. لم يتكلم جاك، مثلما صار اسمه لاحقاً، الإنكليزية حتى بلوغه السادسة، فعائلته كانت تتحدث بلهجة كيبيك الفرنسية. عاش كرواك طفولة صعبة في لويل، التي كانت سابقاً مدينة صناعية مهمة، قبل أن يحوّلها «الكساد الكبير» إلى مدينة فقيرة وبائسة، وقد اضطرت والدته غابرييل، في ظل تلك الظروف الاقتصادية الصعبة، إلى العمل في المصانع، بينما عمل والده ليو في مجال النشر، وأصاب بعد فترة نجاحاً لا بأس به، وأنشأ تجارته الخاصة، قبل أن يجتاح طوفان مدمّر المدينة، ويأتي على مطبعته، ليتحول بعدها إلى مدمن على المخدرات والكحول، بحيث لم يتمكن من استعادة نشاطه التجاري وإعالة عائلته.

قبل جاك رزق ليو وغابرييل بولدين آخرين هما: جيرار الذي ولد عام ١٩١٧ وكارولين التي ولدت عام ١٩٢٠. كانت صحة جيرار ضعيفة بسبب إصابته بمرض في القلب، وفي عام ١٩٢٦ توفي عن عمر تسع سنوات، وترك ذلك أثراً كبيراً في نفس جاك وأفكاره ومخيلته، وساهم في نظرة الآخرين إليه كطفل هادئ وجدي وربما ساهم في نشوء ميوله الفنية. فبدأ يؤلف مجلاته الخاصة راسماً صورها وكاتباً نصوصها، وفي الوقت نفسه، مع تعلمه الإنكليزية في المدرسة الحكومية، بدأ يقرأ كل ما تقع عليه يداه من كتب ومجلات.

في المدرسة الثانوية تحول كرواك إلى نجم في كرة القدم، وكانت موهبته الرياضية تلك التي أهلته لنيل منحة دراسية في جامعة كولومبيا التي انتسب إليها بالفعل في ١٩٤٠ وبدأ يلعب كرة القدم في فريقها، قبل أن تُكسر قدمه في بداية الموسم الرياضي ويحرم من المشاركة، وبعد خلاف مع مدربه في العام التالي ترك جاك اللعب والجامعة معاً وعاد إلى لويل، حيث عمل لبضعة أشهر مراسلاً رياضياً في صحيفة «لويل صن»، قبل أن يقرر أنه لم يخلق لهذه المهنة، وينتقل إلى واشنطن دي سي ثم إلى بوسطن، متنقلاً بين مهن عدة، قبل أن ينضم إلى البحرية الأميركية كبحار في بداية ١٩٤٢.

بعدها عاد إلى جامعة كولومبيا، حيث تعرف مع صاحبته إدي باركر التي أصبحت لاحقاً زوجته الأولى، إلى لوسيان كار وألن غنسبرغ اللذين كانا طالبين في الجامعة، وأيضاً وليم بوروز ونيل كاسَدي. هذه الحلقة من الأصدقاء، إضافة إلى أسماء أخرى جاءت لاحقاً، شكلت النواة الأولى لما عرف لاحقاً باسم «حركة البيت».

في ١٩٤٤ تزوج جاك إدي باركر لكن زواجهما لم يدم سوى أشهر قليلة، فطلقا في ١٩٤٥، وبعدها بفترة وجيزة توفي والده بسرطان المعدة، وبدأ هو بكتابة عمله الروائي الأول الذي يعدّ الأكثر تقليدية بين أعماله، أي «البلدة والمدينة» التي نشرت عام ١٩٥٠.

في ١٩٤٩ قام بأولى رحلاته الشهيرة مع نيل كاسَدي وزوجته السابقة لوان من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي، والتي شكّلت مادة أشهر أعماله «على الطريق».

في ١٩٥٠ تزوج كرواك جوان هارتلي التي جاءت له بطفلته الأولى، وفي ١٩٥١ طلقا، وفي السنة نفسها كتب المسودة الأولى لـ«على الطريق»، لينخرط بعدها بموجة من الإنتاج الغزير الذي اشتهر به والقائم

كله على سيرته الذاتية وسير أصحابه وعائلته. فبدأ يعمل في آن على كتابيه «رؤى كودي» و«دكتور ساكس»، من دون أن يتوقف عن رحلاته لزيارة كاسَدي في سان فرانسيسكو، وبوروز في مكسيكو سيتي. وفي ١٩٥٣ كتب «ماغي كاسَدي» حول فتاة تدعى ماري كارني شكّلت حب مراهقته، وكتب كذلك «السفليون»، علماً أنه لم ينشر في تلك الفترة أي من هذه الأعمال.

خلال السنوات القليلة اللاحقة واظب كرواك على السفر عبر أميركا، زائراً أصدقاءه كاسَدي وغنسبرغ وبوروز في أمكنة ومدن مختلفة ومتنقلاً لفترات قصيرة بين وظائف عدة. وفي ١٩٥٥ بدأت الفلسفة البوذية تثير اهتمامه حيث سافر عام ١٩٥٥ إلى المكسيك لكي يمارس التأمل. وهناك كتب مجموعته الشعرية «مكسيكو سيتي بلوز»، كما بدأ بكتابة رواية «تريستيزا» حول امرأة أحبها هناك. وفي مطلع العام ١٩٥٦ بدأ العمل على مشاريع روائية أخرى تضمنت «رؤى جيرار» حول موت أخيه، و«سيناريو الأبدية الذهبية» و«منتصف ليل الملاك القديم».

أخيراً، وبعد سنوات من المراجعة والتأجيل نشرت «على الطريق» عام ١٩٥٧ وبدأ جاك يتذوق طعم الشهرة مع النجاح الساحق الذي حققه الكتاب، علماً أن غنسبرغ وبوروز سبقاه إلى الشهرة. وبعد زيارة قصيرة لهما في طنجة قام كرواك برحلة إلى لندن، ثم عاد إلى نيويورك، ليجد نفسه وقد أصبح ممثل «جيل البيت» في عيون المعجبين والنقاد معاً الذين كان لديهم موقف متشكك من كرواك وأصالته ككاتب.

خلال السنوات الأربع التالية انغمس كرواك بكتابة ما اعتبره الجزء الثاني من «على الطريق»، أي رواية «صعاليك الدارما» التي كان من شأنها أن تدخل البوذية كعنصر مؤثر في وعي كتاب وفناني تلك الحقبة، وفي الأثناء نشر المزيد من الأعمال، بما فيها «السفليون» و«دكتور

ساكس» و«مكسيكو سيتي بلوز» و«تريستيزا»، وبدأ يكتب المقالات لمجلات معروفة مثل «بلايبوي» و«سوانك» و«إسكواير» و«هوليداي».

على الرغم من توق كرواك السابق إليها فإن سنوات الشهرة التي عرفها لم تكن سعيدة بالنسبة إليه، فازداد إدمانه على الكحول، كما عانى من استخفاف معظم النقاد في أميركا بكتبه وبأسلوب الكتابة التلقائية الذي ابتدعه. وفي ١٩٦١ انتقل إلى مدينة «بيغ سور»، كاليفورنيا، حيث كتب روايته الأخيرة «بيغ سور».

عاش كرواك خلال سنواته الأخيرة مع أمه، وفي ١٩٦٦ تزوج من صديقة طفولته ستيلا سامباس، وانتقل معها ومع أمه إلى مدينة سانت بطرسبورغ. وفي ٢٠ أكتوبر ١٩٦٩ توفي كرواك نتيجة نزف داخلي بسبب الكحول. أما صديقه وبطل العديد من أعماله نيل كاسَدي فقد عثر عليه ميتاً، قبلها بعام تقريباً، على طريق مهجورة في المكسيك، خلال انتقاله من بلدة إلى أخرى، وكان سبب الوفاة الإفراط في الكحول والمخدرات أيضاً.

الجزء الأول

ـ ١ ـ

التقيت دين للمرة الأولى بعد فترة وجيزة من انفصالي عن زوجتي. كنتُ شفيتُ تواً من مرض عضال لا أتحرّج عن ذكره، لولا أنه يثير في نفسي ذكرى ذلك الانفصال المقيت وإحساسي بالموت غامراً كل شيء. وقد بدأ، بلقائي دين موريارتي، ذلك الفصل من حياتي الذي تُمكن تسميته «حياتي على الطريق»، بعد أن خططت سابقاً مرات ومرات للقيام برحلة من الشرق حيث أعيش، إلى الغرب[1] حيث ذلك الجانب المجهول بالنسبة إلي من البلاد، لكنني توانيت مراراً عن وضع خططي تلك حيز التنفيذ.

ولن تجد أفضل من دين رفيقاً للطريق، فهو ولد عملياً عليها، حين كان والداه مارين، بسيارتهما العتيقة، بسالت لايك سيتي في ١٩٢٦، في طريقهما إلى لوس أنجيليس. وقد سمعت به أول مرة عن طريق تشاد

(١) اكتفينا باستعمال كلمتي «الشرق» (The East) و«الغرب» (The West) لأن تعبيري «الساحل الشرقي» و«الساحل الغربي» اللذين يستعملا أحياناً بالعربية للتمييز عن ثنائية «الغرب والشرق» الشائعة، غير دقيقين تماماً، كما أن الكلمتين تردان كثيراً في الرواية، فكان من الأكثر سلاسة الاكتفاء بهاتين الكلمتين. تجدر الإشارة أيضاً إلى أنه، تسهيلاً للقراءة، وبسبب كثرة ورودها، تم وضع أسماء الأمكنة أو المعالم الجغرافية أو الشوارع أو الأمكنة غير المألوفة بالنسبة إلى القارئ العربي بالخط المائل، في حين بقيت الأسماء المعروفة بالخط العادي. وقد آثرنا وضع الأسماء بحسب طريقة لفظها أو ورودها في الرواية، فاخترنا مثلاً «لاريمير ستريت» وليس «شارع لاريمير» أو «نورث داكوتا» وليس «داكوتا الشمالية».. الخ.

كنغ، الذي أطلعني على بضع رسائل منه كتبها له أثناء فترة محكوميته في إصلاحية نيومكسيكو. وقد أثارت الرسائل اهتمامي، خصوصاً وأن دين يطالب فيها تشاد، بسذاجة وعذوبة بالغتين، أن يعلّمه كل شيء حول نيتشه والروعات الثقافية الأخرى. وفي وقت ما تكلمت وكارلو عن هذه الرسائل وتساءلنا ما إذا كنا سنلتقي يوماً ذلك الشاب الغريب دين موريارتي. يرجع ذلك كله إلى زمن بعيد، حين كان دين شخصاً مختلفاً عما هو عليه اليوم، أي حين كان خريج سجون يكتنفه الغموض. ثم علمنا بإطلاق سراحه من الإصلاحية وبأنه آت إلى نيويورك للمرة الأولى، كما قيل إنه اقترن أخيراً بفتاة تدعى ماري لو.

وذات يوم كنت أتسكّع في الحرم الجامعي فأخبرني تشاد وتيم غراي بأن دين ينزل حالياً في شقة مفروشة بائسة في إيست هارلم، الحي الإسباني فيها. وكان وصل إلى نيويورك قبل ليلة، وجال فيها للمرة الأولى، بصحبة حلوته الصغيرة الفظة ماري لو، بعد أن ترجلا من حافلة «غرايهاوند»[1] في فيفتيث ستريت، ودخلا إلى «كافيتيريا هكتور» حيث تناولا الكعك بالبوظة والكريما، ومنذ ذلك اليوم أصبحت هذه الكافيتيريا تمثّل بالنسبة إليه رمزاً كبيراً لمدينة نيويورك.

كان طوال الوقت يخاطب ماري لو بمثل هذا الكلام: «الآن، حبيبتي، ها نحن في نيويورك، ومع أنني لم أطلعك على كل ما كان يجول في خاطري حين عبرنا ميزوري وخصوصاً ونحن نمر بمحاذاة إصلاحية بونفل التي ذكّرتني بمشكلتي مع السجن، فمن الملحّ جداً الآن أن نؤجّل كل الأمور المتعلقة بمشاعرنا الشخصية ونباشر فوراً بوضع مشاريع محددة لحياتنا العملية...»، وهكذا دواليك على جاري أسلوبه بالتكلم في تلك المرحلة المبكرة من حياته.

---

(١) غرايهاوند Greyhound: شركة حافلات كبرى في أميركا.

زرت والأصحاب دين في غرفته الوضيعة تلك، وفتح لنا الباب لابساً الكلسون. كانت ماري لو تهم بالنهوض عن الكنبة، ويبدو أن دين أرسل شريكه في السكن إلى المطبخ، على الأرجح لإعداد القهوة، بينما يتفرّغ هو لشؤونه الغرامية مع ماري لو، ذلك أن الجنس، بالنسبة إليه، هو أهم ما في الحياة وأقدسه، وإن كان يكدّ ويكدح ليكسب رزق كل يوم بيومه. ترى ذلك من طريقة وقوفه، مطرقاً وهازاً رأسه كملاكم غرّ ينصت إلى تعليمات مدربه، موحياً لك أنه يصغي باهتمام تام إلى كل كلمة تقولها، متلفظاً بألف «بلى» و«صحيح». كان انطباعي الأول عنه أنه يشبه جين أوتري[(١)] في شبابه ـ متأنق، ضيق الخصر، أزرق العينين، وله لكنة ابن أوكلاهوما أصلي ـ بطل طويل السالفين من مزارع الغرب المثلج. وفي الواقع كان دين قد عمل فعلاً مزارعاً لدى إد وال في كولورادو، قبل اقترانه بماري لو وقدومه إلى الشرق. أما ماري لو، وهي فتاة جميلة ينعقد شعرها الأشقر الكث في خصلات ذهبية، فاكتفت بالقعود على طرف الكنبة، ملقية يديها في حجرها، شاخصة بعينيها الريفيتين الزرقاوين نحو الفراغ، لأنها تجد نفسها الآن في هذه المدينة الرمادية الشريرة التي سمعت عنها في الغرب، وتجلس منتظرة في غرفة كئيبة كواحدة من نساء موديلياني السرياليات الطويلات الهزيلات. وإذا ما وضعنا حُسنها جانباً، فقد كانت شديدة الفظاظة وقادرة على ارتكاب أشنع الأفعال. تلك الليلة احتسينا جميعاً الجعة وتبارزنا بمصارعة الأيدي وثرثرنا حتى الفجر، وفي الصباح، بينما ندخن بصمت أعقاب السجائر التي رحنا نستعيدها من المرمدة، في الضوء الرمادي لذاك النهار الكئيب، وقف دين وراح يذرع أرض الغرفة متوتراً، ومتفكّراً، ثم قرّر أن ما ينبغي فعله الآن هو أن

---

(١) جين أوتري Gene Autry (١٩٠٧ ـ ١٩٩٨): مغن أميركي عرف بلقب «الكاوبوي المغني» في السينما وعبر برامج تلفزيونية.

تحضّر ماري لو الإفطار وتنظف الأرضية، «بمعنى آخر حبيبتي، علينا أن نكون فعّالين، وإلا، أؤكد لك، سيكون التذبذب والافتقار إلى المعرفة الحق وتشوّش خططنا».

ثم غادرتُ المكان.

بعدها بأيام طلب دين من تشاد كنغ أن يعلمه الكتابة، فنصحه الأخير بالتوجه إليّ على اعتبار أنني كاتب. وفي الأثناء حصل على وظيفة في كاراج، وتشاجر مع ماري لو في شقتهما في هوبوكن(١) ـ والله وحده يعلم ما الذي ساقهما إلى هناك ـ وكان حنقها عليه شديداً ورغبتها بالانتقام منه حادة إلى حدّ أنها لفقت ضده لدى الشرطة تهمة مجنونة، دفعته إلى الفرار من الشقة، وإذ لم يعد لديه من مكان يؤويه، اتجه إلى باترسون، نيوجيرزي، حيث أقيمُ مع عمتي. وذات ليلة بينما أدرس سمعت طرقاً على الباب، لأجد دين واقفاً أمامي في عتمة الصالون، مطأطئ الرأس، ذليلاً: «مرحباً، أتذكرني، أنا دين موريارتي؟ جئت إليك لكي تعلّمني الكتابة».

«وأين ماري لو؟»، فأجاب أنها «انتاكت» على الأرجح ببعض الدولارات وعادت إلى دنفر، «العاهرة»! وخرجنا لاحتساء الجعة إذ كان صعباً التحدّث بأريحية بوجود عمتي، التي كانت في الأثناء في غرفة المعيشة تطالع الصحيفة. كانت تكفيها نظرة واحدة إلى دين لتستنتج أنه مجنون.

في الحانة بادرته قائلاً: «سحقاً يا رجل، أعلم حق العلم أنك لم تأت إليّ فقط لكي تصير كاتباً، وفي نهاية الأمر ما الذي أعرفه عن

---

(١) هوبوكن Hoboken: مدينة صغيرة تقع إلى شمال شرق نيوجيرزي، على ضفاف نهر هادسن، قبالة نيويورك.

الكتابة سوى أنه عليك أن تنكب عليها بهوس مدمن على البنزدرين[١]. فأجاب: «أجل، بكل تأكيد، أفهم قصدك تماماً وفي الواقع كل هذه الإشكالات خطرت ببالي، لكن ما أريده هو إدراك تلك العوامل التي ينبغي الاعتماد عليها لفهم ثنائية شوبنهاور للوصول إلى حالة من. . .»، وترهات أخرى كهذه لم أستوعب منها شيئاً، ولا هو كان مستوعباً شيئاً منها. ففي تلك الأيام كان فعلاً لا يدرك ما يقوله، كان خريج سجون مستلباً بالاحتمالات الرائعة في أن يصبح مثقفاً حقيقياً، ويحب التحدّث بنبرة مثقف واستعمال كلمات المثقفين، لكن بتلك الطريقة المشوشة، التي سمع «مثقفين حقيقيين» يتحدثون بها، وينبغي القول مع ذلك إنه لم يكن بالشخص الذي يستهان به في ما عدا ذلك من الأمور، وقد احتاج إلى أشهر قليلة بصحبة كارلو ماركس ليصبح كلياً «هناك»، في ميدان الثقافة، متسلحاً بكل التعبيرات والمصطلحات. وقد تفاهمنا على مستويات أخرى من الجنون، ووافقتُ على أن يمكث عندي إلى أن يجد عملاً، والأهم من ذلك كله أننا اتفقنا على السفر معاً يوماً ما إلى الغرب. كان ذلك في شتاء ١٩٤٧.

ذات ليلة بعد أن تناول العشاء في منزلي ـ كان بدأ بعمله في الكاراج في نيويورك ـ مال عليّ وأنا أكتب على آلتي الكاتبة بسرعة كعادتي: «هيا يا رجل، تينك البنتان لن تنتظرانا إلى الأبد. . عجّل. .».

«لحظة واحدة وأكون معك. . عليّ أن أنهي هذا الفصل»، وكان أحد أفضل فصول الكتاب. ثم ارتديت ملابسي وانطلقنا إلى نيويورك للقاء الفتاتين. في الحافلة، وفي قلب الفراغ الفوسفوري الغريب في «النكلن

(١) البنزدرين Benzedrine: نوع من المخدرات، في الأصل عقار طبي مخدر، اشتهر عدد من كتاب جيل البيت ولا سيما كرواك وبوروز وغنسبرغ، بتناوله نظراً لتوافره النسبي.

تانل»، تحادثنا بحماسة، زاعقين ومائلين على بعضنا ومؤشرين بأيدينا، وكانت تلك بداية إصابتي بعدوى دين الذي كان، ببساطة، يضجّ بالحياة، ومع أنه كان خريج سجون، غير أنه لم يمارس الإجرام إلا لأنه إلى هذا الحدّ أراد أن يعيش وأن يكون مع أشخاص ما كانوا ليلتفتوا إليه لولا هذا الجانب منه. كان يحتال عليّ (للحصول على الغرفة والطعام و«كيفية الكتابة». . الخ)، وكنت أعرف ذلك، وكان يعرف أنني أعرف (فهذا أساس علاقتنا)، لكنني لم أمانع وانسجمنا معاً بلا نكد ولا تفضّل لأحدنا على الآخر. كنا معاً كصديقين جديدين مستوحشين، وكنت أتعلّم منه بقدر ما يتعلم مني على الأرجح، وبشأن كتابتي كان يقول: «تابع، تابع، كل ما تفعله عظيم»، ملتصقاً بي بينما أكتب، صارخاً «أيوه. . هذا صحيح! يا للروعة! يا رجل!»، ثم «فيو»، يمخّط، ويمسح أنفه بمنديل ورقي: «يا عين، روعة، ثمة الكثير من الأشياء لفعلها! الكثير لكتابته! كيف نبدأ بكتابة كل هذا من دون قيود ولا نواهٍ أدبية ولا هواجس إملائية. . . ».

«أصبت يا رجل، الآن بدأ وقت الجد». وأرى في عينيه ذلك الإشعاع المقدّس المنبعث من صلب توقه ورؤياه، التي راح يصفها بحماسة كانت تدفع ركاب الحافلات التي استقلّلناها إلى الالتفات لكي يروا «ذلك المخبول الهائج». في مدينته أمضى دين ثلث حياته في قاعات البلياردو، والثلث الثاني في السجن، والثالث في المكتبة العامة، وغالباً ما شوهد وهو يحث الخطى مسرعاً في الشوارع الماطرة، حاسر الرأس، متأبطاً الكتب إلى قاعة البلياردو، أو متسلقاً الأشجار للوصول إلى علّيات بيوت أصحابه حيث يمكث أياماً قارئاً أو متوارياً عن الشرطة.

ذهبنا إلى نيويورك ـ نسيت من كان يفترض أن نلاقي هناك، الأرجح

فتاتان ملوّنتان[1] كان يفترض أن تلاقياه في مطعم ما ولم تأتيا. فمضينا إلى الكاراج حيث بدّل ملابسه وتأنق قليلاً قبالة مرآة مشروخة، ثم انطلقنا، وكانت تلك الليلة التي اكتشف فيها دين كارلو ماركس، وكان لقاؤهما حدثاً جللاً. شابان متّقدا الذكاء مثلهما، كان لا بدّ من أن تشتعل شرارة صداقتهما على الفور. النصاب العبقري دين موريارتي، والشاعر السوداوي كارلو ماركس، عينان ثاقبتان تحدقان في عينين ثاقبتين. ومنذ تلك اللحظة قلما رأيت دين، وحزّ ذلك في نفسي بعض الشيء، فقد اتحدت طاقته بطاقة كارلو فوراً، وشعرت أنني مغفل قياساً بهما، وغير قادر على مجاراتهما، وعندها بدأت تلك الدوامة المجنونة لما سيحدث مستقبلاً، والتي ستضع كل أصدقائي ومن تبقى من أسرتي في كتلة غبار ضخمة تخيم كغيمة فوق الليل الأميركي. أخبره كارلو عن أولد بال لي، وإلمر هاسل، وجاين: بال في تكساس يزرع الماريغوانا، هاسل في جزيرة ريكر، وجاين تجول تايمز سكواير في هلوسات بنزدرينية، حاملة طفلتها قبل أن ينتهي بها الأمر في مدينة بلفو. ودين بدوره حكى لكارلو عن أشخاص مجهولين في الغرب من أمثال تومي سنارك، ملك البلياردو وقديس اللواط، وروي جونسون، وبيغ إد دانكل، وعن أتراب صباه، ورفقة الشوارع، وعن صاحباته الكثيرات وحفلات الدعارة والصور البورنوغرافية، وعن أبطاله وبطلاته ومغامراته. اجتاحا الشوارع معاً، مستكشفين كل شيء بنهم، في تلك الفترة الأولى قبل أن تصبح الأمور أكثر حزناً وحدّة وفراغاً. لكن حينها رقصا في الشوارع كالمجانين، أما أنا فتبعتهما مثلما كنت طوال حياتي أتبع أولئك الذين يثيرون اهتمامي، لأن الأشخاص الوحيدين الحقيقيين بالنسبة إلي هم المجانين، مجانين

(١) الملون Colored: تعبير كان رائجاً في الولايات المتحدة الأميركية لوصف الشخص الأسود، وبات يعتبر اليوم عدائياً أو عنصرياً.

العيش والتكلم والسعي إلى الخلاص، المشتهون لكل شيء، الذين لا يسأمون أو يتفوهون بأشياء عادية، بل يشتعلون، ويشتعلون ويشتعلون كمفرقعات نارية مهيبة تتفجّر نجومها عنكبوتياً في كبد السماء وفي وسطها تفرقع الشعلة الزرقاء[١] وكل شيء يقول: «آآآه!» ماذا يُسمّى شبان كهؤلاء في ألمانيا غوته؟ انطلاقاً من توقه الشديد لتعلّم الكتابة مثل كارلو، راح دين ينقض عليه بروح محبة لا يملكها إلا خرّيج سجون: «والآن كارلو، دعني أتكلم - وإليك ما سأقوله...». ولم أرهما طوال أسبوعين، متّنا خلالهما أواصر علاقتهما عبر جرعات هائلة من الكلام وصلت النهار بالليل.

ثم جاء الربيع، موسم السفر الكبير، وراح كل من في المجموعة المشتتة يستعد للذهاب إلى هذا المكان أو ذاك، وكنت منشغلاً بروايتي، وحين وصلت إلى نصفها تقريباً، بعد القيام برحلة إلى الجنوب مع عمتي لزيارة أخي روكو، شرعت بالاستعداد للسفر إلى الغرب للمرة الأولى.

كان دين قد غادر. ودعته وكارلو في محطة «غرايهاوند» في ثيرتي فورث ستريت. وكان ثمة في الطابق الأعلى آلة تصوير فوري لقاء ربع دولار للصورة؛ نزع كارلو نظارته وبدا جدياً، وأدار دين رأسه جانبياً فبدا عليه الحياء، أما أنا فجلست مواجهاً الكاميرا مثل شاب إيطالي نموذجي في الثلاثين مستعد لقتل أي كان يذكر أمه بالشرّ. قصّ دين وكارلو الصورة بشفرة إلى نصفين واحتفظ كل منهما بنصف في محفظته. كان دين يرتدي بدلة نموذجية تظهره رجلاً محترماً من الغرب، وذلك من أجل رحلة العودة المهمة إلى دنفر، بعد أن أنهى أولى مغامراته

---

(١) كمفرقعات نارية: يستعمل كرواك تحديداً تعبير «شموع رومانية»، وهي نوع محدد من المفرقعات النارية القوية أنبوبية الشكل (ولهذا يمنع استعمالها في عدد من البلدان)، تتكون من طبقات من «النجوم» تنطلق دفعة واحدة عند إشعال المفرقعة.

النيويوركية. أقول «مغامرة» علماً أنه كدح فحسب ككلب في كاراج. وكان أروع عامل كاراج في العالم؛ يستطيع أن يركن السيارة عائداً بها إلى الوراء بسرعة أربعين ميلاً في الساعة ليحشرها في فسحة ضيقة، متوقفاً قبل لحظة من الارتطام بالجدار، ثم يخرج مسرعاً، ويعدو بين السيارات، قافزاً إلى سيارة أخرى، يدور بها بسرعة خمسين ميلاً بالساعة في مكان ضيق، ويركنها عائداً إلى الوراء، ثم يوقفها فجأة بالكابح اليدوي، بحيث تراها ترجرج وهو يخرج منها، ثم ينطلق مسرعاً إلى كشك التذاكر، كنجم سباقات سيارات، يناول زبوناً تذكرة، ويقفز إلى مقعده قبل أن يكون الرجل قد غادره تماماً، منسلاً حرفياً من تحته، وينطلق بها قبل أن يغلق الباب إلى الفسحة المتوافرة، يميلها، يقحمها، يفرمل، يخرج، يعدو مجدداً، يعمل على هذا النحو من دون توقف ثماني ساعات كل ليلة، خصوصاً في ساعات الزحمة المسائية وبعد عروض السينما، لابساً بنطالاً مشحماً وسترة مخططة بالفرو وحذاء رثاً. أما الآن فقد ابتاع من أجل رحلة العودة بدلة جديدة، زرقاء مقلمة بخطوط رصاصية، مع الصديري والمستلزمات الأخرى، بـ ١١ دولاراً من ثيرد أفينيو، ولم ينسَ الساعة وسلسلتها، وآلة كاتبة محمولة وعد نفسه بأن يستعملها في النزل في دنفر حالما يؤمّن عملاً هناك. تناولنا وجبة وداعية من الفاصولياء والمقانق في «مطعم ريكر» في سفنث أفينيو، ثم استقل دين الحافلة إلى شيكاغو واختفى في الليل. ها قد مضى صديقنا المشاكس، ووعدت نفسي بأن أسلك الدرب نفسها حين يزهر الربيع حقاً وتتفتح الأرض.

وهكذا بدأت تجربتي مع الطريق، والأمور التي حدثت كانت أروع من ألا تحكى.

أجل، ولا يتعلق الأمر فقط بحاجتي، ككاتب، إلى تجارب جديدة،

وبرغبتي بالتعرف أكثر إلى دين، وبحقيقة أن حياتي متسكعاً في حرم الجامعة فقدت جدواها(١)، لكن بحقيقة أن دين ذكّرني، رغم اختلاف شخصيتينا، بأخ كنت فقدته منذ زمن بعيد، فحين رأيت وجنتيه الناتئتين وسالفيه الطويلين وعنقه الثخينة المتعرقة تجسّدت أمامي من جديد أيام الصبا في برك ضواحي باترسون والبسّايك القذرة. تلك الكسوة القذرة كانت تلتصق بجسده بروعة فائقة، كما لو أنه لا يمكنك تفصيل بدلة أفضل منها عند أي خياط، بل تتوافر فحسب عند **الخياط الطبيعي للفرح الطبيعي**، بحسب تعبير دين. وبعثت حماسته الكلامية في أذني مجدداً أصوات أترابي ورفاقي القدامى تحت الجسر، بين الدراجات النارية، على امتداد الحي المكتظ بحبال الغسيل والعتبات الناعسة في فترات بعد الظهر حيث الأولاد يعزفون على الغيتارات بينما يعمل أشقاؤهم الأكبر في المطاحن. كان جميع أصدقائي الحاليين الآخرين من «المثقفين» - تشاد النيتشوي الأنثروبولوجي، كارلو ماركس ذو النبرة الجدية الهامسة والحديث السريالي المشوش، أولد بال لي وتشدقاته النقدية ضد كل شيء - أو أنهم كانوا مجرمين فاشلين من أمثال إلمر هاسل، ذي النبرة الخفيضة الساخرة، وجاين الممددة على غطاء كنبتها الشرقي، متحدثة بازدراء عن «ذي نيويوركر». أما ثقافة دين فلم تكن تقل منطقية، وكانت لماعة وكاملة مثلهم، من دون تلك الثقافوية السقيمة. ولم تكن إجراميته من النوع الذي ينم عن نقمة أو ازدراء، إنما هي تسليم جامح ومطلق

---

(١) يذكّر هذا المقطع، ومثله المقطع الأول من «على الطريق»، ببداية رواية هرمان ملفل «موبي ديك» التي على الأرجح أن يكون كرواك تأثر بها، مثل تأثره برواية دون كيشوت.. يكتب ملفل في مطلع «موبي ديك»: قبل بضع سنوات (...) كنت (...) خالي الوفاض من الدراهم أو كالخالي، ولم يعد على البرّ شيء يبعث المتعة في نفسي، فخطر لي أنني قد أقضي بعض الوقت مبحراً، وأرى الجزء المائي من العالم» (ترجمة إحسان عباس، «دار المدى»، ١٩٩٨).

بالفرح الأميركي؛ كانت منتمية إلى عالم الوسترن، إلى رياح الغرب، قصيدة إنشادية من البقاع، نبوءة تنتمي إلى زمن سحيق، واحتاجت إلى وقت طويل حتى تصل (كان يسرق السيارات فقط لمتعة قيادتها). إلى جانب ذلك كان كل أصدقائي في نيويورك غارقين في مزاج سلبي كابوسي، يحتقرون المجتمع وفقاً لحججهم الكتبية أو السياسية أو التحليل ـ نفسية المستهلكة، لكن دين كان يعدو في المجتمع فحسب، تواقاً إلى الخبز والحب، غير مكترث بما يحدث «ما دمت أحظى بتلك الفتاة المغناج الصغيرة وذاك الشيء الصغير بين رجليها»، و«ما دمنا نأكل، يا بني، أتسمعني؟ إنني جائع، إنني أتضور جوعاً، فلنأكل فوراً»!، وننطلق مسرعين لنأكل، لم لا ما دام، مثلما جاء في الكتاب المقدس «هذا نصيبك من الحياة».

أحد أنساب الشمس من الغرب، دين هذا. ومع أن عمتي حذرتني من أنه قد يوقعني في المشكلات، فقد سمعت من خلاله دعوة جديدة، ورأيت أفقاً جديداً، وصدقته في سني تلك؛ بالطبع حدثت بعض المشكلات من قبيل ابتعاد دين التدريجي عني كصديق حميم في البداية، أو خذلانه لي لاحقاً، حيث تركني أتضور جوعاً على الأرصفة وسرير المرض، لكن ما الذي يهم؟ كنت كاتباً شاباً متلهفاً للحياة.

في مكان ما على الطريق كنت أعرف أنه سيكون هناك فتيات، ورؤى، وكل شيء؛ في مكان ما على الطريق سأعثر على اللؤلؤة النادرة.

ـ ٢ ـ

في يوليو ١٩٤٧، بعد أن ادّخرت نحو خمسين دولاراً من تعويض الخدمة العسكرية للمحاربين السابقين، بتّ مستعداً لرحلتي إلى الغرب. كان صديقي ريمي بونكور قد راسلني من سان فرانسيسكو داعياً إياي

للعمل معه على متن باخرة شحن ستطوف العالم، وأقسم لي أنه يستطيع أن يؤمّن لي عملاً في غرفة المحركات. فأجبته بأنني مستعد للعمل على متن أي سفينة قديمة ما دامت تؤمن لي عبور المحيط الهادئ بضع مرات، والعودة بما يكفي من المال لكي أعيل نفسي في منزل عمتي، والتفرّغ لإنهاء كتابي. وأخبرني بأن الكوخ الذي يعيش فيه في ميل سيتي سيتيحُ لي مثل هذا التفرغ، ريثما نؤمن عملاً في السفينة. كان يساكن فتاة تدعى لي آن، وصفها لي بالطباخة الممتازة، مؤكداً أن كل شيء سيكون على خير ما يرام. ريمي هذا كان صديقاً قديماً من المدرسة التحضيرية قبل الجامعة، فرنسي نشأ في باريس ومجنون حقاً، وإن لم أكن قد أدركت بعدُ مدى جنونه. إذاً، راح ريمي يتوقع وصولي في غضون عشرة أيام، وقد شجّعتني عمتي على القيام برحلتي تلك، معتبرة أنها ستكون مفيدة لي بعد أن كدحت طوال الشتاء وقبعت في المنزل أكثر مما ينبغي، حتى إنها لم تتذمر حين أخبرتها أنني قد ألجأ إلى السفر استوقافاً[1] بعض الشيء. وكان كل ما طلبته مني أن أعود إليها سالماً. وهكذا، ذات صباح، تاركاً مسودة نصف كتابي الضخم على النضد، ومرتباً سريري للمرة الأخيرة، غادرت حاملاً حقيبتي الصوف التي وضبت فيها بضعة أشياء ضرورية، وانطلقت إلى المحيط الهادئ وفي جيبي خمسون دولاراً.

قبل ذلك، عكفت لأشهر على قراءة خرائط الولايات المتحدة الأميركية، بل وقرأت كتباً عن الرواد الأوائل واستملحت أسماء مثل

(١) السفر استوقافاً Hitchicking: لجأنا إلى هذا التعبير وفي بعض الأحيان، وحيث يكون ذلك مناسباً، استعملنا للدلالة على التعبير نفسه «توصيلة مجانية» أو «السفر بالمجان» بدلاً من «السفر تطفلاً» الرائجة في بعض الترجمات العربية. زمن كتابة «على الطريق» كان السفر استوقافاً شائعاً في أميركا، لكنه لم يعد قائماً اليوم، بسبب الخوف من الجرائم بصورة خاصة.

نهري بلات وسيمرون وما إلى ذلك، وعلى خارطة الطرق كان ثمة خط أحمر طويل يدعى المسار ٦، يمتد من قمة جبل كايب كود مباشرة إلى مدينة إلي في نيڤادا، ثم ينحدر إلى لوس أنجيليس. فكرت أنه ليس عليّ سوى التزام هذا المسار حتى إلي، ومضيت بكل ثقة، مدركاً أنه سيكون عليّ، حتى أبلغ هذا المسار، أن أصعد أولاً إلى بير ماونتن. كان رأسي يصطخب بالأحلام عما سأفعله في شيكاغو، وفي دنڤر، ثم أخيراً في سان فرانسيسكو، ركبت قطار أنفاق سفنث أفنيو حتى نهاية الخط عند تونتي فورث سكند ستريت، ومن هناك ركبت الأوتوبيس الكهربائي إلى مدينة يونكرز، حيث ركبت أوتوبيساً كهربائياً آخر إلى طرف المدينة عند الضفة الشرقية من نهر هادسون، ذلك النهر الذي إذا ما رميت وردة عند منبعه الغامض في أديرونداكس، ففكّر فقط في كل الأمكنة التي ستعبرها قبل أن تبلغ البحر أخيراً، فكر في هادسن فالي الرائع ذاك. بدأت الاعتماد على التوصيلات المجانية، وأوصلتني خمس سيارات مختلفة إلى بير ماونتن بريدج الجميل، حيث يتجه المسار ٦ إلى نيو إنغلاند. وبدأت تمطر بغزارة لحظة وصولي إلى هناك. يمتد المسار ٦ فوق النهر، ويلتف دائرياً قبل أن يختفي داخل الأحراج. هناك، لم يتوقف الأمر عند عدم عثوري على أي سيارة تقلّني، بل لم أجد مكاناً أحتمي به من المطر أيضاً، فاضطررت إلى الركض تحت أشجار الصنوبر، ولم يفدني ذلك بشيء، فرحت أصرخ وألعن وأشتم نفسي وألطم رأسي بعد أن أدركت فداحة خطأي. كنت على بعد أربعين ميلاً إلى شمال نيويورك، متوجساً طوال الطريق صعوداً من أنني، في يوم سفري الأول هذا، أنتقل شمالاً لا غرباً، وها قد وجدتني عالقاً حقاً في محنتي الشمالية هذه. عدوت قرابة ربع ميل إلى محطة وقود مهجورة شيدت على الطرز الإنكليزي الجميل ووقفت تحت إفريز يرشح ماء، بينما الرعد الجبار الهابط من

ذرى بير ماونتن العظيم يبث الرعب في قلبي. وكل ما استطعت رؤيته الأشجار المغلفة بالضباب والبراري اللامتناهية المتطاولة إلى السماء. «ما الذي أفعله هنا بحق الرب؟»، رحت أصبّ اللعنات، تواقاً إلى شيكاغو: «حتى في مثل هذا الوقت المتأخر، ها هم هناك يمضون أحلى الأوقات وأنا عالق هنا، متى سأصل إلى هناك؟»، وهكذا دواليك. أخيراً توقفت سيارة عند المحطة المهجورة، لأن سائقها والمرأتين المرافقتين له أرادوا التأكد من الخارطة. لوحت لهم في المطر؛ تشاوروا؛ ولا بدّ أنني بدوت لهم شخصاً ممسوساً، بشعري المبلل، وحذائي المبلول الذي كان لشدة غبائي، مجرد صندل مكسيكي لا يلائم ليل أميركا الماطر وطرقاته الوعرة. ومع ذلك سمحوا لي بالركوب معهم وأوصلوني شمالاً إلى نيوبرغ، التي قبلت بها كبديل من البقاء عالقاً طوال الليل في تلك البراري. «بالإضافة إلى ذلك»، قال لي السائق «ليس هناك من منفذ من هنا إلى المسار ٦، إذا ما أردت الذهاب إلى شيكاغو فعليك بعبور هولند تانل في نيويورك ومن هناك إلى بتسبرغ»، وكنت أعلم أنه محق. كان حلمي ذاك هو الذي جعلني أخفق، تلك الفكرة الحميمة الرائعة بأن أعبر أميركا على خط أحمر طويل، بدلاً من تجربة شبكات طرق متعددة.

كان قد توقف المطر حين وصلنا إلى نيوبرغ. انحدرت سيراً إلى النهر، واضطررت إلى أن أستقل مجدداً الحافلة إلى نيويورك، مع بعثة من المدرّسين العائدين من عطلة نهاية أسبوع أمضوها في الجبال، وكانوا يثرثرون ويهذرون بمرح، أما أنا فرحتُ ألعن حظي على وقتي ومالي المهدورَين هباء، لقد أردت الذهاب غرباً، وبدلاً من ذلك وجدتني أصعد وأهبط، ليلاً ونهاراً، شمالاً وجنوباً، كشيء يأبى أن يبدأ. وأقسمت أن أصل إلى شيكاغو غداً، وحسمت الأمر بأن ركبت الحافلة، منفقاً معظم مالي، ولم أكترث البتة، ما دمت سأكون غداً في شيكاغو.

- ٣ -

كانت رحلة اعتيادية بالحافلة: أطفال يبكون، وشمس حارة، ومزارعون يصعدون من بلدات بنسلفانيا المتتالية، حتى وصلنا إلى سهل أوهايو حيث انطلقت الحافلة بلا توقف، صعوداً مروراً بأشتابيولا، ومباشرة عبر إنديانا ليلاً. وصلت إلى تشي عند الضحى، وحصلت على غرفة في «الواي»[1]، ونمت وفي جيبي القليل جداً من الدولارات، ثم جلت في شيكاغو بعد قسط وافر من النوم النهاري.

كان المكان مليئاً بالرياح الآتية من لايك متشيغان، وبصدح إيقاعات «الجاز»[2]، وقمت بجولة طويلة في ساوث هالستد ونورث كلارك، وبنزهة بعد منتصف الليل في الأدغال، حيث تبعتني دورية شرطة يبدو أنها اشتبهت بأمري. في تلك الفترة، ١٩٤٧، كانت «الجاز» منتشرة بجنون في أميركا. كان الرفاق «ينفخون» موسيقاهم في اللوب[3] لكن بشيء من التذبذب، لأن «الجاز» كانت تعيش مرحلة من الحيرة والبحث، بين «أورنيثولوجية» تشارلي باركر، ومرحلة أخرى بدأها مايلز دايفز. وبينما جلست هناك مستمعاً إلى صوت الليل ذاك الذي صارت «الجاز» تمثله

---

(١) الواي Y: اختصار لـYoung Men's Christian Association (جمعية الشبان المسيحيين).

(٢) الجاز Jazz: التعبير المستعمل في الرواية هو «بوب» Bop وليس «جاز». و«بوب» أو «بيبوب» هو شكل من أشكال موسيقى الجاز تم تطويره، على يد تشارلي باركر ودزي جليبزي بشكل أساسي، خلال العقد الرابع من القرن الفائت، ويمتاز بإيقاعاته السريعة وبكثرة الارتجال فيه. آثرنا استعمال تعبير «جاز» تجنباً للالتباس بين «البوب» الذي يتحدث عنه كرواك أي الجاز الإيقاعي السريع، وموسيقى «البوب» Pop التي ظهرت في أميركا وإنكلترا في وقت لاحق، أو عن ما يعرف باسم «فن البوب» في مختلف المجالات وخصوصاً الفن التشكيلي.

(٣) اللوب Loop: حي دائري الشكل في قلب شيكاغو يحيط به خط سكك الحديد عرف في فترة الأربعينات من القرن العشرين بانتشار النوادي الليلية التي يعزف فيها الجاز الجديد، «البيبوب»، الذي يتحدث عنه كرواك.

بالنسبة إلينا جميعاً، تذكرت أصدقائي من أقصى البلاد إلى أقصاها، وكيف أنهم يمضون الآن أحلى الأوقات في فناء خلفي فسيح. وللمرة الأولى في حياتي، عصر اليوم التالي، وجدتني متجهاً بالفعل إلى الغرب. ومع أنه كان يوماً دافئاً وممتازاً للحصول على توصيلات مجانية، فقد آثرت، تفادياً لزحمة شيكاغو، ركوب حافلة إلى جولت،إلنوي، التي مررت بمنتزهها، ووقفت خارجها، بعد أن طفت في ضواحيها الرثة، وقرّرت وجهتي، وكان قد كلفني السفر على هذا النحو حتى الآن أكثر من نصف مالي.

أول توصيلة مجانية حظيت بها من هناك، ولنحو ثلاثين ميلاً عبر حقول إلنوي الشاسعة، كانت على متن شاحنة لنقل المتفجرات ترفرف عليها راية حمراء، دلني سائقها إلى النقطة التي يتقاطع فيها المسار ٦، الذي كنا نمر عليه، مع المسار ٦٦ قبل أن يندمجا معاً لمسافات مديدة باتجاه الغرب. نحو الثالثة عصراً، بعد أن تناولت فطيرة تفاح وآيس كريم في كشك على جانب الطريق، توقفت لي امرأة بسيارتها الكوبيه، وعدوت نحوها فرحاً، لأجد أنها أربعينية، في الواقع أم لأولاد في مثل سني، عرضت عليّ مساعدتها في القيادة إلى أيوا، فقبلت عرضها فوراً، معلّللاً النفس بأن أيوا لا تبعد كثيراً عن دنفر، التي ما إن أبلغها حتى أرتاح. تولت هي القيادة خلال الساعات القليلة الأولى، وفي مرحلة ما أصرّت على زيارة كنيسة قديمة في مكان ما، كما لو أننا سائحان، ثم توليتُ القيادة، ومع أنني لست بالسائق الماهر، فقد قدت المسافة المتبقية من إلنوي إلى دافنبورت في أيوا، عبر روك أيلند. وهناك للمرة الأولى في حياتي رأيت نهر ميسيسيبي الذي أعشقه، وكان جافاً وضحلاً كعادته صيفاً، وتنبعث منه تلك الرائحة الزنخة النفاذة التي تشبه جسد أميركا البكر نفسه، لأنه يغمره على أية حال. روك أيلند ـ خطوط سكك الحديد، الأكواخ، الوسط التجاري الصغير؛ ثم عبر الجسر إلى

دافنبورت، وهي مدينة شبيهة بروك أيلند، وتفوح منها كذلك رائحة النشارة، تحت شمس الغرب الأوسط اللاهبة. هناك، أرادت السيدة أن تنعطف باتجاه بلدتها في أيوا، فترجلت.

بدأت الشمس بالغياب. مشيت طويلاً، بعد تناول عدد من عبوات الجعة الباردة، إلى طرف البلدة. كان الجميع عائدين بسياراتهم إلى منازلهم، مرتدين خوذات عمال سكك الحديد، وقبعات البايزبول، وأشكالاً أخرى من القبعات، مشكّلين مشهد ما بعد الدوام نفسه الذي نراه في أي بلدة أميركية. أقلني أحدهم بسيارته إلى الرابية وأنزلني عند نهاية المرج، عند تقاطع طرق خال من المارة. وكان الجو رائعاً هناك. لم أر إلا بضعة مزارعين رمقوني بارتياب، وهم يمرون مقعقعين بشاحناتهم، وكانت الأبقار تأوي إلى حظائرها أيضاً. ثم خلت الطريق من الشاحنات، ولم يمرّ سوى بعض السيارات المسرعة. وفي لحظة ما مر فتى يطير وشاحه من سيارته العتيقة. اختفى آخر خيوط الشمس ووجدتني واقفاً في العتمة الأرجوانية، وبدأت أشعر بالخوف، لم يكن هناك أي ضوء في ريف أيوا، ولم تمر دقيقة حتى أصبح غير مرئي. أقلّني لحسن الحظ رجل عائد إلى دافنبورت، لكنني وجدت نفسي وقد عدت إلى نقطة الصفر مجدداً.

لبثت في محطة الحافلات متفكّراً في أمري، وتناولت فطيرة تفاح ثانية وآيس كريم، وكان هذا عملياً كل ما تناولته حتى الآن، وإن كنت أعرف أنه طعام مغذ وشهي. قررت أخيراً أن أجازف، فركبت حافلة من وسط دافنبورت، بعد أن أمضيت نصف ساعة متأملاً نادلة في مقهى موقف الحافلات، وترجلت عند طرف المدينة، لكن هذه المرة على مقربة من محطة وقود، حيث الشاحنات الضخمة تهدر مدوية بأبواقها، وفي غضون دقيقتين توقفت لي شاحنة، فهرعت إليها وقلبي يثب فرحاً، ويا له من سائق، ضخم الجثة جاحظ العينين أجش الصوت، ظل طوال

الوقت يخبط كل شيء حوله، بالكاد منتبهاً لوجودي، ما مكنني من الحصول على بعض الراحة، ذلك أن إحدى أكبر مشكلات التوصيلات المجانية هي اضطرارك إلى محادثة عدد لا يحصى من البشر، لكي لا تشعرهم بالندم على أنهم أقلوك معهم، وقد تضطر إلى الترفيه عنهم حتى، وهذا مجهد للغاية خصوصاً إذا كنت تمضي بلا توقف ولا تزمع النوم في الفنادق. كان السائق يخاطبني زاعقاً بسبب هدير شاحنته، وكان عليّ أن أخاطبه صراخاً أيضاً، ومضى بذلك الشيء إلى أيوا سيتي حاكياً لي في الأثناء أطرف القصص حول الطريقة التي يتحايل بها على القانون على طرق المدن التي تعيّن حدود سرعة غير عادلة، مردداً: «رجال الشرطة الملاعين أولئك لن يبعصوني!». وحين أشرفنا على أيوا رأى شاحنة أخرى وراءه، ولأنه كان مضطراً إلى أن يعود أدراجه عند أيوا سيتي، فقد غمز لزميله بمصابيح شاحنته وأبطأ سرعته، بحيث أتمكن من القفز، وهذا ما فعلته حاملاً الحقيبة، واتجهت إلى الشاحنة الأخرى، التي وافق سائقها على هذا التبادل، لأجد نفسي على أهبة الانطلاق مئات الأميال الإضافية في الليل، وكم كنت سعيداً! ولم يكن سائق هذه الشاحنة يقل جنوناً أو صراخاً عن سابقه، وكل ما كان علي فعله أن أتماشى معه، حتى رأيت أنوار دنفر تشعشع أمامي، تماماً كالأرض الموعودة، هناك تحت النجوم، عبر مروج أيوا وسهول نبراسكا، ورأيت سان فرانسيسكو العظيمة تتلألأ في العتمة كالجوهرة. قاد الرجل الشاحنة وروى القصص لنحو ساعتين، ثم في إحدى بلدات أيوا ـ حيث بعد ذلك بسنوات أوقفتنا الشرطة لشكها بأننا سرقنا سيارة كاديلاك ـ غفا بضع ساعات على مقعده. غفوت بدوري، ثم قمت بنزهة صغيرة في البلدة بمحاذاة الجدران القرميد المضاءة بمصباح واحد، وحيث كل شارع صغير ينتهي بمرج، وتنتشر رائحة الذرة كالندى الليلي.

استيقظ الرجل فجراً واستأنفنا المسير وبعد نحو ساعة لاح لنا دخان دي موين[١] وراء حقول الذرة الخضراء. أراد أن يتناول إفطاره وأن يمضي متخففاً، لذا اتجهت مباشرة إلى دي موين التي كانت تبعد نحو أربعة أميال بسيارة شابين من جامعة أيوا، واستغربت نفسي في سيارتهما الجديدة المريحة تلك، مستمعاً إلى حديثهما عن الامتحانات، بينما نقترب بسلاسة من المدينة. كنت بأمس الحاجة إلى النوم، فقصدت «الواي»، ولم أجد غرفة شاغرة، فاتجهت بالحدس إلى سكك الحديد، وما أكثرها في دي موين، وانتهى بي الطواف في نزل كئيب، حيث أمضيت النهار مضطجعاً على سرير كبير أبيض قاس ونظيف، قارئاً التعليقات الإباحية على الجدار إلى جواري، وناظراً من النافذة الصفراء الباهتة التي تطل على فناء سكة الحديد. استيقظت عند الغروب لأعيش أغرب لحظات حياتي، حيث عجزت عن التعرف إلى نفسي: كنت بعيداً جداً، منهكاً من السفر، غرفة بائسة، تخترق سمعي صفارات القطارات في الخارج، وصرير الخشب القديم، والخطوات الصاعدة إلى أعلى، وكل الأصوات البائسة الأخرى، ونظرت إلى السقف العالي المتصدع، ولم أعرف حقاً من أكون لنحو خمس عشرة ثانية غريبة تحولت خلالها إلى شخص آخر فحسب، إلى غريب ما، وبدت حياتي مسكونة بالجن، حياة شبح. كنت في وسط أميركا، عند الخط الفاصل بين شبابي في الشرق، ومستقبلي في الغرب، ولذلك ربما حدث ذلك هناك وفي ذلك الوقت بالتحديد، في ذلك الغروب الملغز.

كان عليّ أن أكفّ عن التذمر وأن أمضي قدماً، فحملت حقيبتي، وودعت مدير النزل العجوز القابع في مبصقته، وذهبت لآكل. تناولت

(١) دي موين De Moines: كبرى مدن ولاية أيوا وعاصمتها.

فطيرة تفاح وآيس كريم وانتبهت إلى أن مذاقهما يزداد تحسناً كلما دخلت أعمق في أيوا، حيث تصير الفطيرة أكبر والآيس كريم أدسم. أينما نظرت، ذاك العصر في دي موين، كنت أرى جحافل من الفتيات الجميلات العائدات من المدارس الثانوية، لكن لم يكن لدي وقت لمثل تلك التخيلات فرحت أعد نفسي بفتيات دنفر. كان الجميع هناك: كارلو ماركس ودين وتشاد كنغ وتيم غراي وماري لو، إضافة إلى زمرة كبيرة تضم راي راولينز وأخته الشقراء الرائعة بايب، ونادلتين يعرفهما دين، والأختين بتنكورت، وحتى رولاند مايجور، صديقي من الكلية، كانوا جميعاً هناك، وكنت أتطلع إلى لقائهم، لذا لم أكترث كثيراً لأمر أولئك الفتيات الحسناوات، وأجمل فتيات العالم تجدهن حقاً في دي موين.

أوصلني شاب يركب شيئاً أقرب إلى صندوق عدة على عجلات، لكثرة امتلاء شاحنته بالأدوات، ويقودها وقوفاً كبائع حليب حداثي، إلى أعلى الرابية، حيث حصلت فوراً على توصيلة من مزارع وابنه كانا في طريقهما إلى أديل في أيوا. في تلك البلدة، تحت شجرة دردار بجوار محطة وقود، تعرفت إلى شاب آخر يسافر مستوقفاً، نيويوركي نموذجي، إيرلندي الأصل عمل طوال حياته سائق عربة بريد، وكان متجهاً للقاء فتاة في دنفر قال إنه سيعيش معها مرحلة جديدة، وأظن أنه كان فاراً من شيء ما في نيويورك، من القانون على الأرجح. كان سكيراً حقيقياً، ثلاثينياً أحمر الأنف، وربما كان أضجرني في الأوقات العادية، غير أنني كنت بأمس الحاجة إلى أي نوع من التواصل الإنساني. كان يرتدي كنزة رثة وبنطالاً ولا يحمل حقيبة أو ما شابه، فقط فرشاة أسنان وبعض المناديل الورقية، واقترح أن نترافق، وكان الأجدر بي أن أرفض، لأن صحبته بدت مريعة، لكننا بقينا معاً وركبنا مع رجل صموت إلى ستيوارت، أيوا، وهناك علقنا حقاً. وقفنا أمام كشك بيع التذاكر في

المحطة، منتظرين وصول الحافلة المتجهة غرباً، حتى غربت الشمس، خمس ساعات كاملة بددناها بداية بالحديث عن نفسينا، ثم راح يسرد لي قصصاً خلاعية، ثم أخذنا نرشق الحصى، مصدرين مختلف الأصوات الخرقاء. ضجرنا، فقررت أن أنفق بعض الدولارات على الجعة، وذهبنا إلى حانة قديمة. هناك ثمل مثلما كان يفعل في أمسياته في ناينث أفينيو في نيويورك، وراح يصف لي، جذلاً وصارخاً في أذني مباشرة، كل أحلام حياته الخلاعية. بدأت أستملحه نوعاً ما، لا بسبب طيبته، التي اكتشفتها لاحقاً، بل بسبب شدة حماسته للأشياء. عدنا إلى الطريق وكانت ظلمة، وبالطبع لم تتوقف لنا أي من السيارات القليلة العابرة، وبقينا على تلك الحال حتى الثالثة فجراً. حاولنا نيل قسط من النوم على مقعد مكتب بيع التذاكر، لكن التلغراف ظل يتكتك طوال الليل، وكانت أصوات الشاحنات ترعد في الخارج ولم نعرف كيف نركب أي منها ولا إذا كانت متجهة شرقاً أم غرباً أو كيف نميّز ذلك، ولا أي سيارة صغيرة أو قاطرة أو شاحنة ثلاجة نختار، وما إلى ذلك. لذا حين وصلت الحافلة المتجهة إلى أوماها قبيل الفجر بقليل صعدنا إليها وانضممنا إلى الركاب النائمين، ودفعت رسم التذكرتين. كان اسمه إدي. ذكرني بشقيق زوجتي من برونكس، ولذلك ربما قبلت برفقته، كان الأمر أشبه بلقاء صديق قديم، ثم اكتشفت أنه رجل بشوش وطيب ويسهل التفاهم معه.

وصلنا فجراً إلى كاونسل بلافس. نظرت إلى الخارج. طوال الشتاء كنت أقرأ عن تلك الحشود الهائلة من العربات التي كانت تجتمع قديماً هناك قبل أن تتجه إلى أوريغون وسانتا فيه، وبطبيعة الحال كل هذا لم يعد موجوداً، وانتشرت في المكان أكواخ الضواحي البائسة، في الفجر الرمادي الكئيب. ثم وصلنا إلى أوماها، حيث كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها كاوبوي، وكان يمشي بمحاذاة المسلخ، معتمراً قبعته الواسعة ومنتعلاً حذاءي تكساس، ويبدو، لولا ثيابه، مثل أي

شخصية رثة نراها فجراً في الأحياء المنحطة في الشرق. ترجلنا من الحافلة واتجهنا مباشرة إلى الرابية، التي شكلها عبر آلاف السنين نهر ميزوري الجبار، الذي تقوم أوماها على ضفافه، وبدأنا نؤشر للسيارات، حتى حصلنا على توصيلة لمسافة قصيرة مع صاحب مزرعة ثري يعتمر قبعة كاوبوي، قال لنا إن وادي بلات يوازي وادي النيل عظمة، وكنت أنظر بعيداً إلى الأشجار الضخمة التي تتعرج على امتداد ضفة النهر المحاط بتلك الحقول الخضراء، وأحسست بأن الرجل محق. ثم وبينما كنا واقفين عند تقاطع طرق آخر، وكانت بدأت الغيوم بالاحتشاد، توقف كاوبوي آخر، طوله ستة أقدام ويعتمر قبعة كاوبوي صغيرة، ودعانا إلى الاقتراب، وسألنا إذا كان أحدنا يجيد القيادة. بالطبع إدي يجيد القيادة، وعلى عكسي يحمل رخصة. كان لدى الرجل سيارتان يريد الاتجاه بهما إلى مونتانا، حيث تنتظره زوجته في غراند أيلند، وطلب منا أن نقود إحداهما. في تلك المرحلة كان يتجه شمالاً، وهذه ستكون حدود رحلتنا معه. لكنها كانت مسافة مئة ميل داخل نبراسكا، وبالطبع وافقنا على العرض. قاد إدي السيارة، وتبعته بالأخرى مع الكاوبوي، وما إن أصبحنا خارج البلدة حتى تملكت إدي الحماسة فزاد سرعته إلى ٩٠ ميلاً في الساعة. «لعنة لعناء، ما الذي يفعله هذا الفتى!»، صرخ الكاوبوي، وانطلق مسرعاً وراءه. بدا الأمر سباقاً، واعتقدت لوهلة أن إدي يحاول الفرار بالسيارة، لكن حين اقترب منه الكاوبوي وأطلق بوقه، أبطأ إدي سرعته، وأشار له الكاوبوي أن يتوقف «اللعنة أيها الفتى، يمكن أن تفرغ عجلات السيارة من الهواء بمثل هذه السرعة. ألا يمكنك الإبطاء قليلاً»؟

«حسناً، اللعنة عليّ، أكنت حقاً أمضي بسرعة تسعين ميلاً؟ لم أنتبه لذلك بسبب سلاسة الطريق».

«فقط خفف من سرعتك وسنصل سالمين إلى غراند أيلند».

«بكل تأكيد». واستأنفنا المسير. خفف إدي سرعته بسبب نعاسه على

الأرجح، وهكذا اجتزنا نحو مئة ميل عبر نبراسكا، بمحاذاة وادي بلات المحتشد بالرياح والحقول الخضراء.

«خلال الكساد الكبير»[1]، قال الكاوبوي، «كنت أقوم بشحنة على الأقل مرة شهرياً. في تلك الأيام كنت ترى مئات الرجال في شاحنة مكشوفة أو ذات صندوق، ولم يكونوا متشردين فحسب، بل من كافة أنواع العاطلين عن العمل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن لقمة العيش، وبعضهم يرتحل فحسب. كانت الحال هكذا في الغرب كله. لم تكن القطارات تزعجنا في تلك الفترة. لا أعرف ما الذي يحدث اليوم. نبراسكا لا تعني لي شيئاً. في منتصف الثلاثينات لم يكن هذا المكان سوى كومة غبار هائلة. لم يكن يمكنك التنفس. كانت الأرض سوداء. كنت هنا في تلك الأيام. يمكنهم أن يعيدوا نبراسكا إلى الهنود ولن أكترث. أكره هذا المكان اللعين أكثر من أي مكان في العالم. مونتانا هي موطني الآن، ميسولا تحديداً. زرها ذات يوم وسترى بعينك أرض الرب»، في وقت ما عصراً غفوت بعد أن تعبَ من الكلام، مع أنه كان متحدثاً جذاباً.

توقفنا على الطريق لتناول وجبة سريعة. مضى الكاوبوي ليرقّع العجلة الإضافية، ودخلت وإدي إلى مطعم شبه منزلي، حيث فرقعت في أذني

(١) الكساد الكبير أو الإنهيار الكبير (Great Depression): أزمة اقتصادية شهدتها أمريكا في عام ١٩٢٩ أدت إلى توقف المعامل عن الإنتاج، ونتج عنها أن أصبحت عائلات بكاملها تنام في أكواخ من الكرتون وتبحث عن قوتها في مخازن الأوساخ والقمامة. وكانت أمريكا قد بدأت بازدهار اقتصادي في العشرينات ثم ركود ثم الإنهيار الكبير عام ١٩٢٩. أما السبب الرئيسي فهو انهيار وول ستريت، شارع المال والبورصة، بعد الركود الاقتصادي وتفوق العرض على الطلب. وأدى خبر الانهيار هذا إلى التهافت على بيع الأسهم حتى أصبح ١٣ مليون سهم على لائحة البيع لا قيمة لها. كما أن عشرات البنوك أعلنت إفلاسها وأغلقت مصانع أبوابها. ونتج عن ذلك ٣٠ مليون عاطل عن العمل.

ضحكة هائلة، أكبر ضحكة في العالم، سبقت صاحبها، وهو مزارع عجوز من نبراسكا، بالدخول، وكان معه بعض الشبان، أما حين تكلم فأقسم أنه كان يمكن سماع صوته عند الطرف الآخر من الحقول. شاركه الجميع الضحك. لم يكن يبالي البتة بالعالم وكان يعامل كل من حوله باحترام. قلت لنفسي عجباً اسمع كيف يضحك هذا الرجل. إنه الغرب، ها أنا في الغرب. بعد دخوله العاصف إلى المطعم نادى على ماو التي تحضّر، بحسب خبرتي، ألذ فطيرة كرز في نبراسكا، «ماو، أسعفيني ببعض الطعام قبل أن أبدأ بالتهام نفسي نيئاً أو شيئاً لعيناً من هذا القبيل». وارتمى على المقعد وهو يصرخ جذلاً «هيّيو هيّيو هيّيو»، «وأضيفي إليها بعض الفاصولياء». شعرت أنها روح الغرب جاثمة أمامي، وتمنيت لو أمكنني التعرف عن كثب إلى هذه الحياة الخام، وأن أعرف ما الذي بحق الرب كان يفعله هذا الرجل طوال السنوات الفائتة، عدا عن الضحك والصراخ على هذا النحو. «هيّيو»، صرخت في سريرتي، ثم عاد الكاوبوي، وانطلقنا إلى غراند أيلند.

وصلنا بسرعة البرق. ذهب الرجل ليحضر زوجته ويمضي إلى حياته الخاصة، واستأنفنا رحلتنا مع مراهقين ريفيين بسيارة قديمة، أنزلانا في مكان ما على الخط بينما تمطر مطراً خفيفاً. ثم ظهر رجل عجوز صموت، والله أعلم لماذا أقلنا، لكننا ذهبنا معه إلى شلتون. هناك وقف إدي مبتئساً قبالة جماعة من الهنود قصار القامة المقرفصين الذين لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه أو أي شيء يفعلونه. وقبالة الطريق كانت سكة الحديد وخزان مياه طبعت عليه كلمة شلتون. «اللعنة»، قال إدي بذهول، «لقد كنت هنا من قبل، كان ذلك قبل سنوات، خلال الحرب، ليلاً، في وقت متأخر من الليل، حين كان الجميع نائماً. خرجت إلى رصيف المحطة لأدخن ورأيتني في وسط المجهول، وكان الظلام

كالجحيم، ونظرت إلى أعلى فرأيت كلمة شلتون مكتوبة على خزان المياه. كنا متجهين إلى المحيط الهادئ، والجميع يشخر، كل لعين سافل أخرق، وبقينا بضع دقائق فقط، بينما يتزود القطار بالوقود، ثم انطلقنا. اللعنة، شلتون هذه! لقد كرهت هذا المكان مذ ذاك!». ووجدنا أنفسنا عالقين في شلتون، مثلما حدث معنا في دافنبورت، كانت كل العربات التي تمر زراعية، ومن حين لآخر تمر سيارة سائحة، وهذا أسوأ، يقودها عجائز بينما زوجاتهم يؤشرن إلى المناظر الطبيعية أو ينكببن على الخرائط، ناظرات بارتياب إلى كل شيء.

ازداد المطر وشعر إدي بالبرد، فأخرجت من حقيبتي كنزة صوف وناولته إياها. شعر ببعض التحسن. أصبتُ بالزكام، فاشتريت من متجر هندي رث دواء للسعال، ثم ذهبت إلى مكتب البريد الصغير وأرسلت بطاقة بريدية إلى عمتي. عدنا إلى الطريق الرمادية. هناك كانت أمامنا، شلتون، منقوشة على خزان مياه. لمحنا بشكل ضبابي وجوه مسافرين في حافلة، ومرّ القطار المتجه إلى روك أيلند هادراً. اشتد زخّ المطر. أوقف رجل طويل هزيل يعتمر قبعة كاوبوي سيارته في الجهة الخطأ من الطريق وتقدم نحونا، حسبنا أنه «الشريف»، وراح كل منا يحضّر في سرّه إجابات عن أسئلته الافتراضية. مشى صوبنا متمهلاً: «أنتما أيها الشابان أذاهبان إلى مكان محدد، أم ذاهبان فحسب؟»، لم نفهم سؤاله، وكان سؤالاً جيداً حقاً.

«لماذا؟».

«حسناً، أدير كرنفالاً صغيراً على بعد بضعة أميال وأبحث عن بعض الشبان الراغبين بالعمل. لدي لعبة «روليت» ولعبة «الخاتم الخشب»، تعرفانها، تلك اللعبة التي تصوبان فيها على الدمى، أترغبان بالعمل لدي، سأعطيكما ثلاثين بالمئة من الأرباح».

«أيشمل ذلك المنامة والطعام؟».

«المنامة بلى، لكن من دون الطعام. سيكون عليكما تناول الطعام في البلدة. نحن نتنقل بعض الشيء». فكرنا في العرض، «هذه فرصة جيدة»، قال، وانتظرنا بصبر ريثما نحسم أمرنا، لكننا شعرنا بالسخف ولم ندر ما نقول، فمن ناحيتي مثلاً لم أرد أن أعلق في كرنفال، يؤخرني عن دنفر.

قلت: «لا أدري، لا أظن أنني أملك الوقت»، وقال إدي الشيء نفسه، فلوح لنا العجوز بقبعته وعاد إلى سيارته. تضاحكنا لفترة حول الأمر ونحن نتخيل كيف كانت ستكون الحال لو أننا وافقنا. تخيلت ليالي معتمة ومغبرة في السهول، ووجوه العائلات النبراسكانية تمرّ من أمامي، وأطفالها الزهريون ينظرون إلى كل شيء باندهاش، وأنا واثق أنني كنت سأشعر بأنني الشيطان نفسه وأنا أغريهم للعب بتلك الألعاب الكرنفالية الرخيصة، بينما العجلة الهوائية تدور في العتمة، وبحق الرب العظيم، الموسيقى الحزينة تستمر بلا نهاية، وأنا نائم في عربة مذهبة على سرير من الخيش، متحرقاً للعودة إلى هدفي.

تبيّن أن إدي رفيق مسلٍّ على الطريق. مرت عربة يقودها عجوز، كانت غريبة الشكل ومضحكة، مصنوعة من الألمنيوم، ومربعة كصندوق، لا شك أنها قاطرة لكنها قاطرة عجيبة صنعت يدوياً. كان يمضي ببطء شديد وتوقف لنا. هرعنا لكي نصعد، لكنه قال إنه لا يستطيع أن يقل معه أكثر من شخص واحد، ومن دون أن ينطق بكلمة قفز إدي إلى العربة واختفى ببطء عن نظري لابساً كنزتي الصوف. ودّعت بأسف الكنزة التي كانت قيمتها عاطفية فحسب بالنسبة إلي. انتظرت ساعات عدة في شلتون، شاعراً بالعتمة المهيمنة، مع أن الوقت كان لا يزال عصراً. دنفر، دنفر، كيف أصل إلى دنفر؟ كنت على وشك

الاستسلام والذهاب إلى مقهى حين توقفت سيارة جديدة جميلة يقودها شاب. هرعت كالمجنون.

«إلى أين؟».

«دنڤر».

«حسناً يمكنني أن أقرّبك نحو مئة ميل».

«عظيم، عظيم، لقد أنقذت حياتي».

«في السابق، كنت أتنقل مثلك، لذلك دائماً أقل أحدهم معي».

«كنت لأفعل الشيء نفسه لو كنت أملك سيارة». وهكذا تحادثنا وراح يخبرني عن حياته، التي لم تكن مثيرة للاهتمام، وجعلت أنام وأصحو حتى وصلنا إلى حدود مدينة غوثنبرغ حيث أنزلني.

- ٤ -

ثم كانت الرحلة الأعظم في حياتي، شاحنة مفتوحة، انتشر على أرضيتها الخشب ستة أو سبعة أشخاص، أما السائقان فمزارعان أشقران من منيسوتا، كانا يقلان معهما كل من يصادفانه على تلك الطريق، أبهج شابين وأكثرهما بشاشة وبساطة قد يحلم المرء بلقائهما، يرتدي كل منهما كنزة قطنية وأوفرول فقط، وكلاهما مفتول العضلات ورزين يقابل بابتسامة ترحيب واسعة كل شخص أو شيء يصادفه. صعدت متسائلاً: «هل من متسع؟»، أجابا: «بكل تأكيد، اقفز، ثمة دائماً متسع للجميع».

لم أكن قعدت بعد حين انطلقا بالشاحنة، فترنحت وكدت أقع فأمسكني أحد الركاب، وناولني آخر زجاجة كحول رخيصة، فشربت جرعة كبيرة في هواء نبراسكا البري ذاك، ذلك الهواء الشعري المفعم بالرذاذ. «هيبو، ها نحن ننطلق!»، صرخ فتى يعتمر قبعة بايزبول، وانطلقت الشاحنة بسرعة سبعين ميلاً متجاوزة كل العربات الأخرى على

الطريق. «إننا نركب هذه السافلة منذ دي موين. هذان الشابان لا يتوقفان أبداً، إذا أردت أن تتبول من حين لآخر فعليك أن تصرخ لكي يسمعاك ويتوقفا، وإلا اضطررتَ إلى فعلها في الهواء، وعندها تمسّك جيداً يا صاح، تمسّك جيداً».

ألقيت نظرة على البقية: مزارعان شابان من نورث داكوتا يعتمران قبعتي بايزبول حمراوين، وهي العلامة النموذجية لمزارعي نورث داكوتا، كانا متجهين للعمل في الحصاد بعد أن أذن لهما والدهما بالارتحال على الطريق خلال الصيف. كان هناك أيضاً شابان من كولمبس، أوهايو، لاعبا كرة قدم في الثانوية، يمضغان العلكة، ويغمزان باستمرار ويغنيان في الهواء الطلق، قالا إنهما قررا أن يجوبا أميركا هذا الصيف: «إننا متجهان إلى ل. أ.».

«ما الذي ستفعلانه هناك؟».

«لا نعرف، لكن لا يهم».

إلى جواري كان شاب طويل هزيل ذو نظرات ماكرة، «من أين أنت؟» سألته. كان يستحيل الجلوس من دون نطنطة، ولم يكن من درابزين للتشبث به. والتفت إليّ ببطء، وقال: «مو ـ ن ـ تانا».

أخيراً كان هناك مسيسيبي جين ومعه رفيقه الغرّ. وقد جلس مسيسيبي جين هذا، وهو صعلوك ثلاثيني أسمر دائم التجوال، شابكاً رجليه، متأملاً الحقول من دون أن يلفظ كلمة طوال مئات الأميال، وأخيراً في مرحلة ما التفت نحوي، وسألني: «ما هي وجهتك؟».

«دنڤر».

«لدي أخت هناك، لكنني لم أرها منذ بضع سنوات». كانت نبرته إيقاعية بطيئة، وكان صبوراً، أما رفيقه ففتى طويل وأشقر في السادسة عشرة يلبس الأسمال التي اسودّت بفعل سخام سكك الحديد وأوساخ

الشاحنات والنوم على الأرض، وكان صموتاً أيضاً وبدا فاراً من شيء ما، من الشرطة غالباً، مثلما تؤكد طريقة نظره مباشرة إلى الأمام وابتلال شفتيه الدائم باللعاب من شدة القلق والتوجس. من وقت لآخر كان مونتانا سليم يخاطبهما بابتسامة تهكمية غامزة، فلا يعيرانه اهتماماً. كان سليم هذا دائم التلميح، وذا ابتسامة بلهاء ساخرة يشرعها واسعة في وجهك.

«أمعك مال؟»، سألني.

«بالطبع لا، ربما فقط ما يكفي لبعض الويسكي ريثما أصل إلى دنفر. وأنت؟».

«أعرف من أين أحصل على بعض المال».

«من أين؟».

«من أي مكان. يمكنك دائماً أن تطرح رجلاً أرضاً في زقاق ما، أليس كذلك».

«أظن أنه يمكنك ذلك».

«لا أتردد في فعل ذلك حين أحتاج فعلاً إلى المال. إنني متجه إلى مونتانا لرؤية أبي. سيتعيّن عليّ أن أترجل من هذه المركبة في شايين والانتقال صعوداً في طريق أخرى. هذان الشابان المجنونان متجهان إلى لوس أنجيليس».

«مباشرة؟».

«مباشرة، إذا كانت وجهتك ل. أ. فقد حصلت على مرادك».

فكّرت ملياً في الأمر، فكرة التقدم طوال الليل عبر نبراسكا، وايومنغ، وصحراء يوتاه صباحاً، ثم على الأرجح صحراء نيڤادا عصراً، ثم الوصول عملياً إلى لوس أنجيليس في وقت معقول نسبياً، كادت تجعلني أبدل خططي. لكنني أردت دنفر. ينبغي أن أترجل في شايين أنا الآخر، وأنتظر توصيلة مجانية لتسعين ميلاً جنوباً إلى دنفر.

سررت حين قرر السائقان التوقف في نورث بلات لتناول الطعام، أردت رؤيتهما عن كثب. نزلا من العربة وابتسما لنا جميعاً «نداء التبول»، قال أحدهما، «وقت الطعام»، قال الثاني. لكنهما كانا الوحيدين اللذين يملكان مالاً لشراء الطعام. تبعناهما متثاقلين إلى مطعم تديره مجموعة من النساء، وطلبنا الهمبرغر والقهوة في حين طلبا وجبة كبيرة كما لو أنهما في مطبخ أمهما. كانا شقيقين، يعملان معاً ويجنيان مالاً وفيراً جرّاء نقل الآليات الزراعية من لوس أنجيليس إلى منيسوتا، وفي طريقهما بالشاحنة فارغة في رحلة الذهاب، يقلان كل من يصادفانه على الطريق. كانا قد قاما بهذه الرحلة خمس مرات حتى الآن، وكانا يمضيان وقتاً ممتعاً، محبين كل شيء، ومبتسمين طوال الوقت. حاولت التقرّب منهما، ورد الفعل الوحيد الذي حصلت عليه الابتسامة والأسنان البيضاء الكبيرة.

دخل الجميع إلى المطعم ما عدا جين وفتاه اللذين بقيا في الشاحنة، وقد بدا عليهما البؤس والغمّ. بدأت تعتم. سألت السائقين إذا كان هناك وقت لكي أذهب وأشتري زجاجة ويسكي تدفئنا في برد الليل. ابتسما: «عليك أن تسرع».

«يمكنكما مشاركتي إياها»، أكدت لهما.

«آه لا، نحن لا نحتسي الكحول أبداً، عجّل».

جاب مونتانا سليم والطالبان الثانويان معي شوارع نورث بلات حتى عثرنا على متجر يبيع الكحول. ساهم الطالبان بالقليل وسليم بالقليل واشترينا خمسية ويسكي. رجال طوال القامة متجهمو الوجوه حملقوا بنا ونحن نبحث عن المتجر؛ كان الشارع الرئيسي مصطفاً بمنازل مربعة، وفي نهاية كل شارع كئيب تمتد السهول الواسعة. شعرت بشيء مختلف في الهواء في نورث بلات، ولم أعرف ما هو إلا بعد خمس دقائق.

رجعنا إلى الشاحنة وانطلقنا. أعتمت بسرعة. رحنا نحتسي الويسكي، وفجأة نظرت، وبدأت المزارع الخضراء المحيطة تختفي تدريجياً، لتحلّ محلها، على امتداد النظر، أراض بائرة من الرمل والقصعين. صُعقت.

«ما هذا بحق السماء؟» صرختُ مخاطباً سليم.

«هذه بداية الأراضي الجرداء يا فتى. أعطني جرعة أخرى».

«ووبي!»، هتف الطالبان «وداعاً كولومبس! ما الذي سيقوله سباركي والأصحاب لو كانوا هنا... روعة!».

مضى الأخ الأصغر بالشاحنة بسرعة قصوى. تبدلت الطريق أيضاً، فباتت كثيرة المطبّات في الوسط، مستوية عند الطرفين، مع مصرف مياه عند كل جانب، بحيث راحت العربة تنطنط وتتأرجح من جانب لآخر، ولحسن الحظ لم تكن هناك سيارات آتية في الاتجاه المعاكس، وشعرت للحظة أن العربة ستنقلب بنا، لكنه كان سائقاً ممتازاً. يا للطريقة التي راوغت بها الشاحنة ذلك اللسان الصخري النبراسكاني الممتد فوق كولورادو! التي أدركت بعد قليل أننا أشرفنا أخيراً عليها، مع أننا لم نكن دخلناها رسمياً بعد، ودنفر إلى الجنوب الغربي أصبحت تبعد بضع مئات من الأميال. صرخت مبتهجاً. أخذنا نمرر الزجاجة لبعضنا، ولاحت النجوم المشعة العظيمة، وأعتمت التلال الرملية البعيدة. شعرت أنني سهم يمكنه الانطلاق بلا توقف.

ثم التفت فجأة مسيسيبي جين إلي وهو لا يزال مقرفصاً وناظراً بتلك الطريقة الساهمة، ومال نحوي قائلاً «هذه السهول تذكرني بتكساس».

«هل أنت من تكساس؟».

«لا يا عزيزي، أنا من غريد نفل، موز - يسيبي»، وكانت هذه الطريقة التي لفظ بها الاسم.

«والفتى؟».

«لقد واجه بعض المشكلات في مسيسيبي، لذا قدمت له المساعدة، فالفتى لم يتحمّل مسؤولية نفسه من قبل. أعتني به بقدر المستطاع، إنه مجرد طفل». مع أن جين كان أبيض فثمة فيه شيء من حكمة العجائز السود وتعبهم، شيء يذكر كثيراً بإلمر هاسل، مدمن المخدرات النيويوركي، لكنه هاسل سكك الحديد، هاسل الرحالة الملحمي، الذي يجوب البلاد كل عام، جنوباً في الشتاء، وشمالاً في الصيف، فقط لأنه ليس ثمة مكان يعيش فيه من دون أن يمل منه، وليس من مكان يذهب إليه سوى كل مكان، ولا ما يفعله سوى أن يتدحرج تحت النجوم، نجوم الغرب على وجه العموم.

«ذهبتُ إلى أوغدن بضع مرات. إذا شئت الذهاب إليها فلدي أصدقاء هناك يمكننا أن نلوذ بهم».

«إنني متجه من شايين إلى دنڤر».

«حسناً، يمكنك الذهاب إليها من أوغدن مباشرة، لن تحظى برحلة كهذه كل يوم».

كان عرضاً مغرياً. ما الذي هناك؟ «ما هي أوغدن؟»، سألته.

«إنها المكان الذي يمر به معظم الشباب ويلتقون فيه دائماً؛ يمكن أن تصادف أي كان هناك».

كنت قد عملت في مراهقتي على متن سفينة مع فتى طويل هزيل من لويزيانا يدعى بيغ سليم هازارد، أو وليم هولمز هازارد، الذي كان متشرداً باختياره. حين كان طفلاً رأى متشرداً يتقدّم من والدته طالباً قطعة من الفطيرة، فأعطته قطعة، وحين ذهب المتشرد سأل الفتى أمه «أماه، من هذا الرجل؟»، «حسناً، إنه متشرد»، «أماه، أريد أن أصبح متشرداً يوماً ما». «سدّ بوزك، هذا لا يليق بأبناء عائلة هازارد». لكنه لم ينسَ

ذلك اليوم، وحين كبر، بعد أن أمضى فترة وجيزة لاعباً كرة القدم في جامعة لوس أنجيليس، أصبح متشرداً بالفعل. أنا وبيغ سليم أمضينا ليالي عدة نخبر القصص ونبصق عصارة التنباك في حاويات ورقية. كان ثمة في سلوك مسيسيبي جين ما ذكرني ببيغ سليم هازارد، بحيث خطر لي أن أسأله: «هل حدث أن التقيتَ خلال تجوالك شاباً يدعى بيغ سليم هازارد؟».

وأجاب: «أتقصد ذلك الشاب الطويل صاحب الضحكة المجلجلة؟».

«حسناً، هذه تبدو صفاته، إنه من راستن، لويزيانا».

«هذا صحيح، أحياناً ينادونه لويزيانا سليم... أجل يا عزيزي، التقيت بالتأكيد بيغ سليم».

«وكان يعمل في حقول النفط في إيست تكساس؟».

«إيست تكساس، صحيح، وهو حالياً يرعى الأبقار».

وهذا كان صحيحاً تماماً، ومع ذلك لم أستطع أن أصدق أن جين التقى بالفعل سليم الذي كنت، إلى حدّ ما، أبحث عنه منذ سنوات.

«وكان يعمل في زورق قطر في نيويورك؟».

«حسناً، لا أعرف بشأن هذا».

«أحسب أنك التقيته فقط في الغرب».

«أظن ذلك، فأنا لم أذهب قطّ إلى نيويورك».

«حسناً، اللعنة، إنني مندهش كونك تعرفه. هذا بلد كبير. ومع ذلك عرفت أنك لا بد من أن تكون عرفته».

«اجل يا عزيزي، أعرف بيغ سليم جيداً، إنه دائماً كريم مع أصدقائه حين يكون بحوزته المال. شاب متواضع وقوي أيضاً. مرة رأيته يبطح شرطياً في شايين بلكمة واحدة». بدا هذا من شيم بيغ سليم؛ لطالما

تمرّن على تلك اللكمة الواحدة في الهواء؛ كان يشبه جاك ديمبسي[1]، إنما جاك ديمبسي شاب ومحبّ للكحول.

«عجباً!»، صرخت في الهواء، وأخذت جرعة أخرى من الويسكي، وكان إحساسي رائعاً. كل جرعة كانت تزيل أثرها السيئ الرياح التي تزيد من سرعتها الشاحنة المفتوحة، أما الأثر الجيد فيغوص إلى معدتي «شايين، ها أنا آت إليك!»، ترنمت، «وأنت يا دنفر، انتظري فتاك».

التفت مونتانا سليم نحوي، وأشار إلى حذاءي، معلقاً، «أتعرف أنك إذا زرعتهما في الأرض فسينبتان شيئاً ما؟»، قال ذلك من دون ملمح ابتسامة، وسمعه الآخرون وضحكوا. وكانا أسخف حذاءين في أميركا؛ اشتريتهما تحديداً لكي لا تعرق رجلاي على الطريق الحارة، وما عدا مسألة المطر في بير ماونتن فقد أثبتا أنهما أفضل حذاءين للرحلات. فشاركتهم الضحك، خصوصاً وأن الصندل بات ممزقاً الآن، وبرز الجلد الملون من مثل قطع من الأناناس، كاشفاً أصابع رجلي. احتسينا جرعات أخرى وضحكنا. وكما في حلم اقتربنا من بلدة صغيرة عند تقاطع طرق برزت فجأة من الظلمة، ومررنا بصفوف طويلة من الحصّادين ورجال الكاوبوي الذين يعملون ليلاً. تفرجوا علينا ونحن نمر بحركة واحدة من رؤوسهم، ورأيناهم، عبر العتمة التي تغمر البلدة، يربّتون على أفخاذهم عجباً ـ لا بد أن منظرنا كان مضحكاً.

كانت البلدة مكتظة بالرجال في ذلك الوقت من السنة؛ موسم الحصاد. بدأ الطالبان بالتململ: «الأرجح أننا سنترجل عند نداء التبول المقبل، يبدو أن هناك عملاً وافراً هنا».

---

(١) جاك ديمبسي Jack Dempsey: وليم هاريسون، المعروف باسم جاك ديمْبسي (١٨٩٥ ـ ١٩٨٣) أحد الملاكمين الأميركيين الأسطوريين، فاز خلال حياته الرياضية بستة وعشرين مباراة من الجولة الأولى.

«كل ما عليكما فعله هو الانتقال شمالاً ما إن ينتهي العمل هنا»، نصحهما مونتانا سليم، «واتبعا الحصاد حتى تصلا إلى كندا». أومأ الفتيان برأسيهما غير فاهمين، وبدا أنهما لا يحملان نصيحته على محمل الجدّ.

في الأثناء ظل الفتى الأشقر المطارد قاعداً بالطريقة نفسها، ومن وقت لآخر كان جين يميل نحوه، كاسراً وضعية قعوده البوذية، على خلفية السهول المعتمة التي تمر سريعاً، ويهمس برقة شيئاً ما في أذنه. الفتى يهز رأسه. كان جين يعتني به، وبمزاجه المتقلب وبمخاوفه. تساءلت إلى أين سيذهبان وما الذي سيفعلانه. لم يكن لديهما سجائر، فبددت علبة سجائري عليهما. أحببتهما كثيراً. وكانا ممتنين ولطيفين. لم يطلبا ولا مرة، بل انتظرا أن أضيّفهما بنفسي. كان مونتانا سليم يملك علبة سجائر، لكنه احتكرها لنفسه. اقتربنا من بلدة أخرى عند تقاطع طرق، عبرنا صفاً آخر من الرجال الطوال الهزيلين بالجينز يتحلقون في الضوء المعتم مثل فراشات في الصحراء، ثم يعودون إلى العتمة الهائلة، والنجوم فوق رؤوسهم صافية ولمّاعة بسبب ازدياد رقة الهواء مع صعودنا السهل الغربي المرتفع، على بعد ميل، بحيث لا تحجب الأشجار تلك النجوم الواطئة. ومرة رأيت بقرة بيضاء الوجه بين القصعين على جانب الطريق. كان ركوب الشاحنة شبيهاً بركوب قطار، فهي مثله ثابتة في طريقها المباشر.

وصلنا بعدها إلى إحدى البلدات، فأبطأنا، وقال مونتانا سليم: «أخيراً نداء التبول»، لكن السائقين لم يتوقفا ومضيا مباشرة، «اللعنة عليّ أن أتبول»، قال سليم.

«انتحِ جانباً»، اقترح أحدهم.

«حسناً، سأفعل»، قال، وببطء، بينما نتفرج جميعاً، تقدم زاحفاً على

وركيه إلى الخلف، متشبثاً قدر الإمكان، حتى تدلت رجلاه من حافة الشاحنة. أحدهم طرق على زجاج السائق لكي يلفت انتباههما. ابتسما ابتسامة واسعة حين التفتا. وبينما سليم يستعد للمتابعة، متقلقلاً أساساً، جعلا يميلان الشاحنة من جهة إلى أخرى، فكاد يهوي إلى الخلف، ثم كافح للعودة إلى وضعية القعود. حرفا الشاحنة مجدداً، فهوى على جنبه، مبللاً نفسه. سمعنا صوته يخترق هدير الشاحنة شاتماً بصوت خفيض، مثل تأوه شخص بعيداً في التلال «اللعنة، اللعنة...»، لم يعرف أننا كنا نفعل ذلك متعمدين، فقط أخذ يكافح متجهماً مثل أيوب. وحين انتهى كان تبلل والآن عليه أن يشق طريقه عائداً، وعلى وجهه يبدو الغم الشديد، والجميع يضحك، بمن فيهم السائقان ما عدا الفتى الأشقر الحزين. ناولته الزجاجة لكي أعوّض عليه.

«علام الابتهاج؟»، قال، «أكانا يفعلان ذلك عمداً؟».

«بكل تأكيد».

«حسناً، اللعنة علي، لم أعرف ذلك. أعرف أنني حاولت التبول حين كنا في نبراسكا ولم أواجه نصف ما واجهته الآن من متاعب».

وصلنا فجأة إلى بلدة أوغالالا، وعندها هتف السائقان بمرح «نداء التبول». وقف سليم بجوار الشاحنة متجهماً لإضاعته هذه الفرصة. ودعنا الطالبان وقالا إنهما سيبدآن العمل في الحصاد هنا. رأيناهما يختفيان في الليل باتجاه الأكواخ عند طرف البلدة، حيث الأضواء، وكان أرشدهما حارس ليلي يرتدي الجينز إلى هناك قائلاً إن المسؤولين عن التوظيف يكونون هناك. كان يجب أن أشتري المزيد من السجائر. رافقني جين والفتى الأشقر لكي ينشّطا أرجلهما. دخلت إلى المكان الأكثر بؤساً في العالم، شبه مشرب يقدّم المشروبات الغازية لمراهقي البلدة الذين كان عدد منهم يرقص على إيقاع الموسيقى المنبعثة من الجكبكس، وحين

دخلنا خيم صمت. وقف جيم والفتى الشقور جامدين، غير ناظرين إلى أحد، كل ما أراداه السجائر. كان هناك بعض الفتيات الجميلات أيضاً، وبدت إحداهن منجذبة إلى الشقور لكنه لم يبادلها النظرات، وحتى لو أنه رآها لما كان اكترث بها، كان بالغ الحزن والتشتت.

ابتعت علبة لكل منهما؛ شكراني. صارت الشاحنة جاهزة للانطلاق. كان منتصف الليل تقريباً، وبدأ البرد يشتد. قال جين الذي جاب البلاد مرات أكثر من أن تحصى إن أفضل ما يمكن أن نفعله جميعاً الآن هو أن نفرد علينا المشمّع الكبير وإلا تجمدنا برداً. على هذا النحو، وبمساعدة ما تبقّى في الزجاجة نلنا بعض الدفء بينما الريح تهب صقيعية تصم الآذان. أخذت النجوم تنجلي أكثر فأكثر مع ارتفاعنا التدريجي حتى وصلنا إلى وايومنغ. منبطحاً على ظهري رحت أتأمل السماء الرائعة تأتلق في الوقت الذي بدأت أفكر فيه كم ابتعدت من بير ماونتن الكئيبة، مترقباً دنفر، أياً يكن ما ينتظرني فيها. وشرع مسيسيبي جين يدندن بنبرة جنوبية خفيضة، أغنية بسيطة: «لدي فتاة صغيرة نقية، فتاة حلوة في السادسة عشرة، إنها أحلى من رأيت في حياتك». مكرراً هذه اللازمة، ومضيفاً إليها الكلمات، التي تحكي باختصار كم أصبح بعيداً وكم ترنو نفسه إلى حبيبته، لكنه خسرها وانتهى الأمر.

قلت «جين، يا لها من أغنية حلوة».

«هذه أحلى أغنية أعرفها»، أجاب مبتسماً.

«آمل أن تبلغ مرادك، وأن تسعد به».

«أنا دائماً أدبر نفسي».

كان مونتانا سليم غافياً، وحين استيقظ قال لي «هاي بلاكي، ما رأيك بأن نستكشف شايين الليلة قبل أن تذهب إلى دنفر؟».

«بكل تأكيد»، كنت ثملاً بحيث أوافق على أي شيء.

عندما وصلت الشاحنة إلى أطراف شايين، رأينا الأضواء الحمراء العالية لهوائي الإذاعة المحلية، ووجدنا أنفسنا نمشي فجأة وسط جمهرة من الناس الذين يملأون الرصيفين «عجب عجاب. . . إنه أسبوع الوايلد وست»، قال سليم. وكان ثمة حشد هائل من البورجوازيين السمان، الذين يملأون بجزماتهم الضخمة وقبعاتهم الكاوبوي الواسعة، وزوجاتهم المرتديات ثياب الكاوغيرل، أرصفة شايين الخشبية القديمة، وفي مكان أبعد نزولاً كانت تتلألأ أضواء وسط شايين الجديدة، لكن الاحتفال كان مركزاً في البلدة القديمة. أطلقت في الهواء أعيرة نارية فارغة، واكتظت الحانات حتى مداخلها. أذهلني المشهد، وفي الوقت نفسه شعرت بمدى سخفه: كنت لا أزال في بداية معرفتي بالغرب الأميركي لكنني رأيت عبر هذا الاحتفال مدى البلاهة التي بلغها في حفاظه على تقاليده وافتخاره بها. آن أوان الترجل من الشاحنة ووداع الباقين، إذ لم يرغب السائقان بالتسكع هناك. كان محزناً رؤيتهما يغادران، وأدركت أنني لن أراهما ثانية، لكن هذه هي الحياة.

«ستتجمد مؤخرتك الليلة في الشاحنة»، نبّهت جين، «ثم ستعاود الصحراء إلهابها ظهر غد».

«لا يهمني ما دمنا سنغادر هذا البرد».

غادرت الشاحنة، شاقّة طريقها عبر الحشود دون أن يكترث أحد بمشهد الشبان الغريب الملتفين بالمشمّع، وهم يحدقون في البلدة كأطفال يطلون برؤوسهم من تحت الأغطية. نظرتُ إلى الشاحنة وهي تذوب في العتمة.

- ٥ -

تنقلت بين الحانات برفقة مونتانا سليم. كان بقي معي نحو سبعة دولارات، بددت خمسة منها بحماقة تلك الليلة. تجولنا بداية بين

السائحين اللابسين أزياء الكاوبوي والبورجوازيين والمزارعين، في الحانات، وعند المداخل، وعلى الأرصفة، ثم شعرت بالحاجة إلى التخلص قليلاً من سليم الذي كان يجوب الشارع مترنحاً بعض الشيء بتأثير كميات الويسكي والجعة التي احتساها، كان من ذاك الصنف من الكحوليين الذي تلمع عيناه، وتجده فجأة يحادث غريباً ما على الطريق. دخلت إلى مطعم متواضع يقدم التشيلي وكانت النادلة مكسيكية حسناء. تناولت الطعام، ثم كتبت لها رسالة حب صغيرة على قفا الفاتورة. كان المطعم خالياً، الجميع كان في الحانات. قلت لها أن تقلب الفاتورة. فقرأتها وضحكت. كانت قصيدة قصيرة أقول لها فيها كم أنني أرغب بأن ترافقني وتجوب الليل معي.

«كان بودي، تشيكيتو، لكن لدي موعد مع صاحبي».

«ألا يمكنك التخلص منه؟».

«لا، لا، لا أستطيع»، أجابتني بحزن، وأحببت الطريقة التي قالت بها ذلك.

«سأعود مرة أخرى»، قلت لها، وأجابت «وقتما تشاء أيها الفتى». ومع ذلك مكثت وقتاً إضافياً شربت خلاله المزيد من القهوة فقط لكي أتأملها. دخل صاحبها إلى المقهى مقطب الجبين وسألها متى ينتهي الدوام. هرعت لكي تقفل المقهى، فصار لزاماً عليّ أن أغادر. ابتسمت لها في طريقي إلى الخارج. كان الصخب هائلاً في الخارج، سوى أن المتجشئين السمان ازدادوا ثمالة وعلا صراخهم أكثر. كان الأمر طريفاً. كان ثمة هنود يجوبون المكان واضعين على رؤوسهم أردية ضخمة ويبدون مستوحشين بين الوجوه السكرانة المتوردة. لمحت سليم يسير مترنحاً فانضممت إليه.

قال: «كتبت بطاقة بريدية إلى أبي في مونتانا، أتظن أنه يمكنك أن تجد صندوق بريد هنا وتضعها فيه؟». كان طلباً غريباً، أعطاني البطاقة

ودخل «مطوطحا» عبر باب حانة دوار. في طريقي إلى صندوق البريد، اختلست النظر إلى محتواها: «أبي العزيز، سأصل يوم الأربعاء. كل شيء على ما يرام بالنسبة إلي وأتمنى الأمر نفسه بالنسبة إليك. ريتشارد». أعطاني هذا انطباعاً مختلفاً عنه؛ كم أنه حنون ومهذب مع والده. دخلت إلى الحانة وانضممت إليه، وهناك تعرفنا إلى شابتين، الأولى شقراء جميلة والثانية سمراء سمينة. كانتا خرقاوين ونكدتين، لكننا أردنا مضاجعتهما. أخذناهما إلى ملهى ليلي على وشك الإغلاق، وهناك أنفقت آخر دولارين معي على الويسكي لهما والجعة لنا. كنت أسكر ولم أعبأ بالمال؛ كل شيء كان على ما يرام. كنت أرنو بكياني كله إلى الشقراء الصغيرة ورغبت بشدة بمضاجعتها. عانقتها وأردت أن أقول لها ذلك. بعد إقفال الملهى جلنا جميعاً في الشوارع المغبرة. نظرتُ إلى السماء حيث لا تزال تتلألأ النجوم الصافية الرائعة. أرادت الفتاتان الذهاب إلى محطة الحافلات، فرافقناهما، ليتضح لنا أنهما بصدد لقاء بحار ما ينتظرهما هناك، وهو ابن عم الفتاة السمينة ومعه شلة أصدقاء. فسألت الشقراء: «ما المشكلة؟» قالت إنها تريد العودة إلى بلدتها في كولورادو، جنوب شايين. «سأصحبك معي في الحافلة»، قلت لها.

«لا، الحافلة لا تتوقف على الطريق السريعة وأضطر عندها إلى السير وحدي في السهوب الشاسعة اللعينة. لقد أمضيت طوال فترة بعد الظهر متوجسّة من هذا الأمر، ولا أريد أن أراه يتحقق الليلة».

«آه، اسمعي، سنقوم بنزهة جميلة بين أزهار السهوب».

«ليس من أزهار هناك»، قالت، «أريد الذهاب إلى نيويورك. لقد سئمت وتعبت من هذا، ليس من مكان نذهب إليه سوى شايين، ولا شيء في شايين».

لا شيء في نيويورك كذلك».

«بالطبع!»، قالت قالبة شفتيها احتجاجاً.

كانت محطة الحافلات شديدة الاكتظاظ. كل أشكال البشر ينتظرون أو يقفون هناك فحسب، وكان هناك الكثير من الهنود، الذين يرصدون بعيونهم الثاقبة كل شيء. ابتعدت الفتاة عني وانضمّت إلى البحار والآخرين. كان سليم هاجعاً على مقعد. فجلست قربه. أرضيات محطات الحافلات هي نفسها في طول البلاد وعرضها، دائماً مليئة بأعقاب السجائر وبالبصاق وتشعرك بمسحة الحزن تلك التي لا تجدها سوى في محطات الحافلات. لوهلة بدا المكان شبيهاً بنيوارك، ما عدا المناظر الطبيعية الفسيحة التي راقت لي كثيراً. أسفت للطريقة التي أفسدت فيها نقاء رحلتي، مبدداً مالي، ومضيعاً الوقت بالعبث مع تلك الفتاة الكئيبة. وأشعرني ذلك بالاعتلال. لم أكن نمت منذ مدة طويلة ومنعني تعبي حتى من السباب والتذمر فلجأت إلى النوم، تكورت على المقعد متوسداً حقيبتي الصوفية، ونمت حتى الساعة الثامنة صباحاً على وقع الضجيج والهمهمات الملغزة لمئات البشر العابرين.

استيقظت شاعراً بصداع فظيع. كان سليم قد رحل، على الأرجح إلى مونتانا. خرجت إلى باب المحطة، وهناك، في زرقة الهواء، لاحت لي للمرة الأولى، في المسافات البعيدة، قمم سلسلة جبال روكي المهيبة المكللة بالثلوج. أخذت نفساً عميقاً. عليّ الوصول فوراً إلى دنڤر. أولاً تناولت إفطاراً متواضعاً من التوست والبيض وشربت القهوة، ثم خرجت من البلدة إلى الطريق السريعة. كان مهرجان «وايلد وايلد وست» لا يزال مستمراً، وكان هناك عرض «روديو»، أي أن الازدحام والزعيق على وشك أن يبدآ مجدداً. أدرت ظهري للمدينة. أردت رؤية شلتي في دنڤر. عبرت طريق سكة حديد إلى مجموعة من الأكواخ تتفرع إلى

طريقين سريعين يؤدي كلاهما إلى دنفر. قررت أن أسلك الطريق الأقرب إلى الجبال بحيث يمكنني النظر إليها، ثم حصلت سريعاً على توصيلة من شاب من كونكتيكت، ابن صحافي من إيست، كان يجوب البلاد في سيارته بهدف رسم المناظر الطبيعية. وظل يتكلم بلا توقف؛ كنت متوعكاً من الشرب ومن الضغط الجوي، وفي لحظة ما شعرت أنه عليّ أن أخرج رأسي من النافذة لأتقيأ. في الوقت الذي أنزلني فيه في لونغموند، كولورادو، كنت بدأت أشعر بالتحسن مجدداً وحتى أنني أخذت أخبره عن أسفاري. تمنى لي الحظ السعيد.

كانت لونغموند رائعة. كان ثمة تحت شجرة قديمة هائلة مرج أخضر تابع لمحطة وقود. سألت العامل إذا ما كان يمكنني النوم هناك، وأجابني بكل تأكيد. ففردت كنزة صوف، ألقيت رأسي عليها، بينما لدقيقة ظلت إحدى عيني مائلة نحو جبال روكي المكللة بالثلوج تحت الشمس الحارة. نمت لساعتين لذيذتين، الإزعاج الوحيد كان نمل كولورادو التي وصلت إليها أخيراً! رحت أفكر بجذل. روعة! روعة! روعة! إنني أفلح في ذلك! وبعد نوم جدّد حيويتي، وإن كان ضاجاً بأضغاث الأحلام عن حياتي السابقة في الشرق، نهضت واغتسلت في حمام الرجال في المحطة، وخرجت مهندماً ومنتعشاً، وابتعت اللبن من متجر هناك لكي أبرّد قليلاً معدتي الحامية المعذبة.

بالصدفة، امرأة رائعة هي التي حضّرت لي اللبن. وكانت تبتسم أيضاً، وشعرت بالامتنان لها، إذ عوضت عليّ خيبات الليلة الفائتة. قلت لنفسي «روعة! كيف ستكون دنفر إذاً! عدت إلى الطريق الحارة وانطلقت من هناك بسيارة جديدة يقودها رجل أعمال دنفري في الخامسة والثلاثين. مضى بسرعة سبعين ميلاً. كنت أغلي حماسة، وأعدّ الدقائق وأحذف الأميال التي قطعناها. أمامنا مباشرة، فوق حقول القطن الذهبية الممتدة تحت الثلوج البعيدة لـ إيست، سأرى دنفر الموعودة أخيراً.

تخيلت نفسي ليلاً في حانة في دنفر، مع كل أفراد الشلة، الذين سيرونني غريباً وأشعث، مثل نبي عبر الأرض لكي يأتي بالكلمة الملغزة التي هي الكلمة الوحيدة في قاموسي: «واو!». تبادلت والرجل حديثاً طويلاً دافئاً حول خططنا النسبية للحياة، ومر الوقت سريعاً وفوجئت بأننا نمر بمحاذاة أسواق الفواكه بالجملة خارج دنفر، كان هناك كتل من الدخان، سكك حديد، مبان قرميدية، والمباني الاسمنتية البعيدة في وسط المدينة، وها أنا في دنفر. أنزلني في لاريمير ستريت. مشيت بين المتشردين العجائز ورجال الكاوبوي المتهالكين في لاريمير، وقد ارتسمت على وجهي أعرض ابتسامة فرح في العالم.

ـ ٦ ـ

لم أكن في تلك الأيام أعرف دين مثلما أعرفه اليوم، وأول ما أردت فعله الاتصال بتشاد كنغ، وهذا ما فعلته، فخابرت منزله، وردّت أمه، «رائع سال، ما الذي تفعله في دنفر؟». تشاد هو فتى أشقر هزيل له ملامح عراف تتماشى واهتمامه بالأنثروبولوجيا وبهنود ما قبل التاريخ. أنفه يبرز بنعومة تحت شعره الأشقر، ويتمتع بوسامة وكياسة فتى جامح من الغرب يمضي وقته راقصاً في الحانات ولاعباً كرة القدم، وتصدر عنه حين يحكي غنة متهدجة «ما أحببته يا سال في الهنود الحمر هو الطريقة التي يشعرون فيها بالإحراج الشديد بعد أن يعرضوا بافتخار رقم فروات الرأس التي يملكونها. في كتابه» الحياة في الغرب الأقصى» يحكي ركستون[1] عن هندي يتورد وجهه خجلاً وهو يخبر عن العدد الهائل

(١) جورج فردريك ركستون George Frederick Ruxton (١٨٢١ ـ ١٨٤٨): جندي وكاتب رحلات عرف برحلاته إلى الغرب الأميركي والمكسيك.

الذي يملكه من فروات الرأس، فيركض كالسهم عبر السهول لكي ينزوي بنفسه ويفتخر بإنجازاته. يا إلهي، كم يثيرني هذا!».

أخبرتني أم تشاد بمكانه. كان يمضي فترة بعد الظهر الدنقرية الناعسة تلك في المتحف المحلي مشتغلاً على بحثه حول صنع السلال الهندية. خابرته إلى هناك ووافاني بعد فترة بسيارته «فورد كوبيه» القديمة التي يستعملها في رحلاته إلى الجبال، بحثاً عن الأشياء الهندية القديمة. جاء إلى محطة الحافلات مرتدياً الجينز وراسماً على وجهه ابتسامة عريضة. كنت قاعداً على الأرض على حقيبتي محاولاً التحدث مع البحار نفسه الذي كان في محطة حافلات شايين، وسألته عما حدث للفتاة الشقراء، لكنه كان سئماً إلى حدّ أنه لم يجبني. صعدت إلى الكوبيه الصغيرة وأول ما كان على تشاد فعله الحصول على خرائط معينة من مبنى الولاية، ثم كان عليه أن يقابل أستاذ مدرسة عجوز، وهكذا دواليك، وكل ما كنت راغباً به احتساء الجعة. وفي خلفية عقلي كان يتردد السؤال الجامح: أين هو دين وما الذي يفعله الآن؟ أخبرني تشاد أنه قرر ألا يكون صديقاً لدين بعد الآن، لسبب غامض، ولم يكن يعرف عنوانه حتى.

«هل كارلو ماركس في المدينة؟».

«أجل»، وأخبرني أنه متخاصم معه أيضاً. كانت تلك بداية انسحاب تشاد كنغ من مجموعتنا. كنت سآخذ قيلولة في منزله ذلك العصر، وعلمت أن تيم غراي دبر لي شقة في كولفاكس أفينيو، يقيم فيها رولاند مايجور أصلاً وينتظر انضمامي إليه. اشتممت نوعاً من المؤامرة في الجو، مؤامرة تفصل بين مجموعتين في الشلة: تشاد كنغ وتيم غراي ورولاند مايجور، ومعهم آل راولينز، المتواطئين عموماً على تجاهل دين موريارتي وكارلو ماركس. وجدت نفسي عالقاً وسط هذه الحرب المثيرة.

كانت حرباً طبقية الطابع. دين كان ابن سكّير، أحد أكثر المتشردين ترنحاً في لاريمير ستريت، وقد نشأ في هذا الشارع وجواره، ومنذ السادسة بدأ بتقديم طلبات التماس للمحكمة لكي تطلق سراح والده. كان يتسول عند مداخل الأزقة، ثم يتسلل إلى والده الذي يكون بانتظاره بين الزجاجات المهشمة مع صديق عجوز. ثم حين كبر دين بدأ يتسكع في صالات البلياردو في غلينارم ستريت؛ وقد حقق رقماً قياسياً في دنڤر في سرقة السيارات فسجن في الإصلاحية. بين الحادية عشرة والسابعة عشرة كان دائم الدخول إلى الإصلاحية والخروج منها. كان اختصاصه سرقة السيارات، ثم انتظار الفتيات الخارجات من المدارس الثانوية بعد الظهر، واصطحابهن بالسيارة إلى الجبال ومضاجعتهن هناك، والعودة للمبيت في أي حوض استحمام فندقي يجده شاغراً. والده، الذي كان في الماضي سمكرياً محترماً وشغيلاً أصبح مدمناً على النبيذ، وهذا أسوأ من الإدمان على الويسكي، وكان مجبراً على ركوب قطارات الشحن إلى تكساس شتاء والعودة إلى دنڤر صيفاً. كان لدين أشقاء لجهة أمه التي ماتت حين كان صغيراً، لكنهم ما كانوا يحبونه. أصحاب دين الوحيدون كانوا فتيان صالات البليادرو. دين ذو الطاقة الهائلة لقديس أميركي من نوع جديد، وكارلو، كانا الوحشين السفليين خلال ذلك الموسم في دنڤر، مع عصبة البليادرو، وكان كارلو يعيش في شقة في الطابق السفلي في أحد مباني غرانت ستريت، وكنا جميعاً نجتمع هناك ونسهر حتى الفجر - أنا وكارلو ودين وتوم سنارك وإد دانكل وروي جونسون، وآخرون انضموا إلينا لاحقاً.

أمضيت أول فترة بعد ظهر لي في دنڤر في غرفة تشاد كنغ، بينما أمه تتابع أعمالها المنزلية في الطابق التحتاني، وتشاد يعمل في المكتبة. كان عصراً حاراً من يوليو، وما كنت استطعت النوم لولا اختراع والد تشاد

كنغ. كان رجلاً طيباً ولطيفاً، في عقده السابع. عجوز واهن، هزيل وطويل، يسرد القصص ببطء شديد، وهي قصص جيدة بالمناسبة، حول أيام شبابه في سهول نورث داكوتا خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر، حين كان يركب ظهور المهور العارية ويطارد ذئاب القيوط بالهراوة. لاحقاً أصبح مدرساً في إحدى مدارس شمال غرب أوكلاهوما، وأخيراً رجل أعمال في مجالات عدة في دنفر. ولا يزال مكتبه القديم قائماً في نهاية الشارع. المهم انه اخترع جهاز تبريد خاصاً، فثبّت مروحة عادية على إطار النافذة وبطريقة ما أوصل بأنابيب مياهاً باردة أمام الشفرات الدوارة. وكانت النتيجة ممتازة ـ ضمن قطر أربعة أقدام من المروحة ـ ثم يتحول الماء على ما يبدو إلى بخار في الأيام الحارة فتبرد الغرفة بينما يبقى الجزء الأرضي من المنزل حاراً كالعادة. لكنني كنت نائماً مباشرة تحت المروحة في سرير تشاد، وأمامي صورة كبيرة لغوته يحدق بي، وغفوت براحة، لأستيقظ بعد عشرين دقيقة فقط وأنا أكاد أموت برداً. غطيت نفسي بملاءة وظللت أشعر بالبرد. أخيراً منعني البرد من النوم، فنزلت إلى أسفل. سألني العجوز عن رأيي باختراعه، فأجبته بأنه رائع، ولم أعن ذلك حرفياً. أحببت الرجل. كان شغوفاً بالذكريات «صنعت ذات مرة مزيلاً للبقع تم استنساخه من قبل مؤسسات كبرى في الشرق، ومنذ سنوات وأنا أحاول تحصيل حقوقي منهم. فقط لو كان لدي المال لأوكل محامياً محترماً. . .». لكن كان فات الأوان على مثل هذا الأمر، فقبع محبطاً في منزله. في المساء تناولنا عشاء رائعاً حضّرته أمه، كناية عن شرائح من لحم غزال اصطاده خال تشاد من الجبال. لكن أين هو دين؟

- ٧ -

الأيام العشرة التالية كانت مجنونة أو مثلما يقول دبليو. ك. فيلدز[١] «محفوفة بالخطر الداهم». انتقلت للعيش مع رولاند مايجور في الشقة الأنيقة التي تخص والدا تيم غراي. كان لكل منا غرفة نوم، ومطبخ صغير فيه ثلاجة مليئة بالطعام، وغرفة جلوس واسعة، تضم مكتباً يجلس إليه مايجور في بيجامته الحرير مؤلفاً آخر قصصه القصيرة التي يحاكي فيها أسلوب همنغواي. رولاند شاب نزق، أحمر الوجه، كاره للعالم، لكن ترتسم على محياه أرقّ ابتسامة وأكثرها دفئاً متى قابلته الحياة الحقيقية بعذوبتها ليلاً. جلس هكذا وراء المكتب، ورحت أقفز على السجادة الناعمة السميكة بسروالي القطني. كان أنهى تواً كتابة قصة قصيرة عن شاب يدعى فِل يأتي إلى دنفر للمرة الأولى. رفيقه في السفر شاب غامض وصموت يدعى سام. يذهب فل لكي يستكشف دنفر فيختلط بالأشخاص المبهرجين الزائفين، ثم يعود إلى غرفة الفندق، ويقول بحزن «سام إنهم هنا أيضاً»، ويرد سام ناظراً بحزن من النافذة «أجل... أعرف هذا». البشر الزائفون يملأون أميركا، ممتصين دمها. كنا رفيقين عظيمين أنا ومايجور، كان يعتبر أنني أبعد ما أكون عن هذا النوع من الأشخاص، وكان مولعاً بالنبيذ الجيد، مثل همنغواي تماماً. كان يستغرق متذكراً رحلته الأخيرة إلى فرنسا «آه سال، لو كنت معي عالياً هناك في بلاد الباسك مع زجاجة نبيذ بوينون دي نوف باردة، فستعرف عندها أن هناك ما هو أروع من الشاحنات».

«أعرف ذلك. لكنني أحب الشاحنات، وأحب أسماءها العجيبة مثل

(١) دبليو. ك. فيلدز W. C. Fields: اسمه الأصلي وليم كلود داكنفيلد (١٨٧٩ ـ ١٩٤٦) ممثل أميركي كوميدي معروف.

ميزوري باسيفيك، غريت نورثرن، روك أيلند لاين. يا الله يا مايجور لو أستطيع أن أروي لك كل ما حدث معي خلال رحلتي إلى هنا».

كان منزل آل راولينز على بعد بضعة أحياء منا، وكانوا يشكّلون عائلة رائعة من أم شابة، شريكة في فندق آيل للسقوط، وخمسة أبناء وابنتين. أما الابن الجامح بينهم فهو راي راولينز، صديق تيم غراي منذ الطفولة، الذي حضر إلى الشقة بكل صخبه واصطحبني معه إلى حانات كولفاكس وانسجمنا بسرعة مع بعضنا. . إحدى أختي راي فتاة شقراء رائعة تدعى بايب، تلعب كرة المضرب والركمجة، دمية جميلة من الغرب، وكانت صاحبة تيم غراي. أما مايجور، الذي كان ماراً بدنفر فحسب ويعيش حياته المترفة في الشقة، فقد كان يواعد بتي، أخت تيم غراي. كنت الشاب الوحيد الذي بلا صاحبة. سألت الجميع عن عنوان دين. تولت ابتساماتهم نفيهم بمعرفة مكانه.

ثم حدث الأمر أخيراً. رن الهاتف، وكان كارلو ماركس. أعطاني عنوان شقته. سألته: «ما الذي تفعله في دنفر؟ أعني ما الذي تفعله؟ ما الذي يجري؟».

«أوه، اصبر حتى أخبرك».

هرعت للقائه. كان يعمل حارساً ليلياً في أحد متاجر سلسلة «ماي»، وخابره راي راولينز المجنون من إحدى الحانات إلى مكان عمله، بحجة أن أحد معارفه قد مات، مما جعل البوابين يهرعون للبحث عنه. فكر كارلو فوراً أنني أنا الذي مت، وقال له راي «سال في دنفر»، وأعطاه عنواني ورقم الهاتف.

«وأين هو دين؟».

«دين في دنفر. دعني أخبرك»، وعرفت منه أن دين يعاشر فتاتين في وقت واحد، هما ماري لو، زوجته الأولى، التي تنتظره في غرفة فندق،

وكاميل، فتاة جديدة، تنتظره في غرفة فندق آخر «وما بين الإثنتين يعجّل للقائي لنكمل عملنا».

«أي عمل؟».

«أنا ودين نخوض موسماً هائلاً معاً. نحاول أن نصارح بعضنا بنزاهة وشمولية مطلقتين بكل ما يدور في ذهنينا، ونضطر إلى تعاطي «البنزدرين». نقرفص متواجهين على السرير ونتحدث. وقد أقنعت دين أخيراً أنه يمكنه أن يفعل كل ما قد يخطر على باله، أن يصبح عمدة دنفر إذا شاء، أو أن يتزوج من مليونيرة، أو أن يصبح أعظم شاعر منذ رامبو. لكنه لا يزال مولعاً بسباقات «الميدجتس»[(١)]، التي يصحبني إليها، لكي أتفرج عليه وهو يقفز ويصرخ، متحمساً. مثلما تعرف، سال، دين شديد التعلق بمثل هذه الأشياء». قال كارلو، «همم» في روحه وفكر في الأمر.

«ما الخطة؟»، سألته. كان ثمة دائماً خطة ما في حياة دين.

«الخطة كالآتي: أنهي العمل قبل نصف ساعة من الآن. في الأثناء يكون دين يضاجع ماري لو في الفندق مما يمنحني وقتاً لأبدل ملابسي.، وفي تمام الواحدة يسرع إلى كاميل ـ بالطبع أي منهما لا تعرف بأمر الثانية ـ ويضاجعها مرة، ويمنحني ذلك الوقت حتى أصل عند الواحدة والنصف. ثم يخرج معي ـ عليه أولاً أن يحظى بموافقة كاميل، التي بدأت تكرهني أصلاً ـ ثم نأتي إلى هنا ونتناقش حتى السادسة صباحاً. كنا نمضي وقتاً أطول من ذلك، لكن الأمور بدأت تتعقد بشكل رهيب وبات وقته ضيقاً للغاية. ثم عند السادسة يذهب مجدداً إلى ماري

(١) الميدجتس Midget: تعبير طبي كان يستعمل في القرن التاسع عشر للدلالة على الشخص قصير القامة، ثم اتسع استعمالها لتشمل كل شيء صغير أو قصير، مثل القوارب الصغيرة أو السيارات الصغيرة وهذه الأخيرة هي المقصودة هنا.

لو ـ وسيمضي يوم غد كله في تحصيل الأوراق الضرورية لطلاقهما. ماري لو تؤيد الطلاق كلياً، لكنها تصر على المضاجعة في الأثناء. تقول إنها تحبه، وكذلك كاميل».

ثم أخبرني كيف التقى دين كاميل. روي جونسون، أحد فتيان صالة البليباردو، وجدها في حانة واصطحبها إلى فندق، ومن شدة زهوه بها دعا كل الشلة للمجيء والتعرف إليها، وجلس الجميع يحدّث كاميل، أما دين فاكتفى بالنظر من النافذة، ثم حين همّ الجميع بالمغادرة، بالكاد نظر دين إلى كاميل، وأشار إلى معصمه، راسماً بأصابعه إشارة «أربعة» (قاصداً أنه سيعود عند الرابعة)، وخرج مع البقية. عند الثالثة ظل الباب موصداً بوجه روي جونسون. وعند الرابعة فُتح لدين. جعلتني هذه الخبرية تواقاً إلى رؤية دين فوراً. كان قد وعدني بتدبير فتاة لي، وكان يعرف كل فتيات دنفر.

انطلقت وكارلو في شوارع قديمة رثة في ليل دنفر. كان الهواء ناعماً والنجوم تتلألأ، وكل زقاق مرصوف بالحصى يستبطن وعداً عظيماً، فحسبتني أحلم. وصلنا إلى النزل، وهو بناء قرميدي تحيطه كاراجات خشبية وأشجار قديمة تعلو الأسيجة، وكان دين يماحك كاميل.. طرق كارلو الباب، ثم توارى مختبئاً، لأنه لم يرد أن تراه كاميل. أما أنا فوقفت عند الباب، وفتح لي دين عارياً بالكامل. لمحت فتاة سمراء على السرير، أحد فخذيها قشدي اللون مغطى بشريط أسود مخرم، وجعلت تنظر إليّ بعجب.

«مرحى سااااااال!»، قال دين، «حسناً الآن، آه، إحم ـ أجل بالطبع، لقد وصلت، أيها الوغد أخيراً سافرت على الطريق. حسناً اسمعني الآن ـ علينا ـ أجل، أجل، لحظة ـ علينا، علينا حقاً! لحظة كاميل»، والتفت نحوها، «سال هنا، إنه صديقي القديم من نيويورك، إنها ليلته الأولى في دنفر ومن الضروري جداً بالنسبة إلي أن أصحبه للسهر وأدبر له فتاة ما».

«لكن متى سترجع؟».

«الساعة الآن (ناظراً إلى ساعته) «الواحدة وأربع عشرة دقيقة بالضبط. سأعود في تمام الثالثة وأربع عشرة دقيقة، ونمضي ساعة رائعة معاً، عزيزتي، ثم مثلما تعرفين، مثلما أخبرتك، ومثلما اتفقنا، عليّ الذهاب لرؤية المحامي ذي الرجل الواحدة بخصوص تلك الأوراق ـ في الواحدة بعد منتصف الليل، وبقدر ما يبدو الأمر غريباً ومثلما شرحت لك بشكل واف». (كان ذلك تمويهاً لموعده مع كارلو الذي كان لا يزال متوارياً)، «الآن إذاً، في هذه اللحظة بالذات عليّ أن أرتدي ملابسي، أن ألبس بنطالي، وأن أعود إلى الحياة، أعني الحياة التي في الخارج، الشوارع وما إلى ذلك، مثلما اتفقنا، الساعة الآن الواحدة وأربع عشرة دقيقة والوقت يمر، يمر...».

«حسناً، دين، لكن أرجوك احرص على العودة عند الثالثة».

«مثلما قلت لك حبيبتي.. وتذكري ليس عند الثالثة بل عند الثالثة وأربع عشرة دقيقة.. هل اتفقنا، حبيبتي، في أعمق وأروع أعماق روحينا؟». وقبلها مرات عدة. ولمحت على الجدار رسماً لدين عارياً، بعضو هائل ومنتفعاته، لا بد أن كاميل رسمتها. ذهلت. كل شيء كان بالغ الجنون.

خرجنا إلى العتمة، وانضم إلينا كارلو في الزقاق. ومشينا في أضيق وأغرب زقاق رأيته في حياتي، في قلب دنفر المكسيكية، خارقين السكون بأصواتنا العالية. «سال»، قال دين، «لدي فتاة لك في هذه الدقيقة بالذات ـ إذا لم يكن لديها دوام عمل» (ناظراً إلى ساعته) «إنها نادلة، تدعى ريتا بتنكورت، فتاة طيبة، لكنها تعاني من بعض المشكلات الجنسية التي حاولت أن أحلها وأعتقد أنك ستفلح معها، أيها الأب الرائع أنت. لذا سنذهب فوراً إليها ـ علينا أن نجلب الجعة معنا، لا،

لديهم هم جعة، واللعنة!» قال ماصاً راحة يده، «علي أن أقابل أختها ماري الليلة».

«ماذا؟»، قال كارلو، «اعتقدت أننا سنتناقش».

«أجل، أجل، بعد ذلك».

«أوه، يا لسوداوية دنفر!»، صرخ كارلو في السماء.

«أليس ألطف وأعذب شاب في العالم؟»، قال دين، قارعاً على صدري، «أنظر إليه، أنظر إليه!» و«راح كارلو يرقص كالقرد في شوارع الحياة مثلما رأيته يفعل مرات عدة في نيويورك».

وكل ما استطعت قوله كان «حسناً، كيف بحق الجحيم يمكن أن يجني المرء رزقه في دنفر؟».

«غداً سال، أعرف أين يمكنني العثور على عمل لك»، قال دين بلهجة جدية، «سأخابرك إذاً، ما إن أحظى بساعة راحة من ماري لو، وأصل إلى تلك الشقة حيث تقيم، أسلّم على لمايجور، وأصحبك بالترولي (اللعنة لا أملك سيارة) إلى «أسواق كامارجو»، حيث يمكنك أن تبدأ بالعمل فوراً وتقبض أجرك يوم الجمعة. إننا مفلسون جميعاً. لم يتسن لي الوقت للعمل منذ أسابيع. ليلة الجمعة وبلا أي نقاش يجب أن نذهب ثلاثتنا، الثلاثي القديم كارلو ودين وسال ـ إلى سباق السيارات، ويمكن أن يوصلنا شاب أعرفه في وسط البلد...». وهكذا دواليك بينما نمشي في العتمة.

وصلنا إلى حيث تعيش أخت النادلة، وكانت الأخيرة لا تزال في الدوام، أما الأخت التي أراد دين رؤيتها فكانت هناك. جلسنا على كنبتها. كنت اتفقت مع راي راولينز على مخابرته في ذلك الوقت، فخابرته وجاء فوراً، وما إن عبر الباب حتى خلع كنزته وقميصه التحتاني وبدأ يعانق ماري بتنكورت التي كان يراها للمرة الأولى. تدحرجت

الزجاجات على الأرض. ثم حانت الساعة الثالثة. مضى دين مسرعاً لإمضاء ساعته مع كاميل، ورجع في الوقت المحدد. ثم ظهرت الأخت الثانية وصرنا جميعاً بحاجة إلى سيارة الآن، وكنا نصدر الكثير من الضجيج. اتصل راي بصديق له لديه سيارة، فحضر وتكومنا جميعاً في السيارة، بينما كارلو في المقعد الخلفي يحاول أن يستأنف النقاش المتفق عليه مع دين، لكن كان ثمة الكثير من التشويش. «لنذهب جميعاً إلى شقتي!»، هتفت. فعلنا؛ وما إن توقفت السيارة حتى قفزت منها ووقفت بالمقلوب على العشب، فسقطت كل مفاتيحي ولم أعثر عليها. ركضنا، صارخين باتجاه المبنى. رولاند مايجور ببيجامته الحرير تلك منعنا من الدخول.

«لن أسمح بحدوث أشياء كهذه في شقة تيم غراي!».

«ماذا؟» صرخنا جميعاً. وساد هرج ومرج. كان راولينز يتدحرج على العشب مع إحدى النادلتين. وأصرّ مايجور على منعنا من الدخول، رغم أننا أقسمنا له بأننا سنتصل بتيم غراي ليؤكد موافقته على الحفلة وسندعوه أيضاً، لكننا تخلينا عن الفكرة وهرعنا إلى حانات وسط البلد. بعدها، فجأة وجدت نفسي وحيداً في الشارع بلا مال. آخر دولاراتي قد بُدّد.

وصلت بعد خمسة أميال من السير في كولفاكس إلى سريري الُمريح في الشقة. فتح لي مايجور الباب. تساءلت ما إذا دين وكارلو منخرطين الآن في نقاشهما الحميم ذاك. سأكتشف ذلك لاحقاً. ليالي دنفر باردة. ونمت كلوح من الخشب.

ـ ٨ ـ

ثم بدأ الجميع يستعد لرحلة كبيرة إلى الجبال. صباحاً تلقيت اتصالاً مفاجئاً من صديق الدرب إدي الذي استخرج الرقم من دليل الهاتف بعد

أن تذكر بعض الأسماء التي ذكرتها له. لدي فرصة إذاً لاسترجاع كنزتي. كان إدي يقيم مع فتاته في شارع بعيد من كولفاكس، واتصل ليسألني أين يمكنه العثور على عمل، وقلت له بأن يأتي، متصوراً أن دين يمكن أن يفيده بهذا الشأن. وصل دين، مستعجلاً، بينما نتناول أنا ومايجور إفطاراً سريعاً، ورفض الجلوس حتى، «لدي ألف شيء أقوم به، في الحقيقة بالكاد لدي وقت لاصطحابك إلى كامارغو، لكن هيا بنا يا رجل».

«إنني أنتظر رفيق الطريق إدي».

رأى مايجور في استعجالنا أمراً مسلياً، رغم أنه جاء إلى دنفر للكتابة في أجواء هادئة، وأبدى اهتماماً كبيراً بدين، من دون أن يبادله هذا الأخير ذلك: «موريارتي، ما الذي يشاع عن أنك تضاجع ثلاث فتيات في آن؟». وأجابه دين وهو ينطنط على السجادة «أوه أجل، أوه أجل، هكذا تحدث الأمور»، ونظر إلى ساعته، وتمخّط مايجور. شعرت بالارتباك لاستعجالي الذهاب مع دين الذي يعتبره مايجور، كالجميع، معتوهاً. وبالطبع لم يكن كذلك، وأردت أن أثبت لهم ذلك بطريقة ما.

وصل إدي، ولم يكترث دين لأمره أيضاً، وذهبنا بالترولي في عز الحر بحثاً عن عمل. كرهت الفكرة. وظل إدي يثرثر على جاري عادته، ثم وافق أحدهم على توظيفنا. يبدأ الدوام عند الرابعة فجراً وينتهي عند السادسة بعد الظهر، قال لنا: «أحب الشبان الذين يحبون العمل».

«لقد حصلت على مرادك»، قال إدي، لكنني لم أكن واثقاً من ذلك في ما يخصّني. «ببساطة لن أنام»، قررت، هناك الكثير من الأشياء المثيرة التي أرغب بفعلها.

باشر إدي العمل صباح اليوم التالي، على عكسي، إذ لم أجد نفسي مضطراً لذلك، فكان لدي مكان أبيت فيه، ومايجور يملأ الثلاجة

بالطعام، مقابل أن أتولى الطبخ وغسل الأطباق. وفي الأثناء انغمست في كل شيء. وذات ليلة أقيمت حفلة كبرى في منزل آل راولينز. ذهبت الأم في رحلة، فدعا راي كل معارفه طالباً منهم أن يحضروا الويسكي معهم، ثم راح يبحث في دفتر عناوينه عن الفتيات، وطلب مني التحدث إليهن، فلبّت مجموعة كبيرة منهن الدعوة. خابرت كارلو لأعرف ما الذي يفعله دين الآن، وأخبرني بأنه سيكون عنده ابتداء من الثالثة فجراً. فتوجهت إلى هناك بعد الحفلة.

كانت غرفة كارلو في غرانت ستريت في مبنى قرميدي قديم إلى جوار كنيسة. تنحدر في زقاق، وتهبط بعض الدرجات الحجرية، ثم تفتح باباً قديماً، وتعبر قبواً حتى تصل إلى بابه العريض. كانت أشبه بحجرة قديس روسي: سرير واحد، وشمعة تشتعل، وجدران حجرية تنز رطوبة، وأيقونة مجنونة قديمة صنعها بنفسه. قرأ عليّ إحدى قصائده. كانت بعنوان «سوداوية دنڤرية»، وفيها يصحو دين صباحاً ويسمع «الحمام المبتذل» يهدل في الشارع خارج زنزانته، ويرى «العنادل الحزينة» ترتعش رؤوسها على الأغصان فيتذكر أمه. يهبط كفن رمادي على المدينة. الجبال، جبال روكي المذهلة التي يمكنك أن تراها إذا نظرت غرباً حيثما كنت في المدينة، هي كناية عن «بابييه ماشيه»[1]. الكون كله مجنون وعدمي وفائق الغرابة، ودين هو «طفل قوس قزح» الصابر على عذابه المتجسد في عضوه المعذب، هو «أوديبوس إدي» «المضطر إلى أن يكشط العلكة عن زجاج النافذة». كان كارلو جاثماً، مثلما تجثم دجاجة على بيضها، فوق دفتر يوميات ضخم يسجل فيه أحداث كل يوم بيومه؛ كل ما يقوله دين أو يفعله.

(١) Papeir Matches بالأصل بالفرنسية.

وصل دين في الوقت المحدد، معلناً «لقد سويت كل شيء... سأطلّق ماري لو وأتزوج كاميل ونعيش معاً في سان فرانسيسكو، لكن هذا ليس قبل أن نذهب أنا وأنت والعزيز كارلو إلى تكساس لنزور أولد بال لي، ذلك الرائع الذي أخبرتماني الكثير عنه، وبعدها إلى سان فرانسيسكو».

ثم انخرطا في شؤونهما الجادة. فقرفصا على السرير محدّقين في عيني بعضيهما، أما أنا فارتميت على مقعد قريب، مكتفياً بالفرجة. بدآ بنقاش فكرة مجردة، ثم تذكرا فكرة أخرى كانا أجّلاها سابقاً بسبب ضيق الوقت، واعتذر دين عن ذلك، لكنه وعد بالعودة إلى الفكرة وبإشباعها نقاشاً، وتدعيمها بالبراهين.

قال كارلو: «وفي اللحظة التي كنا نعبر فيها وازي ستريت أردت أن أخبرك عن شعوري حيال هوسك بسباقات السيارات الصغيرة، وأتذكر عندها أنك أشّرت إلى متشرد عجوز وقلتَ إنه يشبه والدك تماماً؟».

«أجل، أجل بالطبع أذكر، وليس هذا فحسب، لكن بدأت عندها بفكرة تخصني، شيء جامح فعلاً عليّ أن أخبرك عنه، كنت قد نسيته لكنك ذكرتني به الآن...»، وولدت فكرتان جديدتان أشبعاهما نقاشاً. ثم سأل كارلو دين ما إذا كان نزيهاً، تحديداً إذا ما كان نزيهاً معه في أعماق روحه.

«لماذا تذكر ذلك ثانية؟».

«هناك أمر أخير أود معرفته».

«لكن، عزيزي سال، أنت تستمع أليس كذلك، أنت جالس معنا، فلنسأله رأيه؟».

وأجبت: «هذا الأمر الأخير هو ما لا يمكنك الحصول عليه كارلو. لا أحد يمكنه الوصول إلى النزاهة المطلقة. نمضي في الحياة آملين بالتقاطها مرة واحدة وإلى الأبد».

«لا، لا، لا، ما تقوله هراء مطلق وترهات تشبه ترهات ڤرجينيا وولف الرومانسية»، أجاب كارلو.

وقال دين «لم أعن هذا على الإطلاق، لكننا سنسأل سال رأيه الصريح، وفي الحقيقة، ألا ترى معي يا كارلو، بأن هناك نوعاً من الشموخ في الطريقة التي يجلس فيها هناك ويتأملنا، هذا الفتى المجنون، لقد عبر كل أميركا ـ سال الطيب لن يقول رأيه، سال الطيب لن يدلي بدلوه».

«ليس أنني أرفض ذلك»، أجبت محتجاً، «لكنني لا أعرف ما الذي ترميان إليه أو تحاولان الوصول إليه... أعرف أن هذا يفوق احتمال أي كان».

«كل ما تقوله سلبي».

«إذاً ما الذي تحاولان فعله؟».

«أخبره».

«لا، أخبره أنت».

«ليس من شيء لتخبراه»، قهقهت. كنت أعتمر قبعة كارلو، فأسدلتها على عيني «أريد أن أنام»، قلت.

«سال المسكين دائماً يريد أن ينام». تمسكت بصمتي. استأنفا النقاش. «حين استدنت مني تلك القروش الخمسة لكي تشتري شريحة الدجاج المقلي..».

«لا، يا رجل، لم يكن الدجاج المقلي، بل التشيلي، ألا تذكر، اسمه نجمة تكساس؟».

«كنت أمزجه مع تيوزداي، حين استدنت مني القروش، وقلت لي، «كارلو هذه آخر مرة أفرض نفسي فيها عليك»، كما لو أنك حقاً قصدت أنني اتفقت معك على مسألة عدم فرض النفس مجدداً».

«لا، لا، لا، لم أعن ذلك، ارجع الآن إذا شئت، يا صديقي العزيز، إلى الليلة التي كانت ماري لو تبكي فيها في الغرفة، وحين التفتّ إليك ومشيراً بجديتي الفائضة إلى الحد الأقصى الذي كلانا كان يعرف أنه مفبرك لكن كان ثمة قصد من ورائه، ذلك أنه بلعبي ذاك الدور أظهرت أنه. . . لكن لحظة، ليست هذه هي المسألة».

«بالطبع، ليست هي، لأنك نسيت ذلك ـ لكنني سأكف عن اتهامك، أصدق ما تقوله. . .». واستمرا على هذا المنوال حتى الصباح. وحين فتحت عينيّ فجراً كانا قد وصلا إلى آخر مسائل الصباح، «حين قلت لك إنه عليّ أن أنام لأنني يجب أن أقابل ماري لو، عنيت أنني سأقابلها اليوم عند العاشرة صباحاً، لكنني لم أتأفف حين قلت لي إنه لا داعي للنوم، لكنني فقط، فقط أذكرك، بسبب حقيقة أنني مطلقاً وببساطة وبصفاء ومن دون أي تحايل من أي نوع يجب أن أنام الآن، أعني يا رجل، عيناي تغمضان تلقائياً، لقد احمرتا، أنهكتا، دمرتا. . .».

«آه، يا لك من طفل»، أجابه كارلو.

«علينا أن ننام الآن. فلنوقف الآلة».

«لا يمكنك إيقاف الآلة!»، زمجر كارلو. وسمعتُ شدو أول طيور الصباح.

«الآن حين أرفع يدي»، قال دين، «سنكفّ عن التكلم، وسيفهم كلانا بصفاء ومن دون أي نكد أننا سنكفّ عن الكلام وسننام بكل بساطة».

«لا يمكنك إيقاف الآلة بهذه الطريقة».

«أوقفا الآلة»، قلت. فنظرا إلي.

«لقد كان مستيقظاً طوال الوقت، مصغياً. ما الذي كنت تفكر به سال؟». قلت لهما إنهما مجنونان رائعان وإنني أمضيت الليلة كلها

متفرجاً على ميكانيكية الساعة وقد وصلت بوضوح إلى ذروتها، ومع ذلك ورغم بساطتها الشديدة، فهي أدق ساعة في العالم. ابتسما. أشّرت عليهما «إذا ما استمررتما على هذا النحو، فستجنان، لكن أبقياني مطلعاً على ما يجري معكما في الأثناء».

خرجت وركبت الترولي إلى شقتي، بينما جبال كارلو ماركس «البابييه ماشيه» تكتسي حمرة مع شروق الشمس من نواحي السهول.

- ٩ -

انخرطتُ مساء في الرحلة إلى الجبال ولم أرَ دين أو كارلو خلال الأيام الخمسة التالية. أحضرت بايب راولينز سيارة مديرها الذي سمح لها باستخدامها خلال عطلة نهاية الأسبوع، وجلبنا معنا بدلات علقناها على نوافذ السيارة وتولى راولينز القيادة إلى سنترال سيتي، فيما جلس تيم غراي في الخلف، وبايب في المقعد الأمامي. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها جبال روكي عن كثب. سنترال سيتي هي مدينة مناجم قديمة عرفت قديماً بأنها «أغنى كيلومتر مربع في العالم»، حيث اكتشف أوائل الباحثين عن الثروة رفاً صخرياً من الفضة، فأثروا بين ليلة وضحاها، وأنشأوا دار أوبرا صغيرة وسط أكواخهم عند المنحدر العميق، وقد شهدت تلك الدار أيام عز حقيقية، حيث شدت فيها ليليان راسل، ونجوم آخرون من أوروبا. ثم جاء زمن تحولت سنترال سيتي فيه إلى مدينة أشباح، حتى قرر أعضاء غرفة التجارة في الغرب الجديد إعادة إحياء المكان، فجدّدوا الدار وعكفوا كل صيف على دعوة نجوم «مسرح متروبوليتان» ليقدموا عروضهم فيها. كانت نهاية عطلة أسبوع كبرى للجميع. تدفق السائحون من كل مكان، بمن فيهم نجوم هوليوود. تقدمنا صعوداً في الجبل ووجدنا الشوارع الضيقة مكتظة بالسائحين

المبهرجين. تذكّرت شخصية سام التي ابتكرها مايجور، وأنه كان محقاً. مايجور نفسه كان هناك، مواجهاً الجميع بابتسامة مجاملة واسعة ومردداً «أوه» و«آه» بجدية فائقة تعليقاً على كل شيء. «سال»، هتف وهو يجذب ذراعي «أنظر إلى هذه البلدة القديمة، تخيل كيف كانت قبل مئة سنة، لا بل قبل حتى ثمانين أو ستين سنة؛ كان لديهم أوبرا!».

«أيـه»، أجبت محاكياً شخصياته، «لكنهم هنا»، قاصداً الأشخاص المخاتلين التافهين.

«الأوغاد»، صرخ، لكنه مضى ليسلّي نفسه، متأبطاً ذراع بتي غراي.

كانت الشقراء بايب راولينز شغوفة بالمغامرة، وكان بحوزتها مفاتيح كوخ قديم عند طرف البلدة، يمكننا نحن الشبان أن نأوي إليه خلال عطلة نهاية الأسبوع، وأن نقيم الحفلات الصاخبة، شرط أن ننظفه. كان البيت الذي يتضمن شرفة خلفية أشبه بكوخ مكسو بالغبار. شمّر تيم غراي وراي راولينز عن ساعديهما وشرعا بالتنظيف، واستغرقهما العمل طوال فترة بعد الظهر وبعض المساء. لكن كانت الجعة وفيرة وكل شيء كان على ما يرام.

أما أنا فكنت قد وعدت بايب بمرافقتها مساء إلى الأوبرا، فتأنّقت في إحدى بدلات تيم، التي بدلت شكلي تماماً. قبل بضعة أيام وصلت متشرداً إلى دنفر، وها أنا الآن في أفضل حلة، بصحبة فتاة رائعة أنيقة، أحني رأسي محيياً ذوي المقام الرفيع وأتبادل الأحاديث معهم تحت الثريات في الردهة. تساءلت ما الذي يمكن أن يقوله مسيسيبي جين لو أنه رآني الآن.

الأوبرا كانت «فيدليو»؛ «يا للأسى!»، صرخ الجهير الأول، وهو ينهض من تحت البلاطة في زنزانته. ورنوت نحوه بكل كياني. هكذا أرى الحياة أيضاً. استحوذت الأوبرا عليّ إلى حدّ أنني نسيت ظروف حياتي العجيبة وتهت مع موسيقى بتهوفن الحزينة وقصته الرامبرانتية.

«إذاً سال هل أعجبك عرض هذه السنة؟»، سألني دنڤر دي دول بفخر في الشارع خارج الدار. كان على علاقة وثيقة بجمعية الأوبرا.

«يا للأسى! يا للأسى!»، رددتُ «إنها عظيمة حقا».

«يجب أن أعرّفك إلى أعضاء الفرقة»، قال بجدية، لكنه لحسن حظي نسي الأمر في زحمة الأشياء واختفى.

عدت وبايب إلى الكوخ، وانضممت إلى أعمال التنظيف. كان جهداً جباراً. جلس مايجور في وسط الغرفة الأمامية التي أصبحت نظيفة رافضاً المساعدة، واضعاً على طاولة صغيرة أمامه جعة وكأساً، وبينما نحن نلهث حاملين دلاء المياه والمكانس راح يتذكر: «آه فقط لو يمكنكم الذهاب معي يوماً واحتساء السينزانو وسماع موسيقيي باندول، فستكتشفون الحياة حقاً. ثم هناك النورماندي صيفاً، والفلاحون الفرنسيون، وشراب كلفادوس المعتق. هيا يا سام»، قال مخاطباً رفيقه الخفي، «فلتخرج النبيذ من الماء ولنر ما إذا برد كفاية بينما نتصيد»، عبارة آتية مباشرة من عالم همنغواي.

نادينا على الفتيات المارات في الشارع «ساعدننا على تنظيف الكوخ، وأنتن مدعوات إلى حفلتنا الليلة»، فانضممن إلينا، واتسع فريق العمل، وأخيراً وصل منشدو الكورس، ومعظمهم صغار السن، وانضموا إلى الفريق. غربت الشمس.

انتهى يوم عملنا، وقررنا أنا وتيم راولينز أن نتأنق من أجل الليلة الكبيرة، فتوجهنا إلى الفندق الذي ينزل فيه نجوم الأوبرا، وكانت بدأت تتردد من دار الأوبرا أصداء بداية العرض المسائي. «هيا يا شباب»، قال راولينز، «خذوا معكم بعض شفرات الحلاقة والمناشف ولنتهندم قليلاً». أخذنا أيضاً فراشي الشعر والكولونيا ومستحضرات الحلاقة، وتوجهنا إلى الحمام. استحممنا جميعاً ونحن نغنّي، وظل تيم غراي يردّد «أليس رائعاً

أن نستعمل حمام ومناشف ومستحضرات نجوم الأوبرا وماكينات حلاقتهم».

كانت ليلة رائعة. سنترال سيتي تقع على ارتفاع ميلين، وفي البداية يدوخك الارتفاع، ثم تشعر بالتعب، ثم تشتعل الحمى في روحك. اقتربنا من الأضواء المحيطة بدار الأوبرا وانحدرنا إلى الشارع الضيق المعتم، ثم انعطفنا يميناً وتسكعنا بين الحانات. معظم السائحين كانوا في دار الأوبرا. بدأنا ببعض كؤوس الجعة كبيرة الحجم. كان هناك عازف بيانو، ووراء الباب الخلفي يلوح مشهد الجبال تحت شعاع القمر. صرخت «ياهووو». اشتعلت الليلة.

ثم هرعنا إلى الكوخ حيث كان التحضيرات جارية من أجل الحفلة الكبرى، فحضرت بايب وبتي بمساعدة الفتيات وجبة سريعة من الفاصولياء والفرانكس، ثم بدأنا الرقص وشرب الجعة، وبعد انتهاء الأوبرا انضمّت إلينا مجموعة كبيرة من الفتيات، اللواتي راقصناهن ولعابنا يسيل رغبة بهن. لم يكن هناك موسيقى، فقط رقص. ثم اكتظ المكان. وبدأ الناس يجلبون الزجاجات، وصرنا نعدو ذهاباً وإياباً بين الحانات، بينما تزداد الليلة سعاراً. تمنيت لو أن دين وكارلو كانا معنا، ثم أدركت أنهما سيكونان غريبين في هذه الأجواء وغير مرتاحين. كانا مثل الرجل مع بلاطة الزنزانة والأسى، يخرجان من زنزانتهما تحت الأرض، صعاليك أميركا القذرين، **جيل بيت** من نوع جديد، كنت أنضم إليه ببطء.

ثم جاء فتيان الكورس. بدأوا يغنون «أدلين الجميلة»، وأغنيات مثل «مرر لي الجعة»، و«ما الذي تفعله ماداً وجهك على هذا النحو؟»، وعواءات طويلة هائلة «في ـ دي ـ ليو!»، «آه يا للأسى!»، غنيت. كانت الفتيات رائعات، ورحن يعانقننا في الباحة الخلفية، وكان ثمة أسرة في

الغرف الأخرى، تلك المغبرة التي لم نقم بتنظيفها، ووجدت نفسي مع إحداهن على السرير حين اقتحم المكان فجأة حشد كبير من عمال دار الأوبرا المراهقين، الذين أخذوا يشدّون الفتيات ويقبلوهن من دون القيام بالمقدمات اللائقة. خرّب أولئك المراهقون، السكرانون، المتحمسون، المشعثون، حفلتنا. وفي غضون خمس دقائق لم تبق فتاة واحدة في المكان، لتتحول الحفلة ذكورية بالكامل مع كل الصراخ والقرع بزجاجات الجعة.

غادر مايجور وبايب وبتي الحفلة، فقررت وراي وتيم القيام بجولة أخرى على الحانات. مشينا مترنحين في الليل، وكانت معظم الحانات مكتظة بجمهور الأوبرا، وراح مايجور يصرخ فوق رؤوس الجميع، بينما دنفر دي دول المندفع بنظاراته الطبية، يصافح كل من يصادفه مردداً «عمت صباحاً، كيف حالك؟»، وحتى حين انتصف الليل كنت لا تزال تسمعه يقول «عمت صباحاً، كيف حالك؟». وفي لحظة ما رأيته يخرج مع أحد البورجوازيين، ليعود مع سيدة أربعينية، وبعدها بدقيقة رأيته يتحدث مع حاجبين شابين في الشارع، ثم ها هو يصافحني من دون أن يعرفني «سنة سعيدة أيها الشاب». لم يكن ثملاً بالخمر، بل بحشود الناس. «سنة جديدة سعيدة»، كان يقول وأحياناً «ميلاداً سعيداً..» لا بد من أنه في فترات الميلاد يقول «هالوين سعيد».

كان هناك مغني تينور يبدو أنه يحظى باحترام الجميع، وأصرّ دنفر دول على أن يعرفني إليه رغم محاولتي تجنب ذلك، كان اسمه دانوزيو أو شيء من هذا القبيل، وكان وزوجته، يجلسان متجهمين على الطاولة. كان هناك أيضاً سائح أجنبي، في الغالب أرجنتيني، جالساً عند البار، ولكزه راولينز لكي يفسح له في المجال، فالتفت إليه وزمجر غاضباً. فلم يكن من راولينز إلا أن ناولني كأسه وبطح الرجل أرضاً بلكمة

واحدة. غاب الأخير عن الوعي فوراً، وحدثت جلبة عظيمة ولم يتمكن «الشريف» من شق طريقه بين الحشود إلى الضحية. لم ينتبه أحد إلى أن راولينز هو من فعل ذلك. قصدنا حانة أخرى. ورأينا مايجور يترنح في زقاق معتم «ما الأمر؟ هل من قتال؟ أنا جاهز للمشاركة». ففرقع الجميع بالضحك. وتساءلت ما الذي تفكر فيه **روح الجبل** الآن، ونظرت عالياً ورأيت أشجار الصنوبر تحت ضوء القمر، ورأيت أرواح عمال المناجم القدامى، وتساءلت حول الأمر. إلى الجانب الشرقي المعتم من الحرف الفاصل بين سلسلتي الجبال كان الصمت وصفير الرياح، ما عدا في الوادي حيث كنا نمضي صاخبين، وعند الطرف المقابل من الحرف الفاصل كان **سفح الغرب** العظيم، والهضاب الضخمة الممتدة إلى ينابيع ستمبوت، قبل أن تنحدر إلى صحراء كولورادو الغربية، وإلى صحراء يوتاه، كل الظلمة الآن ونحن نصرخ هائجين في عزلتنا الجبلية، أميركيون مجانين في الأرض الشاسعة. كنا على سطح أميركا وكل ما يمكننا فعله أن نصرخ في الليل، شرقاً فوق السهول، حيث في مكان ما عجوز أشيب الشعر يمشي على الأرجح نحونا حاملاً **الكلمة**، ويمكن أن يصل في أي لحظة ويخرسنا جميعاً.

أصرّ راولينز على العودة إلى الحانة التي تشاجر فيها، ولم تعجبني وتيم الفكرة لكننا بقينا معه. هناك، اتجه نحو دانوزيو، مغني التينور، ورماه بالشراب، فجررناه جراً إلى الخارج، وكان انضم إلينا أحد مغني الكورس وانتقلنا إلى حانة اعتيادية أخرى. هناك نعت راي النادلة بـ«عاهرة»، وكان ثمة زمرة من الرجال العابسين جالسين على البار، ومن الواضح أنهم يمقتون الغرباء. قال أحدهم «أنتم أيها الفتيان من الأفضل أن تكونوا خرجتم من هنا قبل أن أنهي العد إلى عشرة». فخرجنا. عدنا إلى الكوخ ونمنا.

في الصباح أفقت متقلباً في السرير، كتلة هائلة من الغبار أثيرت من الوسادة. حاولت فتح النافذة، فوجدتها مغلقة بالمسامير. كان تيم غراي في السرير أيضاً. رحنا نسعل ونعطس، ثم أفطرنا الجعة البائتة. ثم جاءت بايب من الفندق وحزمنا أغراضنا استعداداً للمغادرة.

كل شيء بدا متداعياً. في طريقنا إلى السيارة تعثرت بايب ووقعت على وجهها. المسكينة كانت مدمرة. ساعدناها، أخوها وتيم وأنا، على النهوض. ركبنا السيارة، ثم انضم إلينا مايجور وبتي، وبدأنا رحلة العودة الحزينة إلى دنفر.

هبطنا الجبل وأطللنا فجأة على بحر دنفر الواسع المنبسط، وهبت الرياح الحارة كما من فرن. بدأنا نغني. كنت متلهفاً للذهاب إلى سان فرانسيسكو.

ـ ١٠ ـ

عثرت تلك الليلة على كارلو ودُهشت حين أخبرني أنه ودين كانا في سنترال سيتي.

«ماذا فعلتما هناك؟».

«أوه، تنقلنا بين الحانات ثم سرق دين سيارة وعدنا بها عبر المنعطفات الجبلية بسرعة تسعين ميلاً بالساعة».

«لكنني لم أركما».

«لم نكن نعلم أنك هناك».

«حسناً يا صاحبي أنا ذاهب إلى سان فرانسيسكو».

«لكن دين دبر لك موعداً مع ريتا الليلة».

«في هذه الحالة سأؤجل الأمر». كان قد نفد مالي، فراسلت عمتي وطلبت منها أن ترسل لي خمسين دولاراً قائلاً لها إن هذا سيكون آخر

مبلغ أطلبه منها، وأنه بعد ذلك ستكون هي التي تتلقى مالاً مني، ما إن أبدأ العمل على تلك السفينة.

ثم التقيت ريتا بتنكورت واصطحبتها إلى الشقة، ووصلت بها إلى غرفة النوم بعد حديث طويل في غرفة الجلوس المعتمة. كانت فتاة صغيرة لطيفة، بسيطة وصادقة، وتعاني من رهاب الجنس. فقلت لها إن الجنس رائع، وأردت أن أثبت لها ذلك، وسمحت لي، لكنني لم أكن صبوراً كفاية معها، ولم أثبت شيئاً. تنهدتْ في الغرفة المعتمة. «ما الذي تريدينه من الحياة؟»، وكان من عادتي أن أطرح هذا السؤال على جميع الفتيات.

«لا أعرف»، قالت، «فقط خدمة الطاولات ومحاولة مجاراة الأمور». تثاءبت، فوضعت يدي على فمها، طالباً منها ألا تفعل ذلك. حاولت أن أخبرها عن مدى حماستي للحياة وعن الأمور التي يمكننا فعلها معاً، علماً أنني كنت حسمت أمر مغادرتي دنفر في غضون يومين. ابتعدت عني بشكل غريب. اضطجعنا على ظهرينا، ناظرين إلى السقف ومتسائلين لماذا جعل الرب الحياة حزينة إلى هذا الحد. ثم تواعدنا بشكل ضبابي على اللقاء في فريسكو.

وصلت تجربتي في دنفر إلى نهايتها، أدركت ذلك وأنا أوصلها إلى بيتها سيراً على الأقدام، وفي طريق العودة تمددت على العشب خارج كنيسة قديمة مع مجموعة من المتشردين، وأثارت فيّ أحاديثهم الرغبة بالعودة إلى الطريق. وبين الحين والآخر كان ينهض أحدهم لكي يستعطي فلساً من أحد العابرين. كان الجو دافئاً وناعماً، وراحوا يتحدثون عن انتقال مواسم الحصاد إلى الشمال. ورغبت بأن أرجع وألتقي ريتا مجدداً وأحكي لها الكثير من الأمور التي لم أحكها لها، وأمارس معها الجنس بالفعل هذه المرة، وأبدد مخاوفها من الرجال.

الصبيان والبنات في أميركا يمضون وقتاً بائساً معاً، إذ تدفعهم تعقيدات الأمور إلى مباشرة الجنس من دون الأحاديث التمهيدية المناسبة، ولا أعني كلام الغزل، بل الحديث المباشر عن الروح، لأن الحياة مقدسة وكل لحظة فيها ثمينة. سمعت قطار «دنفر ريو غراندي» يهدر نحو الجبال. أردت أن أطارد نجمتي إلى مسافة أبعد.

ليلاً جرى حديث حزين بيني وبين مايجور: «هل قرأت تلال أفريقيا الخضراء؟ إنها أفضل ما كتبه همنغواي». تمنينا لبعضنا الحظ الحسن. واتفقنا على اللقاء في فريسكو. رأيت راولينز تحت شجرة في الشارع، «وداعاً راي.. متى نلتقي ثانية؟»، وبحثت عن كارلو ودين ـ فلم أجدهما. لوّح لي تيم غراي قائلاً، «إذاً، أنت مغادر يا يو». كنا ننادي بعضنا «يو». «أجل». خلال الأيام القليلة الفائتة جلت في دنفر. وكان يبدو لي كل متشرد في لاريمير ستريت والد دين موريارتي، كانوا يسمونه دين موريارتي العجوز، السنكري. ذهبت إلى فندق وندسور، حيث عاش الأب والإبن ردحاً من الزمن، وحيث استيقظ دين مذعوراً ذات ليلة حين تقدم منه الرجل مبتور الساقين الذي كان يشاركهما الغرفة، وحاول التحرش به. رأيت المرأة قصيرة الرجلين التي تبيع جريدة سباقات السيارات الصغيرة. تنقلت بين كورتيس وفيفتيث حيث أولاد بالجينز والكنزات الحمراء، وحيث قشور الفستق ولافتات صالات السينما، ووراء الشوارع المتلألئة العتمة، ووراء العتمة الغرب. يجب أن أمضي.

فجراً عثرت على كارلو. قرأت بعض يومياته الهائلة، ونمت في حجرته، وفي الصباح الرمادي الماطر، جاء إد دانكل برفقة الوسيم روي جونسون، وتوم سنارك، ملك البليياردو، وتحلقوا يصغون بابتسامات خجولة إلى كارلو ماركس وهو يقرأ شعره القيامي المجنون. وتهاويت

على مقعدي، مدمراً. «أوه يا عصافير دنفر!»، هتف كارلو. خرجنا كلنا واتجهنا إلى زقاق دنفري نموذجي وسرنا بين مواقد القمامة التي يرتفع دخانها ببطء، «كنت ألعب كرة السلة في هذا الزقاق»، أخبرني تشاد كنغ ذات مرة. أردت أن أراه يفعل ذلك، أردت أن أرى دنفر قبل عشر سنوات حين كانوا جميعاً ما زالوا أولاداً، وفي الصباحات الربيعية المشمسة حين يزهر الكرز في جبال روكي، وهم يلعبون الكرة في الأزقة الفرحة ممتلئين بالوعود ـ الشلة كلها. ودين الوسخ، لابساً الأسمال، يجوب الشوارع وحيداً، قبل حمى انشغالاته هذه.

مشيت وروي جونسون تحت الرذاذ، ذهبت إلى منزل صاحبة إدي لاستعادة كنزتي الصوف، الكنزة التي أعرتها له في شلتون، نبراسكا. وجدتها هناك، الكنزة الكبيرة الحزينة. قال روي جونسون إنه سيوافيني إلى فريسكو. الجميع سيوافيني إلى هناك، ذهبت ووجدت أن الحوالة المالية قد وصلت. غابت الشمس، ورافقني تيم غراي إلى المحطة. ابتعت تذكرة إلى سان فرانسيسكو، منفقاً نصف الخمسين دولار، وعدت عند الثانية ظهراً. لوح لي تيم غراي مودعاً. خرجت الحافلة من شوارع دنفر القديمة. «يجب أن أرجع وأرى ماذا سيحدث أيضاً!»، وعدتُ نفسي بذلك. خابرتُ دين عند الدقيقة الأخيرة وقال لي إنه وكارلو قد ينضمان إلي في الساحل، وإذ تفكّرت قليلاً أدركت أنني لم أحادث دين لأكثر من خمس دقائق طوال فترة وجودي في المدينة.

ـ ١١ ـ

تأخرت أسبوعين عن موعدي مع ريمي بونكور. وخَلت رحلتي بالحافلة إلى فريسكو من الأحداث المهمة، سوى أن كياني كله بدأ يتوثّب مع اقترابي منها. شايين مجدداً، بعد الظهر هذه المرة، ثم غرباً

فوق سلسلة الجبال، عبوراً للحرف الفاصل بينها منتصف الليل عند كرستون، لنصل فجراً إلى سالت لايك، وهي مدينة من المرشّات المائية، آخر مكان يمكن أن يولد فيه دين، ومن هناك إلى نيڤادا تحت الشمس اللاهبة، ثم رينو بشوارعها الصينية المتلألئة، عند منتصف الليل، ثم صعوداً إلى جبال سييرا نيڤادا، حيث أشجار الصنوبر، والنجوم، والأكواخ الجبلية التي تعبق منها روائح قصص الحب في فريسكو. كان في الحافلة طفلة تبكي شاكية: «ماما، متى نصل إلى تروكي؟». ثم تروكي الحميمة، ثم هبوطاً إلى سهول ساكرامنتو. لأدرك فجأة أنني في كاليفورنيا، حيث الهواء الدافئ ـ الذي يمكنك تقبيله ـ والكثير من النخيل. ثم على الطريق السريعة بمحاذاة نهر ساكرامنتو، ثم التلال ثانية، صعوداً، ونزولاً، قبل أن نطلّ قبيل الفجر على الخليج الفسيح الممتد، وأنوار فريسكو الناعسة المتسلسلة. فوق جسر خليج أوكلاند غفوت بعمق للمرة الأولى منذ مغادرتي دنڤر، بحيث اضطر أحدهم، في محطة الحافلات عند تقاطع ماركت وفورث، إلى أن يهزّني بعنف لأصحو، لأجد نفسي على بعد ثلاثة آلاف ومائتي ميل عن منزل عمتي في باترسون، نيوجيرزي. جلت مثل شبح منهك في شوارع فريسكو الطويلة، وأسلاك عرباتها الترولي المعلقة في الهواء الضبابي، وتسوّل مني متشردون غرباء (عند تقاطع ميشين وثيرد) القروش فجراً. سمعت الموسيقى تنبعث من مكان ما، وقلت «سأستكشف ذلك كله لاحقاً، أما الآن فعليّ الوصول إلى ريمي بونكور».

تقع ميل سيتي، حيث يعيش ريمي، في كنف واد سحيق تنتشر على سفوحه الأشجار، وتتكون من مجموعة بيوت صغيرة شيّدت في إطار مجمّع سكني لإيواء العمال المتنقّلين خلال الحرب. هناك محلات خياطة وحلاقة خاصة بقاطني المجمّع الذي يشكّل، مثلما يقال، المجتمع

الوحيد في أميركا الذي يتعايش فيه السود والبيض طواعية، وكانت بلدة جميلة وأنيسة لم أر مثيلاً لها في حياتي. على باب بيت ريمي وجدت ملحوظة علقها هناك قبل ثلاثة أسابيع.

سال بارادیز، (بأحرف طباعية ضخمة) «ذا لم تجد أحداً في البيت فادخل من النافذة».

التوقيع

ريمي بونكور.

كانت الملحوظة قد اهترأت وبهت لونها بفعل الطقس.

دخلت من النافذة لأجده في الداخل، نائماً بجوار فتاته، لي آن، على سرير سرقه من سفينة شحن، مثلما أخبرني لاحقاً؛ تخيل مهندساً في سفينة تجارية ينسلّ خفية عند منتصف الليل مهرباً سريراً إلى الشاطئ. هذا بالكاد يعبّر عن شخصية ريمي بونكور.

سوف أحكي الآن ما حدث سابقاً في سان فرانسيسكو لأنه وثيق الصلة بما جرى بعد ذلك. تعود علاقتي بريمي إلى المدرسة التحضيرية قبل سنوات، لكن ما ربطنا ببعضنا حقاً كان زوجتي السابقة. فقد تعرف ريمي إليها قبلي، وقصدني يوماً إلى غرفتي في السكن الطالبي ليقول لي: «بارادايز، انهض، المايسترو العجوز جاء ليراك». نهضت وارتديت بنطالي موقعاً بعض القروش على الأرض. كانت الرابعة بعد الظهر، وكنت أمضي معظم وقتي في الكلية نائماً. «رويدك، رويدك، لا تهرهر ذهبك أينما كان. . . لقد التقيت أروع فتاة في العالم، وسوف أمضي معها الليلة مباشرة إلى عرين الأسد». وجرني جراً للقائها، وبعد أسبوع صارت تواعدني. ريمي شاب فرنسي طويل أسمر ووسيم (يشبه أحد فرسان مارسيليا)، يتكلم الأميركية العامية، وإنكليزيته ممتازة أيضاً

كفرنسيته. وعلى غرار طلاب الكليات، يحب التأنق ومواعدة الشقراوات الجميلات، وتبذير المال. ولم يلمني يوماً على مواعدتي فتاته، لكن لطالما ربطتنا هذه المسألة معاً، كان وفياً لي ويحبني فعلاً، والله وحده يعرف السبب.

حين وجدته في ميل سيتي ذلك الصباح كان يمر بتلك المرحلة النحس التي يمر بها الشبان في منتصف عقدهم الثاني، متسكعاً بانتظار وصول سفينة، ويعمل في الأثناء حارساً خصوصياً في مخيمات العمل، عند الطرف الآخر من الوادي. كانت صاحبته لي آن سليطة اللسان لا تكف عن قصفه بتعليقاتها اللاذعة. وكانا يدّخران المال طوال الأسبوع ثم يذهبان ليلة السبت وينفقان خمسين دولاراً في ثلاث ساعات. ريمي يرتدي السروال القصير في البيت، معتمراً قبعة عسكرية غريبة، ولي آن تتجول رافعة شعرها بالدبابيس، وبهاتين الهيئتين يزعقان بوجهي بعضيهما طوال الأسبوع. لم أرَ في حياتي هذا القدر من المشاحنات. لكن ليلة السبت، مبتسمين بكل تهذيب، يخرجان للسهر في إحدى حانات البلدة كزوجين هوليوديين محترمين.

استيقظ ريمي ورآني أدخل من النافذة. ضحكته، وهي من أعظم الضحكات في العالم، صمّت أذني «آآآآه بارادايز، إنه يدخل من النافذة، إنه ينفذ التعليمات بحذافيرها. أين كنت... لقد تأخرت أسبوعين!»، ضارباً بقوة على فخذيه، ثم على صدر لي آن، مستنداً إلى الحائط، صارخاً وضاحكاً، ومصدراً بطرقاته على الطاولة دوياً لا بدّ من أنه بلغ أسماع الجميع في البلدة، وتلك الـ«آه» الطويلة الهائلة تتردد أصداؤها في أنحاء الوادي. «بارادايز... بارادايز النادر، بارادايز الضروري».

كنت قد مررت في طريقي إلى ميل سيتي بقرية بحرية تدعى سوساليتو، وأول ما قلته كان: «لا بدّ هناك الكثير من الإيطاليين في

سوساليتو!»، فصرخ ملء رئتيه «آآآآه»، ضارباً على فخذيه، ومنقلباً عن السرير، ومتدحرجاً على الأرض «أسمعتِ ما قاله باراديز تواً؟ لا بد هناك الكثيرمن الإيطاليين في سوساليتو؟ آآآآه ـ ها ها! هووو! واوا! ويـ يـ يـ! واحمرّ وجهه كحبة شمندر، ضاحكاً، «أوه، يا لك من رجل، لقد ذبحتني، أنت أظرف شخص في العالم، وها أنت هنا، لقد وصلت أخيراً، لقد دخل من النافذة، أرأيته يا لي آن، التزم التعليمات ودخل من النافذة. آههه! هووووو!».

ومن غرائب الأمور أنه في المسكن المجاور كان يعيش رجل أسود يدعى السيد سنو، وأقسم أن ضحكته هي أعظم ضحكة في العالم. يبدأ السيد سنو هذا نوبة الضحك على مائدة الطعام حين تقول زوجته شيئاً اعتيادياً، فينهض، مختنقاً بالطعام، ويستند إلى الجدار، وينظر إلى السماء، ثم يخرج مترنحاً من الباب، معتمداً على جدران البيوت، ثم ثملاً بالضحك يروح يدور في البلدة رافعاً صرخته المنتصرة الجبارة إلى الشيطان الذي لا بد من أنه من زرع فيه مثل هذه الضحكة. لست أكيداً من أنه أنهى طعامه مرة. وهناك احتمال أن يكون ريمي قد تأثّر في لاوعيه بهذا الرجل المدهش. ومع أن ريمي كان يعاني مشكلات في حياته العملية، كما في حياته العاطفية مع تلك المرأة سليطة اللسان، فقد تعلم على الأقل أن يضحك تقريباً أفضل من أي شخص في العالم، ورأيت في ذلك عيّنة من المرح الكبير الذي سنعيشه في فريسكو.

كان اتفاقنا كالآتي: ريمي ينام مع لي آن على السرير، وأنا أنام على السرير النقّال بجوار النافذة، وعليّ ألا ألمس لي آن. ألقى ريمي على الفور خطاباً بهذا الخصوص: «لا أريد أن أجدكما تلهوان معاً حين تحسبانني غافلاً. لا يمكنكما تعليم المايسترو العجوز نغمة جديدة.. هذا قول مأثور من ابتكاري». ونظرتُ إلى الفتاة، وكانت تقطر عسلاً، أما

نظراتها فلا تنم سوى عن الكره لي وله. كانت جاءت من بلدة صغيرة في أوريغون بطموح وحيد هو الزواج من رجل ثري، وبالتالي كانت تلعن اليوم الذي التقت فيه ريمي. وقد تعارفا صدفة في إحدى عطل الأسبوع حيث أنفق عليها مئة دولار، فظنت أنها عثرت على وريث ما، لتجد نفسها بعد ذلك عالقة معه في تلك الشقة، وفي ظل انسداد كل أفق آخر أمامها، اضطرت إلى البقاء معه. وكانت تعمل في فريسكو، وتضطر يومياً إلى أن تستقل حافلة غرايهاوند لكي تذهب إلى عملها، ولم تغفر لريمي ذلك.

كانت خطتي المكوث عند ريمي وكتابة سيناريو لأحد استديوات هوليوود، ثم يحمل ريمي هذا السيناريو إلى هوليوود ويجعلنا أثرياء، وسترافقه لي آن، حيث سيعرفها إلى أحد معارف والده، وهو مخرج معروف وصديق حميم لدبليو. ك. فيلدز. فبقيت الأسبوع الأول في الكوخ منكباً على كتابة قصة كئيبة تجري أحداثها في نيويورك ظننت أنها ستعجب المخرج الهوليوودي، لكن كانت مشكلتها أنها حزينة أكثر من اللازم. بالكاد قرأها ريمي، قبل أن يحملها معه إلى نيويورك بعد بضعة أسابيع. أما لي آن فمنعها كرهها لنا وسأمها منا من قراءة القصة. أمضيت ساعات ماطرة لا تحصى شارباً القهوة وكاتباً، وأخيراً أخبرت ريمي أن الأمر لن يفلح، وأنه يجدر بي العثور على عمل (كنت أستمد سجائري منهما). ارتسمت خيبة أمل على محيا ريمي، لطالما كان يخيب أمله من أبسط الأشياء. كان قلبه من ذهب.

دبّر لي عملاً معه كحارس في مخيم العمل. ذهبت وأجريت مقابلة عمل، ولدهشتي وظفني الأوغاد. أديت اليمين الرسمي أمام «الشريف» المحلي الذي سلّمني شارة وهراوة، وصرت شرطياً خاصاً. تساءلت ما يمكن أن يقوله دين وكارلو وأولد بال لي حول هذا. كان عليّ أن أرتدي

بنطالاً عسكرياً يتماشى مع سترتي السوداء وقبعة الشرطي، فارتديت خلال الأسبوعين الأولين بنطال ريمي، وبما أنه فارع الطول ولديه كرش بسبب إفراطه في الطعام كسراً للملل، فقد مشيت ببنطاله إلى ليلتي الأولى في العمل مرفرفاً مثل شارلي شابلن. كما أمدّني ريمي بمصباح يدوي وبمسدسه الأوتوماتيكي من عيار ٣٢.

«من أين لك هذا المسدس؟».

«في طريقي إلى الساحل الصيف الماضي، نزلت من القطار في نورث بلات، نبراسكا، لكي أحرك دمي قليلاً، وما الذي أراه في الواجهة سوى هذا السلاح الفريد الصغير، فاشتريته فوراً وتمكنت من اللحاق بالقطار في اللحظة الأخيرة».

وحاولت أن أحكي له ما الذي تعنيه لي نورث بلات، حين اشتريت الويسكي برفقة الشباب، فربّت على ظهري قائلاً إنني أطرف رجل في العالم.

حاملاً المصباح اليدوي، كنت أتسلق السفح الحجري الشاهق للوادي الشمالي، إلى الطريق السريعة التي تعجّ بالسيارات المتجهة إلى فريسكو ليلاً، ثم أعدو إلى الجانب الآخر، وأكاد أتعثر معظم الأحيان، ثم أصل إلى قاع وهد تقوم فيه مزرعة صغيرة إلى جوار جدول، وحيث في كل ليلة مباركة كان الكلب نفسه ينبح في وجهي. ثم أمضي في خطوات سريعة تحت أشجار سوداء على طريق فضية مغبرة تشبه الطرق في فيلم «علامة زورو» وكل الطرق التي في أفلام الوسترن من الدرجة الثانية. كنت أستلّ مسدسي في الظلام محاكياً رجال الكاوبوي. ثم أتسلق هضبة صغيرة فأصل إلى المخيم. هذا المخيم شيّد أساساً من أجل عمال البناء عبر البحار، أولئك الذين كانوا يمكثون هناك بانتظار السفن التي ستقلّهم إلى أوكيناوا. ومعظمهم كان فاراً من شيء ما، غالباً من القانون. وكان

هناك مجموعات شقية من ألاباما، وأخرى مراوغة من نيويورك، وكافة أنواع الرجال من شتى الأنحاء. وإذ يدرك هؤلاء المشقات التي تنتظرهم في الكدح سنة كاملة في أوكيناوا، فقد كانوا يقتلون الوقت بشرب الكحول، ومهمة الحراس أن يحرصوا على ألا يدمروا المكان. كان مقرنا المبنى الرئيسي، وهو بناء خشبي مقسّم إلى مكاتب تفصل بينها الجدران. وكنا نمضي جلّ وقتنا في هذه المكاتب، واضعين مسدساتنا جانباً ومتثائبين، بينما يروح العجائز بيننا يسردون القصص.

كانت مجموعة رهيبة من الرجال الذين لهم أرواح رجال شرطة حقيقيين، باستثنائي وريمي طبعاً، فقد كان هدفنا محصوراً بجني بعض المال، أما هم فكانوا مولعين بالاعتقالات والحصول على إطراءات قائد الشرطة، حتى إنهم أخبرونا بأنه ما لم يقم الواحد منا باعتقال شخص واحد على الأقل شهرياً فسيطرد من العمل. وما حدث هو أنني كنت ثملاً كالجميع في المخيم في الليلة التي ارتكبت فيها ذلك الخطأ الفادح.

كنت أتولى الحراسة وحدي، وبما أن السفينة ستبحر بالعمال صباحاً فقد قرر نزلاء المخيم أن يسكروا. شربوا بكثافة مثل البحارة في الليلة التي تسبق الإبحار. كنت ماداً رجلي على المكتب، أقرأ «الكتاب الأزرق»، مغامرات حول أوريغون والبلد الشمالي، حين سمعت فجأة جلبة كبيرة في ليلة يفترض بها أن تكون هادئة. خرجت، فوجدت الأنوار مشتعلة في كل حجرة لعينة. كان الرجال يصرخون، والزجاجات تتحطم، وكنت مضطراً إلى أداء واجبي وإلا خسرت الوظيفة، أو هكذا ظننت على الأقل. فحملت مصباحي واتجهت إلى الحجرة الأكثر صخباً وقرعت الباب، ففتحه أحدهم وخاطبني من فرجة ضيقة.

«ماذا تريد؟».

«إنني أحرس المخيم الليلة وأنتم يا شباب يفترض أن تلتزموا

الهدوء»، أو لعلي قلت شيئاً آخر سخيفاً من هذا القبيل. فأغلق الباب في وجهي. كان الموقف شبيهاً بأفلام الوسترن، وشعرت أنه آن أوان إثبات النفس. قرعت الباب ثانية. فتحوه على وسعه هذه المرة. «اسمعوا»، قلت، «لا أقصد إزعاجكم أيها الشباب، لكنني سأخسر عملي إذا ما تسببتم بجلبة كبيرة».

«من أنت؟».

«أنا الحارس هنا».

«لم نرك من قبل».

«حسناً، هذه شارتي».

«ما الذي تفعله بهذا المسدس على مؤخرتك؟».

«ليس لي»، قلت مبرّراً، «لقد استعرته».

«خذ كأساً معنا بحق الرب». لم أمانع. شربت كأسين.

قلت: «حسناً شباب؟ ستبقون هادئين؟ سيكون الأمر سيئاً بالنسبة لي مثلما تعلمون».

«لا بأس يا فتى»، قالوا، «هيا قم بدوريتك، وعد لتناول كأس أخرى إذا أحببت».

وطرقت على كل الأبواب الأخرى على هذا النحو، وسرعان ما ثملت كالجميع. ثم حلّ الفجر، وكان من ضمن واجباتي أن أرفع العلم الأميركي على سارية بطول ستين قدماً، وفي ذاك الصباح رفعته بالمقلوب، وذهبت إلى البيت ونمت. وحين عدت مساء وجدت بانتظاري رجال الشرطة مقطبي الجبين.

«قل لنا أيها الفتى، ما كانت كل تلك الجلبة هنا ليل أمس؟ لقد وصلتنا شكاوى من أناس يعيشون في تلك المنازل عند الجانب الآخر من الوادي».

«لا أعرف»، أجبت، «تبدو الأجواء هادئة الآن».

«لقد رحلت المجموعة كلها. كان يفترض بك حفظ النظام هنا ليلة أمس، القائد حانق جداً عليك. وأمر آخر، ألا تعرف أنه يمكن أن تسجن لرفعك العلم الأميركي بالمقلوب في موقع حكومي؟».

«بالمقلوب؟». ارتعبت، بالطبع لم أنتبه. كنت أفعل ذلك كل صباح بطريقة آلية.

«أجل أيها السيد»، قال شرطي سمين أمضى اثنين وعشرين عاماً حارساً في سجن ألكاتراز «يمكن أن تُسجن». وأومأ الآخرون برؤوسهم مكشرين. كانوا دائماً يجلسون هكذا على مؤخراتهم، فخورين بعملهم، متفرجين على مسدسات بعضهم البعض ومتحدثين عنها، متشوقين لإطلاق الرصاص على شخص ما، عليّ أو على ريمي مثلاً.

كان شرطي ألكاتراز ستينياً مكرشاً، ويفترض أن يكون متقاعداً، لكنه لا يستطيع البقاء بعيداً عن الأجواء التي تنعش روحه الجافة. فيقود كل ليلة سيارته فورد طراز ١٩٣٥ إلى العمل، ويصل في الوقت تماماً، ويجلس وراء المكتب، ويثابر على ملء الاستمارة البسيطة التي ينبغي أن نملأها كل ليلة ـ الدوريات، المواعيد، ما الذي جرى، وهكذا دواليك. ثم يميل إلى الخلف ويشرع بسرد القصص، «لو أنك كنت هنا قبل شهرين حين قمت أنا وسلدج (شرطي شاب كان يحلم بأن يصبح من شرطة تكساس الجوالة وعليه أن يقنع بوضعه الحالي) باعتقال سكير في العنبر ج، لو رأيت الدم وهو يطرطش، سآخذك الليلة إلى هناك وأريك لطخ الدم على الجدران. لعبنا به كرة القدم بين الجدران. أولاً لكمه سلدج، ثم سددت إليه لكمة أخيرة خمد بعدها. هذا الرجل نال عقوبة سجن ثلاثين يوماً وأقسم بأن يقتلنا حين يطلق سراحه. وها قد مر ستون يوماً ولم يظهر بعد»، وهذه كانت العبرة من القصة؛ لقد روّعاه إلى حدّ أنه لم يعد يجرؤ على العودة وتنفيذ وعيده.

مضى العجوز في الكلام، متذكراً رعب ألكاتراز، «كنا نسيّرهم صفاً ككتيبة إلى الإفطار. والكل كان منضبطاً. كل شيء كان يمشي كالساعة. كان ينبغي أن ترى ذلك. عملت حارساً هناك اثنين وعشرين عاماً. ثمة من يعاملون السجناء برقة، وهؤلاء هم الذين يتعرضون عادة للمشاكل. خذ نفسك مثالاً، تبدو شديد اللين مع الرجال». رفع غليونه ونظر إليّ مباشرة، «إنهم يستغلون ذلك مثلما تعرف».

كنت أدرك ذلك، وأجبته بأنني لم أولد لهذا العمل.

«أجل، لكن هذا هو العمل الذي تقدمت إليه، وعليك أن تحسم أمرك، وإلا فلن تصل إلى أي مكان، إنه واجبك الذي أقسمت على أدائه. لا يمكنك المساومة في أمور كهذه. ينبغي حفظ القانون والنظام».

لم أدر بماذا أجيب، فقد كان محقاً، لكن كل ما أردت فعله الخروج إلى الليل، والاختفاء في مكان ما، وأن أكتشف ما الذي يفعله الجميع في كافة أرجاء البلاد».

الشرطي الآخر، سلدج، شاب طويل، مفتول العضلات، أسود الشعر قصيره، يفتل رقبته بعصبية، ومثل ملاكم يظل يضرب قبضة يده براحة يده الأخرى، ويلبس مثل شرطي من جوالة تكساس القدامى، واضعاً مسدس ريفولفر واطئاً وحزام ذخيرة على خصره، وحاملاً سوطاً صغيراً، وتنتشر رقع الجلد على أنحاء جسده كأنه غرفة تعذيب متنقلة: حذاءان لماعان، سترة منخفضة، وقبعة مائلة. وكان يحاول دائماً أن يعلمني أساليب التحكم بالخصم في مشاجرة، فيمسكني من منشعب ساقي ويرفعني عالياً، وكنت أدرك أنني قادر، لجهة القوة، على أن أقذفه إلى السقف بالطريقة نفسها، لكنني لم أجعله يحسّ بذلك، لكي لا يصبح راغباً بمباراة مصارعة معي، لأن مبارزة كهذه مع شاب كهذا قد تنتهي بإطلاق الرصاص، وكنت واثقاً من أنه أمهر مني في استعمال

المسدس، أنا الذي لم أحمل مسدساً في حياتي، وأخشى حتى أن ألقمه بالرصاص. كان كل همّه القيام باعتقالات، وذات ليلة كنا وحدنا في نوبة الحراسة حين قام بجولته ثم عاد مسودّ الوجه غاضباً.

«طلبت من بعض الشبان هناك التزام الهدوء ومع ذلك لا زالوا يحدثون جلبة. لقد أنذرتهم مرتين. دائماً أمنح الرجل فرصتين، لا ثلاث. تعال معي لكي نعتقلهم».

«حسناً، فلنمنحهم فرصة ثالثة»، قلت، «سأتحدث إليهم».

«لا، يا حبيبي، لا أمنح إطلاقاً رجلاً أكثر من فرصتين». فتنهدت، ورافقته إلى الغرفة المعنية، وفتح الباب آمراً الجميع بأن يصطفوا في طابور. كان الموقف محرجاً، وشعرنا جميعاً بالخجل. هذه قصة أميركا، حيث كل شخص يخال أن ما يقوم به هو واجبه المقدس. فما المشكلة إذا ما بدّد بعض الرجال الليل ببضعة كؤوس وأثاروا بعض الجلبة. لكن سلدج أراد أن يبرهن شيئاً، وأرادني معه في حال حاولوا الانقضاض عليه. كانوا أشقاء من ألاباما. سقناهم إلى المركز، سلدج في المقدمة وأنا في الخلف، وعلى الطريق خاطبني أحد الشبان: «قل لهذا السافل اللئيم أن يتهاون معنا، فقد نُطرد بسبب ذلك ولا نذهب أبداً إلى أوكيناوا».

«سأتحدث إليه».

في المركز طلبت من سلدج أن يتغاضى عن الأمر، فأجابني لكي يسمع الجميع ويعبق خجلاً «لا أمنح أياً كان أكثر من فرصتين».

«علام هذا كله؟»، أجابه أحد الشبان، «أي فرق في ذلك؟ قد نخسر عملنا». التزم سلدج الصمت وهو يملأ استمارات الاعتقال. اعتقل واحداً منهم فقط، واتصل طالباً سيارة الدورية من البلدة. جاؤوا وأخذوا الرجل، وعاد الإخوة الآخرون إلى حجرتهم متجهمين، «ما الذي ستقوله

أمنا الآن؟». أحدهم رجع إلي، «قل لذلك السافل التكساسي إنه إذا لم يطلق سراح أخي ليل غد فسننال منه». قلت لسلدج ذلك، بطريقة حيادية، ولم يعلق. في اليوم التالي أخلي سراح الأخ. رحلت هذه المجموعة، وحلت محلها أخرى. لولا ريمي بونكور لما كنت بقيت في هذه الوظيفة أكثر من ساعتين.

كان ثمة ليالٍ عدة نكون فيها أنا وريمي وحدنا، وعندها يتغير كل شيء. كنا نقوم بأولى دورياتنا المسائية بطريقة مترفة، ريمي يفحص كل الأبواب ليتأكد من أنها موصدة آملاً بأن يجد أحدها مفتوحاً، «أحلم منذ سنوات بأن أدرب كلباً لكي يصبح لصاً خارقاً يتسلل إلى غرف هؤلاء الشبان ويسحب المال من جيوبهم، سأدربه على ألا يأخذ شيئاً سوى الأوراق الخضراء، سأجعله يشتمّها طوال اليوم، وإذا كان هناك من وسيلة ما فقد أعلمه ألا يأخذ سوى أوراق العشرين». كان رأس ريمي مليئاً بمثل هذه الخطط المجنونة، وظل لأسابيع يتحدث عن هذا الكلب. وحدث ذات مرة أن صادف باباً غير موصد، فأراد الدخول، ولم أحبذ الفكرة، فبقيت متوارياً، وهو يفتح الباب خلسة، ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام المشرف العام على المخيم، وكم كان ريمي يمقت ذاك الرجل. سألني مرة «ما اسم ذاك المؤلف الروسي الذي تتكلم عنه دائماً، ذلك الذي وضع الصحيفة في حذائه وراح يتجول معتمراً قبعة حرير طويلة عثر عليها في حاوية نفايات؟». كان هذا تضخيماً لما أخبرته له عن دوستيوفسكي. «آه، هذا هو، هذا هو، دوستيوفسكي، رجل بمثل هذا الوجه لا يمكن إلا أن يكون اسمه دوستيوفسكي». المهم أن د. هذا كان نائماً حين سمع أحدهم يحاول برم قبضة الباب. فنهض واتجه إلى الباب بالبيجاما وبدا أقبح من العادة. وحين فتح ريمي الباب وجد أمامه وجهاً كالحاً طافحاً بالكراهية والغضب.

«ما معنى هذا؟».

«أليست هذه غرفة المماسح.. .كنت أبحث عن ممسحة».

«ما الذي تعنيه بأنك كنت تبحث عن ممسحة؟».

«حسناً، آه...».

وعندها خرجت من الظل وقلت: «لقد تقيأ أحد الرجال في الردهة فوق،علينا أن نمسح القذارة».

«هذه ليست غرفة المماسح.. هذه غرفتي، وإذا تكرّر مثل هذا الأمر فسأطالب بالتحقيق معكما وطردكما! واضح؟».

«أحدهم تقيأ فوق»، قلتُ ثانية.

«غرفة المماسح هناك في نهاية القاعة». وأشار إلى المكان، ووقف ينتظرنا ريثما نذهب ونأتي بواحدة، وهذا ما فعلناه، وبسذاجة حملناها معنا إلى الطابق العلوي.

قلت: «اللعنة يا ريمي، دائماً توقعنا في المشاكل، لماذا لا تقلع عن ذلك؟ لماذا ترغب بالسرقة طوال الوقت؟».

«العالم مدين لي ببضعة أشياء، هذا كل شيء. لا يمكنك أن تعلم المايسترو العجوز نغمة جديدة. استمر بالتكلم على هذا المنوال وسأبدأ بمناداتك دوستيوفسكي».

كان كالأطفال. في مرحلة ما في ماضيه، خلال أيامه الدراسية في فرنسا، تم تجريده من كل شيء، وضعه أهله بالتبني في المدارس الداخلية وتركوه هناك، وصار يطرد من مدرسة بعد الأخرى، ويجوب الشوارع الفرنسية ليلاً مبتكراً الشتائم من قاموس كلماته البريء. كان كل همه استعادة كل ما خسره، ولم تكن من نهاية لتلك الخسائر.

كانت كافيتريا المخيم بمثابة مغارة علي بابا بالنسبة إلينا؛ نتلفّت حولنا لنتأكد من أن أحداً لا يرانا، أو يتجسس علينا من زملائنا الحراس، ثم

أنحني بحيث يتمكن ريمي من ارتقاء كتفي، وفتح النافذة، التي لا تكون موصدة بعد أن يكون قد حرص على ذلك في المساء، ثم يهبط متعثراً إلى الطاولة. كنت أكثر رشاقة منه بحيث أستطيع ارتقاء النافذة وحدي. ثم نتجه إلى الثلاجات. وهناك، وقد تجسّد أمامي أحد أحلام طفولتي، أقوم بفتح ثلاجة الآيس كريم بالشوكولا وأغرز يدي حتى المعصم غارفاً ولاعقاً الآيس كريم. ثم نحشو العلب بالآيس كريم، ونسكب عليها عصير الشوكولا، وأحياناً الكرز أيضاً، ثم نجول في المطبخ، باحثين عما يمكن أن نأخذه معنا إلى البيت. غالباً ما كنت أقطع شريحة من لحم العجل وألفها في منديل: «أتعرف ما قاله الرئيس ترومان؟»، قال ريمي، «علينا أن نخفض كلفة المعيشة».

ذات ليلة انتظرت طويلاً بينما ريمي يملأ صندوقاً كبيراً بالخضروات، ثم لم نستطع إخراجه من النافذة، فاضطر ريمي إلى إرجاع كل شيء. ولاحقاً تلك الليلة، بعد مغادرة ريمي، بقيت وحدي في المركز، وحدث شيء غريب. كنت أتنزه على طريق الوادي القديم، آملاً بالعثور على غزال (كان ريمي أخبرني بأنه رأى واحداً هناك؛ ذلك البلد كان لا يزال برياً حتى في ١٩٤٧)، حين أجفلني صوت أشبه بلهاث حيوان في العتمة. وحسبت أنه وحيد قرن يستعد للانقضاض عليّ، فصوّبت مسدسي، لتظهر بعد ثوان ظلال شخص طويل وضخم الرأس، ولم يكن إلا ريمي حاملاً قفص الخضروات على كتفه، وكان يئن ويلهث من ثقل القفص. وأخبرني أنه عثر على مفتاح الكافيتيريا في مكان ما وأخرج الخضروات من الباب الأمامي. «حسبتك عدت إلى البيت، ما الذي تفعله هنا بحق السماء؟».

«بارادايز، لقد ذكرت لك مراراً مقولة الرئيس ترومان، علينا أن نخفض كلفة المعيشة». وصفت سابقاً تلك الطريق الرهيبة التي علينا أن

نسلكها، صعوداً وهبوطاً للعودة إلى كوخنا. دسّ ريمي القفص بين الحشائش الطويلة: «سال، لا يمكنني القيام بذلك وحدي، سأقسم المحتويات إلى قفصين وستساعدني».

«لكنني في الدوام».

«سأتولى الحراسة في غيابك. الأمور تزداد عسراً هنا، وعلينا أن ندبر أمورنا بأفضل طريقة ممكنة، هذا كل ما في الأمر»، ومسح وجهه. «لقد قلت لك مراراً، سال، إننا رفيقان وإننا في هذا الأمر معاً، ليس من طريقة أخرى للنظر إلى الأمر... الدوستيوفسكيون، رجال الشرطة، البنات من أمثال لي آن، كل أشرار هذا العالم، يسعون إلى سلخ جلدنا، ويتوقف علينا ألا نسمح لأحد بالعبث معنا، عليهم أن يشمّروا عن سواعدهم أعلى بكثير لمواجهة ذراع قذرة. تذكر هذا. لا يمكنك أن تعلم المايسترو العجوز نغمة جديدة».

سألته أخيراً: «أين أصبح مشروع الإبحار؟». كانت مضت عشرة أسابيع منذ بدأت العمل في المخيم. كنت أجني خمسة وخمسين دولاراً أسبوعياً أرسل إلى عمتي أربعين منها. أمضيت ليلة واحدة فقط في سان فرانسيسكو خلال كل ذلك الوقت، وبقية الوقت في الكوخ، بين مشاجرات ريمي ولي آن نهاراً، وليلاً في المخيم.

ذهب ريمي ليجلب قفصاً آخر، ورافقته على طريق زورو القديمة تلك، وفي نهاية الأمر تكوّمت الخضروات على طاولة مطبخ لي آن التي نهضت من النوم وهي تفرك عينيها.

«أتعرفين ما قاله الرئيس ترومان؟». سُرّت كثيراً بالأغراض. أدركت فجأة أن كل شخص في أميركا هو لص بالولادة، وبدأت أشعر بالسوسة تنخرني، حتى إنني بدأت أحاول أن أتفحّص، على طريقة ريمي، ما إذا كانت الأبواب مفتوحة. بدأ الحراس الآخرون يشكّون في أمرنا، ولعلهم

رأوا ذلك في عيوننا، وقرأوا بغريزتهم البوليسية الثاقبة ما يجول في أذهاننا. لقد علمتهم سنوات الخبرة حقيقة أمثال ريمي وأمثالي.

اتجهت وريمي ذات نهار إلى التلال وحاولنا أن نصطاد بالمسدس طيور السمان. تسلل ريمي إلى مرتفع نحو ثلاثة أقدام إلى حيث الطيور وأطلق عياراً من مسدسه. أخطأ التصويب. هدرت ضحكته فوق غابات كاليفورنيا وفوق أميركا، «لقد حان الوقت لأن نذهب ونرى ملك الموز».

يوم السبت تهندمنا وذهبنا إلى محطة الحافلات عند التقاطع وإلى سان فرانسيسكو. كانت ضحكة ريمي العملاقة تصدح أينما ذهبنا. «عليك أن تكتب قصة عن ملك الموز هذا»، قال بجدية. «لا تخدع المايسترو العجوز وتكتب عن أي شيء آخر. ملك الموز هو كنزك. ها هو هناك». ولم يكن ملك الموز سوى رجل عجوز يبيع الموز عند زاوية أحد الشوارع. وتملكني السأم، لكن ريمي ظل يلكزني على صدري ويجرني من وشاحي، «حين تكتب عن ملك الموز فإنك تكتب عن الأمور الإنسانية المهمة في الحياة». أجبته بأنني لا أبالي البتة بملك الموز، «قبل أن تدرك أهمية ملك الموز، فلن تعرف شيئاً عن الأمور الإنسانية المهمة في العالم»، أجابني مشدّداً.

كان ثمة سفينة شحن قديمة راسية في مياه الخليج وتستعمل كطافية. تحمس ريمي للذهاب إليها، وحضرت لي آن الغذاء واستأجرنا قارباً وذهبنا إلى هناك. أحضر ريمي معه بعض الأدوات. لي آن خلعت ملابسها وتمددت على الجسر لكي تكتسب بعض السمرة، ورحت أتأملها من مؤخر السفينة. أما ريمي فنزل إلى غرفة المحركات البخارية، حيث الجرذان تسرح وتمرح، وبدأ يطرق ويقرع بحثاً عن القصدير. دخلت إلى مقصورة القبطان المخربة. كانت سفينة قديمة جداً ورائعة التجهيز،

ازدانت أخشابها بالزخارف وزودت بخزائن رائعة. شعرت أنها شبح سفينة سان فرانسيسكو التي يحكي عنها جاك لندن. رحت أحلم في ذلك الجو المشمس، فيما الجرذان تعدو بين الخزائن.. كان يا ما كان قبطان أزرق العينين يتناول عشاءه هنا.

انضممت إلى ريمي في الأسفل، وكان يحاول خلع كل شيء. «ولا شيء، ظننت أنه سيعثر على بعض القصدير، أو على الأقل على رنش قديم أو اثنين، لقد سرق اللصوص كل شيء». كانت السفينة راسية في البحر منذ سنوات.

قلت لريمي: «أودّ أن أنام في هذه السفينة ذات ليلة حين يعم الضباب وتبدأ الأشياء تصدر صريراً، ويصير صوت الطوافات العميق مسموعاً».

أذهلت الفكرة ريمي، فتضاعف إعجابه بي. «سال، سأدفع لك خمسة دولارات إذا ما كانت لديك الشجاعة لفعل ذلك، ألا تدرك أن هذه السفينة يمكن أن تكون مسكونة بأشباح قباطنة البحر القدماء؟ لن أدفع لك خمسة دولارات فقط، بل سأذهب وآتي لك بالغذاء والملاءات والشمع».

«اتفقنا»، قلت. وهُرع ريمي ليخبر لي آن. كنت راغباً بها بشدة وتخيلتني قافزاً في أي لحظة من السارية مباشرة عليها، لكنني أبقيت على وعدي لريمي، وحدت بنظري عنها.

في الأثناء صرت أكثر تردداً على فريسكو، حيث سعيت جاهداً للحصول على مضاجعة، حتى إنني أمضيت ليلة كاملة حتى الفجر على مقعد حديقة مع إحداهن، شقراء من منيسوتا، من دون أن أصيب أي نجاح. كان هناك الكثير من اللواطيين. مرات عدة ذهبت إلى سان فرانسيسكو حاملاً مسدسي وحين كان يقترب مني لوطي في حمام حانة

ما كنت أستلّ مسدسي وأصرخ به، «إيه، إيه؟ ما الذي تقوله؟». فيفرّ سريعاً. لم أفهم أبداً لماذا فعلت ذلك، فقد كان بعض أصدقائي مثليين. كانت فحسب الوحدة في سان فرانسيسكو وحقيقة أنني أحمل مسدساً، ويجب أن أهدّد به أحدهم. مررت أمام محل مجوهرات وانتابتني رغبة جامحة بأن أطلق الرصاص على الواجهة، ثم أسرق أجمل الأساور والخواتم وأهديها إلى لي آن، ثم نفرّ معاً إلى نيڤادا. أدركت أنه آن أوان رحيلي من فريسكو وإلا جننت.

كتبت رسائل طويلة إلى دين وكارلو، وكانا في الأثناء في ضيافة أولد بال في تكساس، وردا بأنهما سينضمان إليّ في سان فرانسيسكو ما إن يفرغا من هذا الأمر أو ذاك. وفي غضون ذلك بدأ كل شيء ينهار بين ريمي ولي آن وبيني. هبطت أمطار سبتمبر، ومعها المشاجرات العنيفة. سافر ريمي إلى هوليوود مع لي آن، حاملاً معه سيناريو فيلمي البائس ولم يحدث أي شيء. كان المخرج الشهير ثملاً ولم يعرهما أدنى اهتمام، فأمضيا بعض الوقت في كوخه المترف على شاطئ ماليبو، وتشاجرا أمام الضيوف، ثم عادا.

آخر الأمور المثيرة كان حلبة السباق. ادخر ريمي مئة دولار، كل ماله، وهندمني بإحدى بدلاته، وتأبط ذراع لي آن، وأخذنا إلى مضمار «غولدن غايت» قرب رتشموند عند الطرف الآخر من الخليج. كان قلبه من ذهب. وضع نصف الخضروات التي سرقناها في كيس بني ضخم وأوصله إلى أرملة معوزة يعرفها في رتشموند تعيش في مجمّع سكني حكومي يشبه ذاك الذي نعيش فيه. رافقناه. كان أولادها يرتدون الأسمال. شكرته المرأة، وهي زوجة بحار عرفه ريمي بشكل عابر سابقاً. «لا عليك سيدة كارتر»، قال لها بنبرة بالغة التهذيب والأناقة، «وهناك المزيد من حيث جاء هذا».

ثم مضينا إلى المضمار. راهن ريمي بعشرين دولاراً، وقبل الجولة السابعة كان قد أفلس، فاضطررنا إلى السفر استوقافاً إلى سان فرانسيسكو. وجدت نفسي على الطريق ثانية. أوصلنا رجل محترم بسيارته الجديدة. جلست في المقعد الأمامي، وحاول ريمي أن يفبرك قصة عن أنه أضاع محفظته في المضمار. «الحقيقة هي...»، قلت، «إننا خسرنا مالنا، وفي المرات القادمة لكي نتدارك العودة على هذا النحو من مضمار السباق، يجدر بنا أن نقصد شخصاً يقوم بالرهانات، أليس كذلك ريمي؟». تورّد وجه ريمي خجلاً، واعترف الرجل أخيراً بأنه موظف رسمي في إدارة مضمار السباق. أنزلنا أمام فندق بالاس الفخم، ورأيناه وهو يختفي بين الثريات، شامخ الرأس، منفوخ الجيوب.

«واغ، ووه!» صرخ ريمي في شوارع فريسكو مساء، «باراديز يركب السيارة مع مدير المضمار ويقسم أنه سيتحول إلى الرهانات. لي آن، لي آن!». لكمها وخاشنها «أظرف رجل في العالم على الأرجح! لا بد من أنه هناك الكثير من الإيطاليين في سوساليتو. آههه ـ هاو!». وراح يدور حول عمود الإنارة ضاحكاً.

تلك الليلة راحت تمطر بينما لي آن ترمقنا بنظرات ازدراء. لم يكن قد بقي معنا أي قرش. وكان المطر يطرطق على السقف. «سيستمر أسبوعاً»، قال ريمي. كان قد خلع بدلته الرائعة، ولبس سرواله البائس وقبعة الجيش والكنزة الخفيفة، وجلس يحملق في الأرض بعينيه البنيتين الرائعتين الحزينتين، وكان المسدس على الطاولة، وكان صوت السيد سنو ينبعث من مكان ما وهو يضحك ملء قلبه في تلك الليلة الماطرة.

«لقد سئمت وتعبت من هذا السافل»، قالت لي آن بحدة. كانت على وشك البدء بالمشاجرة. ثم بدأت تلكز ريمي الذي كان مشغولاً بتصفّح كتابه الأسود الصغير الذي يتضمن أسماء أشخاص، أغلبهم بحارة،

يدينون له بالمال وقد دوّن إلى جانب أسمائهم مختلف الشتائم بالحبر الأحمر. وكنت أخشى اليوم الذي سيصبح فيه اسمي في هذا الدفتر. مؤخراً كنت أرسل الكثير من المال لعمتي بحيث إنني كنت أشارك فقط بما قيمته أربعة أو خمسة دولارات خضروات بالأسبوع، وتماشياً مع مقولة الرئيس ترومان أضفت ما قيمته بضعة دولارات إضافية، لكن أحس ريمي أنني لا أشارك كفاية، فصار يعلق أسعار الخضروات على جدار الحمام بحيث أراها وأفهم. لي آن كانت مقتنعة بأن ريمي يخفي المال عنها، وأنني أفعل ذلك أيضاً. وهددته بأنها ستهجره.

تلمظ ريمي بشفتيه «إلى أين تحسبين نفسك ذاهبة؟».

«إلى جيمي».

«جيمي، موظف الصندوق في مضمار السباق؟ أتسمع ذلك يا سال، لي آن ذاهبة إلى المحاسب. احرصي على أن تأخذي معك مكنستك عزيزتي، فالجياد ستأكل الكثير من الشوفان هذا الأسبوع بالمئة دولار التي أنفقتها هناك».

ازدادت الأمور عنفاً، وبدأت ترعد في الخارج. لي آن كانت تعيش في المكان أولاً، لذا صرخت بريمي بأن يوضب أمتعته ويخرج. وبدأ يوضّب فعلاً. وتخيلت نفسي وحيداً في هذا الكوخ الماطر مع هذه الحيوانة الشرسة. حاولت عبثاً أن أرطّب الأجواء. قام هو بدفعها، وحاولت هي الوصول إلى المسدس، فناولني إياه وطلب مني إخفاءه. كان هناك ثماني رصاصات بداخله. راحت لي آن تصرخ وأخيراً ارتدت معطفها وخرجت في الوحل بحثاً عن شرطي، وأي شرطي، لم يكن سوى زميلنا من ألكاتراز الذي لحسن الحظ لم يكن في البيت. عادت مبللة بالكامل. تواريت في زاويتي واضعاً رأسي بين رجلي. يا إلهي ما الذي أفعله بعيداً عن منزلي ثلاثة آلاف ميل؟ لماذا جئت إلى هنا أصلاً؟ أين السفينة التي ستحملني إلى الصين؟

«وأمر آخر أيها القذر»، صرخت به، «الليلة كانت آخر مرة أحضر لك لحم الدماغ والبيض الحقير، والكاري بلحم العجل الحقير، بحيث تملأ معدتك القذرة وتسمن كالمخنث أمام ناظري».

«لا بأس»، رد ريمي وقد التقط أنفاسه، «لا بأس تماماً، حين صاحبتك لم أكن أتوقع الورود وضوء القمر ولست متفاجئاً اليوم. حاولت أن أفعل بضعة أشياء من أجلك، بذلت المستطاع من أجلكما، لقد خذلتماني أنتما الإثنان. خيبتما أملي حقاً، خيبتما أملي بشدة»، ومضى متحدثاً بجدية مطلقة، «حسبت أن شيئاً ما سينتج عنا معاً، شيئاً جيداً وجميلاً، ولقد بذلت جهدي، وذهبت إلى هوليوود، ودبّرت عملاً لسال، واشتريت لك الفساتين الرائعة، وحاولت أن أعرفك على علية القوم في سان فرانسيسكو، لكنك رفضت، كلاكما رفضتما مجاراة أبسط رغباتي، ولم أطلب شيئاً في المقابل، والآن سأطلب منكما خدمة أخيرة ولن أطلب شيئاً بعدها. زوج أمي آت إلى سان فرانسيسكو ليلة السبت القادم، وكل ما أطلبه أن ترافقاني وتحاولا أن تبدوا كما لو أن كل شيء يمضي مثلما أخبرته في رسائلي له. بكلمات أخرى، لي آن، أنت حبيبتي، وأنت يا سال صديقي، لقد تدبرت استدانة مئة دولار لليلة السبت. سأحرص على أن يمضي زوج أمي وقتاً رائعاً ثم يرحل من دون أن يكون لديه أي سبب للقلق علي».

فاجأني هذا. كان زوج أم ريمي طبيباً مرموقاً مارس الطب في فيينا، وباريس ولندن. فقلت له: «أتقصد أنك ستنفق مئة دولار على زوج أمك؟، إنه يملك مالاً أكثر مما ستجنيه طوال حياتك! ستكون مديوناً يا رجل!».

«صحيح»، أجاب ريمي بهدوء وبانكسار، «أطلب منكما شيئاً أخيراً، أن تحاولا على الأقل أن تجعلا الأشياء تبدو على خير ما يرام، وأن

تحاولا أن تحدثا عنده انطباعاً حسناً. أنا أحب زوج أمي وأحترمه، سيأتي بصحبة زوجته الشابة، علينا أن نظهر لهما كل الاحترام اللازم». ثمة أوقات يكون ريمي فيها بالفعل أكثر الرجال احتراماً في العالم. تأثرت لي آن، وراحت تتطلع قدماً للقاء زوج أمه، ولعلها ظنّت أنه يمكن أن يكون العريس اللقطة المنتظر الذي سيعوضها عن خيبتها بريمي.

جاءت ليلة السبت. كنت استقلت من عملي كحارس، مستبقاً طردي بسبب عدم قيامي باعتقالات كافية. وكانت آخر ليلة سبت لي في المدينة. ريمي ولي آن سبقاني إلى غرفة الفندق حيث ينزل زوج أمه. كان بحوزتي مال السفر، فثملت في الحانة في الأسفل، ثم ذهبت للانضمام إليهم، متأخراً للغاية. فتح والده الباب، رجل مميز يرتدي بنطال بينيز «آه»، قلت لدى رؤيتي إياه «مسيو بونكور، كيف حالك؟ جي سوي أوت؟ قلت ذلك بصوت عال ما كان مقصوداً منه أن يعني بالفرنسية «إنني منتش، لقد كنت أشرب»، لكنه لا يعني شيئاً بالفرنسية. وبدا الطبيب مرتبكاً. لقد خذلت ريمي، ورأيته يتورّد خجلاً بسببي.

قصدنا مطعماً فخماً، «مطعم ألفرد»، في نورث بيتش، حيث أنفق ريمي المسكين خمسين دولاراً على الشراب وتوابعه. ثم حدث الأسوأ، إذ من أجد جالساً على البار هناك سوى صديقي القديم رولاند مايجور الذي وصل تواً من دنفر وحصل على وظيفة في صحيفة محلية. كان ثملاً، وذقنه نابتة. حين رآني عجل إلى طاولتنا وربت على ظهري بينما أرفع الكأس إلى فمي، ثم ارتمى على المقعد إلى جوار الطبيب بونكور ومال فوق حساء الرجل لكي يحدثني. استحال وجه ريمي بلون الشمندر.

«ألن تعرفنا إلى صديقك، سال؟»، قال بابتسامة صفراوية.

«رولاند مايجور من صحيفة أرغوس سان فرانسيسكو»، حاولت أن أبدو جدياً وأنا أقول ذلك. كانت لي آن حانقة جداً مني.

بدأ مايجور يكلّم المسيو في أذنه «كيف تجد تعليم الفرنسية في الثانوية؟»، صرخ.

«عذراً، لكنني لا أعلم الفرنسية في الثانوية».

«أوه، اعتقد أنك تعلم الفرنسية في الثانوية»، كان يتعمد الفظاظة. تذكرت الليلة التي لم يسمح لنا فيها بإقامة حفلتنا في دنڤر، لكنني سامحته.

سامحت الجميع، استسلمت، وثملت. بدأت أتكلم بنعومة ورقة مع زوجة الطبيب الشابة. ثملت إلى حدّ أنني كنت مضطراً إلى دخول الحمام كل دقيقتين، ولكي أفعل ذلك كان عليّ أن أمر من أمام الطبيب. كل شيء كان يتداعى. وصلت تجربتي في سان فرانسيسكو إلى نهايتها. وريمي سيخاصمني إلى الأبد، وكان ذلك فظيعاً لأنني أحببته حقاً وكنت من قلة تعرف كم هو شاب عظيم وأصيل. سيتطلب الأمر سنوات حتى يتجاوز الأمر. كم بدا المشهد كوارثياً مقارنة مع أجواء رسائلي إليه من باترسون، حين كنت أخطط لسلوك المسار الأحمر رقم ٦ عبر أميركا. ها قد وصلت إلى نهاية أميركا ـ لم يعد المزيد من الأرض ـ لم يبق أمامي سوى العودة. فقررت أن أجعل رحلتي دائرية على الأقل: قررت عندها وفي لحظتها الذهاب إلى هوليوود، والعودة عبر تكساس لكي أرى زمرتي، واللعنة إذاً على كل شيء آخر.

طرد مايجور من المطعم، وكان العشاء انتهى على أي حال، فانضممت إليه، بالأحرى اقترح ريمي ذلك، ومضيت مع مايجور لنشرب. جلسنا إلى طاولة في حانة «أيرون بوت» وقال مايجور بأعلى صوته: «سام، لا يعجبني هذا اللوطي على البار».

«ماذا قلت جايك؟»، سألته.

«سام»، قال، «أظن أنني سأنهض وأضربه».

«لا، جايك»، قلت متابعاً محاكاة شخصيات همنغواي: «فقط صوّب من هنا ولنر ماذا يحدث». انتهى بنا الأمر مترنحين عند زاوية الشارع.

في الصباح بينما كان ريمي ولي آن نائمين، وبينما أنظر بحزن إلى كومة الثياب الكبيرة التي كان يفترض أن نغسلها أنا وريمي على آلة «بنديكس» وراء الكوخ (وهي دائماً كانت عملية مبهجة بين النساء السوداوات والسيد سنو يكاد ينفجر رأسه من الضحك)، أزمعت الرحيل. خرجت إلى الشرفة ثم تذكرت «لا، اللعنة... لقد وعدت نفسي بألا أرحل قبل أن أتسلق هذا الجبل»، كان ذاك الجانب الشاهق من الوادي الذي يفضي بطريقة ملغزة إلى المحيط الهادئ.

لذا مكثت يوماً إضافياً. كان يوم أحد رائعاً بعد انحسار موجة حر فظيعة. الشمس بدأت بالاحمرار عند الثالثة عندما بدأت بتسلق الجبل وعند الرابعة وصلت إلى قمته. كان القطن الكاليفورني وأشجار الأوكاليبتس الرائعة تملأ السفوح كلها، لكن عند القمة اختفت الأشجار ولم يعد هناك سوى العشب والصخر. وكان ثمة ماشية ترعى هناك. وأمامي، على بعد بضع هضاب، انفتح المحيط الهادئ، أزرق وواسعاً، مع جدار أبيض هائل يتقدم من رقعة البطاطا تلك حيث ينشأ ضباب فريسكو. ساعة أخرى وسيتقدّم مبخراً عبر الغولدن غايت ليلف المدينة الرومانسية بالبياض، وشاب سيمسك يد حبيبته وهو يرتقي ببطء رصيفاً أبيض وقد برزت زجاجة «توكاي» من جيبه. وها هي فريسكو، حيث نساء رائعات يقفن على عتبات بيضاء، منتظرات رجالهن؛ وبرج كويت، والإيمباكارديرو، وماركت ستريت، والهضاب التسع المتزاحمة.

بقيت هناك حتى شعرت بالدوخة، وظننت أنني سأقع، كما في

حلم، عن الجرف مباشرة. أوه أين حبيبتي؟ فكرت، ونظرت حولي، مثلما كنت أفعل في العالم الصغير في الأسفل. وأمامي كانت قارتي الأميركية الضخمة المنتفخة، في مكان ما، بعيداً، كانت نيويورك الكئيبة، المجنونة، ترسل أغبرتها وأبخرتها السوداء إلى السماء. ثمة شيء قاتم ومقدس في الشرق، وكاليفورنيا بغسيلها الأبيض المنشور ورأسها الفارغ، على الأقل هكذا رأيتها عندها.

ـ ١٢ ـ

في الصباح كان ريمي ولي آنِ نائمين حين وضّبت ملابسي بهدوء وتسللت خارجاً من النافذة مثلما دخلت، وغادرت ميل سيتي حاملاً حقيبتي الصوف. ولم أمض تلك الليلة الموعودة على السفينة الشبح القديمة ـ أدميرال فيبي، وأنا وريمي صرنا غريبين عن بعضنا.

في أوكلاند شربت الجعة بين متشردي إحدى الحانات وعدت إلى الطريق ثانية. مضيت سيراً على الأقدام حتى بلغت الطريق السريعة المؤدية إلى فريسكو، ثم قادتني توصيلتان مجانيتان إلى بايكرسفيلد، أربعمائة ميل جنوباً. كانت التوصيلة الأولى مجنونة، مع فتى أشقر ضخم الجثة، يحمل مسدساً محدّثاً، «أترى إصبع قدمي هذا؟»، قال وهو ينطلق بسرعة ثمانين ميلاً متجاوزاً كل السيارات الأخرى «أنظر إليه، جعلتهم يبتروه هذا الصباح.. السفلة كانوا يريدونني أن أبقى في المستشفى.. لكنني حملت حقيبتي ورحلت. ما هو إصبع القدم؟»، أجل بالتأكيد قلت لنفسي، احذر الطريق الآن، ورحت أتطلع للوصول. من النادر أن يرى المرء مجنون قيادة كهذا. وصل إلى ترايسي في وقت قياسي. ترايسي هذه هي مدينة محطة قطارات، «الفرملجية» فيها يتناولون الطعام في مقاصف بجوار السكة، والقطارات تهدر عبر الوديان،

والشمس تهبط طويلة وحمراء. كل أسماء البلدات السحرية مرت من أمامي: مانتيكا، واديرا وغيرهما. حل الغسق سريعاً، غسق خمري، أرجواني فوق بساتين المندرين وحقول البطيخ، والشمس بلون العنب المعصور، وقد اصطبغت بالبورغندي الأحمر، والحقول بلون الحب والغموض الإسبانيين. مددت رأسي من النافذة وتنشقت أنفاساً عميقة من الهواء العبق. كانت أروع اللحظات على الإطلاق. الرجل المجنون كان «فرملجياً» لدى شركة «جنوب الباسيفيك» وكان يعيش في فرنزو، والده أيضاً كان «فرملجياً». فقد إصبع رجله في فناء سكة حديد أوكلاند أثناء تبديله اتجاه السكة، ولم أفهم كيف حدث ذلك تماماً. دخل إلى فرنزو الصاخبة وأنزلني عند طرفها الجنوبي. ذهبت لشرب كوكاكولا سريعة في محل بقالة قرب سكة الحديد، ثم دخل شاب أرمني مجنون، وفي تلك اللحظة صدح بوق شاحنة، وقلت لنفسي أجل، أجل، إنها مدينة سارويان(١).

كان يجب أن أتجه جنوباً. أقلني رجل بشاحنة صغيرة جديدة. كان من لابوك، تكساس، ويعمل في مجال الشاحنات، «أترغب بشراء شاحنة؟ وقتما تشاء اسأل عني». وراح يخبر قصصاً عن أبيه: «ذات ليلة ترك أبي غلة اليوم فوق الخزنة، نسي أن يضعها في الخزنة، وما الذي تتوقع أن يحدث؟ يدخل لص في الليل، حاملاً غاز الأسيتيلين وكل العدة الضرورية، يفتح الخزنة، ويبعثر الأوراق، ثم يركل الكراسي، ويغادر. وتلك الألف دولار كانت هناك فوق الخزنة ولم يرها. ما قولك بهذا؟».

أنزلني جنوب بايكرسفيلد، وعندها بدأت رحلتي. استحال الجو بارداً، فارتديت المعطف العسكري الرقيق الذي ابتعته من أوكلاند بثلاثة

---

(١) عاش الكاتب الأميركي الأرمني وليم سارويان William Saroyan (١٩٠٨ ـ ١٩٨١) في مدينة فرنزو التي تعدّ مركز الأرمن الأميركيين في أميركا.

دولارات وسرت مرتجفاً على الطريق. وقفت قبالة نزل منمق على الطريقة الإسبانية تتلألأ أنواره مثل جوهرة. مرت السيارات المتجهة إلى لوس أنجيليس هادرة من أمامي. كنت ارتجف من الصقيع، وبقيت واقفاً هناك حتى منتصف الليل، لساعتين كاملتين، صاباً اللعنات والشتائم على كل شيء. كان الموقف شبيهاً بستيوارت، أيوا، مجدداً، ولم يكن من حل أمامي سوى أن أنفق ما يزيد عن الدولارين أجرة الحافلة لما تبقى مسافة إلى لوس أنجيليس. عدت سيراً على الأقدام على طريق بايكرسفيلد السريعة إلى المحطة وجلست على مقعد.

كنت اشتريت تذكرتي منتظراً الحافلة حين مرت من أمامي فتاة مكسيكية فاتنة تلبس بنطالاً، بعد أن ترجلت لاستراحة قصيرة من إحدى الحافلات التي توقفت تواً مزمجرة بمكابحها الهوائية. كان نهداها منتصبين، وخصرها شهياً، وشعرها طويلاً وأسود لماعاً، وعيناها واسعتين زرقاوين. تمنيت لو كنت على الحافلة التي تقلها، واعتصر الألم قلبي، مثلما يحدث لي في كل مرة أرى فيها فتاة تعجبني تمضي بعكس اتجاهي في أرض الله الواسعة. أعلن المنادي انطلاق الحافلة، فحملت حقيبتي وصعدت، ومن أراها جالسة هناك بمفردها سوى الفتاة المكسيكية نفسها. سرت نحوها مباشرة. كنت وحيداً جداً، وحزيناً جداً، ومتعباً جداً، وبردان جداً، ومفلساً جداً، ومرهقاً جداً، بحيث استجمعت شجاعتي، الشجاعة الضرورية للاقتراب من فتاة غريبة، وأزمعت التصرف، ومع ذلك مرت خمس دقائق على انطلاق الحافلة وأنا ألطم من دون القيام بأي مبادرة.

عليك أن تفعل ذلك، عليك بذلك، أيها الأحمق اللعين، تحدث إليها! ما خطبك؟ ألم تتعب كفاية من نفسك الآن؟ وقبل أن أعرف ما الذي أنا فاعله ملت عبر الممر نحوها (كانت تحاول النوم على المقعد) وقلت: «آنسة هل ترغبين باستعمال معطفي كوسادة؟».

قالت مبتسمة «لا، شكراً جزيلاً»، بنظرة جانبية حانية وحزينة، فنهضت وملت نحوها: «أيمكن أن أجلس إلى جوارك آنسة؟».

«إذا شئت».

وهذا ما فعلته، «إلى أين أنت ذاهبة؟».

«ل. ا»، وأحببت الطريقة التي لفظت فيها ل. أ. أحب الطريقة التي يلفظ فيها أهل الساحل ل. أ. إنها مدينتهم الذهبية[1] والوحيدة في نهاية الأمر.

«إنني ذاهب إلى هناك أيضاً»، هتفتُ، «ويسعدني جداً أنك سمحت لي بالجلوس إلى جوارك. كنت وحيداً جداً، ولقد قطعت مسافات طويلة». وبدأنا نسرد قصصنا. قصتها كانت التالية: كان لها زوج وطفل. الزوج كان يضربها، فهجرته، هناك في سابينال، جنوب فرنزو، وهي متجهة الآن إلى ل. أ. لكي تقيم مع أختها لفترة، تاركة طفلها مع عائلتها، وهم قاطفو عنب يعيشون في كوخ بين الكروم. لم تتمكن من فعل شيء في حياتها سوى أن تحبل وتغضب. رغبت بمعانقتها في تلك اللحظة. تحدثنا وتحدثنا. قالت إنها مستمتعة بالتحدث إلي. وبعد برهة قالت لي إنها تتمنى الذهاب إلى نيويورك أيضاً. «ربما يمكننا فعل ذلك!» وضحكت. ومضت الحافلة صعوداً نحو ممر غرابفاين الجبلي قبل أن تهبط إلى الضوء العظيم المنتشر. وبشكل تلقائي أمسكنا أيدي بعضنا، وقررنا بصمت وبروعة وصفاء أن نمضي الوقت معاً في أول فندق في ل. أ. تألمت كثيراً من أجلها. دسست رأسي في شعرها الرائع. كتفاها الصغيران أفقداني صوابي. عانقتها وعانقتها. وأحبّت ذلك.

«أحبّ الحب»، قالت مغمضة عينيها. فوعدتها بحب عظيم، وأنا

(١) المدينة الذهبية Golden City، لقب لمدينة لوس أنجيليس.

أتأمل كل تفصيل فيها. انتهينا من القصص، وركنّا إلى حال من الصمت وأحلام اليقظة اللذيذة. كان الأمر بهذه البساطة. يمكنك الحصول على كل فتيات العالم اللواتي يحملن أسماء «بت» و«بتي» و«ماري لو» و«ريتا» و«كاميل» و«إنيز»، أما هذه فهي فتاتي، رفيقة روحي، وقلت لها ذلك. وصارحتني بأنها رأتني أراقبها في محطة الحافلات، «فكرت في أنك طالب جامعي لطيف».

«أوه، إنني طالب جامعي حقاً!».

وصلنا إلى هوليوود. في الفجر الرمادي المغبر، كالفجر الذي التقى فيه جويل ماكريا فيرونيكا لايك في مقصف، في فيلم «رحلات ساليفان»(١)، نامت في حضني. نظرت بنهم من النافذة: بيوت الجص والنخيل والموتيلات، المشهد الرائع كله، الأرض الموعودة الرثة، نهاية أميركا الفانتازية. ترجلنا في ماين ستريت، ولم يكن الأمر مختلفاً عن الترجل من الحافلة في كانزاس أو شيكاغو أو بوسطن، حيث القرميد الأحمر والقذارة والشخصيات العابرة، وعربات الترولي تمضي في الفجر الرث، وحيث الرائحة العهرية نفسها التي تسمُ المدن الكبرى.

وعندها بدأت أشعر ببعض الاضطراب، لا أعرف السبب، لكن استولت علي الريبة بأن تريزا، أو تيري ـ وهو اسمها ـ ليست إلا عاهرة صغيرة، تتنقّل في الحافلات لتستولي على دولارات الشبان بمواعدتهم مثلما تفعل معي الآن في ل. أ. حيث تأتي بالشاب المخدوع أولاً إلى مكان يتناولان فيه الإفطار، ويكون قوادها متربصاً، ثم تصحب الضحية إلى غرفة فندق ما يقتحمها القواد فجأة شاهراً مسدسه. لم أصارحها

(١) «رحلات ساليفان» Sullivan's Travels، فيلم أميركي إنتاج ١٩٤١، من إخراج برستن ستورجز، ومن بطولة جويل ماكريا وفيرونيكا لايك، ويحكي قصة مخرج سينمائي يدعى جون ساليفان يكتشف أن صنع الأفلام الكوميدية أهم بكثير للمجتمع من الأفلام الدرامية.

بهواجسي هذه. تناولنا الإفطار وكان ثمة قواد يراقبنا، وخيل إلي أن تيري ترسل إليه بعينيها إشارات سرية. كان المكان غريباً ونائياً وكنت متعباً، وهيمن الخوف على أفكاري وجعلني أتصرف بطريقة رخيصة وتافهة: «أتعرفين هذا الرجل؟»، سألتها.

«أي رجل، حبيبي؟». تخلّيت عن السؤال. كانت تفعل كل شيء ببطء شديد، واحتاجت إلى وقت طويل لتفرغ من تناول طعامها، وهي تمضغ ببطء محملقة في الفراغ، ثم دخنت سيجارة وظلت تتحدث، وكنت مثل شبح منهك، مرتاباً بكل خطوة تقوم بها، معتقداً أنها تسعى إلى كسب الوقت. كان هذا كله سبباً لإحساسي بالتوعك. كنت أتعرق بينما نمشي في الشارع يداً بيد. ووجدنا غرفة شاغرة في أول فندق قصدناه، ولم تمض سوى بضع دقائق وجدتني بعدها أقفل الباب ورائي، بينما همّت هي، جالسة على طرف السرير، بخلع حذائها. وقبلتها برقة، وقررت ألا أصارحها بهواجسي. ولكي نسترخي، خصوصاً أنا، كنا بحاجة إلى الويسكي، فهرعت وجلت الشارع كله، حتى عثرت على رجل يبيع الويسكي في كشك صحف، وعدت مسرعاً، ومفعماً بالنشاط. كانت تيري في الحمام تصلح تبرجها. سكبت كأساً كبيرة وبدأنا نتجرعه. أوه، كانت شهية ولذيذة وتستحق مشقة الرحلة. وقفت وراءها قبالة المرآة، ورقصنا في الحمام بتلك الطريقة، وحدّثتها عن أصدقائي في الشرق.

ثم قلت لها: «ينبغي أن أعرفك إلى فتاة رائعة تدعى دوري. إنها فتاة صهباء طولها ستة أقدام. إذا ما جئت إلى نيويورك فستساعدك في الحصول على عمل».

«من تكون هذه الصهباء الطويلة؟»، سألتني بارتياب، «ولماذا تحدثني عنها؟». لم تكن، بروحها البسيطة، قادرة على استيعاب بهجتي المتوترة. لكنها تجاهلت الأمر، وبدأت تشرب في الحمام.

«تعالي إلى السرير»، ظللت أناديها.

«فتاة صهباء طولها ستة أقدام، هيه؟ وأنا الذي حسبتك شاباً جامعياً لطيفاً، رأيتك بكنزتك اللطيفة وقلت لنفسي هممم، أليس لطيفاً هذا الشاب؟ لا، وألف لا! ينبغي أن يتضح أنك مجرد قواد لعين مثلهم جميعاً!».

«ما الذي تتحدثين عنه؟».

«لا تقف هناك وتقول لي أن هذه الفتاة الصهباء ليست بمدام لأنني أعرف وصف المدام حين أسمعه، وأنت... أنت مجرد قواد مثل كل الذين عرفتهم، كلكم قوادون».

«اسمعيني تيري، أنا لست قواداً أقسم أنني لست قواداً. لماذا أكون قواداً؟ كل ما يهمني هو أنت».

«طوال الوقت كنت أحسب أنني التقيت شاباً لطيفاً.. وكنت في غاية السعادة... عانقت نفسي وقلت، هممم، فتى لطيف حقاً، بدلاً من قواد».

«تيري»، ناشدتها بكل جوارحي، «أرجوك اسمعيني وافهميني، أنا لست قواداً». قبل ساعة كنت أحسبها عاهرة. كم كان ذلك محزناً. عقلانا افترقا مشحونين بالغضب. أوه يا للحياة الرهيبة، كم توسلت إليها وكم انتحبت، وفي نهاية الأمر استشطت غضباً لفكرة أنني أتوسل إلى فتاة مكسيكية حمقاء وقلت لها ذلك، وفي غمار غضبي حملت حذاءيها الحمراوين وقذفتهما على باب الحمام، وصرخت بها أن ترحل «انقلعي من هنا!». سأنام وأنسى الموضوع، لدي حياتي، حياتي الحزينة المخربة إلى الأبد. ساد صمت تام في الحمام. خلعت ملابسي واضطجعت على السرير.

خرجت تيري وعيناها مغرورقتان بدموع الندم. لا بد من أنها

استنتجت في صميم عقلها البسيط أن قواداً لا يمكن أن يرمي حذاء امرأة على الباب ويأمرها بالرحيل. بصمت موقر ولذيذ خلعت ملابسها وانسلت بجسدها الصغير تحت الأغطية إلى جانبي. كانت بنية كالعنب. رأيت الندبة على بطنها المسكين التي تسبّبت بها الولادة القيصرية، كان وركاها أضيق من أن يحتملا طفلاً من دون بقر بطنها. ساقاها كانتا رفيعتين كعصوين، ولم تكن تتجاوز أربعة أقدام طولاً. مارسنا الحب في أعذب الصباحات وأغربها. ثم، مثل ملاكين متعبين، في ذلك النزل في لوس أنجيليس، بعد أن اكتشفنا معاً ألذ إحساس وأكثره حميمية في الحياة، غفونا حتى العصر.

- ١٣ -

أمضينا الأسبوعين التاليين معاً في السراء وفي الضراء. حين صحونا قررنا أن نسافر استوقافاً إلى نيويورك، ستكون فتاتي في المدينة. تخيلت تعقيدات جامحة مع دين وماري لو والجميع، سيكون موسماً هائلاً. كان يجدر بنا أولاً الحصول على عمل لكي نؤمن نفقات الرحلة، وإن كانت تيري متحمسة للانطلاق فوراً بالعشرين دولاراً الباقية معي، لكن لم ترق لي الفكرة، ومثل أحمق لعين استغرقت يومين مفكراً في هذه المشكلة، ونحن نقرأ الإعلانات المبوبة في صحف ل. أ. الغريبة التي أراها للمرة الأولى، وتسكعنا في المطاعم والحانات، حتى تقلصت العشرون دولاراً إلى عشرة. كنا سعيدين جداً في غرفة الفندق. كنت حين يجافيني النوم في منتصف الليل أغطي بطن حبيبتي وكتفيها العاريين البنيين، وأروح أتأمل ليل لوس أنجيليس، وكم كانت كالحة تلك الليالي، بحرّها الشديد، وأصوات الصفارات التي تخترقها! وذات ليلة حدثت مشكلة ما، مأساة ما، في نزل رث في الجهة المقابلة من الشارع، ثم أتت

الشرطة وحققت مع رجل عجوز أشيب الشعر. كان صوته وهو يروي لهم ناشجاً تفاصيل ما حدث يبلغ مسمعي. كنت أسمع كل شيء، إضافة إلى أزيز لمبات النيون في الفندق. لم أشعر بهذا القدر من الحزن في حياتي. ل. أ. هي أكثر المدن الأميركية وحشة وقسوة، صحيح أن برد نيويورك لا يطاق في الشتاء، لكن يبقى هناك شعور ما بالألفة في مكان ما في شوارع معينة منها. أما ل. أ. فهي الأدغال بعينها.

كان ساوث ماين ستريت حيث تجولت وتيري وتناولنا «الهوت دوغز» كناية عن كرنفال رائع من الضوء والحياة الجامحة؛ رجال شرطة ينتعلون الجزمات ويفتشون المارين عند كل زاوية، بينما الأرصفة تعج بأكثر الشخصيات سفلية في البلاد، وهذا كله تحت نجوم جنوب كاليفورنيا الشفيفة الضائعة في الهالة البنية لذاك للمخيم الصحراوي الضخم الذي هو ل. أ. يمكنك اشتمام رائحة الحشيشة، تلك العشبة الضارية، أعني الماريغوانا، طافية في الهواء، ممزوجة برائحة الفاصولياء والجعة. موسيقى الجاز الجامحة العظيمة تتدفق من ردهات الحانات، التي يختلط فيها مختلف أنواع الموسيقى مثل الكاوبوي والبوغي ووغي وغيرها من أنواع الموسيقى المنتشرة في ليل أميركا. الجميع هناك يشبه هاسل. زنوج جامحون يعتمرون قبعات الجاز وينشئون لحى صغيرة ويمضون ضاحكين[1]، وهناك المنهكون طوال الشعور كالذين نجدهم على الطريق ٦٦ في نيويورك، ثم هناك مشردو الصحراء القديمة، حاملو الأسمال، بحثاً عن مقعد شاغر في «حدائق البلازا»، وأردت أن أتعرف إليهم جميعاً وأن أحادثهم، لكن بالي كان مشغولاً بمسألة جني بعض المال.

(١) لم تكن «البيبوب» Bibop أو Bop مقتصرة على الجانب الموسيقي فقط، بل هي نمط عيش كامل، يشمل طريقة الكلام والتفكير واللبس، أي الشخصية برمتها، وهذا تحديداً ما يشير إليه كرواك باستمرار وهو يتحدث عن عالم الجاز في تلك الحقبة.

قصدنا هوليوود وحاولنا عبثاً الحصول على عمل في متجر تنويعي في سانست وفاين. كان أحد الأرصفة يعج بالعائلات الآتية من المناطق النائية، والتي تسعى إلى لمح نجم سينمائي ما يفترض أن يمرّ، وحين ظهرت سيارة ليموزين هرعوا متلهفين إلى الحاجز الحجري محاولين استراق النظر إلى داخل السيارة حيث شخص ما يضع نظارات سوداء وإلى جانبه شقراء مرصعة بالجواهر. «دون أميتشي، دون أميتشي!»، «لا، إنه جورج مورفي، جورج مورفي!». احتشدوا هناك وراحوا يلتفتون إلى بعضهم البعض. فتيان لوطيون وسيمون جاؤوا إلى هوليوود ليصبحوا نجوماً في أفلام الكاوبوي، كانوا يجوبون المكان، مبللين حواجبهم بأطراف أناملهم بلمسات ناعمة. كان هناك أيضاً أجمل المراهقات في العالم ببناطيلهن الجينز، ممن جئن ليصرن نجمات، وممن ينتهي بهن الأمر عادة عاملات في سينمات «الدرايف إن». حاولت وتيري إيجاد عمل في بعض هذه الصالات. لم يكن من عروض في أي مكان. كان بولفار هوليوود مكتظاً بالسيارات، وكانت تقع حوادث صغيرة كل دقيقة على الأقل، الجميع كان يسعى إلى النخلة الأبعد، التي وراؤها العدم والصحراء. أبناء الطبقة الراقية يقفون أمام المطاعم الفخمة، متحادثين بالطريقة نفسها التي يتحادث فيها أبناء جلدتهم في برودواي على شاطئ جايكوب، سوى أنهم هنا في هوليوود يرتدون بذات خفيفة ويتحادثون همساً. واعظون هزيلون يمرون مرتجفين. نساء سمينات يهرولن زاعقات لحجز مقاعد في عروض المسابقات التلفزيونية. رأيت جيري كولونا[١] يفتل شاربيه وراء واجهة صالة عرض «بويك موتورز». أكلت وتيري في كافيتيريا في وسط البلد صممت مثل كهف، مع أثداء معدنية تنبثق من

(١) جيري كولونا Gery Colona (١٩٠٤ ـ ١٩٨٦): كوميدي وكاتب أغنيات من أصل إيطالي، رافق بوب هوب في العديد من أفلامه وكان مشهوراً بشاربيه الطويلين.

كل مكان وأكلاف حجرية ضخمة تخص آلهة وكواكب. جلس الناس هناك يتناولون وجبات ضخمة حول النوافير، ووجوههم الخضراء مفعمة بالأسف البحري. كل شرطي في ل. أ. يبدو زير نساء، ولا بدّ من أنه جاء إلى المدينة أصلاً ليصبح نجماً سينمائياً. الجميع جاء من أجل الأفلام، بمن فيهم أنا. حاولت وتيري أخيراً الحصول على عمل في ساوث ماين ستريت، بين غاسلي وغاسلات الأطباق المتعبين الذين لا يتذمرون بتاتاً، ولم نعثر على عمل هناك حتى. بقي معنا عشرة دولارات.

«اسمع، سأحضر ملابسي من بيت أختي ثم نذهب إلى نيويورك»، قالت تيري. «هيا يا رجل، لنقم بذلك.. **إذا لم تكن تجيد الرقص فسأعلمك**»، وهذا المقطع الأخير كان من أغنياتها المفضلة. ذهبنا إلى منزل أختها في الأكواخ المكسيكية في مكان ما بعد ألميدا ستريت، وانتظرت في زقاق معتم وراء المطاعم المكسيكية لأنه لم يكن يفترض أن تراني أختها. ركضت كلاب أمامي، وكانت لمبات صغيرة تضيء الأزقة الصغيرة المحتشدة بالفئران. سمعت تيري وأختها تتجادلان في ذلك الليل الناعم الدافئ. كنت مستعداً لأي شيء.

خرجت تيري وجرتني من يدي إلى سنترال أفنيو، المعقل الأساسي للزنوج في ل. أ. ويا له من مكان جامح، المنازل فيه كناية عن أقنان دجاج بالكاد تتسع لعلبة موسيقى، وعلب الموسيقى لا تصدح إلا بموسيقى البلوز، والجاز والجامب. ارتقينا أدراجاً قذرة ووصلنا إلى غرفة صديقة تيري، وهي خلاسية جميلة تدعى مارغرينا، كانت تيري أعارتها تنورة وحذاء، أما زوجها هو شاب لطيف أسود مثل شاب البستوني، فخرج واشترى زجاجة ويسكي لكي يحسن ضيافتنا، ورفض أن أشاركه ثمنها. كان لديهما ولدان، راحا يقفزان على السرير، ثم تقرّبا مني ولاعباني وعانقاني وتأملا ملامحي بعجب. الليل الوحشي المدمدم في

سنترال أفينيو، ليل هامب وهو يصدح بموسيقاه «سنترال نايت بريكداون»[1]. كانوا يغنون في الحانات، يغنون من النوافذ، وما عليك سوى أن تنظر لتراهم. استعادت تيري ثيابها وقلنا وداعاً. دخلنا إلى قنّ دجاج واستمعنا إلى بعض الأغنيات في الجكبكس. همس لي رجلان من «النيغرو»[2] شيئاً ما عن الحشيشة بثمن دولار واحد. وافقت، أحضراها. جاء الوسيط وأخذني إلى الحمام الكائن في القبو، حيث وقفت أمامه ببلاهة وهو يقول: «تناولها يا رجل، تناولها».

«ما الذي أتناوله؟»، سألته.

كنت ناولته الدولار، لكنه كان خائفاً من الإشارة إلى الأرض، حيث رميت كتلة صغيرة تشبه الروث البني. كان الرجل حذراً بشكل غريب «يجب أن ألزم الحذر، الأمور لم تكن على ما يرام خلال الأسبوع الفائت». حملت قطعة الروث، التي كانت عبارة عن لفافة سجائر بنية، وعدت إلى تيري، وذهبنا إلى الفندق لكي نحشّش. لم نشعر بشيء،

---

(١) سنترال نايت بريكداون Central Night Brakedown: تسجيل موسيقي اشتهر في الأربعينات، جاز على نمط السوينغ، مع ليونيل هامبتون Lionel Humpton (الذي يسميه كرواك اختصاراً هامب Hump) ونات كنغ كول.

(٢) النيغرو: Negro مثل تعبير «الملون» بات تعبير «نيغرو» (أصله إسباني برتغالي ويعود إلى منتصف القرن السادس عشر) الذي يشير إلى «الرجل أسود البشرة» يعدّ تعبيراً عنصرياً وعدائياً. قواميس إنكليزية عدة تقترح استخدام تعبير «الأميركي الإفريقي» بدلاً من «نيغرو» أو «ملون». الأرجح أن يكون استعمال كرواك لهذين التعبيرين «وصفياً» لا أكثر، في وقت لم تكن فيه ثقافة مناهضة العنصرية، خصوصاً على صعيد اللغة، قد ترسخت بعد، وفي هذا السياق مثلاً يستعمل كرواك في الرواية تعبير «الشوارع النيغروية» ليصف بها الشوارع المعتمة أو يصف العازف سليم غايلارد، وهو كوبي، بأنه «نيغرو» كنوع من الوصف لروحه. وعلى أي حال فإن عدداً من النقاد الذين توقفوا عند معرفة كرواك السطحية بثقافة الأميركيين الأفارقة (راجع المقدمة) لم يشر إلى «عنصرية» ما لديه باستعماله مثل هذه المفردات. وبالتالي فإن استعماله لها يأتي في سياق افتتانه بها وبمن تشير إليهم.

كانت الحشيشة كناية عن تبغ «بول دورهام»، وتمنيت لو أنني كنت أكثر حذقاً في إنفاق المال.

كان علينا أن نحسم أمرنا. فقررنا أن نسافر استوقافاً إلى نيويورك بما تبقى معنا من مال. كانت تيري قد أخذت خمسة دولارات من أختها تلك الليلة. فأصبح بحوزتنا ثلاثة عشر دولاراً أو أقل. لذا وقبل أن يستحق إيجار الغرفة اليومي وضبنا أمتعتنا وانطلقنا بسيارة حمراء إلى أركاديا، كاليفورنيا، حيث مضمار سباق أنيتا، أسفل الجبال المكللة بالثلوج. كان ليل. مشينا عدة أميال ممسكين بأيدي بعضنا، لكي نخرج من تلك المقاطعة المكتظة. كانت ليلة سبت. وقفنا تحت عامود إنارة، مؤشّرين للسيارات، حين فجأة هدرت أمامنا مجموعة سيارات مليئة بالمراهقين، «واو! ياه! لقد ربحنا! لقد ربحنا!»، كانوا يصرخون، جذلين برؤيتهم شاباً وفتاة على الطريق. مرت عشرات السيارات الغاصّة بالوجوه الشابة، وكرهتهم جميعاً. من يحسبون أنفسهم، ليصرخوا بوجه شخص واقف على الطريق، فقط لأنهم طلاب ثانوية أوغاد يعدّ أهلهم حفلات الشواء في العطلات؟ من يحسبون أنفسهم ليسخروا من فتاة تعيش وقتاً عصيباً مع رجل يريد أن يكون عاشقاً؟ كنا نهتم بشؤوننا فقط. ولم نحظ بتوصيلة مباركة، فاضطررنا إلى العودة سيراً إلى البلدة، وكنا بحاجة إلى القهوة ومن سوء حظنا قصدنا المكان الوحيد المفتوح، الذي هو محل مشروبات غازية يقصده طلاب الثانوية، وكل المراهقين كانوا هناك وتذكرونا. الآن رأوا أن تيري مكسيكية، هرة برية «باتشوتو»؛ وأن فتاها أسوأ من ذلك.

خرجنا بكبرياء من هناك وسرنا معاً في العتمة ثم ارتقينا السفح المؤدي إلى الطريق السريعة، وكنت أحمل حقيبتي وحقيبتها. كنا نتنفس ضباباً في الصقيع. قررت أخيراً الاختباء عن العالم ليلة أخرى معها،

وليكن ما يكون عند الصباح. مضينا إلى نزل واستأجرنا غرفة صغيرة مريحة بأربعة دولارات تشمل الحمام والمناشف والراديو، وكل شيء. احتضنا بعضنا بشدة. استحممنا معاً ثم خضنا نقاشاً جدياً طويلاً تحت ضوء الغرفة ثم في العتمة، وخرجنا بنتيجة من هذا النقاش، كنت أحاول إقناعها بشيء، فقبلته، واتفقنا في العتمة، منقطعَي الأنفاس، ثم مسترخيين برضى، مثل حملين صغيرين.

صباحاً مضينا بتنفيذ خطتنا الجديدة، وهي أن نستقل حافلة إلى بايكرسفيلد ونعمل في قطاف العنب، ثم بعدها بأسابيع نتجه إلى نيويورك بالشكل المناسب، أي بالحافلة. كانت رحلتنا خلال فترة بعد ظهر رائعة، حيث جلسنا باسترخاء، متحدثين ومتفرجين على المناظر الطبيعية، غير قلقين حيال أي شيء. وصلنا قرابة الغروب. وكانت الخطة أن نقصد بائعي الفواكه بالجملة في المدينة، وقالت تيري إنه يمكننا النوم في خيمة في مكان العمل. وراقت لي فكرة العيش في خيمة وقطاف العنب في صباحات كاليفورنيا الباردة. لكننا لم نعثر على عمل، وراح الجميع يسدي إلينا النصائح التي لا تقدم أو تؤخر بشيء. وعلى الرغم من إحباطنا ذهبنا إلى مطعم وتناولنا طعاماً صينياً وخرجنا نشطين. عبرنا سكك حديد شركة «جيم. بي» إلى بلدة مكسيكية، حيث سألت تيري مواطنيها المكسيكيين، عن عمل. ثم حل الليل، وفي ذاك الشارع المكسيكي الصغير كانت لمبة واحدة مضاءة، وكانت لافتات صالات سينما، وأكشاك الخضار، والمباني الرخيصة، والمتاجر التنويعية البائسة، ومئات الشاحنات المتهالكة، والسيارات الملطخة بالأوحال. عائلات بأكملها تعمل في القطاف كانت تتجول آكلة البوشار. سألت تيري الجميع بلا نتيجة. بدأت أشعر باليأس، وكنت وتيري في أمسّ الحاجة إلى شراب، فاشترينا ربعية كاليفورنيا بخمسة وثلاثين سنتاً وذهبنا إلى فناء

المحطة لنشربها. وجدنا مكاناً وضع فيه المشردون أقفاص خشبية ليجلسوا حول النار. فجلسنا هناك وشربنا النبيذ. إلى يسارنا كانت الشاحنات، حزينة وحمراء قاتمة تحت القمر، وأمامنا مباشرة أضواء مطار بايكرسفيلد، وإلى يميننا مخزن «كونست ألمنيوم» الضخم. آه، كم كانت ليلة عذبة، ليلة دافئة، ليلة النبيذ، ليلة القمر، ليلة تعانق فيها حبيبتك وتتحدث وتعيش السعادة. وهذا ما فعلناه. كانت تيري حمقاء صغيرة سكرية بزّتني في الشراب وظللنا نتحدث حتى منتصف الليل، من دون أن نتزحزح من مكاننا. ومن وقت لآخر كان يمر متشردون، أمهات مكسيكيات مع أطفال، كما مرت سيارة دورية وخرج الشرطي ليبول، لكن معظم الوقت كنا وحدنا نصهر روحينا أكثر فأكثر حتى بات شبه مستحيل أن نفترق. عند منتصف الليل نهضنا واتجهنا إلى الطريق السريعة.

اقترحت تيري فكرة جديدة، أن نسافر مستوقفين إلى بلدتها سابينال، ونعيش في مرآب أخيها. كنت أرحب بأي اقتراح. على جانب الطريق أجلست تيري على حقيبتي لتبدو مثل امرأة في محنة، وفوراً توقفت لنا شاحنة فهرعنا إليها. كان السائق طيباً، مضى بشاحنته المتواضعة إلى أعلى الوادي، وأوصلنا إلى سابينال قبيل الفجر. أنهيت النبيذ بينما تيري نائمة، وبدأت أشعر ببعض النشوة. ترجلنا وجلنا في الساحة الهادئة المظللة بالأشجار في تلك البلدة الصغيرة. ثم مضينا للبحث عن صديق أخيها، الذي سيخبرنا أين هو أخوها. ولم نجد أحداً. بدأ الفجر بالبزوغ، استلقيت على ظهري في ساحة المدينة مردداً: «لن تخبرني ما الذي فعله في ويد، أليس كذلك؟ أي شأن له في ويد؟ لن تخبر أليس كذلك؟ ما الذي يمكن أن يفعله في ويد؟» هذه العبارة كانت من فيلم «عن الرجال والفئران»، في المشهد الذي يتحدث فيه بورغس مريديث

مع المشرف على المزرعة. ضحكت تيري، التي تجد كل ما أفعله وأقوله مسلياً. كان يمكنني البقاء مستلقياً على هذا النحو، مردداً عبارتي تلك، حتى خروج ربات المنازل إلى الكنيسة، ولم تكن لتنزعج، لكنني قررت أخيراً، وبما أن أخاها سيساعدنا على الاستقرار قريباً، أن آخذها إلى فندق قديم عند المحطة حيث يمكننا أن نبيت مرتاحين.

في الصباح المشمس استيقظت تيري باكراً وذهبت تبحث عن أخيها. أما أنا فنمت حتى الظهر؛ وحين نظرت من النافذة رأيت قطار جنوب الباسيفيك يمر مع آلاف المتشردين مستلقين على العربات مستعملين أسمالهم كوسادات ومغطين وجوههم بأوراق الصحف، وبعضهم يمضغ العنب الكاليفورني اللذيذ. «روعة»، صرخت. «إنها الأرض الموعودة. جميعهم جاؤوا من فريسكو، وبعد أسبوع سيرجعون بالطريقة الرائعة نفسها».

عادت تيري مع شقيقها وصديقه وطفلها. أخوها كان فتى مكسيكياً جامحاً متعطشاً دوماً للكحول، شاب رائع وطيب. صديقه كان فتى مكسيكياً ضخم الجثة يتحدث الإنكليزية بركاكة وكان صاخباً ومحباً أكثر من اللازم لنيل رضى الآخرين، وبدا جلياً انجذابه إلى تيري. طفلها اسمه جوني، سبع سنوات، وسيم أسود العينين. حسناً، ها نحن هنا، وها هو يوم حماسي آخر يبدأ.

كان أخوها ريكي يملك سيارة شفروليه، طراز ١٩٣٨، تكومنا فيها وانطلقنا إلى جهة مجهولة. «إلى أين نذهب؟» سألت. وتولى الشرح الصديق الذي يناديه الجميع بونزو. كانت رائحته منتنة، وسرعان ما عرفت السبب، إذ كان يوزع بشاحنته السماد على المزارعين. كان دائماً بحوزة ريكي ثلاثة أو أربعة دولارات، وكان من النوع المبتهج الذي يردد باستمرار «هذا صحيح يا رجل، ها قد قلتها، لقد أصبت!». وانطلق

بسرعة سبعين ميلاً بالساعة في السيارة القديمة، وذهبنا إلىماديرا، خارج فرنزو، لكي نقابل بعض المزارعين بشأن السماد.

كان مع ريكي زجاجة خمر. «اليوم نشرب، وغداً نعمل»، ابدأ أنت يا صاح، خذ جرعة!». جلست تيري مع طفلها في الخلف، ونظرت إليها وكان وجهها طافحاً بفرحة العودة إلى بلدتها. ريف كاليفورنيا الأخضر في أكتوبر مر من أمامنا. شعرت بالحيوية من جديد وبأنني جاهز للانطلاق.

«إلى أين نتجه؟».

«سنرى مزارعاً نشتري منه السماد، ثم نعود غداً بالشاحنة ونجلبه، سنجني المال الوفير، لا تشغل بالك».

«إننا معاً في هذا!»، هتف بونزو. رأيت أن الأمر كذلك حقاً، فأينما ذهبت، يكون الجميع في الأمر معاً. عبرنا مسرعين شوارع فرنزو الجميلة، ومنها عبر الوادي إلى الأزقة الخلفية حيث مساكن بعض المزارعين. خرج بونزو من السيارة وتكلم مع مزارعين مكسيكيين عجائز، وبالطبع عاد خالي الوفاض.

«ما نحتاج إليه هو الشراب!»، صرخ ريكي، وانطلقنا إلى حانة عند تقاطع طرق. الأميركيون دائماً يحتسون الخمر بعد ظهر أيام الأحد في مثل هذه الحانات، يجلبون أولادهم معهم، ويعاقرون الخمرة ويتسامرون ويغنون صاخبين، وكل شيء يكون على ما يرام بالنسبة إليهم، ثم يأتي الليل ويبدأ الصغار بالبكاء ويكون الأهل قد أترعوا ثمالة، فيعودون مترنحين إلى بيوتهم. عرفت هذه الحانات في أنحاء أميركا كافة.

راح الأولاد يأكلون البوشار والبطاطا ويلعبون في الخلف. أنا وريكي وبونزو وتيري شربنا وغنينا مع الموسيقى، وراح جوني الصغير يلعب مع أولاد آخرين حول الجكبكس. وبدأت الشمس تحمرّ. ولم نكن أنجزنا

شيئاً.. ما الذي يستأهل أن يُنجز أساساً؟ «مانانا»، قال ريكي، «مانانا يا رجل، غداً نجني المال.. إليك بجعة أخرى، هاك.. هاك!».

خرجنا مترنّحين من الحانة، ومنها إلى أخرى. كان بونزو الصاخب يعرف الجميع في وادي سان يواكيم. ذهبت وإياه في السيارة بحثاً عن مزارع ما، وبدلاً من ذلك وجدنا نفسينا في بلدة ماديرا المكسيكية، ننظر إلى الفتيات ونحاول العثور على اثنتين له ولريكي. ثم ومع انتشار الغسق الأرجواني فوق بلاد العنب، وجدتني جالساً ببلادة في السيارة بينما يجادل بونزو عجوزاً مكسيكياً عند مدخل مطعم حول سعر البطيخ الأحمر الذي يزرعه في فنائه الخلفي. اشترينا واحدة، وأكلناها هناك ورمينا القشور على رصيف العجوز المتسخ. طوابير من الفتيات الجميلات كانت تجتاح الشوارع المعتمة. سألته: «أين نحن بحق الجحيم؟».

«لا تقلق، يا رجل»، قال بونزو الضخم. «غداً نجني المال الوفير، لا تشغل بالك الليلة». عدنا وأتينا بتيري وأخيها والطفل وقفلنا عائدين إلى فرنزو تحت أضواء الأوتوستراد الليلية. كنا نتضور جوعاً. قفزنا فوق خط سكة الحديد في فرنزو وانطلقنا إلى الشوارع المكسيكية الصاخبة. كان ثمة صينيون غرباء يطلون من النوافذ، متأملين شوارع الأحد الليلية، وجحافل من الفتيات المكسيكيات يختلن بالبناطيل، وموسيقى المامبو تندلع من علب الموسيقى واللمبات تشتعل بكثافة كما لو أنه عيد جميع القديسين. قصدنا مطعماً مكسيكياً وأكلنا التاكو وفاصولياء البينتو المطحونة المغلفة بالتورتيلا الشهية. دفعت عني وعن تيري، مبدداً آخر خمسة دولارات تحول بيني وبين شاطئ نيوجيرزي، وبقي معي أربعة دولارات. تبادلت وتيري النظرات.

«أين سننام الليلة حبيبي؟».

«لا أعرف».

ثمل ريكي، وجعل يردد عبارة واحدة «هاك، ها أنت، يا رجل، ها أنت»، بصوت حنون ومتعب. كان يوماً طويلاً. لا أحد منا عرف ما الذي سيحدث غداً، أو ما الذي خطط له الرب العظيم. غفا جوني الصغير بين ذراعي، خلال عودتنا إلى سابينال، وتوقفنا عند مقصف جانبي على الأوتوستراد ٩٩ لأن ريكي رغب بشرب جعة أخيرة. وراء المقصف كانت شاحنات وخيم وبعض الغرف البائسة التي يفترض أن تشكّل نزلاً. سألت عن الأجرة وكانت دولارين. سألت تيري رأيها، ووافقت لأنه كان معنا الطفل وعلينا أن نريحه. لذا شربنا بضع زجاجات جعة، بين عمال مهاجرين متجهمين يرقصون على أغنيات فرقة من رعاة البقر، أنا وجوني وتيري مضينا إلى غرفة نزل واستعدينا للنوم، ومكث بونزو، إذ لم يكن لديه مكان للنوم، أما ريكي فعاد إلى بيت أبيه في الكرم.

«أين تعيش يا بونزو؟»، سألته.

«ليس في أي مكان، يا رجل، يفترض بي أن أكون مع بيغ روزي لكنها طردتني البارحة، سأحضر شاحنتي وأنام فيها الليلة».

سمعت وتيري أنغام الغيتارات، بينما نتأمل النجوم ونتبادل القبل. «مانانا»، قالت، «كل شيء سيكون على ما يرام غداً، ألا تظن حبيبي سال؟».

«بالطبع حبيبتي، مانانا». كان الأمر دائماً «مانانا»، كانت هذه الكلمة الوحيدة التي سمعتها خلال الأيام التالية، كلمة جميلة تعني الجنة على الأرجح.

أخذ جوني الصغير يقفز على السرير، ارتدى بيجامته ومضى إلى النوم، ورمل ماديرا يهرّ من حذائه. نهضت وتيري عند منتصف الليل

لننفض الرمل عن الملاءات. في الصباح أفقت واغتسلت، وقمت بجولة. كنا على بعد خمسة أميال من سابينال في حقول القطن وكروم العنب. سألت المرأة السمينة التي تملك المخيم إذا ما كان لديها خيمة شاغرة. وكانت الخيمة الأرخص وأجرتها دولار في اليوم، شاغرة، فانتقلنا إليها، وكان فيها سرير، وموقد، ومرآة مشروخة علّقت على عامود، وكانت رائعة، وكان عليّ الانحناء لكي أدخل، لأجد هناك حبيبتي وصغيرها. انتظرنا ريكي وبونزو حتى وصلا بالشاحنة، ومعهما الجعة وشرعا يسكران في الخيمة.

«ماذا بشأن السماد؟».

«تأخر الوقت اليوم، غداً يا رجل، نجني الكثير من المال، اليوم لدينا بضع زجاجات من الجعة. ما قولك، جعة؟». لم أكن بحاجة إلى إغواء. «هاك، هاك!»، صرخ ريكي. بدأت أشعر بأن خططنا لجني المال من بيع السماد لن تتحقق. كانت الشاحنة مركونة خارج الخيمة، ورائحتها مثل بونزو.

تلك الليلة أويت وتيري إلى الفراش بينما النسيم الليلي العليل يدخل إلى خيمتنا، وكنت أستعد للنوم حين قالت، «أتريد أن تحبني الآن؟».

«ماذا عن جوني؟».

«لن ينزعج، إنه نائم». لم يكن جوني غافياً، ولم يقل شيئاً.

جاء الفتيان في اليوم التالي بشاحنة السماد وذهبا ليحضرا الويسكي، ثم عادا وأمضيا وقتاً صاخباً في الخيمة. تلك الليلة قال بونزو إن البرد شديد ونام على الأرض في خيمتنا، وغطى نفسه بمشمع تفوح منه رائحة روث البقر. لم تكن تيري تحبه. قالت إنه يصاحب أخاها فقط ليتقرب منها.

إذا بقينا على هذه الحال فسرعان ما سنتضور جوعاً، لذا قمت بجولة

صباحية في الحقول بحثاً عن عمل في حصاد القطن، ودلّني الجميع على مزرعة عند الجانب الآخر من الأوتوستراد. ذهبت، وكان المزارع في المطبخ مع زوجته. خرج، واستمع إلى قصتي، وأنذرني بأنه لا يدفع سوى ثلاثة دولارات لقاء كل مئة رطل أقطفه من القطن. خيّل إلي أنني سأقطف على الأقل ثلاثمائة رطل يومياً وقبلت بالعمل. دبّر لي بعض أكياس القماش من الحظيرة وأخبرني أن القطاف يبدأ فجراً. أسرعت عائداً إلى تيري، وكلي سرور، وعلى الطريق تعثرت شاحنة محملة بالعنب بمطب أرضي، فوقع منها عنقود كبير عدت به إلى الخيمة. سرّت تيري كثيراً بالخبر «أنا وجوني سنساعدك».

«أبداً، لن أقبل شيئاً كهذا».

«قطاف القطن صعب جداً. سأعلمك كيف تقوم بذلك».

أكلنا العنب، وفي المساء جاء ريكي حاملاً الخبز ولحم البقر وقمنا بنزهة. في الخيمة المجاورة لخيمتنا كانت تعيش عائلة كاملة من قاطفي القطن المهاجرين؛ الجد يجلس على مقعده طوال اليوم، فهو أكبر سناً من أن يعمل، في حين يمضي الابن والإبنة وأطفالهم كل فجر إلى الحقول. فجر اليوم التالي ذهبت معهم، وأخبروني أن القطن يكون أثقل فجراً بسبب الندى ويمكننا أن نجني مالاً أكثر من فترة بعد الظهر، ومع ذلك كانوا يعملون من الفجر حتى الغروب. الجد هاجر مع عائلته كلها من نبراسكا خلال «الكساد الكبير»، كتلة الغبار نفسها التي أخبرني عنها كاوبوي مونتانا، ولم يبرحوا كاليفورنيا منذ ذلك الوقت. كانوا يحبون العمل. خلال عشر سنوات زاد ابن العجوز أولاده إلى أربعة، بعضهم كان بالغاً كفاية لجني القطن. وفي الأثناء خرجوا من حال الفقر المدقع في حقول سيمون ليغري إلى حال من الاحترام المقبول في خيمة أفضل، وهذا كل ما كان يعنيهم. كانوا فخورين بخيمتهم.

«ألن ترجعوا إلى نبراسكا؟».

«أبداً، ليس ثمة ما نرجع إليه... ما نريده هو شراء قاطرة».

انحنينا وبدأنا القطاف. كان ذلك رائعاً. عند الجانب الآخر من الحقل كانت الخيم، وأمامها تمتد حقول القطن البنية الجافة التي لا يحدها النظر في امتدادها إلى أسفل التلال البنية عند الغدير، وصولاً إلى جبال سييرا المكللة بالثلوج في الهواء الصباحي الأزرق. كان ذلك أفضل بكثير من غسل الأطباق في ساوث ماين ستريت. لكنني لم أكن أعرف شيئاً عن قطاف القطن، وأضعت وقتاً طويلاً وأنا أفصل الكتلة البيضاء عن جذعها الهش، فيما كان الآخرون يفعلون ذلك بحركة واحدة. والأسوأ من ذلك، أن أطراف أصابعي بدأت تدمى، وكنت بحاجة إلى قفازين، أو إلى خبرة أكبر. كان هناك رجلان عجوزان من «النيغرو» يقطفان القطن بالصبر المبارك نفسه الذي كان أجدادهما يفعلون به ذلك في ألاباما إبان الحرب الأهلية، كانا يعملان وهما يصفّران وسرعان ما تنتفخ أكياسهما بالقطن. بدأ ظهري يؤلمني، لكنه كان رائعاً الانحناء والاختفاء في تلك الأرض. كنت إذا ما شعرت بالحاجة إلى الراحة ألقي وجهي على مخدة التربة الرطبة. رافقتنا العصافير بشدوها. ظننت أنني عثرت على مهنة حياتي. جاء جوني وتيري ولوحا لي عبر الحقل في الظهيرة الحارة الساكنة وانغمسا في العمل معي. كان جوني الصغير أسرع مني في القطاف، وبالطبع سرعة تيري كانت مضاعفة. عملا أمامي وتركا لي كتلاً من القطن النظيف لكي أضيفها إلى كيسي. وضعتها في الكيس بخجل. أي نوع من الرجال أنا الذي لا يستطيع إعالة نفسه بنفسه، ناهيك عن إعالتهما؟ أمضيا طوال فترة بعد الظهر معي، وعدنا عند الغروب. عند طرف الحقل أفرغت حمولتي على ميزان، وكان الوزن خمسين رطلاً، وحصلت على دولار ونصف الدولار. ثم استعرت دراجة هوائية من أحد

الفتيان واتجهت إلى بقال عند الأوتوستراد ٩٩ حيث اشتريت شرائح السباغيتي الجاهزة وكريات اللحم والخبز والزبدة والقهوة والكعك وعدت واضعاً الكيس على مقود الدراجة. اقترب زحام السيارات المتجهة إلى ل. أ. وأزعجتني السيارات المتجهة إلى فريسكو، فرحت أشتم، ثم رفعت رأسي إلى السماء المعتمة وصليت لله أن يمنحني فرصة أفضل في الحياة وأن يساعدني لكي أساعد أولئك المساكين الذين أحبهم. لم يكن ثمة من يسمعني فوق. كان ينبغي أن أعرف أفضل من ذلك. كانت تيري هي التي أعادت إحياء روحي المعنوية، بعد أن سخنت الطعام على الموقد، وقدمت لي إحدى أعظم وجبات حياتي، وكنت منهكاً وأتضور جوعاً. مغنياً مثل نيغرو عجوز من قاطفي القطن، استلقيت على السرير ودخنت سيجارة، فيما الكلاب تعوي في الليل البارد. كفّ ريكي وبونزو عن المجيء في المساء، وأراحني ذلك. تلك الليلة تكورت تيري بجانبي، وقعد جوني على صدري، راسماً الحيوانات على دفتر يومياتي، بينما ضوء خيمتنا يشع في الحقل الموحش، وموسيقى الكاوبوي تنبعث من نزل الطريق حاملة معها الحزن كله. كان كل شيء بأحسن حال. قبّلت حبيبتي وأطفأنا ضوء خيمتنا.

أدى الندى الصباحي إلى ارتخاء الغيمة، حملت منشفتي وفرشاة أسناني وذهبت لأغتسل في الحمام العمومي في النزل، ثم عدت، لبست بنطالي، الذي تمزق من الركوع على التراب ورتقته تيري في المساء، واعتمرت قبعتي القش البالية، التي كانت لعبة جوني قبلاً، وعبرت الأوتوستراد إلى الجهة الأخرى حاملاً كيسي.

كل يوم كنت أجني نحو دولار ونصف الدولار، وكان هذا كافياً لشراء البقالة في المساء على الدراجة الهوائية. ومرت الأيام بسرعة، نسيت خلالها الشرق وكل ما يتعلق بكارلو ودين والرحلة اللعينة على

الطريق. كنت ألاعب جوني باستمرار، وكان يحب أن أرميه في الهواء على السرير. أما تيري فتنشغل برتق الثياب. أصبحت رجلاً من رجال الأرض، تماماً مثلما كنت أحلم في باترسون. ثم سرت شائعات عن أن زوج تيري عاد إلى سابينال وأنه يتربص بي شراً. كنت جاهزاً لمواجهته. ذات ليلة جن جنون جماعة المهاجرين في نزل الطريق وأوثقوا رجلاً إلى شجرة وجعلوا يضربونه بالعصي. كنت نائماً أثناء ذلك، وسمعت فقط عن الأمر. منذ ذلك الوقت صرت أحمل عصا كبيرة في الخيمة في حال واتهم الفكرة أننا نحن المكسيكيين نعبث بمخيمهم. كانوا يظنون أنني مكسيكي، بالطبع، وإلى حدّ ما كنت كذلك.

لكن الآن حل أكتوبر وبات الطقس مصقعاً ليلاً. كان لدى جماعة المهاجرين موقد خشبي يساعدهم على البقاء في الخيمة خلال الشتاء، على عكسنا نحن، إضافة إلى استحقاق أجرة الخيمة. فقررت أنه علينا أن نغادر. «ارجعي إلى عائلتك»، قلت لها، «بحق السماء، لا يمكنك المكوث هنا ومعك طفل مثل جوني؛ المسكين يرتجف برداً». بكت تيري لانتقادي غريزتها الأمومية، ولم أكن أقصد ذلك. حين جاء بونزو بالشاحنة ذات عصر رمادي قررنا أن نقابل عائلتها بشأن هذا الوضع، لكن ينبغي ألا يرونني وسيكون عليّ الاختباء في كرم العنب. انطلقنا إلى سابينال، وفي الطريق تعطلت الشاحنة، وبدأت تمطر بغزارة. مكثنا في الشاحنة القديمة، نلعن. ثم خرج بونزو وراح يحاول إصلاح الشاحنة تحت المطر. كان شاباً طيباً في نهاية الأمر. وعدنا أنفسنا بسكرة كبيرة أخرى. واتجهنا إلى حانة رثة في سابينال المكسيكية، وأمضينا ساعة نشرب الخمر. شعرت أن تجربة عملي في حقول القطن وصلت إلى نهايتها، وبأن حياتي القديمة بدأت تناديني. أرسلت لعمتي بطاقة بريدية وطلبت منها أن ترسل لي خمسين دولاراً أخرى.

اتجهنا إلى كوخ عائلة تيري الذي يقع على الطريق القديمة الممتدة بين الكروم. كانت عتمة حين وصلنا إلى هناك، وأنزلوني على بعد ربع ميل واتجهوا إلى البيت. كان الضوء منبعثاً من الباب، وكان إخوة تيري الستة الآخرون يعزفون على الغيتارات ويغنون، بينما والدهم يحتسي النبيذ. سمعت صراخاً وجدالاً يعلو فوق الغناء. نعتوها بالعاهرة لأنها هجرت زوجها غير النافع وذهبت إلى ل. أ. تاركة جوني معهم. كان العجوز يصرخ، لكن في نهاية الأمر قالت الأم الحزينة السمراء السمينة كلمتها، مثلما تفعل الأم دائماً في أوساط جماعات فلاحي العالم العظيمة في أنحاء العالم كله، فسمح الأب لتيري بالعودة إلى البيت. بدأ الإخوة يغنون أغنيات مرحة وسريعة. مكثت في الريح الباردة الماطرة أراقب المشهد من بين كروم أكتوبر الحزينة. كان كياني مأخوذاً بتلك الأغنية العظيمة «لافر بوي»، مثلما تغنيها بيلي هوليداي، وعشت حفلتي الموسيقية الخاصة بين الأجمة. «سنلتقي ذات يوم، وستجفف كل دموعي، وستهمس لي الكلمات العذبة، وسنتعانق ونتبادل القبل، أوه، كم من الوقت فاتنا، أيها العاشق، أوه أين أنت الآن. . .». لم تكن الكلمات بقدر ما هي الأنغام الرائعة وطريقة غناء بيلي هوليداي، مثل امرأة تداعب شعر حبيبها على ضوء مصباح خفيف. كانت الريح تعوي، وشعرت بالبرد.

عاد تيري وبونزو ومضينا للقاء ريكي. ريكي كان يعيش الآن مع امرأة بونزو، بيغ روزي، أطلقنا البوق له في زقاق بائس. طردته بيغ روزي. كل شيء كان يتداعى. تلك الليلة نمنا في الشاحنة. عانقتني تيري بقوة، ورجتني ألا أرحل. قالت إنها ستعمل في قطاف العنب وتجني مالاً يكفي كلينا، وفي الأثناء يمكنني العيش في حظيرة فارمر هفلنغر، عند نهاية الطريق من بيت أهلها. لن يكون لدي ما أفعله طوال

اليوم سوى أن أجلس على العشب طوال اليوم وآكل العنب «أيعجبك ذلك؟».

في الصباح جاء أولاد عمها لكي يقلونا في شاحنة أخرى. أدركت فجأة أن آلاف المكسيكيين يعرفون بقصتي وتيري ويعتبرونها قصة حب رائعة. كان أبناء العم فاتنين وبالغي التهذيب. في الشاحنة، رحت أوزع عليهم الابتسامات وأنا أحدثهم عن أيام الحرب والمحنة التي عشناها. كانوا خمسة، وكلهم لطفاء. بدوا ينتمون إلى ذلك الجانب من عائلة تيري الذي لا يحدث أفراده جلبة مثل ريكي، لكنني أحببت هذا الشاب الجامح، وأقسم لي أنه سيأتي لزيارتي في نيويورك، وتخيلته هناك مؤجلاً كل شيء حتى «مانانا». كان يسكر في أحد الحقول ذلك اليوم.

ترجلت من الشاحنة عند التقاطع، وأخذ أولاد العم تيري معهم إلى البيت. ثم لوحوا لي من أمام المنزل، الأب والأم ليسا في المنزل، كانا يقطفان العنب. فيمكنني الدخول إلى البيت لبعض الوقت. كان منزلاً من أربع غرف، ولم أستطع أن أتخيل كيف تستطيع العائلة كلها العيش هناك. الذباب يطير فوق المغسلة. ولم يكن هناك من حواجب للنوافذ، تماماً كما في الأغنية «النافذة مفتوحة والمطر ينفذ»[1]. تيري في منزلها الآن وتغسل الأطباق. أختاها تضحكان لرؤيتي، والأطفال يصرخون في الخارج.

حين بدأت الشمس تغيب بين غيوم آخر أصيل لي في الوادي، أخذتني تيري إلى حظيرة فارمر هفلنغر. كان لدى هذا الأخير مزرعة مزدهرة. شكلنا من الأقفاص سريراً، وأحضرت تيري معها بعض البطانيات، وكل شيء بات معداً لنومي المريح هناك، ما عدا عنكبوتة

(١) «النافذة مفتوحة والمطر ينفذ» مقطع من أغنية «مانانا تكفيني» (١٩٤٨) من غناء بغي لي.

ضخمة كانت مندسّة في سقف الحظيرة، لكن تيري طمأنتني إلى أنها لن تؤذيني ما لم أزعجها. تمددت على ظهري ورحت أتأملها. خرجت إلى المقبرة وتسلقت شجرة وغنيت «سماوات زرقاء»[1]. تيري وجوني جلسا على العشب، وأكلا العنب. في كاليفورنيا تمضغ عصارة العنب وتبصق الباقي، ترف حقيقي. حل الليل. وعادت تيري إلى المنزل للعشاء وجاءت إلى الحظيرة عند التاسعة مع طبق من التورتيلا الشهية بالفاصولياء المهروسة. أشعلت ناراً من الخشب على أرضية الحظيرة الإسمنت لكي نستضيء به. مارسنا الحب على الأقفاص، ثم عادت تيري إلى الكوخ، وأمكنني سماع أبيها وهو يزعق بها. كانت تركت لي عباءة لكي تدفئني، فاشتملت بها وتسللت إلى الكرم المضاء بشعاع القمر لأرى ماذا يحدث. زحفت إلى نهاية الكرم وركعت في الطين الدافئ. كان إخوتها الخمسة يغنون بالإسبانية، والنجوم مائلة فوق سقف البيت الصغير، والدخان يتصاعد من المدفأة. شممت رائحة فاصولياء مهروسة وتشيلي، ودمدمات الرجل العجوز، وواصل الإخوة الخمسة الغناء، وظلت الأم صامتة، بينما جوني وأطفال آخرون يتضاحكون في غرفة النوم. منزل كاليفورني نموذجي. تواريت بين العنب، متفرجاً على ذلك كله، وشعرت بأنني فائز بمليون دولار. كنت أعيش مغامرتي في الليل الأميركي الرائع.

خرجت تيري، صافقة الباب وراءها. فناديت عليها على الطريق المعتمة «ما الأمر؟».

«أوه، إننا نتشاجر طوال الوقت، يريدني أن أذهب إلى العمل غداً، قال إنه لا يريدني أن أمضي الوقت عابثة، سالي خذني معك إلى نيويورك».

---

(١) «سماوات زرقاء»، فيلم غنائي هوليوودي (١٩٤٦) من تأليف وموسيقى إرفنغ برلين ومن بطولة بينغ كروسبي وفرد أستير.

«لكن كيف؟».

«لا أعرف. سأشتاق إليك. أحبك».

«لكنني مضطر إلى الرحيل».

«أجل، أجل. نمارس الحب معاً مرة أخيرة ثم ترحل». عدنا إلى الحظيرة؛ مارست الحب معها تحت العنكبوتة. ما الذي كانت تفعله العنكبوتة؟ غفونا لفترة على الأقفاص بينما النار تذوي. عادت عند منتصف الليل، كان أبوها ثملاً، وسمعته يزمجر، ثم ساد صمت بعد نومه، وملأت النجوم سماء الريف الهاجع.

في الصباح مدّ فارمر هفلنغر رأسه من بوابة زريبة الحصان وبادرني «كيف الحال أيها الشاب؟».

«حسن، آمل ألا يكون ثمة مشكلة بمكوثي هنا».

«لا مشكلة، أنت تواعد تلك القحبة المكسيكية؟».

«إنها فتاة لطيفة جداً».

«وجميلة جداً أيضاً. أظن أن الثور قفز عن السياج. عيناها زرقاوان أيضاً». ثم تحدثنا عن المزرعة.

أحضرت تيري الإفطار. كنت وضبت حقيبتي الصوف وبت جاهزاً للانطلاق إلى نيويورك، ما إن أستلم مال عمتي الذي كنت واثقاً من وصوله. قلت لتيري إنني راحل. كانت فكرت في الأمر طوال الليل وتقبلته. قبلتني بعاطفة شديدة في الكرم ومشت معي عبره. التفتنا إلى بعضنا بعد برهة، لأن الحب نزاع، وتبادلنا نظرة أخيرة.

«أراك في نيويورك تيري»، قلت. وكان يفترض أن تأتي بصحبة أخيها بعد شهر. لكن كلانا كان يعرف أنها لن تتمكن من ذلك. التفت ونظرت إليها وهي تمشي عائدة إلى الكوخ، حاملة طبق إفطاري. لويت رأسي ناظراً إليها. حسناً، للأسف. كنت على الطريق ثانية.

مشيت على الأوتوستراد إلى سابينال، قاطفاً الجوز عن الأشجار. مشيت على سكة حديد «جنوب الباسيفيك»، متوازناً على طول الخط. مررت ببرج مائي ومعمل. كانت هذه نهاية شيء ما. اتجهت إلى مكتب التلغراف لكي أجلب نقودي، فوجدته مقفلاً. لعنت حظي وجلست أنتظر على العتبة. عاد الموظف ودعاني إلى الدخول. كان المال قد وصل، لقد أنقذت عمتي مؤخرتي الكسولة مجدداً. «من سيفوز بالبطولة العالمية السنة المقبلة؟»، قال الموظف العجوز؟ أدركت فجأة أنه الشتاء وأنني عائد إلى نيويورك.

مشيت على السكة في ضوء أكتوبر الحزين الطويل. آملاً أن يمر أحد قطارات «جيم. بي» حتى أنضم إلى المتشردين من أكلة العنب وأشاركهم قراءة المجلات الفكاهية. لم يمر القطار. فوقفت على الأوتوستراد وحصلت فوراً على توصيلة. كانت الأسرع. كان السائق عازف كمان في فرقة كاوبوي من كاليفورنيا. كان يقود سيارته الجديدة بسرعة ثمانين ميلاً بالساعة. «لا أشرب الخمر أثناء القيادة»، قال، وناولني زجاجة. شربت جرعة وعرضت عليه جرعة. «لم لا!»، قال وشرب. وصلنا إلى ل. أ. بوقت قياسي، أربع ساعات، قطعنا خلالها ٢٥٠ ميلاً. أنزلني على الطريق أمام «شركة كولومبيا» في هوليوود، وصلت في الوقت تماماً لكي أذهب وأستعيد السيناريو المرفوض خاصتي. ثم قطعت تذكرة إلى بتسبرغ، إذ لم يكن لدي ما يكفي من المال لكي أذهب مباشرة إلى نيويورك. أجلت القلق بهذا الشأن حتى وصولي إلى بتسبرغ.

بما أن الحافلة ستغادر عند العاشرة، كان أمامي أربع ساعات لكي أستكشف هوليوود وحدي. أولاً اشتريت خبزاً وسالامي وأعددت لنفسي عشر سندويتشات تكفيني للطريق. بقي معي دولار واحد. جلست على الجدار الإسمنتي الواطئ خلف مرآب وأعددت السندويتشات. بينما أكدح

في هذا العمل العبثي، أضاءت في السماء مصابيح كليغل الهوليوودية العملاقة التي تشير إلى العرض الأول لفيلم جديد. من حولي كان صخب هوليوود المجنونة. وتلك الساعات الأربع كانت كل حياتي المهنية في هوليوود ـ كانت تلك آخر ليلة هناك، وكنت ألطخ نفسي بالخردل وراء جدار مرآب.

ـ ١٤ ـ

اقتربت الحافلة فجراً من صحراء أريزونا، إنديو، بلايث، سالومي (حيث رقصت سالومي)، عبر السفوح القاحلة العظيمة الممتدة جنوباً إلى جبال المكسيك، ثم شمالاً إلى جبال أريزونا، ففلاغستاف، وكليفتاونز. كنت أحمل كتاباً سرقته من كشك لبيع الصحف في هوليوود، بعنوان «لو غران مولن» لألن فورنييه، لكنني آثرت قراءة المشهديات الطبيعية الأميركية. كل حفرة ووهد ومنبسط فيها زاد من أشواقي. عبرنا في غبش الليل نيومكسيكو، وعند الفجر الرمادي وصلنا إلى دلهارت، تكساس، بعد ظهر الأحد الكئيب بدأت بلدات أوكلاهوما تتسلسل تباعاً، حتى وصلنا ليلاً إلى كانزاس. تابعت الحافلة سيرها. ها أنا عائد إلى مدينتي في أكتوبر. الجميع يعود في أكتوبر إلى مدينته.

وصلنا ظهراً إلى سانت لويس. سرت على ضفة نهر مسيسيبي ورأيت زنود الأشجار العملاقة الطافية على المياه آتية من مونتانا في الشمال ـ زنود أشجار أوديسية تختزل حلمنا الأميركي القاري. رأيت القوارب البخارية القديمة المزخرفة التي زادها الطقس زخرفة وتقشراً جاثمة في الوحل تستوطنها الجرذان. غيوم الأصيل الكبيرة ترتفع فوق وادي مسيسيبي. شقت الحافلة طريقها عبر حقول الذرة في إنديانا تلك الليلة، فيما القمر يضيء أوراق الذرة الشبحية المتجمعة، كان المشهد أشبه بعيد

جميع القديسين. تعرفت إلى فتاة رافقتني طوال الطريق إلى انديانابولس. كانت ضعيفة النظر، وحين توقفنا للاستراحة قدتها من يدها إلى المطعم، فدفعت ثمن وجبتي، وكنت قد تناولت كل سندويتشاتي. وفي المقابل حكيت لها قصصاً طويلة. كانت آتية من واشنطن، حيث أمضت الصيف في قطاف التفاح، ودعتني إلى زيارتها في مزرعة شمال نيويورك. اتفقنا على أن نلتقي في فندق ما في نيويورك على أي حال. ترجلت هي في كولمبس، أوهايو، وأنا نمت طوال الطريق حتى بتسبرغ. كنت ضجراً ومرهقاً مثلما لم أكن من قبل في حياتي، وكان لا يزال أمامي ٣٥٦ ميلاً ينبغي أن أقطعها مستوقفاً إلى نيويورك. مشيت خمسة أميال إضافية لكي أخرج من بتسبرغ، ثم حصلت على توصيلتين، شاحنة صغيرة لنقل التفاح، وأخرى ضخمة، أوصلتاني إلى هارسبورغ في الليل الهندي الصيفي تحت المطر. مضيت مباشرة. أردت العودة إلى البيت.

التقيت تلك الليلة **شبح سوسكوانانا**. عجوز هزيل يحمل كيساً ورقياً ويزعم أنه متجه إلى كانادي، وفهمت أنه يقصد كندا. كان يمشي بخطى سريعة، حاثاً إياي على اللحاق به، قائلاً إن ثمة جسراً في الأعلى يمكننا عبوره. كان في الستين تقريباً، وراح يثرثر عن الوجبات التي تناولها مؤخراً، وكم من الزبدة وضعوا له على الفطيرة، وكم من شرائح الخبز الإضافية حصل عليها، وكيف دعاه العجائز من شرفة دار خيرية في ماريلاند للمكوث عندهم خلال عطلة نهاية الأسبوع، وكيف أخذ حماماً لذيذاً دافئاً قبل أن يغادر، وكيف عثر على جانب الطريق في ڤرجينيا على قبعة جديدة، هي نفسها التي يعتمرها الآن، وكيف أنه يقصد مراكز «الصليب الأحمر» ويظهر لهم أوراقه كجندي في الحرب العالمية الأولى، لكي يطعموه، وكيف أن «الصليب الأحمر» في هارسبورغ لا تستحق شرف الاسم، وكيف تمكن من الصمود في هذا العالم القاسي. لكنه

كان مجرد متشرد جوال نصف محترم يبحث عن مراكز «الصليب الأحمر» في سهوب الشرق الشاسعة، متسولاً القروش أحياناً في ماين ستريت. كنا متشردين معاً. ومشينا سبعة أميال على طول نهر سوسكوانانا الكئيب. ويا له من نهر موحش، حوافه الدَغِلة تنحني مثل أشباح مليئين بالشعر فوق المياه الباطنية. كانت العتمة المدلهمة تحجب كل شيء، وأحياناً كان يشع من باحات سكك الحديد عند الضفة الأخرى ضوء متنقل يضيء حواف النهر. قال الرجل الصغير إنه يملك حزاماً جيداً في كيسه وتوقف لكي يريني إياه، «لدي حزام جيد في مكان ما هنا، حصلت عليه في فردريك، ماريلاند. اللعنة، الآن، أتراني نسيته في المطعم في فردركسبرغ؟».

«تعني فردريك؟».

«لا، لا، فردركسبرغ، ڤرجينيا». كان يتحدث دائماً عن «فردريك، ماريلاند، وفردركسبرغ، ڤرجينيا. كان يمشي في وسط الطريق وكادت السيارات المسرعة تصدمه مرات عدة. أما أنا فمشيت في مصرف المياه الجاف، متوقعاً بين لحظة وأخرى أن تفتك سيارة ما بهذا العجوز المجنون. ولم نعثر على الجسر المنشود، فتركته عند الممر تحت سكة الحديد، ولكثرة ما عرقت من المشي، بدلت قميصي ولبست كنزتين، ثم لاح لي في النهاية نزل طريق، وخرجت عائلة بأكملها إلى الطريق المعتمة متعجبة من وجودي هناك. ومن أغرب الأمور أنني سمعت أحدهم يغني البلوز بشكل رائع في منزله البنسلفاني الريفي. وبدأت تمطر بغزارة. وأقلني رجل عائد إلى هارسبورغ وأخبرني أنني على الطريق الخطأ. رأيت فجأة المتشرد الصغير واقفاً تحت عامود إنارة باهت، مؤشراً بإصبعه، المسكين البائس، تلك الروح المجهولة الضائعة، ذلك الشبح المنهك في البراري البائسة. أخبرت السائق عن وجهة العجوز، فتوقف لكي يوضح له خطأه.

«اسمع، إنك تتجه غرباً، لا شرقاً».

«هيه؟»، قال الشبح الصغير، «لا يمكنك أن تقول لي إنني لا أعرف طريقي. لقد جبت هذا البلد لسنوات وسنوات، وأنا واثق من أنني متجه إلى كانادي».

«لكن هذه ليست الطريق إلى كندا، هذه الطريق تؤدي إلى بتسبرغ وشيكاغو». اشمئز الرجل الصغير منا ومضى مبتعداً، وآخر ما رأيته منه كان كيسه الأبيض المتأرجح يختفي في العتمة في سفوح ألغاينيز الموحشة.

كنت أحسب قبلاً أن البراري الأميركية[1] هي فقط في الغرب حتى جعلني **شبح سوسكوانانا** أرى العكس. لا، هناك سهوب شاسعة في الشرق أيضاً، وهي نفسها التي عبرها بنجامين فرانكلن على عربته التي يجرها ثور حين كان يعمل محاسباً بريدياً، والتي قاتل فيها جورج واشنطن الهنود، والتي سرد فيها دانيال بون القصص على ضوء مصابيح بنسلڤانيا واعداً رجاله بالعثور على منطقة الغاب وبلوغ الغرب، وحين شيد برادفورد طريقه وكان عماله يقيمون الحفلات في أكواخهم البائسة. لم تكن البراري، بالنسبة إلى العجوز الضئيل، هي مساحات أريزونا الشاسعة، بل براري بنسلڤانيا الشرقية الشائكة، وماريلاند، وڤرجينيا، والطرق القادومية، والطرق المزفتة التي تمتد على ضفاف أنهار كئيبة مثل سوسكوانانا، مانونغيلا، بوتوماك، ومانوكاسي.

تلك الليلة في هارسبورغ اضطررت إلى النوم على مقعد في سكة الحديد، وفجراً رماني المسؤولون عن المحطة خارجاً. أليس صحيحاً أنك تبدأ حياتك طفلاً رقيقاً متيقناً من كل شيء تحت سقف منزل أبيك؟

---

(١) «البريري»، يستعمل إحسان عباس في ترجمته لرواية «موبي ديك» هذه الكلمة ويفسّرها بأنها «منطقة السهوب الشاسعة».

ثم يأتي اليوم الذي تعرف فيه أنك بائس ومزر ومسكين وأعمى وعار، تعيش مثل شبح حزين حياتك الكابوسية. خرجت منهكاً من المحطة، بدأت أفقد السيطرة على نفسي. كل ما استطعت رؤيته من الصباح كان بياضاً يشبه الضريح. كنت أتضور جوعاً، وكل ما بقي لدي من سُعر حرارية كان آخر قطرات دواء السعال الذي اشتريته في شلتون، نبراسكا، قبل أشهر، فامتصصتها طلباً للسكر الذي فيها. لم أكن أعرف كيف أستعطي. مشيت متهالكاً خارجاً من المدينة غير واثق من أنني أملك من القوة ما يكفيني للوصول إلى حدودها. عرفت أنني سأعتقل إذا ما أمضيت ليلة أخرى في هارسبورغ، تلك المدينة الملعونة! التوصيلة التي حصلت عليها كانت من رجل نحيل يؤمن بأنه على المرء أن يتحكم بجوعه حفاظاً على صحته. حين قلت له إنني أتضور جوعاً ونحن نتقدم شرقاً كان تعليقه: «ممتاز، ممتاز، هذا أفضل ما يمكن أن يحدث لك. أنا نفسي لم آكل منذ ثلاثة أيام. سأعيش قرناً ونصف القرن». كان كتلة من العظام، دمية لينة، عصا مكسورة، وكان مجنوناً. لماذا لم يرسل لي الله رجلاً سميناً يمكن أن يقول «لنتوقف عند هذا المطعم ونتناول بعض الفاصولياء وشرائح لحم الخنزير». لكن لا، شاء حظي أن يقلني هذا المجنون الذي يؤمن بالتحكم بالجوع. بعد أن قطعنا نحو مئة ميل صار أكثر تساهلاً وجلب من المقعد الخلفي سندويتشات من الخبز والزبدة كانت متوارية بين عينات مضخّات المياه التي يبيعها. التهمتها بوحشية، وفجأة بدأت أضحك. في أليتناون تركني في السيارة وذهب للقيام ببعض المخابرات الهاتفية، وأنا أضحك وأضحك. يا إلهي، كم كنت سئماً. لكن هذا المجنون أوصلني أخيراً إلى نيويورك.

فجأة وجدت نفسي في تايمز سكواير. قطعت ثمانية آلاف ميل حول القارة الأميركية وها قد عدت إلى هذه الساحة، وفي قلب زحمة السير،

أيضاً، لأرى بالعينين البريئتين لمسافر على الطريق ذلك الجنون الفانتازي لمدينة نيويورك حيث ملايين وملايين البشر يتنازعون إلى الأبد من أجل دولار، وذلك الحلم المجنون، حلم القبض، والأخذ والعطاء، والتنهد والموت، فقط لكي يؤمّنوا مدفناً في تلك المقابر وراء لونغ أيلاند. أبراج الأرض العالية، الطرف المقابل من الأرض، حيث ولدت أميركا البيروقراطية. وقفت عند مدخل محطة قطارات أنفاق، محاولاً استجماع ما يكفي من الشجاعة لكي ألتقط عن الأرض عقب سيجارة طويلاً رائعاً، وكل مرة كنت أنحني فيها، كانت تقذفه الأرجل المسرعة بعيداً عني، حتى دمر كلياً. لم أكن أملك أجرة الحافلة إلى البيت. باترسون تبعد بضعة أميال من تايمز سكواير، ولم أستطع أن أتخيّل نفسي ماشياً تلك الأميال الطويلة عبر نفق لنكلن أو فوق جسر واشنطن إلى نيوجيرزي؟ كان غسق. أين هاسل؟ بحثت عنه في الساحة، ولم أجده، كان مسجوناً في جزيرة ريكر. أين دين؟ أين الجميع؟ أين الحياة؟ لدي منزلي حيث يمكنني أن أتمدد وأقوم بحساب الخسائر والمكاسب التي كنت أعرف أنها موجودة في مكان ما أيضاً، لكن كان علي أن أتسول ربع دولار أجرة الحافلة. أخيراً ارتطمت بقسّ يوناني يقف عند الزاوية. أعطاني الربع دولار بنظرة مرتابة. وهرعت إلى الحافلة.

حين وصلت إلى البيت أتيت على كل محتويات الثلاجة. استيقظت عمتي ورأتني. «صغيري المسكين سلفاتوري»، قالت بالإيطالية، «لقد نحفت، لقد نحفت، أين كنت طوال هذه المدة؟». كنت أرتدي قميصين وسترتين، واضعاً في حقيبتي الصوف بنطالي الذي عملت فيه في حقل القطن وبقايا حذائيَ الممزقين. اتفقت وعمتي على شراء ثلاجة كهربائية جديدة بالمال الذي أرسلته إليها من كاليفورنيا، كانت ستكون الثلاجة الأولى في العائلة. أويت إلى النوم، ومع أن الوقت كان متأخراً لم

أستطع نوماً فاضطجعت على السرير مدخناً. كانت مسودة الرواية نصف المنتهية على المكتب. كان أكتوبر، عدت إلى المنزل والعمل مجدداً. أولى الرياح الباردة تعوي عبر النافذة، لقد وصلت في الوقت المناسب. علمت أن دين جاء إلى منزلي، بات بضع ليال وانتظرني، وأمضى فترات بعد الظهر متحدثاً مع عمتي بينما تنسج سجادة ضخمة من ثياب العائلة المتراكمة منذ سنوات، وقد انتهت منها الآن وفردتها على أرض غرفتي، سجادة معقدة وثرية بقدر مرور الزمن نفسه. غادر دين قبل يومين من وصولي، متقاطعاً طريقه مع طريقي على الأرجح في مكان ما في بنسلڤانيا أو أوهايو، في طريقه إلى سان فرانسيسكو، حيث تنتظره حياته مع كاميل التي استأجرت شقة هناك. لم يخطر لي أبداً بأن أبحث عنها بينما كنت في ميل سيتي. الآن فات الأوان، وقد فقدت اثر دين أيضاً.

الجزء الثاني

- ١ -

مرت سنة ونيف قبل أن أرى دين ثانية. قبعت في المنزل طوال تلك الفترة، وأنهيت روايتي، والتحقت بالمعهد، بحسب قانون حقوق الجنود العائدين من الحرب. في «كريسمس» ١٩٤٨ ذهبت وعمتي، محمّلين بالهدايا، لزيارة أخي في ڤرجينيا. كنت قد راسلت دين وأخبرني أنه سيأتي إلى الشرق ثانية، وأشرت له بأنه في حال فعل ذلك في الفترة ما بين الميلاد ورأس السنة فسيجدني في تستمانت، ڤرجينيا. وذات يوم، حين كان أقرباؤنا الجنوبيون، من رجال ونساء كئيبين، تفيض عيونهم بتربة الجنوب القديمة، جالسين في صالون البيت في تستمانت، متذمرين من حال الطقس، ومتهامسين أشياء عن الحصاد وتلك الخبريات العامة المكررة والمملة حول من رزق بطفل ومن انتقل إلى منزل جديد، وهكذا دواليك... عندما توقفت سيارة هادسون ملطخة بالوحول على الطريق الطينية أمام المنزل. لم يكن لدي فكرة عمن يكون القادم. اقترب من الشرفة شخص مفتول العضلات رث الهيئة، نابت الذقن، محمر العينين، وقرع الجرس. فتحت الباب وفوجئت بأنه ليس إلا دين. لقد وصل في وقت قياسي من سان فرانسيسكو إلى باب منزل أخي روكو في ڤرجينيا. لمحت شخصين نائمين في السيارة، «اللعنة دين! من في السيارة؟».

«هالو، هالو، يا صاحبي، إنهما ماري لو، وإد دانكل. نحتاج إلى مكان للاغتسال فوراً إننا مدمرون».

«لكن كيف وصلت بهذه السرعة؟».

«آه إنها الهادسون، يا رجل، هذه الهادسون سريعة!».

«كيف حصلت عليها؟».

«اشتريتها بمدخراتي. لقد كنت أعمل في سكة الحديد بأجرة أربعمائة دولار شهرياً».

ساد ارتباك تام خلال الساعة التالية. لم يكن لدى حشد الأقرباء أي فكرة عما يجري، أو ما ومن هم دين وماري لو وإد دانكل، فراحوا يحملقون بهم ببلاهة، فيما انزوت عمتي وأخي روكو في المطبخ للتشاور. كان ثمة بالإجمال أحد عشر شخصاً في المنزل الصغير. وليس هذا فحسب، لكن كان أخي قد قرر الانتقال وزوجته وطفليه من ذاك المنزل، وأصبح نصف أثاثه في المنزل الجديد، الأقرب من البلدة. وبما أنهما اشتريا أثاث صالون جديد فقد قررا نقل ذاك القديم إلى منزل عمتي في باترسون، وإن لم نكن نعرف بعد كيف سنفعل ذلك. وحين سمع دين بالأمر عرض خدماته فوراً، مقترحاً أن نقوم معاً بنقل الأثاث بسيارته في رحلتين سريعتين، وأن نصطحب عمتي معنا في الرحلة الثانية، وهذا من شأنه أن يوفر علينا الكثير من المال والتعقيدات، فوافق الجميع على ذلك. أعدّت زوجة أخي الطعام للضيوف الثلاثة المنهكين. لم تكن ماري لو حظيت بأي قسط من النوم منذ انطلاقهم من دنڤر، فبدت أكبر سناً، وأجمل.

أخبرني دين بأنه عاش بسعادة مع كاميل في سان فرانسيسكو منذ خريف العام ١٩٤٧ ذاك، حصل على وظيفة في السكة الحديد وجنى مالاً وفيراً. وأصبح والد طفلة صغيرة ظريفة اسمها آمي موريارتي. ثم فجأة جن جنونه حين كان يمشي ذات يوم في الشارع ورأى سيارة هادسون طراز ١٩٤٩ معروضة للبيع، فهرع إلى المصرف وحصل على

قرض واشترى السيارة فوراً. كان برفقة إد دانكل. أما الآن فكلاهما مفلس. هدّأ دين من روع كاميل واعداً إياها بالعودة في غضون شهر، «سوف أذهب إلى نيويورك وأحضر سال معي». لم ترق لها الفكرة كثيراً.

«لكن ما القصد من ذلك كله؟ لماذا تفعل هذا بي؟».

«لا شيء، لا شيء حبيبتي، آه، همم، لقد طلب مني سال هذه الخدمة ورجاني أن أذهب وأحضره، ومن المهم جداً أن أفعل ذلك، لكننا لن نخوض في كل هذه التبريرات، وسأقول لك لماذا... لا، اسمعي، سأقول لك لماذا»، وأخبرها لماذا، وبالطبع لم يكن ثمة أي منطق في كلامه.

عمل إد دانكل الطويل العريض مع دين في السكة الحديد، لكنهما صُرفا من الخدمة، عملاً بقانون الأقدمية، بسبب الخفض الكبير في أعداد العاملين. وقد تعرف إد إلى فتاة تدعى غالاتيا تعيش في سان فرانسيسكو من مدخراتها الشخصية، وقرر هذان المغفلان اصطحابها معهما إلى الشرق لجعلها تتكفل بالنفقات. راح إد يداهنها ويرجوها لكنها رفضت المجيء، ما لم يتزوجها رسمياً. فتم الزواج في غضون أيام، بينما دين يهرع من مكان إلى آخر لاستخراج الوثائق الضرورية، وقبيل الميلاد ببضعة أيام غادرا سان فرانسيسكو بسيارة الهادسون بسرعة سبعين ميلاً بالساعة، واتجها إلى لوس أنجيليس، معتمدين الطريق الجنوبية الخالية من الثلوج. في ل. أ أقلا معهما، بواسطة مكتب سفريات، بحاراً متجهاً إلى إنديانا، لقاء خمسة عشر دولاراً، ثمناً للوقود، كما أقلا امرأة مع ابنتها الخرقاء، إلى أريزونا مقابل أربعة دولارات. أجلس دين الفتاة الخرقاء إلى جانبه، وراح، مثلما أخبرني، يحدّثها «طوال الطريق يا رجل، يا لها من فتاة حلوة..أوه، لقد تكلمنا وتكلمنا عن النيران

والصحراء التي تتحول إلى جنة وعن ببغائها الذي يستطيع أن يحلف اليمين بالإسبانية». بعد أن أوصلا الأم والإبنة استأنفا السير إلى توسون، وطوال الطريق كانت غالاتيا دانكل، زوجة إد الجديدة، تتذمر قائلة إنها مرهقة وتريد النوم في فندق. إذا ما استجابا لطلبها فسينفقان كل أموالها قبل بلوغ ڤرجينيا بوقت طويل، لكن غالاتيا أجبرتهما لليلتين متتاليتين على التوقف وبدّدت عشرات الدولارات، وحين وصلوا إلى توسون كانت قد أفلست، فتركها دين وإد في ردهة الفندق وتابعا رحلتهما، مع البحار، من دون أن يشعرا بأي تأنيب ضمير.

كان إد دانكل شاباً طويلاً هادئاً وغافلاً وعلى استعداد لفعل كل ما يطلبه دين منه، وهذه المرة كان دين مشغولاً جداً بحيث لا وقت لديه للوساوس والشكوك. كان يعبر مسرعاً بلدة لاس كروسس، نيومكسيكو، حين اجتاحه فجأة شوق عارم لزوجته الأولى الحلوة ماري لو، المقيمة في دنڤر. فبدل اتجاهه نحو الشمال، رغم احتجاج البحار، ووصل مساء إلى دنڤر. بحث بسرعة عن ماري لو وعثر عليها في أحد الفنادق. مارسا الجنس لعشر ساعات مسعورة، واتفقا مجدداً على كل شيء: سيبقيان معاً. ماري لو كانت الوحيدة التي أحبها دين حقاً. كانت نفسه تجيش ندماً وهو ينظر مجدداً إلى وجهها، راجياً إياها أن ترجع إليه باسم الأيام الخوالي وجاثياً عند قدميها احتفالاً بوجودها. أما هي فقد تفهمته، وراحت تداعب شعره؛ كانت تعرف أنه مجنون. ولكي يرضي البحار، دبر له فتاة في غرفة فندق فوق الحانة التي تسكر فيها عادة عصبة البلياردو القديمة، لكن البحار رفض الفتاة ورحل ليلاً ولم يرياه ثانية، والأرجح أنه استقلّ الحافلة إلى إنديانا.

انطلق دين وماري لو وإد دانكل شرقاً عبر كولفاكس، ومنها إلى سهول كانزاس. وباغتتهم عواصف ثلجية هائلة، بحيث اضطر دين إلى

قيادة السيارة في ليل ميزوري، ماداً رأسه الملتفع بوشاح من النافذة، واضعاً نظارات ثلجية جعلته يبدو راهباً ينعم النظر في مخطوطات الثلج، لأن الحاجب الزجاجي كان مكسواً بالثلج. قاد السيارة بلا تردد في مقاطعة أسلافه، وفي الصباح انزلقت السيارة على هضبة جليدية ووقعت في مصرف المياه. وساعدهم أحد المزارعين على انتشال السيارة، وعاودوا الانطلاق بعد أن أقلوا راكباً وعدهم بمنحهم دولاراً إذا ما أوصلاه إلى ممفيس. حين وصل ذهب إلى منزله، وراح يبحث عن دولار ثم قال لهم إنه لم يعثر على الدولار. فاستأنفوا السير عبر تنيسي؛ كانت ترابيع السيارة قد تخلخلت بفعل الحادث، فاضطر دين الالتزام بسرعة سبعين ميلاً بالساعة وإلا فإن السيارة برمتها ستهوي قطعاً متناثرة عن سفح الجبل. اجتازوا غريت سموكي ماونتنز، وحين وصلوا إلى باب منزل أخي، لم يكونوا قد تناولوا طوال ثلاثين ساعة لقمة طعام، باستثناء الحلوى والكراكرز بالجبن.

أكلوا بنهم بينما دين، حاملاً شطيرة بيد، ينطنط بقامته المنحنية أمام الفونوغراف، مستمعاً إلى تسجيل جاز حماسي كنتُ اشتريته تواً عنوانه «ذي هنت»، يقدم فيه دكستر غوردون ووادل غراي أفضل ما لديهما، أمام جمهور صارخ زاد من جنون أجواء التسجيل. راح الأقرباء الجنوبيون ينظرون إلى بعضهم البعض هازين رؤوسهم بأسف. «كيف التمّ سال على مثل هؤلاء الأصدقاء؟» سألوا أخي الذي ارتبك بحثاً عن إجابة. لا يحبذ الجنوبيون الجنون بأي شكل من الأشكال، ولا سيما جنون شخص مثل دين. لكن هذا الأخير لم يعرهم أي اهتمام. لقد أينع جنونه وردة غريبة من نوعها، ولم أدرك ذلك تماماً إلا حين اصطحبنا جميعاً للقيام بجولة في سيارته، حين بتنا وحدنا للمرة الأولى ويمكننا التحدث بأريحية. أمسك دين المقود، بدّل الغيار إلى الثاني، شرد لثوان، ثم بغتة بدا أنه أزمع فعل شيء ما وأطلق السيارة بأقصى سرعتها.

«حسناً الآن أيها الأولاد»، قال، وهو يحك أنفه منكبّاً على عجلة القيادة لكي يعيش الحدث المهم، مخرجاً السجائر من مقصورة السيارة، متأرجحاً في الأثناء إلى الأمام والخلف، من دون أن يخلّ بتوازن السيارة. «لقد آن الأوان لكي نقرر ما الذي سنفعله الأسبوع المقبل. هذا أمر مهم جداً، فائق الأهمية. إحم». راوغ عربة يجرها بغل يقودها ببطء شديد نيغرو عجوز. «مرحى!»، صرخ دين، «مرحى! أنظروا إليه! فكروا في روحه، تأملوا لبرهة وفكروا». وأبطأ السيارة لكي نتمكن جميعاً من رؤية العجوز وهو يتقدم متأوهاً. «أجل، تأملوه جيداً، أضحي بذراعي لأعرف ما الذي يدور بخلده الآن؛ لكي أصعد إلى جانبه وأكتشف ما الذي يجعل هذا العجوز المسكين يمشي متباطئاً في موسم اللفت الأخضر هذا. سال أنت لا تعرف ذلك، لكنني عشت ذات مرة مع مزارع في أركنساس سنة كاملة، حين كنت في الحادية عشرة. كان عملي رهيباً هناك. اضطررت مرة إلى سلخ جلد جواد نافق. لم أذهب إلى هناك منذ «كريسمس» ١٩٤٣، قبل خمس سنوات، حين كنت برفقة بن غافن نحاول سرقة سيارة، فباغتنا صاحبها وطاردنا شاهراً سلاحه؛ أقول هذا لكي أثبت لك أنني أعرف الجنوب. لقد عرفت ـ أعني يا رجل لقد عشت الجنوب، أعرف مداخله ومخارجه ـ لقد فهمت رسائلك لي عنه. أوه بلى، أوه بلى»، قال وقد أبطأ سرعته وتوقف بالكامل، قبل أن يعود فجأة إلى سرعة سبعين ميلاً، جاثماً على عجلة القيادة، محدقاً أمامه مباشرة. كانت ماري لو تبتسم بهدوء. إنه دين الجديد المكتمل، دين الناضج. قلت لنفسي «يا إلهي كم تغير. الغضب يشتعل في عينيه حين يتحدث عن أشياء يكرهها، لتحل محله موجات فرح عارمة حين يشعر فجأة بالسعادة؛ كل عضلة فيه تنضح بالحياة. «أوه يا رجل، كم هي الأشياء التي يمكنني أن احكيها لك»، قال وهو يلكزني «أوه يا رجل،

علينا من كل بدّ أن نجد الوقت لذلك ـ ما أخبار كارلو؟ علينا يا أعزائي أن نرى كارلو، يجدر أن يكون هذا أول ما نفعله غداً صباحاً. الآن ماري لو، سوف نشتري بعض الخبز واللحم لكي نحضر غذاء من أجل رحلة نيويورك. كم من المال معك يا سال؟ سنضع كل شيء في الخلف، أعني فرش السيدة «بي»، ونجلس جميعاً في المقعد الأمامي، ونتسامر في طريقنا إلى نيويورك. ماري لو حبيبتي، أنت تجلسين قربي، ثم سال، ويجلس إد عند النافذة، وننطلق إلى الحياة الحلوة لأنه الآن الوقت المناسب ونحن جميعاً نعرف ماهية الوقت». حك حنكه بشراسة، تأرجح بالسيارة متجاوزاً ثلاث شاحنات، وانطلق إلى وسط تستمانت، ناظراً في الاتجاهات كافة ومبصراً كل شيء بزاوية كاملة من دون أن يحرك رأسه. بانغ، عثر سريعاً على فسحة لركن السيارة. قفز منها، وهرع إلى محطة القطارات وتبعناه كالخراف. اشترى السجائر. باتت حركاته مجنونة بالكامل؛ بدا أنه يفعل كل شيء في وقت واحد. كان هناك رعشة في رأسه، نزولاً وصعوداً، وإلى الجانبين، يدان نشيطتان عابثتان، مشية سريعة، يجلس، يشبك رجليه، ينهض، يفرك يديه، يرفع بنطاله، ينظر إلى السماء ويقول «آم»، ويضيق عينيه وهو ينظر في الأنحاء كافة، ممسكاً بي من صدري طوال الوقت ومتحدثاً ومتحدثاً.

صار الجو شديد البرودة في تستامنت، بعد الهبوط المفاجئ للثلج. وقف دين في الشارع الرئيسي الطويل الكئيب بموازاة خط سكة الحديد، وهو لا يرتدي شيئاً سوى كنزة خفيفة وسروالاً واطئ الخصر محلول الحزام، كما لو أنه بصدد خلع سرواله. جاء مصمماً على التكلم إلى ماري لو، انتحى بها جانباً، ملوحاً بيديه أمامها «أوه، بلى أعرف! أعرفك، أعرفك عزيزتي!». كانت ضحكته هستيرية، تبدأ منخفضة وتنتهي صاخبة، تماماً كضحكة مهووس في الإذاعة، لكنها أسرع وأكثر

شبهاً بضحكة مكبوتة. . لم يكن هناك أي جدوى من ذهابنا إلى وسط البلد، لكنه فبركه. كلف كل منا بمهمة ما، ماري لو تحضر البقالة، أنا أطلع على نشرة الطقس في الصحيفة، إد يشتري السيجار الذي كان دين يحب تدخينه، ودخن واحداً وهو يقرأ الصحيفة: «آه، ذوو أفواه الخنازير أولئك القديسون في واشنطن يخططون لممارساتهم السخيفة ـ آه همم! ـ أووو ـ هاب! هاب». وقفز ليرى فتاة من النيغرو مرت تواً من أمام المحطة، «أنظر إليها»، قال مشيراً بإصبعه، مبتسماً: «تلك السوداء الصغيرة الرائعة. . .آه همم!». ركبنا السيارة وعدنا على وجه السرعة إلى منزل أخي.

كنت أمضي فترة «كريسمس» هادئة في الريف، مثلما انتبهت حين رجعت إلى المنزل ورأيت شجرة الميلاد، والهدايا، واشتممت رائحة ديك الحبش المشوي واستمعت إلى أحاديث الأقرباء، لكن الآن دخلت السوسة إلى رأسي ثانية، واسمها دين موريارتي، الذي حفّزني للانطلاق في تجربة جديدة على الطريق.

ـ ٢ ـ

وضعنا الأثاث في المقعد الخلفي من السيارة وانطلقنا ليلاً، متعهدين بالعودة بعد ثلاثين ساعة ـ يفترض أن نقطع خلالها ألف ميل شمالاً وجنوباً، لكن هذا ما أراده دين. كانت رحلة صعبة، ولم ينتبه أي منا لذلك، كان السخان معطلاً والثلج والضباب يملآن الزجاج الأمامي، فيضطر دين من وقت لآخر إلى أن يمد يده وهو يقود بسرعة سبعين ميلاً ليمسحه بخرقة مشكلاً دائرة رؤية صافية تمكنه من تبيّن الطريق. «آه يا للفتحة المقدسة!». كان ثمة في الهادسون الفسيحة متسعاً لأربعتنا في المقعد الأمامي، واضعين ملاءة على حجورنا. المذياع أيضاً كان معطلاً.

سيارة جديدة لم يمض على بدء استعمالها أكثر من خمسة أيام، ولم يكن سُدد من ثمنها إلا قسط واحد، وها قد باتت معطلة. انطلقنا، شمالاً، إلى واشنطن، على الطريق السريعة ٣٠١، المكونة من اتجاهين من دون زحمة تذكر. واستلم دين وحده دفة الحديث، ملوحاً بيديه بهياج، مائلاً نحوي أحياناً لكي يوضح فكرته، تاركاً المقود من وقت لآخر، لتمضي السيارة مستقيمة كسهم، غير منحرفة للحظة عن الخط الأبيض الفاصل في وسط الطريق.

كانت سلسلة من الظروف العبثية التي جعلت دين يأتي لزيارتي، ومثلها ظروف مرافقتي له. في نيويورك كنت بدأت أتردد على المعهد وأواعد فتاة تدعى لوسيل، إيطالية جميلة عسلية الشعر رغبت حقاً بالزواج منها. فمنذ سنوات وأنا أبحث عن الفتاة التي سأتزوجها، وكلما التقيت إحداهن أتساءل في سري «كيف يمكن أن تكون كزوجة؟»، أخبرت دين وماري لو عن لوسيل، وأرادت ماري لو معرفة كل شيء عنها وأن تلتقيها. تقدمنا عبر رتشموند، واشنطن، بالتيمور، وصعوداً إلى فيلادلفيا على طريق ريفية متعرجة. «أريد أن أتزوج فتاة أستطيع أن أشيخ معها. لا يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد، كل هذا الجنون والقفز من مكان إلى آخر. علينا أن نبلغ مكاناً ما، أن نعثر على شيء ما».

«آه، حسناً يا رجل»، قال دين، «لقد كنت أستكشفك طوال سنوات بشأن مسألة الزواج والبيت وكل هذه الأشياء الرائعة التي تملأ روحك». كانت ليلة حزينة، ومرحة أيضاً. في فيلادلفيا قصدنا مطعماً صغيراً وتناولنا الهامبرغر بآخر دولار معنا مخصص للوقود. كانت الثالثة فجراً وحين سمعنا صاحب المطعم نتحدث عن المال عرض علينا أن يقدم لنا الهامبرغر مجاناً، إضافة إلى مزيد من القهوة، إذا ما قمنا بغسل الأطباق في مطبخه، لأن الموظف الذي يفترض أن يقوم بذلك كان متغيباً،

فوافقنا على الفور. قال إد دانكل إنه غاسل أطباق مخضرم، وشرع فوراً بالعمل. أما دين فوقف يلهو حاملاً منشفة، ومثله ماري لو، ثم بدآ يقبلان بعضيهما ويتعانقان بين القدور والمقالي، ثم تواريا في زاوية معتمة في غرفة المؤن. ولم يمانع صاحب المحل ما دمت وإد دانكل نقوم بالواجب. أنجزنا العمل في ربع ساعة، وحين بزغ النهار كنا نقترب من نيوجيرزي بينما ملامح نيويورك المتروبوليتية تلوح أمامنا في المسافة المثلجة. لف دين كنزة حول أذنيه لكي تدفئه، قائلاً «نحن زمرة عرب جاءت لتفجّر نيويورك». عبرنا نفق لنكلن إلى تايمز سكواير، لأن ماري لو رغبت برؤيتها.

«أوه، اللعنة، فقط لو نعثر على هاسل، أنظروا جيداً علكم ترونه». نظرنا جميعاً إلى الأرصفة، «هاسل الطيب الرائع. أوه، لقد فاتتكم رؤيته في تكساس».

إذاً، الآن دين صار بعيداً أربعة آلاف ميل من فريسكو، عبر أريزونا صعوداً إلى دنفر، في غضون أربعة أيام، مع مغامرات لا تحصى، ولم تكن هذه إلا البداية.

ـ ٣ ـ

ذهبنا إلى منزلي في باترسون ونمنا. كنت أول من ينهض في وقت متأخر من بعد ظهر. نام دين وماري لو في سريري، وتشاركت وإد سرير عمتي. رجلا دين المدمرتان طاولتا الأرض. جاءني اتصال هاتفي من هاتف الصيدلية أسفل البيت، فهرعت لتلقيها، وكان أولد بال لي، الذي انتقل حديثاً إلى نيوأورلينز. أخذ بصوته العالي المتهدّج يشكو قائلاً إن فتاة تدعى غالاتيا دانكل وصلت إلى منزله سائلة عن شاب يدعى إد دانكل، وبال ليس لديه أدنى فكرة عن هذين الشخصين. كانت غالاتيا

دانكل خاسرة عنيدة. قلت له أن يطمئنها إلى أن دانكل الآن مع دين ومعي وأننا في الغالب الأعم سنأخذها معنا من نيوأورلينز في طريقنا إلى الساحل. ثم تحدثت غالاتيا نفسها على الهاتف. أرادت أن تطمئن على إد. كانت سعادته هي كل ما يشغل بالها.

«كيف وصلتِ من توسون إلى نيوأورلينز؟». أجابت أنها أرسلت تلغرافاً إلى منزلها تطلب مالاً ثم استقلت الحافلة، مصممة على اللحاق بإد لأنها تحبه. صعدت إلى البيت وأخبرت بيغ إد الذي جلس على المقعد وقد ارتسمت الحيرة على وجهه، كان ملاكاً بهيئة بشرية.

«اسمعوني الآن»، قال دين، قافزاً من السرير «ما علينا فعله هو أن نأكل فوراً. ماري لو ابحثي في المطبخ عما يؤكل. سال أنا وأنت ننزل ونخابر كارلو. إد أنت تحاول ترتيب المنزل». هرعت وراء دين على الأدراج.

قال صاحب الصيدلية، «لقد جاءك للتو اتصال آخر من سان فرانسيسكو، إحداهن تطلب التحدث إلى شاب يدعى دين موريارتي. أجبتها بأنني لا أعرف أحداً بهذا الاسم». كانت الأعذب كاميل. نظر إليّ سام صاحب الصيدلية، وهو صديق طويل وهادئ، وحك رأسه، «يا إلهي، هل تدير كرخانة دولية؟».

كركرت ضحكة دين المجنونة «أفهمك يا رجل!»، ثم اتصلنا بكارلو في منزله في لونغ أيلاند وقلنا له أن يأتي. وصل بعد ساعتين. وفي غضون ذلك بدأت ودين الاستعداد لرحلة العودة وحدنا إلى ڤرجينيا لكي نأتي بعمتي وبقية الأثاث. جاء كارلو ماركس، متأبطاً قصائده، وجلس على الكرسي المنجّد، ناظراً إلينا بعينين ناعستين، رافضاً خلال النصف ساعة الأولى أن يقول شيئاً. لقد صار أكثر هدوءاً عما كان عليه في أيام «سوداوية دنڤر»؛ لقد فعلت «سوداوية داكار» ذلك. في داكار مرخياً

لحيته، جاب الأزقة مع أولاد قادوه إلى عراف قرأ له طالعه. كانت لديه صور فوتوغرافية لتلك الأزقة المجنونة حيث أكواخ الحشيش، في المناطق السفلية الهبّية في داكار، وفي طريق عودته كاد أن يقفز من السفينة على غرار ما فعل هارت كراين[1]. أقعى دين أرضاً إلى جوار علبة الموسيقى مستمعاً بذهول كلي إلى الأغنية الصغيرة «حب جميل». «حبيبات البرد الصغيرة المجنونة التي تحوم وتحوم. آه! اسمعوا! سنجلس جميعاً معاً ونحملق في علبة الموسيقى حتى نتعلم الأسرار، حبيبات البرد الصغيرة تحوم وتحوم، يا للروعة». إد دانكل كان على الأرض أيضاً، حاملاً عصوي الطبل خاصتي، وبدأ فجأة يقرع بهما متماشياً مع إيقاع الأغنية، التي بالكاد كنا نسمعها. الجميع حبس أنفاسه ليسمع «تيك.. تاك.. تيك تيك... تاك تاك». كوّر دين يده حول أذنه، فاغراً فمه: «آه... يا إلهي.. ما أجملها!».

تفرج كارلو على هذا الجنون السخيف بعينين ضيقتين، ثم ضرب على ركبتيه قائلاً، «أريد أن أسألكم شيئاً».

«أجل؟ أجل؟».

«ما معنى هذه الرحلة إلى نيويورك؟ أي شأن سخيف أنتم منغمسون به الآن؟ أعني يا رجل، إلى أين تمضين؟ إلى أين تمضين، يا أميركا، بسيارتك اللماعة في الليل؟».

«إلى أين تمضين؟»، ردد دين فاغراً فمه. لم ندر بمَ نجيب؛ لم يعد هناك ما يمكن قوله. كل ما يمكننا فعله أن نمضي. وثب دين قائلاً إننا جاهزان للعودة إلى ڤرجينيا. أخذ حماماً سريعاً، وأنا طبخت قدراً كبيراً من الأرز وضعت فيه كل مابقي من خضار في الثلاجة. رتقت ماري لو

---

(١) هارت كراين Hart Crane (١٨٩٩ ـ ١٩٣٢): شاعر أميركي عرف بمثليته قضى منتحراً بالقفز من باخرة في خليج المكسيك.

جوربي دين، وبتنا مستعدين للانطلاق. دخلت ودين وكارلو إلى نيويورك، واتفقنا مع كارلو على أن نلتقيه بعد ثلاثين ساعة، مع حلول رأس السنة. كان ليل، حين تركناه في تايمز سكواير، وعدنا إلى النفق الضخم ومنه إلى نيوجيرزي. تبادلت ودين القيادة حتى وصلنا إلى ڤرجينيا بعد عشر ساعات.

«الآن، هذه المرة الأولى التي نكون فيها وحدنا وفي وضع يخولنا التحدث لسنوات». قال دين. وتحدث طوال الليل. كما في حلم، عبرنا واشنطن النائمة، ومنها إلى حقول ڤرجينيا، عابرين فجراً نهر أبوماتوكس، لنصل إلى منزل أخي عند الثامنة صباحاً. وطوال ذلك الوقت كان دين شديد الحماسة تجاه كل ما يراه، متحدثاً عنه في كل ثانية تمضي. كان فاقداً صوابه بإيمان حقيقي. «والآن بالطبع لا أحد يمكنه أن يقنعنا بعدم وجود الرب. لقد اجتزنا كل الأشكال. أتذكر يا سال، حين جئت أول مرة إلى نيويورك وأردت أن يعلمني تشاد كنغ نيتشه. أترى كم من الوقت مضى؟ كل شيء على ما يرام، الله موجود، ونحن نعرف الزمن. كل شيء منذ الإغريق تم التنبؤ به خطأ. لا يمكنك فهم الأمور عبر الهندسة وسبل التفكير الهندسية. كل شيء هو هذا». وضع إصبعه داخل راحة كفه؛ السيارة مضت بشكل مستقيم، «وليس هذا فقط لكن كلانا يعرف، وليس من وقت لأشرح لماذا نعرف أن الله موجود».

في مرحلة ما رحت أتذمر من مشكلات الحياة ـ ومن فقر عائلتي، وكم أرغب بمساعدة لوسيل، الفقيرة هي الأخرى والتي لديها ابنة تعيلها. «المشكلات هي الكلمة التي تختصر مسألة وجود الرب. المهم ألا تدع شيئاً يقف في طريقك... إن رأسي يرن!»، صرخ مصفقاً بيديه. خرج لكي يجلب السجائر، مهرولاً مثل غروتشو ماركس، بتلك المشية المندفعة التي تجعل ذيل معطفه يرفرف، سوى أنه لم يكن لديه ذيل

معطف. «منذ غادرت دنفر، سال، وأنا أفكر في الكثير من الأشياء ـ أوه، الأشياء ـ فكرت بها مراراً وتكراراً. عشت في إصلاحية طوال الوقت، كنت وغداً صغيراً، يعبر عن نفسه ـ سرقة السيارات ليست إلا تعبيراً سيكولوجياً عن حالي، وولعي بإثبات النفس. لقد تصالحت مع مسألة السجن الآن، ولا أنوي العودة إليه ثانية. بقية الأمور ليست ذنبي».

مررنا بفتى صغير يرشق الحجارة على السيارات العابرة، «أنظر إلى هذا»، قال، «ذات يوم سيرمي هذا الفتى حجراً على الزجاج الأمامي لسيارة ما، وسيصطدم السائق ويموت، كله بسبب هذا الفتى الصغير. أترى ما أرمي إليه؟ الله موجود بلا أدنى شك، بينما نمضي على هذه الطريق أنا متأكد من أن كل شيء سيتم الاعتناء به من أجلنا، أنه حتى وأنت تقود خائفاً من المقود» (كنت أخشى القيادة وأقود بحذر) ـ «فستمضي الأمور وحدها ولن تخرج السيارة عن مسارها وسيمكنني أن أغفو. أكثر من ذلك نحن نعرف أميركا، نحن في وطننا، يمكنني الذهاب إلى أي مكان في أميركا والحصول على ما أريد لأن الأمور هي نفسها في كل مكان، أعرف الناس، وأعرف ما يفعلون. نعطي ونأخذ ونمضي حتى النهاية في الطريق المتعرجة العذبة والمعقدة». لم يكن هناك أي ترابط في حديثه، لكن على نحو ما، كان ما يرمي إلى قوله واضحاً وصافياً. كان يستعمل كلمة **الصفاء** كثيراً. لم يخطر لي بتاتاً بأن يصبح دين مؤمناً بالغيب. كانت تلك مرحلة بداية إيمانه بالغيب، الذي سيفضي إلى قدسيته الشبيهة بقدسية دبليو ك. فيلدز في آخر أيامه.

حتى عمتي أخذت تصغي إليه بقدر من الاهتمام ونحن عائدين شمالاً إلى نيويورك في الليلة نفسها مع بقية الأثاث. الآن وقد باتت معنا في السيارة، أخذ دين يحكي عن عمله في سان فرانسيسكو، مفصلاً كل

نواحي عمل «الفرملجي» في سكة الحديد، مبيناً ذلك كلما مررنا بإحدى أفنية سكك الحديد، حتى إنه في لحظة ما قفز من السيارة لكي يرينا كيف يعطي «الفرملجي» إشارة السرعة القصوى في المحطة. غفت عمتي في المقعد الخلفي. في واشنطن، عند الرابعة بعد الظهر، خابر دين ثانية كاميل في فريسكو، وبعد قليل من خروجنا من واشنطن، لحقت بنا سيارة دورية مطلقة صفارة الإنذار، وغُرمنا مخالفة سرعة رغم أننا كنا نقود بسرعة ثلاثين ميلاً بالساعة. كان السبب لوحة السيارة الكاليفورنية «أنتما أيها الشابان تظنان أنه يمكنكما الإسراع هنا بقدر ما تشاءان فقط لأنكما من كاليفورنيا»، قال الشرطي.

ذهبت مع دين إلى المخفر وحاولنا أن نشرح أننا لا نملك الخمسة عشر دولاراً قيمة المخالفة، فأجابونا بأن دين سيبيت ليلته في السجن في هذه الحال. بالطبع كانت عمتي تملك المال، وكان الأمر سيمر بسلام. وفي الواقع، بينما كنا نتجادل مع رجال الشرطة خرج أحدهم لكي يرى عمتي، التي جلست مكورة على نفسها في المقعد الخلفي «لا تقلق، لست قاطعة طريق أحمل سلاحاً. إذا أردت أن تفتش السيارة فتفضل. أنا في طريقي إلى البيت مع ابن أخي، وهذا الأثاث ليس مسروقاً، إنه لابن أخي، لقد رزقت زوجته بطفل وسينتقل إلى منزل جديد». أفحم ردها شرلوك هولمز الذي عاد إلى المخفر. كان على عمتي أن تسدّد قيمة المخالفة وإلا بقينا عالقين في واشنطن، إذ لم يكن لدي رخصة. وعدها دين بأن يرجع المبلغ وقد أرجعه حقاً، بعد سنة ونصف بالضبط. عمتي، امرأة محترمة عالقة في هذا العالم البائس، وكانت تعرف العالم جيداً. أخبرتنا بأمر الشرطي. «كان مختبئاً وراء الشجرة، محاولاً أن يرى شكلي. قلت له فتش السيارة إذا أردت، ليس لدي ما أخجل به. كانت تعرف أن دين لديه ما يخجل به، وأنا أيضاً، بسبب علاقتي به، وأنا وهو تقبلنا تعليقها هذا بحزن.

قالت عمتي إن العالم لن يجد السلام قبل أن يركع الرجال على أقدام النساء طلباً لغفرانهن. لكن دين كان يعرف ذلك، وذكره مرات عدة. «لقد توسلت وتوسلت ماري لو من أجل تفاهم عذب مسالم على الحب الصافي بيننا إلى الأبد، وأن نتخلى عن كل المشاحنات، وهي تدرك ذلك لكن عقلها دائماً يعقد العزم على شيء آخر، إنها تتعبني، لا تريد أن تفهم كم أحبها».

«حقيقة الأمر أننا لا نفهم نساءنا، ونضع اللوم عليهن بينما كل الذنب ذنبنا»، قلت.

«لكن الأمر ليس بهذه البساطة»، قال دين، «سيعمّ السلام فجأة، لن نفهم متى يحدث ـ أترى يا رجل؟». بعناد وتجهم قاد السيارة عبر نيوجيرزي، وفجراً قدت إلى باترسون بينما نام هو في المقعد الخلفي. وصلنا إلى المنزل عند الثامنة صباحاً لنجد ماري لو وإد دانكل جالسين يدخنان أعقاب السجائر من المرمدة، لم يكونا قد أكلا شيئاً منذ تركناهما. اشترت عمتي بعض الخضار وأعدت إفطاراً كبيراً.

ـ ٤ ـ

آن الأوان لكي يعثر ثلاثي الوسترن على مكان للعيش في مانهاتن. كان لدى كارلو غرفة في يورك أفنيو قرروا الانتقال إليها مساء. نمنا أنا ودين طوال النهار واستيقظنا يوم رأس السنة ١٩٤٨على عاصفة ثلجية لم يسبق أن شهدنا مثيلاً لها. جلس إد على كنبتي، حاكياً عن رأس السنة الماضية «كنت مفلساً في شيكاغو، ووقفت عند نافذة غرفتي في الفندق في نورث كلارك ستريت حين اخترقت أنفي أشهى رائحة من المخبز في الأسفل. لم أكن أملك فلساً لكنني نزلت إلى المخبز وتحدثت إلى الفتاة التي تعمل هناك، فأعطتني خبزاً وكعكاً بطعم القهوة مجاناً. عدت إلى

غرفتي وأكلتها. مكثت في غرفتي الليل كله. في فارمينغتاون، يوتاه، ذات مرة، حيث ذهبت للعمل مع إد وال، تعرفون إد وال، ابن صاحب المزرعة في دنفر، كنت في السرير وفجأة رأيت أمي الميتة تقف في ركن الغرفة تحوطها هالة من الضوء. ناديتها: «أماه!». فاختفت. أرى باستمرار مثل هذه الرؤى»، قال هازاً رأسه.

«ما الذي ستفعله بشأن غالاتيا؟».

«أوه، سنرى بهذا الشأن. حين نصل إلى نيوأورلينز. ألا تظن ذلك؟». كان قد بدأ يلجأ إليّ أيضاً للنصح، دين واحد لم يكن كافياً بالنسبة إليه. لكنه كان يحب غالاتيا، ويهتم حقاً لأمرها.

«ما الذي ستفعله بحياتك»، سألته.

«لا أعرف إنني أمضي في الحياة فحسب، أستكشفها»، كرر كلمة دين المعروفة. لم يكن لديه أي هدف. راح يتذكر ليلة شيكاغو والكعك الساخن بطعم القهوة في الغرفة الموحشة.

كانت بدأت عاصفة ثلجية، وكنا قررنا الذهاب إلى حفلة كبرى في نيويورك. جرّ دين جسمه المدمر إلى السيارة، وانطلقنا جميعاً إلى الليلة الكبرى. كانت عمتي سعيدة بفكرة أن أخي سيزورها الأسبوع التالي، وجلست قارئة صحيفتها منتظرة برنامج ليلة السنة الإذاعي الذي يبث من تايمز سكواير. انطلقنا إلى نيويورك، متزحلقين على الجليد. لم تكن تقلقني قيادة دين، فهو قادر على سياسة سيارة في أسوأ الظروف. المذياع تم إصلاحه وها نحن نقطع الليل مستمعين إلى الجاز الحماسية. لم أكن أعرف إلى أين سيقودنا هذا كله، لم أكترث.

في ذلك الوقت بالتحديد بدأ إحساس غريب يستولي علي، إحساس عميق بأنني نسيت شيئاً ما. كان ثمة قرار كنت سأتخذه قبل ظهور دين، والآن نسيته تماماً لكنه لا يزال عالقاً على طرف لسان عقلي. رحت

أفرقع بأصابعي، محاولاً تذكره، وأخبرت الآخرين بشأنه، ولم أستطع أن أحسم ما إذا كان قراراً حقيقياً أم مجرد فكرة نسيتها. طاردني هذا القرار وحيرني، وجعلني حزيناً، وكان متعلقاً بـ **المسافر المكفن**. جلست ذات مرة وكارلو ماركس، وجهاً لوجه، وحكيت له حلماً غريباً يطاردني فيه عربي غريب الهيئة في الصحراء، وأحاول الفرار منه، لكنه يصل إلي أخيراً قبل أن أبلغ المدينة المسوّرة. «من تراه يكون؟»، سألني كارلو. وتفكرنا في الأمر. اقترحت أخيراً أن هذا الشخص ليس إلا أنا، لابساً كفناً. لكنه لم يكن كذلك. شيء ما، أحد ما، روح ما، كانت تطاردنا جميعاً في صحراء الحياة، ومهمتها أن تقبض علينا قبل أن نبلغ الجنة. بطبيعة الحال، حين أنظر إلى الأمر الآن، أرى أنه الموت؛ الموت سيقبض علينا قبل بلوغنا الجنة. الشيء الوحيد الذي نتوق إليه في حياتنا، الذي يجعلنا نتنهد ونئن ونعاني كل أنواع الأرق، هو ذكرى نعمة ما عشناها على الأرجح في الرحم ويمكن إعادة إنتاجها فقط (مع أننا نكره الاعتراف بذلك) في الموت. لكن من يرغب بالموت؟ في زحمة الأحداث ظللت أفكر بهذا في خلفية رأسي. أخبرت دين وأدرك فوراً أنه التوق البسيط إلى الموت الصافي، ولأننا جميعاً لن نعود إلى الحياة ثانية، لا بد من أن الأمر متعلق بهذا الموت، ووافقت معه وقتذاك.

مضينا نبحث عن زمرة أصدقائي في نيويورك، حيث كانت الأزهار المجنونة تينع هناك أيضاً. ذهبنا أولاً إلى منزل توم سايبروك، وهو شاب وسيم لطيف وحزين وكريم وعشري، يمر من وقت لآخر بنوبة كآبة فيعزل نفسه دون أن يخبر أحداً. تلك الليلة كان مسروراً جداً، «سال، أين وجدتَ هؤلاء الناس الرائعين، لم أر مثلهم في حياتي».

«في الغرب».

كان دين يراقص ماري لو على إيقاعات الجاز، ويجذبها إليه ويعانقها

بقوة، وهي تتفاعل معه. كانت رقصة حب حقيقية. جاء أيان ماك أرثر مع زمرة ضخمة، لتبدأ عطلة نهاية أسبوع رأس السنة التي استمرت ثلاثة أيام بلياليها. مجموعات كبيرة ركبت الهادسون وتزحلقت على شوارع نيويورك الجليدية من حفلة إلى أخرى. دعوت لوسيل وأختها إلى الحفلة الأكبر، وحين رأتني هناك مع دين وماري لو اكفهر وجهها، أحست بعدوى الجنون التي ينقلها دين إلي.

«لا تعجبني حين تكون معهما».

«آه، لا بأس، إننا نتسلى فحسب، لن نعيش أكثر من مرة، إننا نستمتع بوقتنا».

«لا، إنه أمر محزن، ولا يعجبني».

ثم بدأت ماري لو تتودد إلي، قالت إن دين سيذهب إلى كاميل وأرادتني أن أبقى معها، «رافقنا إلى سان فرانسيسكو، سنعيش معاً، سأكون طيبة معك». لكنني كنت أعرف أن دين يحب ماري لو، وأن ماري لو تفعل ذلك فقط لكي تثير غيرة لوسيل، ولم أرد التورط في هذا كله، ومع ذلك سال لعابي على الشقراء الشهوانية. حين رأت لوسيل ماري لو تنزوي بي وتقبلني بالقوة قبلت دعوة دين للذهاب معه بالسيارة، لكن لم يحدث شيء بينهما، فقط تحدثا وشربا بعض الكحول. غادرتُ المكان تحت وطأة الإحساس بتشوش الأمور وتداعيها، وبأن علاقتي بلوسيل لن تستمر أطول من ذلك. أرادتني أن أكون على طريقتها. كانت في السابق متزوجة من عامل ميناء كان يسيء معاملتها، وكنت مستعداً للزواج منها والاعتناء بطفلتها وكل شيء لو أنها طلقت زوجها، لكننا لم نكن نملك المال الكافي من أجل رسوم الطلاق والأمر برمته كان ميؤوساً منه، إضافة إلى أن لوسيل لن تفهمني أبداً لأنني أحب الكثير من الأشياء وأضطرب كلياً وأعدو راكضاً من شهب إلى آخر حتى أهوي. هذا هو الليل، وهذا ما يفعله بالمرء. لم يكن لدي ما أقدمه لأي كان سوى اضطرابي الخاص.

كانت الحفلات هائلة، مئة شخص على الأقل حشروا في قبو في الوست نايتنيز. كان ثمة ما يجري في كل زاوية، وعلى كل سرير وكنبة، لم تكن حفلة جنس جماعية، مجرد حفلة رأس السنة مليئة بالصراخ المسعور والموسيقى الجامحة. حتى إنه كان هناك فتاة صينية. راح دين يهرع مثل غروتشو ماركس من مجموعة إلى أخرى، متحرشاً بالجميع. جاء داميون، بطل زمرتي النيويوركية، مثلما أن دين هو البطل الرئيسي لزمرة الغرب، وحصل نفور فوري بينهما. صاحبة داميون لكمته فجأة على فكه. وقف يترنح. فحملته إلى البيت. بعض أصدقائنا من الصحافيين جاؤوا مع زجاجات الخمر. كانت العاصفة الثلجية مستمرة في الخارج. التقى إد دانكل أخت لوسيل واختفى معها، نسيت أن أقول إن إد دانكل سلس جداً مع النساء. طوله ستة أقدام تقريباً، لطيف، ودمث، ورقيق ومرح، ومن النوع الذي يساعد الفتيات على ارتداء معاطفهن. هذه هي الطريقة المثلى لفعل الأشياء. عند الخامسة فجراً كنا جميعاً نركض عبر الفناء الخلفي لشقة ما متسللين إليها عبر النافذة إلى حفلة أخرى. فجراً عدنا إلى شقة توم سايبروك، حيث كانوا يرسمون ويحتسون الجعة. نمت على كنبة وبين ذراعي فتاة تدعى مونا. جاءت مجموعات كبيرة من حانة حرم جامعة كولومبيا. كل شيء في الحياة، كل وجوه الحياة، احتشدت في الغرفة الرطبة نفسها. في شقة أيان ماك أرثر استمرت الحفلة أيضاً. أيان شاب رائع يرتدي النظارات وينظر من خلالهما بغبطة. بدأ يتعلم قول «بلى!» تعليقاً على كل شيء، تماماً مثل دين في ذلك الوقت، ولم يتوقف عن ذلك مذ ذاك. على إيقاعات دكستر جوردون ووادل غراي وهما يغنيان «ذي هانت»، لعبت وماري لو حول الكنبة. تجول دين في المكان من دون قميص تحتي، لابساً فقط سرواله، عاري القدمين، حتى حان وقت الذهاب والتقاء المزيد من

الناس. حدث كل شيء. التقينا رولو غراب الجامح الحماسي وأمضينا ليلة في منزله في لونغ أيلاند. رولو يعيش في منزل جميل مع عمته التي ينتظر موتها حتى ينفرد بالبيت، لكنها في الأثناء تقلق راحته رافضة الاستجابة لأي من طلباته وكارهة أصدقاءه. جلب حثالة أصدقائه التي تضمني ودين وماري لو وإد وأنا وأقام حفلة صاخبة، فلزمت عمته الطابق العلوي، وفي مرحلة ما هددت بالإتيان بالشرطة. «أوه، اخرسي يا كيس القمامة القديم»، صرخ بها، «أيتها الغراب». تعجبت من قدرتهما على العيش تحت سقف واحد على هذا النحو. كان لديه كتباً تتجاوز أعدادها ما رأيته في حياتي كلها؛ غرفتان تحتشد الكتب على جدرانهما، مع عناوين مثل «ماكينوم أبوكريفوم» أو ما شابهه تتكون من عشر مجلدات. كان يستمع إلى أوبرات فيردي ويروح يحاكيها لابساً بيجامته بينما تبرز عظام ظهره. لم يكن يكترث بأي شيء على الإطلاق، أكاديمي حقيقي يذهب غالباً إلى ميناء نيويورك متأبطاً مسودات موسيقية أصلية من القرن السابع عشر، صارخاً، وزاحفاً في الشوارع مثل عنكبوتة ضخمة، والحماسة تتفجر من عينيه في ومضات شيطانية، متلفتاً بنشوة متشنجة، متلعثماً، ومتمعجاً، متأوهاً وعاوياً، حتى ينهار. كان بالكاد يستطيع لفظ كلمة لشدة امتلائه بالحياة. وقف دين أمامه محني الرأس، مكرراً «أجل.. أجل... أجل»، ثم نحّاني جانباً ليقول لي: «رولو هذا هو الأعظم، الأروع على الإطلاق. هذا ما كنت أحاول قوله لك، هذا ما أريد أن أكونه. أريد أن أكون مثله. إنه لا يتوقف أبداً، إنه يمضي في كل اتجاه، مخرجاً كل ما في داخله، ويعرف **الوقت**، ليس لديه ما يفعله سوى أن يتأرجح إلى الأمام والخلف. يا رجل إنه الحد الأقصى! أترى، إذا ما تصرفت مثله طوال الوقت ستفهم ذلك أخيراً».

«أفهم ماذا؟».

«تفهمها! تفهمها! سأقول لك، الآن لا وقت لدينا، ليس لدينا أي وقت الآن»، وعاد مسرعاً ليستمتع أكثر بصحبة رولو.

جورج شيرنغ[1]، عازف بيانو الجاز العظيم، قال دين، يشبه كثيراً رولو غريب. ذهبت وإياه لنرى شيرنغ في «بيردلاند»[2] في منتصف عطلة الأسبوع المجنونة الطويلة تلك. كانت الحانة لا تزال خالية عند العاشرة مساء، وكنا أول الزبائن. بعد قليل خرج شيرنغ، رجل أعمى، يقوده أحدهم إلى البيانو، إنكليزي مميز المظهر، أشقر، يضع وشاحاً أبيض، سمين بعض الشيء، وثمة في ملامحه شيء من عذوبة الهواء الصيفي الإنكليزي ظهر في أول مقطوعة أداها بينما عازف الباص مائل نحوه بوقار. أما الطبّال دنزل بست، فجلس جامداً، محركاً معصميه فحسب. وبدأ شيرنغ بالعزف، وعلى وجهه ترتسم ابتسامة نشوانة، ثم راح يتمايل، إلى الأمام والخلف، ببطء في البداية، ثم تصاعد الإيقاع، فبدأ يميل رقبته، مخفضاً وجهه إلى لوحة المفاتيح، ثم رتّب شعره، وراح يتصبب عرقاً. تصاعد الإيقاع. مال عازف الباص إلى الأمام وأخذ يعزف بقوة، أسرع فأسرع. كانت الأنغام التي يعزفها شيرنغ تتدفق من البيانو في موجات ثرية هائلة، حتى لتحسب أن الرجل ليس لديه الوقت لتنظيمها. النغمات تخرج ووشاح شيرنغ يتبقّع بالعرق. «هاك هو! هاك هو!» الإله القديم! الإله القديم شيرنغ! مرحى! مرحى! مرحى! مرحى!»، وكان شيرنغ واعياً لحضور هذا المجنون وراءه، مستمعاً إلى لهاثه، ولعناته. «حياك الله!»، صرخ دين، «مرحى»، ابتسم شيرنغ، متمايلاً. وأخيراً نهض عن

---

(١) جورج شيرنغ George Shearing (١٩١٣) عازف بيانو إنكليزي، ولد ضريراً وتعلم العزف في الثالثة، عرف شهرة في إنكلترا كعازف بيانو جاز قبل أن ينتقل إلى أميركا في ١٩٤٦ وينال جنسيتها بعد سنوات.

(٢) بيردلاند Birdland: نادي جاز شهير في نيويورك سيتي لا يزال قائماً حتى اليوم.

البيانو وهو يتصبب عرقاً؛ كانت تلك أيامه العظيمة في ١٩٤٩، قبل أن يصبح تجارياً ويساير الأوضاع. حين فرغ من العزف أشار دين إلى الكرسي الفارغ: «إنه كرسي الرب الشاغر». على البيانو كان ثمة بوق انعكس ظله الذهبي على رسم يمثل قافلة في الصحراء على الجدار وراء الطبول. لقد ذهب الله. كان صمت الرحيل. كانت ليلة ماطرة. كانت خرافة الليلة الماطرة. كان دين مفعماً بالحزن. لن يفضي هذا الجنون إلى شيء. أما أنا فلم أكن أعرف أي مشاعر تختلج في داخلي، وفجأة أدركت أنها ليست إلا الحشيشة، التي كان دين ابتاع بعضاً منها في نيويورك، والتي جعلتني أحسب بأن كل شيء على وشك التحقق، تلك اللحظة التي تحسب فيها أنك تعرف فيها كل شيء، وأن كل شيء قد بُتَّ أمره إلى الأبد.

ـ ٥ ـ

تركت الجميع وذهبت إلى البيت لكي أستريح. قالت عمتي إنني أضيع وقتي بالتسكع مع دين وزمرته. كنت أعرف أن هذا ليس صحيحاً كذلك. الحياة هي الحياة، والرائع هو الرائع. ما كنت راغباً به هو القيام برحلة رائعة أخرى إلى الغرب، والعودة مع بدء الفصل الدراسي الجديد في الربيع. ويا لها من رحلة كانت! تماشيت فحسب معها، لأرى ما سيفعله دين، وأخيراً، أيضاً، مع علمي بأن دين سيرجع إلى كاميل في فريسكو، كنت راغباً بأن أقيم علاقة مع ماري لو. تحضرنا لعبور القارة المتأوهة ثانية. صرفت حوالة تعويض الخدمة العسكرية، وأعطيت دين ثمانية عشر دولاراً لكي يرسلها إلى زوجته التي كانت تنتظر عودته وكانت مفلسة. لم أعرف ما الذي كان يدور في خلد ماري لو. إد دانكل، كعادته دوماً، تبعنا فحسب.

أمضينا أياماً طويلة مرحة في شقة كارلو قبل أن نغادر. كان يمشي في برنس الحمام ويلقي خطباً نصف ساخرة: «الآن، لست أحاول أن أفسد متعتكم، لكن أظن أنه آن الأوان لكي تقرروا ماهيتكم وما الذي ستفعلونه». كان كارلو يعمل كاتب طابعة في مكتب. «أريد أن أعرف ما الذي يعنيه مكوثكم هذا في البيت طوال اليوم. ما كل هذه الأحاديث وما الذي تقترحون فعله. دين، لماذا تركت كاميل وعدت إلى ماري لو؟» لا جواب، مجرد ضحك. «ماري لو، لماذا تجوبين البلاد على هذا النحو وما هو تحليلك النسائي لموضوع الكفن؟». الجواب نفسه. «إد دانكل، لماذا هجرت زوجتك الجديدة في توسون وما الذي تفعله جالساً هنا على مؤخرتك السمينة؟ أين منزلك؟ ما عملك؟». أطرق إد دانكل بارتباك أصلي. «سال، كيف حدث أنك تعيش أياماً قذرة كهذه وما الذي فعلته مع لوسيل؟». سوّى برنسه وجلس في مواجهتنا جميعاً «أيام الغضب لم تأت بعد. المنطاد لن يحتملكم أكثر من ذلك. وليس هذا فحسب، لكنه منطاد مجرد. ستسافرون جميعاً إلى الغرب وسترجعون مترنحين بحثاً عن ضريحكم».

في تلك الأيام اخترع كارلو نغمة صوتية آملاً بأنها تشبه صوت ما أسماه **صوت الصخرة**؛ كانت الفكرة صدم الناس حتى يدركوا الصخرة. «لقد شبكتم تنيناً في قبعاتكم»، أنذرنا «وها أنتم في العلية مع الوطاويط». لمعت عيناه المجنونتان في وجوهنا. منذ **كآبة داكار**، أو **كآبة هارلم**، حين عاش في منتصف الصيف وكان يستيقظ في الليل في غرفته الموحشة ويسمع **الآلة العظيمة** تهبط من السماء، وحين جاب ١٢٥ ستريت «تحت الماء» مع كل الأسماك الأخرى، بدأت موجة من الأفكار المشعة تضيء عقله. طلب من ماري لو أن تقعد في حجره وأمرها بأن تسترخي، وقال لدين «لم لا تجلس وتسترخي ببساطة؟ لماذا أنت دائم

النطنطة؟». كان دين يثب في الأرجاء واضعاً السكر في القهوة وأجاب، «مرحى! مرحى! مرحى». ليلاً نام إد دانكل على الأرض، دين وماري لو طردا كارلو من السرير، وكارلو جلس في المطبخ يخنة الكلاوي، متمتماً **تنبؤات الصخرة**. جئت لأيام ورأيت كل شيء.

قال لي إد دانكل «ليلة البارحة ذهبت مشياً على الأقدام إلى تايمز سكواير وحين وصلت أدركت فجأة أنني شبح... كان شبحي الذي يمشي على الرصيف». قال ذلك من دون تعليق، هازاً رأسه توكيداً. بعد عشر ساعات، في غمرة حديث شخص آخر قال إد: «بلى، كان ذاك شبحي ذاك الذي يجوب الرصيف».

فجأة مال دين نحوي وقال، «سال أريد أن أطلب منك خدمة، إنه أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلي، لا أعرف كيف ستتقبل الفكرة، إننا صديقان، أليس كذلك؟».

«بالطبع دين». كاد يتورّد خجلاً. وأخيراً نطق: يريدني أن أضاجع ماري لو. لم أسأله لماذا لأنني أعرف أنه يريد أن يختبر كيف ستكون ماري لو مع رجل آخر. كنا جالسين في «بار ريتزي» حين اقترح الفكرة، بعد أن أمضينا ساعة نجوب تايمز سكواير باحثين عن هاسل. «بار ريتزي» هو بار وضيع في تايمز سكواير، وكان اسمه يتغير سنوياً. تدخل إلى هناك ولا ترى فتاة واحدة، حتى على الطاولات، فقط زمرة كبيرة من الشبان الذين يرتدون مختلف الملابس الحقيرة، من الكنزات الحمراء إلى البناطيل المبهرجة. إنها أيضاً حانة الغلمان الذين يجنون رزقهم بين اللوطيين العجائز في أيتث أفينيو ليلاً. دخل دين إلى هناك جاحظ العينين ليرى كل الموجودين هناك. كان ثمة لوطيون سود عجائز، شبان عابسون يحملون المسدسات، عمال ميناء، مدمنو مخدرات هزيلون لم يسجنوا سابقاً، إضافة إلى تحر أربعيني حسن الهندام، يقف مثل وكيل مراهنات،

ويتسكع هناك جزئياً بسبب رغبته الشخصية بذلك، وجزئياً بسبب الواجب. كان المكان المثالي لدين لكي يطلب مني تلك الخدمة. مختلف أنواع الخطط الشريرة تحاك في «بار ريتزي» وفي مقدمها الممارسات الجنسية المجنونة، يمكنك أن تحدس بذلك في الهواء. لص الخزائن الحديدية لا يعرض على رجل العصابات مشاركته بعملية سطو ما في فورتيث ستريت فحسب، لكن خدماته الجنسية أيضاً. أمضى كينزي[١] وقتاً طويلاً في «بار ريتزي»، مجرياً المقابلات مع بعض الفتيان، وقد كنت هناك حين حضر مساعده في ١٩٤٥ وقابل هاسل وكارلو.

عدت ودين بالسيارة إلى الشقة ووجدنا ماري لو نائمة. دانكل كان يجول بشبحه في أنحاء نيويورك. أخبرها دين بما قررناه، فقالت إنه يسعدها، ولم أكن واثقاً من نفسي. كان عليّ أن أثبت أنني يمكن أن أفلح في ذلك. تمددت ماري لو وسط السرير، وأحطتها أنا ودين من الجانبين بينما هي حائرة في ما ينبغي أن تقوله. قلت، «آه، حسناً، لا أستطيع فعل هذا».

«هيا يا رجل، لقد وعدتني!»، قال دين.

«ماذا بشأن ماري لو؟» قلت، «هيا ماري لو ما قولك؟».

«افعل ذلك»، قالت.

عانقتني وحاولت أن أنسى أن دين معنا. لكن كلما تذكرت أنه موجود معنا في العتمة، يستمع إلى كل صوت، كنت أجدني عاجزاً عن الإتيان بأي حركة سوى الضحك. كانت تجربة رهيبة.

---

(١) ألفرد كينزي Alfred Kinsey (١٨٩٤ ـ ١٩٥٦) عالم أحياء أميركي عرف بدراساته وأبحاثه الميدانية حول الجنس والعلاقات الجنسية في المجتمع الأميركي، والتي أحدثت ثورة في وقتها.

«علينا أن نسترخي»، قال دين.

«أخشى أنني لا أستطيع القيام بذلك بحضورك. لماذا لا تذهب إلى المطبخ لدقيقة؟».

فعل دين ذلك. بدت ماري لو رائعة الجمال، لكنني همست لها، «انتظري حتى نصبح معاً في سان فرانسيسكو، قلبي ليس ميالاً لذلك الآن». كنت صادقاً، وكان يمكنها الإحساس بذلك. كنا ثلاثة من أطفال الأرض نحاول أن نحسم أمرنا في الليل وكل ثقل القرون الفائتة يجثم قبالتنا في العتمة. ساد الشقة صمت غريب. ذهبت وقلت لدين أن يذهب إلى ماري لو، وارتميت على الكنبة. ثم سمعته يثرثر بسعادة ويرقص باهتياج. وحده شاب أمضى خمس سنوات في السجن يمكنه أن يصل إلى هذه الحدود القصوى المتناقضة اليائسة، متوسلاً عند باب الينبوع الناعم، مجنوناً بإدراكه الفيزيائي التام لمصدر نعمة الحياة، ساعياً بدون تفكير للعودة من حيث جاء. هذه من نتائج السنوات التي أمضاها خلف القضبان متأملاً الصور الإباحية، وممعناً النظر إلى سيقان النساء ونهودهن في المجلات الشعبية، ومقارناً بين قسوة القضبان ونعومة المرأة التي حرم منها. السجن هو المكان الذي تتعهد فيه لنفسك بحقك في العيش. دين لم ير وجه أمه أبداً. وكل فتاة جديدة، وكل زوجة جديدة، وكل طفل جديد يأتي به إلى العالم، يشكل تعويضاً ما عن حرمانه المفضوح. أين كان والده؟ ذلك المتشرد العجوز دين موريارتي السمكري، يركب الشاحنات، يعمل كمساعد طاه في مطابخ السكك الحديد، سكران يتخبط ثملاً في الأزقة المعتمة، متبرزاً فوق كدس الفحم، موقعاً أسنانه المصفرة الواحد بعد الآخر في مزاريب الغرب. كان له كل الحق بأن يموت تلك الميتة العذبة في حبه الكامل لماري لو. ولم أشأ التدخل، فقط أردت الفهم.

عاد كارلو فجراً ولبس البرنس. لم يكن ينام تلك الأيام. «إج» صرخ. أفقدته الفوضى صوابه، السراويل والثياب المنثورة في الأرجاء، وأعقاب السجائر، والأطباق الوسخة، والكتب المهملة، كان المكان أشبه بالسوق العمومية. كل يوم يتأوه العالم لكي يدور أما نحن فكنا منشغلين بدراستنا الرهيبة لليل. اصطبغ وجه ماري لو باللونين الأزرق والأسود جراء لكمات تلقتها من دين خلال مشاجرتهما حول أمر ما، أما هو فقد بدت على وجهه آثار الخرمشة. حان وقت الرحيل.

ذهبنا، زمرة من عشرة أشخاص، إلى منزلي، لكي أحضر حقيبتي وأخابر أولد بال لي في نيوأورلينز، من هاتف الحانة التي تبادلت فيها ودين حديثنا الأول قبل سنوات حين قصدني لكي يتعلم الكتابة. سمعنا صوت بال الغاضب على بعد ألف وثمانمائة ميل. «أخبروني ما الذي تتوقعون مني فعله بغالاتيا دانكل؟ إنها هنا منذ أسبوعين، تختبئ في غرفتها وترفض التكلم معي أو مع جاين. هل أحضرتم هذا الكائن إد دانكل معكم؟ أحضروه بحق المسيح وخلصوني من هذه الفتاة. إنها تنام في أفضل غرف نومنا ولا تملك قرشاً. هذا ليس بفندق». أكد له دين، هاتفاً وصارخاً عبر الهاتف، أننا في طريقنا إليه. كنا كثراً في المكان، كان هناك دين، ماري لو، كارلو، دانكل، أنا أيان ماك أرثر، زوجته، توم سايبروك، والله يعلم من أيضاً، كلهم يصرخون ويحتسون الجعة على مسامع بال المضطرب أساساً، والذي لا يكره شيئاً في العالم أكثر من الفوضى. «حسناً»، قال، «ربما تتعقلون قليلاً حين تصلون إلى هنا، هذا إذا وصلتم». ودعت عمتي ووعدتها بالعودة بعد أسبوعين، وانطلقت مجدداً إلى كاليفورنيا.

- ٦ -

كان الجو ماطراً وغريباً في بداية رحلتنا، وبدا أكيداً أننا متجهون نحو ضباب عظيم. «هيا»، صاح دين متحمساً: «ها نحن ننطلق». وانكبّ على المقود، وأدركنا جميعاً أنه عاد إلى طبيعته، وأبهجنا إحساسنا بأننا نخلّف وراءنا الاضطراب والعبث ونشرع بمهمتنا الوحيدة والأنبل في ذلك الوقت، أن **نمضي**. ومضينا مسرعين، متجاوزين اللافتات البيضاء الغامضة ليلاً في مكان ما من نيوجيرزي، التي كتب عليها «باتجاه الجنوب» (مع سهم) و«باتجاه الغرب» (مع سهم)، واخترنا اتجاه الجنوب، وكانت نيوأورلينز تشتعل في أذهاننا. من الثلوج القذرة في «نيويورك العاهرة المصقعة»، مثلما أسماها دين، إلى حقول نيوأورلينز الخضراء والروائح النهرية لقاع أميركا، ثم غرباً. جلس إد في المقعد الخلفي، وأنا وماري لو ودين في المقدمة وتبادلنا أكثر الأحاديث دفئاً حول روعة الحياة وفرحها. وفجأة صار دين حنوناً «الآن، اللعنة، أسمعوني جميعاً، ينبغي أن نقرّ جميعاً بأن كل شيء على ما يرام وليس ثمة ما يدعو للقلق، وفي الحقيقة علينا أن ندرك أن هذا يعني بالنسبة إلينا **الفهم** بأننا لسنا قلقين **حقاً** حيال **أي شيء**. ألست محقاً؟». ووافقنا جميعاً. «ها نحن ننطلق، لنغفر لأنفسنا ما فعلناه في نيويورك». كلنا كانت لنا مشاحناتنا هناك، «هذا صار وراءنا، بأميال وأميال. الآن نتجه إلى نيوأورلينز لنرى أولد بال لي، ألن يكون هذا رائعاً، وأرجوكم أنصتوا إلى عازف الساكسفون هذا وهو يؤدي أفضل ما عنده». ورفع صوت المذياع إلى الحد الأقصى حتى ارتجّت السيارة، «واستمعوا إليه يحكي قصته باسترخاء ومعرفة حقيقيتين».

تحمّسنا جميعاً للموسيقى، وكانت الطريق صافية، والخط الأبيض الممتد في وسطها يعانق العجلة الأمامية للسيارة كما لو أنه ملتصق بها.

دين أحنى رقبته العضلية، لابساً كنزة في ذلك الليل الشتوي، وانطلق مسرعاً، ثم أصر على أن أتولى القيادة عبر بالتيمور لكي أكتسب خبرة مرورية، وكان هذا حسناً بالنسبة إلي، سوى أنه وماري لو ظلا يضغطان على عجلة القيادة بينما يعبثان معاً ويتبادلان القبل. كان الجنون بعينه، الراديو يزعق، وأنا ودين نقرع على لوحة المفاتيح حتى تخلخلت. كانت الهادسون المسكينة، ذلك القارب البطيء إلى الصين، تعيش أصعب أوقاتها.

«أوه يا رجل يا لها من موسيقى!»، هتف دين، «الآن ماري لو، اسمعيني جيداً، حبيبتي، تعرفين أنني قادر على فعل أشياء عدة في آن، ولدي طاقة لانهائية، الآن في سان فرانسيسكو علينا أن نعيش معاً. أعرف المكان المناسب لك، وعند نهاية الركض المتواصل، تجدينني في البيت بفركة قدم خلال أقل من يومين وأبقى معك اثنتي عشرة ساعة متواصلة، وتعرفين ما الذي يمكننا فعله خلال هذا الوقت، حبيبتي. في الأثناء سأعيش عند كاميل كأنه لم يحدث أي شيء، أترين هي لن تعرف شيئاً. يمكننا تدبير ذلك، لقد فعلناها سابقا». لم تمانع ماري لو، كانت مصممة على أن تهزم كاميل. كان يقضي التفاهم غير المعلن بأن تصاحبني في فريسكو، لكنني بدأت أدرك أنهما سيبقيان معاً وأنني سأبقى وحيداً في نهاية القارة. لكن لماذا أشغل نفسي بهذا حين الأرض الذهبية كلها مفروشة أمامي، وكل الأحداث المجهولة كامنة لكي تفاجئني وتبهجني وأنني حي لأعيشها؟

وصلنا فجراً إلى واشنطن. كان يوم تنصيب هاري ترومان لفترة رئاسية ثانية، وكان ثمة عروض حربية ضخمة في بنسلڤانيا أفينيو. كان هناك طائرات «بي ٢٩»، وقوارب «بي تي» حربية، وقاذفات، وكل أنواع الآلات الحربية التي بدت هيئتها إجرامية على العشب المغطى بالثلج،

وآخر الأشياء المعروضة كان قارب نجاة عادي صغير بدا أخرق ومثيراً للشفقة. أبطأ دين السرعة لكي يتأمله، وجعل يهز رأسه أسفاً «ما الذي ينوي هؤلاء القوم فعله؟ هاري نائم في مكان ما في بلدته... هاري العجوز الطيب... رجل من ميزوري... مثلي... لا بد من أن هذا قاربه الخاص».

نام في المقعد الخلفي وتولى دانكل القيادة، وحذرناه ألا يسرع، وبينما تشاغلنا عنه بالكلام انطلق بسرعة ثمانين ميلاً، على الرغم من حال السيارة المزرية، وليس هذا فحسب بل إنه تجاوز سيارة عند نقطة كان فيها شرطي يتجادل مع سائق دراجة يبدو أنه مضى في الاتجاه المعاكس على الخط الرابع من طريق سريعة. وبطبيعة الحال انطلق الشرطي في أعقابنا مدوياً بصفارته. ثم أوقفنا، وأمرنا بأن نتبعه إلى مركز الشرطة، حيث كان ثمة شرطي لئيم كره دين على الفور؛ لعله اشتمّ رائحة السجون منبعثة منه. أرسل جماعته إلى الخارج لكي يستجوبوني أنا وماري لو على انفراد، ولكي يتحققوا تحديداً من وضع ماري لو، سعياً إلى أن يلصقوا بنا تهمة خرق «قانون مان»[1]، لكنها أظهرت لهم وثيقة الزواج، ثم نحّوني جانباً وأرادوا أن يعرفوا من منا يضاجع ماري لو. «زوجها»، أجبت بكل بساطة. كانوا حشريين، وكان ثمة في منظرنا ما يثير الريبة. جربا بعض حيل شرلوك هولمز للهواة بطرحهم السؤال مرتين، آملين بأن يرتكب أحدنا هفوة. أجبتهما: «هذان الشابان عائدان

(١) «قانون مان» Mann Act، أو «قانون مكافحة تهريب العبودية البيضاء»، تم سنّه عام ١٩١٠ بهدف مكافحة تجارة الدعارة أو ما يسمّى بالعبودية البيضاء، ويحظر نقل النساء أو الفتيات بين الولايات الأميركية بهدف تشغيلهن في الدعارة. سمي القانون الذي أثار سجالاً في أميركا حول الحقوق المدنية للأفراد، خصوصاً بعد اتخاذه ذريعة لإدانة العديد من الرجال السود الناجحين، تيمناً باسم القانوني جايمس روبرت مان.

إلى عملهما في محطة سكك حديد كاليفورنيا، وهي زوجة الرجل القصير، وأنا طالب جامعي في إجازة لأسبوعين».

ابتسم الشرطي وقال: «فهمت؟ أهذه محفظتك حقاً؟».

أخيراً غرّم الشرطي اللئيم دين خمسة وعشرين دولاراً. قلنا لهم إننا لا نملك سوى أربعين دولاراً علينا أن نتزود بها بالوقود لما تبقى من مسافة، فأجابوا بان ذلك لا يعنيهم. وحين احتج دين، هدده الشرطي اللئيم بأن يعيده إلى بنسلڤانيا ويفبرك له تهمة ما.

«أي تهمة؟».

«هذا ليس مهماً، لا تشغل بالك أيها المتحذلق».

اضطررنا إلى دفع خمسة وعشرين دولاراً، وقبل ذلك عرض إد دانكل، ذلك المجرم، بأن يسجن هو، وأعجبت الفكرة دين، لكن الشرطي ثار غضبه وهدّده «إذا تركت شريكك يسجن فسأعيدك إلى بنسلڤانيا فوراً، أتسمعني؟». كل ما أردناه الذهاب، «ارتكب مخالفة سرعة أخرى في ڤرجينيا وستخسر سيارتك»، قال الشرطي اللئيم في تهديد وداعي. احمرّ وجه دين. ابتعدنا بصمت. كان استيلاؤهم على مال الوقود بتلك الطريقة بمثابة دعوة لنا لكي نسرق، لأنهم عرفوا أننا مفلسون وأنه لا أقارب لنا على الطريق نستعين بهم، أو من يمكن أن نراسلهم لكي يؤمنوا لنا المال. رجال الشرطة الأميركية منخرطين في حرب نفسية ضد أولئك الأميركيين الذين لا يخيفونهم بالتهديدات والإنذارات الهائلة. إنها شرطة من العصر الفيكتوري، تتطفل على كل شيء، ويمكنها أن ترتكب الجرائم لو لم تكن الجرائم قائمة أساساً، «هناك تسعة خطوط من الجريمة، أحدها الملل»، مثلما قال لويس فردينان سيلين. كان دين حانقاً إلى حدّ أنه أراد أن يرجع ويقتل الشرطي ما إن يحصل على مسدس.

«بنسلڤانيا»، قال مستهزئاً، «أتمنى معرفة نوع التهمة التي كان سيلصقها بي! متشرد على الأرجح، يسرق كل مالي ثم يتهمني بالتشرد. أولئك الناس يعاملون المرء بخفة رهيبة، قد يقتلونه إذا ما تذمر أيضاً». لم يكن يسعنا فعل شيء سوى أن نرجع إلى مزاجنا الرائق وننسى ما حدث. وحين اجتزنا رتشموند كنا بدأنا ننسى الأمر، وبعد فترة وجيزة عاد كل شيء إلى حاله.

بقي معنا الآن خمسة عشر دولاراً. سنضطر إلى نقل الركاب معنا لكي نتمكن من شراء الوقود. في صحراء ڤرجينيا رأينا فجأة رجلاً يمشي على الطريق. اقترب دين منه، وقلت له ليس إلا متشرداً لا يملك سنتاً على الأرجح.

«سنقله على أي حال، على سبيل التسلية!»، ردّ ضاحكاً. كان الرجل مجنوناً رثاً يضع النظارات، ويمشي قارئاً كتاباً متسخاً لا بدّ من أنه عثر عليه في مجرور ما على الطريق. صعد إلى السيارة واستأنف القراءة فوراً، كان وسخاً بشكل فظيع، وأخبرنا أن اسمه هايمان سليمان وأنه يتجول في أنحاء أميركا كلها، قارعاً أبواب اليهود، راكلاً إياها أحياناً، مطالباً إياهم بالمال، «أعطوني المال لآكل، أنا يهودي».

قال إن الأمر ناجع معه. سألناه عما يقرأه. لم يكن يعرف. لم يزعج نفسه بالنظر إلى عنوان الكتاب. كان ينظر إلى الكلمات فحسب، كما لو أنه وجد النسخة الأصلية من التوراة تماماً حيث يجدر أن تكون: في الصحراء.

«أترون؟ أترون؟ أترون؟»، قهقه دين، لاكزاً صدري، «قلت لك إنه سيكون مسلياً. تسلية الجميع، يا رجل!». أوصلنا سليمان إلى تستمانت. كان أخي قد انتقل إلى منزله الجديد عند الطرف المقابل من البلدة، ووجدنا أنفسنا مجدداً في الشارع الطويل الكئيب الذي تخترقه

سكة الحديد، بين الجنوبيين المتجهمين الذين يمشون بتثاقل أمام المتاجر التنويعية.

قال سليمان، «فهمت يا جماعة أنكم بحاجة إلى بعض المال لتتابعوا رحلتكم. انتظروني وسأتدبر بعض الدولارات من منزل أحد اليهود وأرافقكم إلى ألاباما». سُرّ دين كثيراً، وذهبنا معاً لشراء الخبز والجبن لتناول الغذاء في السيارة. ماري لو وإد انتظرا في السيارة. انتظرنا سليمان ساعتين، كان يتدبر خبزه في مكان ما من البلدة، لكننا لم نستطع رؤيته. بدأت الشمس تميل إلى الغروب.

لم يظهر سليمان، فخرجنا من تستمانت، «الآن، أرأيت يا سال، الله موجود حقاً، لأننا كل مرة، ومهما فعلنا، نعود إلى هذه البلدة، ولا بد من أنك تلاحظ اسمها التوراتي الغريب، وذلك الكائن التوراتي الغريب الذي بسببه توقفنا هنا مرة أخرى، وكل الأشياء مرتبطة ببعضها مثلما المطر يربط الجميع في كل مكان...». ظل دين يتحدث على هذا النحو، وهو يفيض ببهجة وحماسة. أنا وهو رأينا فجأة أميركا كلها كمحارة موضوعة أمامنا وليس علينا إلا أن نفتحها، وسنجد اللؤلؤة في داخلها، اللؤلؤة في داخلها. على الطريق جنوباً، أقلّينا راكباً آخر. كان فتى حزيناً قال إن عمته تملك متجر بقالة في دان، نورث كارولينا، خارج فاييتفيل: «حين نصل أيمكنك أن تحصل منها على دولار؟ حسناً! جيد! لنمض». وصلنا إلى «دان» في غضون ساعة، وكان غسقاً. اتجهنا إلى حيث قال الفتى إن عمته تملك محل بقالة، فوجدنا زقاقاً صغيراً بائساً ينتهي بجدار معمل. وجدنا المتجر لكن لا عمة. تساءلنا عما كان يتحدث الفتى. سألناه عن وجهته، ولم يكن يعرف. كانت خدعة كبرى، كان يا ما كان، خلال مغامرة ما، في زقاق ما، أنه رأى متجر البقالة هذا في دان، وكانت هذه الخبرية أول ما خطر بباله المشوش والمحموم.

اشترينا له الهوت دوغز، لكن دين قال إنه لا يمكننا اصطحابه معنا لأننا نحتاج إلى فسحة للنوم ومكان للركاب الذين يمكن أن نقلهم لنؤمن الوقود. كان هذا محزناً، لكن حقيقياً. تركناه في دان ليلاً.

توليت القيادة عبر ساوث كارولينا ثم ماكون، جورجيا، بينما غفا دين وماري لو وإد. وحيداً في الليل غرقت في همومي الخاصة، مبقياً السيارة على الخط الأبيض على الطريق المقدسة. ما الذي كنت أفعله؟ إلى أين أتجه؟ سأكتشف ذلك قريباً. استولى عليّ التعب بعد ماكون فأيقظت دين ليستلم القيادة. خرجنا من السيارة لتنشق الهواء وفجأة اجتاحنا فرح غامر حين اكتشفنا أن العتمة المحيطة ليست إلا عشباً أخضر يفوح برائحة السماد الطازج والمياه الدافئة. «إننا في الجنوب! لقد غادرنا الشتاء!». أنار الفجر بعض جوانب الطريق الخضراء. أخذت نفساً عميقاً، وهدرت شاحنة في الظلمة، في طريقها مثلنا إلى موبايل. خلعت قميصي ورحت أرقص جذلاً، وعندما بدأت الطريق بالانحدار أطفأ دين المحرك وقاد السيارة عشرة أميال إلى محطة وقود، كان العامل نائماً على المكتب، قفز دين مسرعاً، وملأ خزان الوقود خلسة، محاذراً ألا يرن الجرس، وانطلق كبدوي، وقد ملأ الخزان بما قيمته خمسة دولارات تعيننا على استئناف حجيجنا.

نمت وصحوت على زعيق الموسيقى ودين وماري لو يتحدثان والحقول الخضراء العظيمة تمتد أمامي «أين صرنا؟».

« عبرنا فلوريدا تواً، يا رجل، فلوماتون، هذا اسمها». فلوريدا!. كنا ننحدر نحو الساحل باتجاه موبايل، وفوقنا سحب خليج المكسيك الهائلة. مرت اثنتان وثلاثون ساعة فقط منذ ودعنا الجميع في ثلوج الشمال القذرة. توقفنا عند محطة وقود، وهناك راح دين يدور بين خزانات الوقود، حاملاً ماري لو على ظهره، فيما دخل دانكل ونشل

بخفة ثلاثة علب سجائر. انطلقنا بحيوية إلى موبايل على الطريق السريعة، خلعنا ملابس الشتاء لكي نستمتع بالطقس الجنوبي. عندها بدأ دين يروي قصة حياته وعندما وصل، بعد موبايل إلى زحمة سير عند أحد التقاطعات، قام بدلاً من الالتفاف بالمضي مباشرة عبر طريق محطة وقود من دون أن يخفف من سرعة السبعين ميلاً، تاركاً وراءه وجوهاً فاغرة الأفواه مندهشة. ثم تابع قصته «ما أقوله لك صحيح، بدأت في سن التاسعة، بمعاشرة فتاة تدعى ميلي مايفاير اختليت بها خلف كاراج رود في غرانت ستريت، الشارع نفسه الذي عاش فيه كارلو في دنڤر. كان أبي وقتذاك لا يزال يعمل لدى «سميثي». أذكر عمتي وهي تزعق بي من النافذة، «ما الذي تفعله هناك وراء المرآب؟»». أوه، حبيبتي، ماري لو، فقط لو كنت أعرفك وقتذاك! واو! لا بدّ أنك كنت حلوة جداً في التاسعة». راح يضحك بهوس، ثم وضع إبهامه في فمها ثم لعقه، ثم حمل يدها وجعل يفرك نفسه بها. هي جلست فحسب، مبتسمة بجذل.

إد دانكل راح ينظر من النافذة، متحدثاً إلى نفسه. «أجل يا سيدي، حسبتني شبحاً تلك الليلة»، متهيباً المواجهة مع غالاتيا في نيوأورلينز.

تابع دين: «ذات مرة ركبت قطار شحن من نيومكسيكو إلى لوس أنجيليس كنت، في الحادية عشرة، أضعت أبي في إحدى المحطات، فقد كنا نعيش في غابة من الأفاقين، كنت بصحبة رجل يدعى بيغ رد، وكان أبي يسكر في شاحنة صغيرة في الخارج - ثم انطلقت الشاحنة، ولم أر أبي لأشهر بعدها. ركبت قطار شحن إلى كاليفورنيا، كان الأمر أشبه بالطيران، قطار من الدرجة الأولى، زيبرا صحراوية. طوال الطريق كنت واقفاً على الجسر بين عربتين، يمكنك أن تتخيل خطورة ذلك، كنت مجرد طفل أحمق، حاملاً رغيف خبز تحت إبطي، والذراع الأخرى على الترباس. ما أحكيه ليس بقصة، لقد حدث حقاً، وحين

وصلت إلى ل. أ. كنت جائعاً جداً للحليب والكريما فعملت في شركة ألبان وأول ما فعلته أنني شربت ربعيتين من الكريما المركّزة وتقيأت».

«دين المسكين»، قالت ماري لو، وقبّلته. راح ينظر إلى الأمام بافتخار. كان يحبها.

عبرنا بمحاذاة مياه الخليج الزرقاء، وفي الوقت نفسه انطلقت في المذياع موسيقى جنونية، كانت موسيقى «تشيكن جاز كومبو» من نيوأورلينز، والمذيع يردد «لا تدعوا شيئاً يقلقكم». أخذنا نترقّب بفرح الوصول إلى نيوأورلينز. فرك دين يديه على العجلة، «سنحظى الآن بأمتع أوقاتنا!». عند الغسق كنا نعبر شوارع نيوأورلينز الصاخبة «أوه اشتمّوا الناس!» زعق دين ماداً رأسه من النافذة، متنشقاً الهواء «آه! يا إلهي! الحياة!». التف بالسيارة حول حافلة كهربائية «مرحى!». ثم اندفع باحثاً عن الفتيات. «أنظروا إليها!». كان الهواء بالغ العذوبة في المدينة حتى بدا أنه يأتي بمناديل ناعمة؛ ويمكنك اشتمام النهر والناس فعلاً، والوحل، ودبس السكر، وكل أنواع الروائح الاستوائية بعد أن انتقل أنفك فجأة من الثلوج الجافة للشتاء الشمالي. رحنا نقفز في مقاعدنا «ونستكشفها!»، صرخ دين، مشيراً إلى امرأة أخرى. «أوه، أنا أعشق، أعشق، أعشق النساء! أعتقد أن النساء رائعات! أعشق النساء!». بصق من النافذة، تأوه، ضغط على رأسه بيديه، وتصبب العرق من جبهته من شدة الإثارة والتعب.

استقلينا عبّارة ألجيرز لنجد أنفسنا فوق المسيسيبي. «الآن علينا جميعاً أن نخرج ونستكشف النهر والناس ونشتمّ العالم»، قال دين، مهتاجاً بنظارته الشمسية وسجائره ومنحنياً من السيارة مثل عفريت. تبعناه. استندنا إلى الدرابزين ونظرنا إلى المياه البنية العظيمة تتدفق من وسط أميركا مثل جحافل من الأرواح المهشمة، حاملة معها زنود أشجار مونتانا

وأوحال داكوتا وأتربة أيوا وأشياء غرقت في ثري فوركس، حيث يبدأ السر بالجليد. لاحت نيوأورلينز المغلفة بالدخان من جانب، وألجيرز القديمة الناعسة المحاطة بالغابات من الجهة الأخرى. رجال سود كانوا يعملون في الأصيل الحار، ملقمين أتون العبّارة التي اشتعلت حمراء وجعلت عجلات سيارتنا تفوح رائحتها. دين تحدث إلى العمال، وهو ينطنط من اللهب. راح يهرول بين سطح العبّارة وأدراج الطابق العلوي وبنطاله منخفض إلى خاصرته. فجأة رأيته يقف على جسر الطيران، وخيل إلي أنه سينبت له جناحان ويحلق. سمعت ضحكته المجنونة على المركب كله ـ «هيبي ـ هيي ـ هيي ـ هيي ـ هيي!». كانت ماري لو معه. رأى كل شيء في لحظة، وعاد مع القصة الكاملة، وقفز إلى السيارة في اللحظة التي كان يستعد فيها الجميع للخروج، وتسللنا متجاوزين سيارتين أو ثلاثاً في مساحة ضيقة، ووجدنا أنفسنا نتجه بسرعة إلى ألجيرز.

«إلى أين؟ إلى أين؟»، راح يصرخ.

قررنا أولاً أن نغتسل في محطة وقود ونستعلم عن بيت بال. أطفال صغار كانوا يلعبون في ذلك الغروب النهري الناعس، فتيات يعبرن عاريات السيقان ومرتديات كنزات قطنية مزدانة بالرسوم. ركض دين حتى نهاية الشارع ليرى كل شيء. نظر حوله؛ أومأ برأسه؛ فرك معدته. بيغ إد جلس في المقعد الخلفي من السيارة وقبعته تغطي عينيه، مبتسماً لما يقوم به دين. جلست على الدرابزين. كانت ماري لو في حمام النساء. من ضفاف دغلية يصطاد فيها رجال ضئيلون الأسماك بالعصي، ومن الدلتا الممتدة إلى الأرض الحمراء، يلتف النهر المحدب الكبير حول ألجيرز مثل أفعى، هادراً على نحو ملغز، مهدداً بابتلاع شبه جزيرة ألجيرز ذات يوم. مالت الشمس إلى الغروب، أزيز البق يملأ الهواء، ومياه النهر الرهيبة تئن.

اتجهنا إلى منزل أولد بال لي الواقع خارج البلدة على ضفاف نهر ليفي. كان يقع على طريق قبالة حقل مستنقعي، وكان كناية عن خربة قديمة تحيطها شرفات مدمرة وفي فنائها شجرة صفصاف، والعشب فيها بطول ياردة، والسياج القديم مائل، والحظائر القديمة متداعية. لم نر أحداً. اتجهنا يميناً نحو الفناء ورأينا صنابير الغسيل على الشرفة الخلفية. ترجلت واتجهت إلى الباب. كانت جاين واقفة خلفه تنظر إلى الشمس «جاين»، قلت، «هذا أنا، نحن».

كانت تعرف ذلك، «أجل أعلم، بال ليس هنا الآن، أليست هذه ناراً أو شيئاً من هذا القبيل هناك؟». نظرت إلى الشمس.

«أتعنين الشمس؟».

«بالطبع لا أعني الشمس، لقد سمعت صوت صفارات آتية من ذاك الاتجاه. ألا ترى وهجاً». كانت تقصد ناحية نيوأورلينز، وكانت الغيوم غريبة.

«لست أرى شيئاً»، قلت.

تنهدت جاين، «بارادايز القديم نفسه».

هكذا حيينا بعضنا بعد أربع سنوات، منذ كانت جاين تعيش معي ومع زوجتي في نيويورك. «وهل غالاتيا دانكل هنا؟» سألتها. كانت جاين لا تزال تتحرى مصدر النيران؛ في تلك الأيام كانت تستهلك يومياً ثلاث جرعات من البنزدرين. وجهها، الذي كان في السابق جميلاً وممتلئاً، أصبح جافاً وأحمر نحيفاً. كانت أصيبت بشلل الأطفال في نيوأورلينز وصارت تعرج قليلاً. ترجل دين والمجموعة بخجل من السيارة، وعلى نحو ما تصرفوا كما لو أنهم في منزلهم. خرجت غالاتيا من عزلتها الجليلة للقاء معذّبها. كانت فتاة جدية. بدت شاحبة وعيناها تطفران بالدمع. خاطبها بيغ إد وهو يمرر يده على شعره «مرحباً». حدقت به بثبات.

«أين كنت؟ لماذا فعلت بي هذا؟»، ونظرت بازدراء إلى دين، كانت تعرف حقيقة الموقف. دين لم يكترث البتة، وكان الجوع كل ما يشغل باله؛ سأل جاين ما إذا كان هناك أي طعام. وكانت بداية الفوضى.

عاد بال المسكين إلى المنزل بسيارته «تكساس تشيفي» ليجده محتلاً من قبل زمرة من المجانين، لكنه حيّاني بدفء لم أعهده فيه منذ أمد طويل. كان قد اشترى منزله هذا ببعض المال الذي جناه من مشروع زراعة اللوبياء في تكساس مع زميل دراسة قديم مات والده تاركاً له ثروة. أما هو نفسه فلم يكن يحصل من عائلته الثرية على أكثر من خمسين دولاراً في الأسبوع، وهذا ليس بالقليل، لولا أنه كان ينفق هذا القدر من المال أسبوعياً على المخدرات وحدها، وكانت جاين أيضاً مكلفة، حيث تستهلك بقيمة عشرة دولارات من المخدرات. وعلى العكس تماماً كانت كلفة طعامهما الأقل في البلاد، بالكاد كانا يأكلان، ومثلهما طفلاهما، بدا أن الطعام لا يعنيهما. كان لديهما طفلان رائعان: دودي، في الثامنة، وراي الصغير، سنة واحدة. راي كان يركض عارياً في الفناء، طفل أشقر من قوس قزح. لكن بال كان يناديه «الوحش الصغير»، تيمناً بـ دبليو. ك. فيلدز. جاء بال إلى الفناء، فارداً قامته، وهو يترجل من السيارة، عظمة عظمة، ودخل إلى البيت بسأم، واضعاً النظارات، وقبعته الهامبورغية، وبدلته الفضفاضة، وبدا طويلاً وهزيلاً وغريباً ومقتضباً، «مرحى سال، أخيراً وصلت، لندخل ونشرب كأساً».

لا يكفي الليل بطوله لأحكي عن أولد بال لي، فلنكتف الآن بالقول إنه كان معلماً، وكان لديه كل الحق في ذلك لأنه أمضى حياته متعلماً، والأشياء التي تعلمها هي التي كان يعتبرها **وقائع الحياة**، ولم يتعلمها من باب الضرورة فحسب لكن لأنه رغب بذلك. لقد تنقل في أيام شبابه في أرجاء الولايات المتحدة الأميركية ومعظم أوروبا وشمال إفريقيا، فقط

ليرى ما الذي يجري هناك؛ في الثلاثينات تزوج كونتيسة بيضاء في يوغوسلافيا لكي ينقذها من النازيين، وثمة صور فوتوغرافية تجمعه مع زمرة الكوكايين الدولية في الثلاثينات أيضاً؛ رجال مشعثو الشعر، يتكئون على بعضهم البعض؛ وهناك صور أخرى له وهو يجوب شوارع ألجيرز مرتدياً قبعة باناما؛ لم ير الكونتيسة البيضاء ثانية. عمل مبيد حشرات في شيكاغو، ونادلاً في نيويورك، وحاجب محكمة في نيوارك. وفي باريس أمضى وقته متسكعاً في المقاهي، متفرجاً على الوجوه الفرنسية العابسة، شارباً الأوزو في أثينا ومتفرجاً على من أسماهم أقبح أهل الأرض. وفي اسطنبول شق طريقه بين حشود مدمني الأفيون بحثاً عن الحقائق. في الفنادق الإنكليزية قرأ شبنغلر وماركيز دو ساد. في شيكاغو خطط لسرقة حمام تركي، تريث متردداً لدقيقتين طويلتين شرب خلالهما كأساً، وانتهى به الأمر بسرقة دولارين ووجد نفسه مضطراً إلى الفرار بهما. فعل ذلك كله حباً بالتجربة فقط. أما المخدرات فهي آخر تجاربه. ها هو الآن ينسل بين أزقة نيوأورلينز الحقيرة مع شخصيات مشبوهة، باحثاً عن الحانات التي تباع فيها المخدرات سراً.

هناك قصة غريبة تعود إلى أيامه في الكلية تكشف جانباً آخر من شخصيته. فقد أقام مرة في شقته الفخمة حفل كوكتيل لعدد من أصدقائه، حين ظهر فجأة حيوانه الأليف، وهو من نوع ابن مقرض، وعض لوطياً متأنقاً في كاحله فراح الجميع يطارده حتى أخرجوه من الغرفة زاعقين. فهرع أولد بال وأحضر بندقيته وقال «لا بد من أنه اشتم رائحة ذلك الجرذ مجدداً»، وأطلق الرصاص محدثاً ثقباً في الجدار الكبير يكفي لدخول خمسين جرذاً. وعلى الجدار كانت معلقة صورة منزل قديم بشع في كايب كود. سأله أصدقاؤه «لماذا تعلق هذا الشيء البشع على الجدار؟»، فأجاب بال «أحبه لأنه بشع». عاش حياته كلها على هذا

المنوال. ذات مرة زرته في بيته في سكستيث ستريت المنحط في نيويورك، وفتح لي الباب لابساً قبعة ديربي، وصديرية لا شيء تحتها، وبنطالاً طويلاً مقلماً، حاملاً وعاء من بذور الطيور، وأخبرني أنه يحاول طحن البذور ليلفها في سجائر. كما قام باختبارات بغلي عقار كوداييين المضاد للسعال وتحريكه حتى يصير هريساً أسود، ولم تفلح تجربته هذه أيضاً. وقتذاك كان يمضي ساعات طويلة واضعاً في حجره مؤلفات شكسبير، ذلك «الإنكليزي الخالد»، مثلما كان يسميه، أما في نيوأورلينز فصار يضع في حجره «مايان كوديكس»، ومع أنه يمضي متحدثاً في شؤون أخرى، غير أن الكتاب يظل مفتوحاً طوال الوقت. سألته مرة «ما الذي سيحدث لنا حين نموت؟»، فأجاب «حين تموت تصبح ميتاً فحسب، هذا كل شيء». كان لديه مجموعة من السلاسل في غرفته قال إنه يستعملها مع محلله النفسي، كانا يقومان باختبارات تحليل عصبي واكتشفا أن أولد بال لديه سبع شخصيات منفصمة، كل واحدة منها أكثر سوءاً من سابقتها، حتى يتحول في شخصيته الأعمق إلى شخص مجنون وعنيف ينبغي توثيقه بالسلاسل. الشخصية العليا كانت شخصية لورد إنكليزي، والسفلى شخصية رجل مجنون، وبينهما كان نيغرو يقف في الصف، ينتظر مع الجميع مردداً، «بعضهم أوغاد، بعضهم لا، وهذا هو المغزى».

كان ماضي أميركا يستحوذ عليه نوعاً ما، خصوصاً حقبة ١٩١٠، حين كان يمكنك الحصول على المورفين من الصيدلية من دون وصفة طبية، والصينيون يرسلون دخان الأفيون من نوافذهم وكان البلد جامحاً ومندفعاً وحراً، وكل أشكال الحرية متاحة للجميع. كان أكثر ما يمقته بيروقراطية واشنطن، يليها الليبراليون؛ ثم رجال الشرطة. كان يمضي الوقت متكلماً ومنوراً الآخرين، فيما جاين جاثمة عند رجليه، ومثلها أنا

ودين وكارلو ماركس. كلنا تعلمنا منه. كان شخصاً عصياً على التصنيف لا يستوقفك منظره في الشارع، إلا إذا نظرت عن كثب ورأيت جمجمته الرائعة بشبابها الغريب، كاهن من كانزاس مليء بالنيران والألغاز الإكزوتية والظواهرية. درس الطب في فيينا، ودرس الأنثروبولوجيا، وقرأ كل شيء، والآن بات متفرغاً لإنجاز حياته، وهو دراسة الأشياء نفسها في شوارع الحياة والليل. جلس على كرسيه؛ جلبت جاين المارتيني. الظلال حول كرسيه كانت دائماً منسحبة، ليلاً ونهاراً؛ كان ذلك ركنه في البيت. على حجره كتاب «مايان كوديكس» وبندقية الهواء التي يستعملها من وقت لآخر لكي يبخّ البنزدرين في الغرفة، والتي توليت مهمة تلقيمها من وقت لآخر. كلنا تناولنا جرعات من البنزدرين. كان بال مهتماً بمعرفة سبب قيامنا بهذه الرحلة. نظر إلينا وتنشق مصدراً صوتاً أشبه برنين في خزان فارغ.

«الآن دين أريدك أن تهدأ لبرهة وتخبرني ما الذي تفعله عابراً البلاد على هذا النحو».

دين تورد وجهه خجلاً وقال، «آه، حسناً، أنت أدرى».

«سال لماذا أنت ذاهب إلى الساحل؟».

«هذا فقط لبضعة أيام، أعود بعدها إلى المعهد».

«وما قصة إد دانكل هذا؟ أي نوع من الشخصيات هو؟». في الأثناء كان إد يتصالح وغالاتيا في غرفة النوم، ولم يستغرقهما الأمر طويلاً. ولم نعرف ماذا نقول لبال عن إد دانكل، بعد أن اتضح له أننا لا نستطيع أن نخبر شيئاً عن أنفسنا، لفّ ثلاث سجائر من الحشيشة وقال دخنوها، العشاء سيكون جاهزاً قريباً.

«ليس هناك ما هو أفضل منها لفتح الشهية. ذات مرة أكلت سندويتش هامبرغر رهيباً بعد الحشيشة، وبدا ألذ ما أكلته في حياتي. لقد

عدت من هيوستن الأسبوع الفائت، ذهبت لرؤية دال بشأن مشروع اللوبياء. كنت نائماً في نزل ذات صباح وفجأة قذفني صوت مروع من السرير. ثمة مغفل لعين أطلق الرصاص على زوجته في الغرفة المجاورة. وقف الجميع مضطرباً، بينما صعد الرجل ببساطة إلى سيارته وانطلق، تاركاً البندقية على الأرض لكي يعثر عليها «الشريف». أخيراً قبضوا عليه في هوما، مترعاً بالثمالة كإله. لم يعد آمناً التنقل في هذا البلد بلا سلاح بعد الآن». أزاح معطفه وأرانا مسدسه، ثم فتح الدرج وأرانا بقية ترسانته. حين كان في نيويورك اشترى رشاشاً صغيراً وضعه تحت سريره، «ليس لدي أفضل من هذا الآن، بندقية الغاز شينتوت الألمانية، أنظروا كم هي جميلة، تلقّم برصاصة واحدة. يمكنني أن أصرع مئة رجل بهذا السلاح ويبقى لدي متسع من الوقت للفرار، المشكلة الوحيدة أنه ليس لدي سوى رصاصة واحدة».

«أرجو ألا أكون موجوداً حين تجربه»، قالت جاين من المطبخ. «كيف تعرف أنها طلقة غاز». استنشق بال، لم يرد عليها لكنه سمعها. كانت تربطه بزوجته واحدة من أغرب العلاقات، كانا يتحدثان حتى وقت متأخر من الليل، بال بصوته الواهن الرتيب يتشبث بمواقفه، وتحاول أن تقاطعه فلا تستطيع، لكنه يتعب عند الفجر فتبدأ هي بالكلام ويستمع هو، مستنشقاً ومصدراً ذلك الصوت «ثفمب» من أنفه. كانت مولعة به، لكن بطريقة هذيانية نوعاً ما، لم يكن هناك أي خداع أو تصنع بينهما، فقط الكلام ورفقة عميقة جداً أي منا لم يستطع فهمها. كان ثمة شيئاً غير عاطفي وبارد بينهما يثير الاهتمام إذ يتخذ شكل الدعابة التي يوصل كل منهما للآخر من خلالها ذبذباته الرقيقة. الحب هو الأهم بينهما، جاين لم تكن تبتعد أكثر من عشرة أقدام عن بال ولا تدع كلمة مما يقوله تفوتها، رغم أنه يتحدث همساً.

رحت ودين نزعق مطالبين بال بأن يكون دليلنا في المدينة التي أردنا أن نمضي ليلة كبيرة فيها، لكنه أحبط المشروع «نيوأورلينز بلدة هامدة. الذهاب إلى أحياء السود مناف للقانون، والحانات كئيبة إلى حدّ لا يطاق».

«لا بدّ من وجود حانات جيدة».

«الحانة الجيدة غير موجودة في أميركا. الحانة الجيدة أمر لم نعد نعيه. في ١٩١٠ كانت الحانة ملتقى الرجال خلال الدوام أو بعده، وكانت تتكون فقط من بار طويل، ودرابزين نحاسي وعدد من المباصق، وعازف بيانو، وبضع مرايا، وبراميل من الويسكي بعشر سنتات للجرعة وبراميل جعة بخمسة سنتات للكأس. الآن كل ما تجده هو النبيذ، والنسوة الثملات، واللوطيون، والنذل العدائيون، ومالكو الحانات المتوجّسون الذين يمكثون عند الباب قلقين على مقاعدهم الجلد وعلى ألا يخرق أحدهم القانون، ويسود الكثير من الصراخ في الوقت غير المناسب، والصمت القاتل حين يدخل غريب المكان».

تجادلنا بشأن الحانات، «حسناً» قال، «سأصحبكم إلى نيوأورلينز الليلة وأريكم ما الذي أقصده». وأخذنا عمداً إلى أسوأ الحانات. تركنا جاين مع الطفلين؛ انتهى العشاء؛ كانت تقرأ الإعلانات المبوبة في صحيفة نيوأورلينز «تايمز بيكايون». سألتها إذا ما كانت تبحث عن عمل، فأجابتني بأنها تتصفح هذا الجزء من الصحيفة فقط لأنها تجده الأكثر تشويقاً. ثم أخذنا بال إلى البلدة ومضى متكلماً من جديد «أبطأ قليلاً يا دين، سنصل إلى هناك، كما آمل؛ هاب، هاك العبّارة، ليس عليك أن تقفز بنا إلى النهر مباشرة». لم يخفّف دين سرعته، بل ساءت قيادته أكثر، خاطبني بال هامساً: «يبدو لي إنه متجه إلى المصير المثالي، ألا وهو الهوس الإكراهي الممزوج بجرعة من اللامسؤولية والعنف

العصابي»، ناظراً إلى دين بزاوية عينيه. «إذا ما ذهبتم إلى كاليفورنيا مع هذا المجنون فلن تصلوا أبداً، لماذا لا تبقون معي في نيوأورلينز؟ سنراهن على الجياد في غراتينا ونسترخي في فناء منزلي. لدي مجموعة جميلة من الخناجر وأنا أصمم مرمى. ثمة دمى لذيذة في وسط البلد، أيضاً، إذا كان هذا ما تصبو إليه هذه الأيام». استنشق. في العبّارة خرج دين من السيارة ووقف مستنداً إلى الدرابزين. تبعته، وبقي بال في السيارة، مستنشقاً «ثفمب». كان هناك ظلال ضباب غامض على صفحة المياه البنية تلك الليلة، مصحوبة بجذوع خشب قاتمة، وبالمحاذاة نيوأورلينز تتوهج بلون برتقالي ناصع، وبضعة سفن قاتمة عند حافتها، سفن شبحية إسبانية الطابع مغلفة بالضباب تذكر بـ«شيرينو»[1]، لكن حين تقترب منها أكثر تكتشف أنها مجرد سفن شحن قدمت من السويد وباناما. نيران العبّارة توهجت في العتمة، العمال السود أنفسهم كانوا يلقمونها بالمجارف ويغنون. بيغ سليم هازارد عمل ذات مرة على متن عبارة في ألجيرز كنوتي؛ تذكرت أيضاً مسيسيبي جين؛ وبينما النهر يتدفق من وسط أميركا على ضوء النجوم الذي أعرفه، كنت أعرف أيضاً كالجنون أن كل ما عرفته وما يمكن أن أعرفه هو نفسه. غريب القول أيضاً، تلك الليلة التي عبرنا فيها النهر مع بال انتحرت فتاة رامية نفسها عن العبارة، إما قبلنا مباشرة أو بعدنا؛ قرأنا الخبر في الصحيفة في اليوم التالي.

قصدنا كل الحانات الكئيبة في الحي الفرنسي وعدنا إلى البيت عند منتصف الليل. تلك الليلة جرّبت ماري لو كل شيء من الماريغوانا، إلى الغوفبال (الكوكايين ممزوجاً بالهيروويين)، إلى الأمفيتامين، والليكور،

(١) بنيتو شيرينو Benito Cereno: رواية قصيرة لهرمان ملفل ظهرت عام ١٨٥٥ وتتمحور أحداثها حول «ثورة العبيد» على متن سفينة تجارية إسبانية عام ١٧٩٩.

وحتى إنها طلبت من بال جرعة من المورفين، لكنه رفض بالطبع، وأعطاها بدلاً منها كأس مارتيني؛ كانت مشبعة للغاية بعناصر من كل الأنواع إلى حدّ أنها وصلت إلى حال الشلل التام ووقفت معي بخرق على الشرفة. كان لديه شرفة رائعة تحيط المنزل كله؛ تحت ضوء القمر وبوجود الصفصافة بدا المنزل شبيهاً بالمنازل الجنوبية القديمة، وأنه شهد أياماً أفضل من هذه. جلست جاين تقرأ الإعلانات المبوبة في غرفة المعيشة؛ بال كان في الحمام يحقن نفسه بالمخدرات، شاداً ربطة عنقه القديمة السوداء بين أسنانه من أجل وقف الدم وغارزاً الإبرة في ذراعه المنهكة بآلاف الثقوب؛ إد دانكل كان ممدداً مع غالاتيا في سرير غرفة نوم جاين وبال الواسع الذي لم يستعملاه قط؛ دين كان يلفّ الماريغوانا؛ وأنا وماري لو أخذنا نقلد الأريستقراطيين الجنوبيين.

«آنسة لو، تبدين جميلة وجذابة جداً الليلة».

«شكراً لك كراوفورد، بالتأكيد أقدّر الأشياء اللطيفة التي تتفوه بها».

كانت أبواب الشرفة المتصدعة مفتوحة، بينما استمر أفراد زمرتنا في هذه الدراما الحزينة في الليل الأميركي يخرجون من وقت لآخر بحثاً عن بعضهم البعض. أخيراً قمت وحيداً بنزهة إلى رصيف الميناء. أردت أن أجلس على الضفة الموحلة وأتأمل نهر مسيسيبي، وبدلاً من ذلك كان علي أن أنظر إليه من خلال سياج شائك. حين تبدأ بفصل الناس عن أنهارهم فما الذي تحصل عليه؟ «البيروقراطية!»، قال بال؛ كان جالساً وكافكا في حضنه، والمصباح مضاء فوق رأسه، مستنشقاً «ثفمب»، وأخشاب منزله القديم تصدر صريراً، وزنود أخشاب مونتانا تجري مع النهر الكبير الأسود. «ليست إلا البيروقراطية. والنقابات! لاسيما النقابات!». لكنّ ضحكة سوداء ستنفجر من جديد.

- ٧ -

استيقظت باكراً صباح اليوم التالي لأجد أولد بال ودين في الفناء الخلفي. كان دين، مرتدياً، رداء سكة الحديد، يساعد بال على خلع المسامير الصغيرة في جذع خشبي سميك عثر عليه. بدأنا ننزع المسامير، وكان ثمة الملايين منها كالديدان.

«حين أنتهي من نزعها كلها سأصنع رفاً يدوم ألف عام!»، قال بال، وكل عظمة فيه ترتعد بحماسة صبيانية. «ألا ترى يا سال أن الرفوف التي يصنعونها هذه الأيام تتصدع تحت ثقل الحلى الصغيرة التافهة بعد ستة أشهر أو أنها تنهار عموماً؟ الأمر نفسه بالنسبة إلى الملابس، والثياب. لقد اخترع أولئك الأوغاد البلاستيك الذي يمكنهم بواسطته صنع منازل تعيش إلى الأبد. وهناك العجلات أيضاً. الأميركيون يُقتلون بالملايين سنوياً بسبب العجلات المطاطية المعطوبة التي تحمى على الطريق وتنفجر. يمكنهم صنع عجلات لا تنفجر. الشيء نفسه بالنسبة إلى معجون الأسنان. لقد اخترعوا علكة معينة لا يرونها لأحد إذا مضغتها طفلاً فلن تصاب أسنانك بالتسوس طوال حياتك. والثياب. يمكنهم صنع ثياب تدوم إلى الأبد. لكنهم يفضلون صنع بضائع رخيصة بحيث يضطر الجميع إلى العمل لساعات طويلة وتنظيم أنفسهم في اتحادات عمالية كئيبة والتخبط هنا وهناك بينما تستمر عملية الاغتصاب الكبيرة في واشنطن وموسكو». حمل قطعة الخشب الكبيرة العفنة، «ألا تظن أنها ستشكّل رفاً رائعاً؟».

كان لا يزال في ذروة طاقته. كان المسكين يضخ إلى جسده الكثير من المخدرات بحيث لا يعود قادراً على فعل شيء سوى الجلوس معظم اليوم على ذلك الكرسي حيث المصباح المضاء ظهراً، لكنه في الصباح يكون في أحسن أحواله. ثم بدأنا نرمي الخناجر على اللوح. أخبرنا بال

إنه ذات مرة رأى عربياً في تونس يمكنه أن يصيب عين رجل بخنجر عن بعد أربعين قدماً، وذكره ذلك بعمته التي سافرت إلى مدينة القصبة في الثلاثينات «كانت مع مجموعة من السائحين يقودهم دليل، وكانت تضع خاتم الماس في خنصرها. استندت إلى جدار لكي ترتاح قليلاً حين هجم عليها لص عربي ونزع خاتمها قبل أن تتمكن من الصراخ حتى. انتبهت فجأة أنه لم يعد لديها خنصر. هئ - هئ - هئ - هئ!». كان حين يضحك يضمّ شفتيه مخرجاً الصوت من معدته، من مكان عميق، وينحني مستنداً على ركبتيه. ضحك طويلاً وصرخ جذلاً «هاي جاين! لقد كنت أخبر دين وسال عن عمتي في القصبة!».

«سمعتك»، انبعث صوتها من المطبخ في ذلك الصباح الخليجي الدافئ. كانت غيوم كبيرة رائعة تطفو في السماء، حتى تجعلك تشعر بضخامة أميركا. وكان بال في ذروة نشاطه، «هل أخبرتك عن والد دال؟ كان أطرف عجوز يمكن أن يراه المرء. كان مصاباً بشلل جزئي، ذلك النوع من العطب الذي يقضي على الجزء الأمامي من دماغك فيجعلك غير قادر على التحكم بأفعالك. كان يملك بيتاً في تكساس وكان النجارون يعملون على مدار الساعة لتوسعته. كان يصحو في منتصف الليل صارخاً: لا أريد هذا الجناح اللعين، ضعوه هناك، فيضطر النجارون إلى تفكيك كل شيء والبدء من جديد. ثم ضجر العجوز من المسألة برمتها وقال اللعنة أريد الذهاب إلى مين، وركب سيارته وقاد بسرعة مئة ميل بالساعة، بينما ريش الدجاج يتطاير في إثره لمئات الأميال. ثم توقف فجأة وسط شارع في بلدة ما في تكساس فقط لكي يشتري الويسكي، حاجزاً السيارات وراءه، ثم خرج مسرعاً من المتجر صارخاً على حشد السيارات التي تزعق أبواقها «أوقفوا ثراخكم هذا يا عثبة الحثالة أنتم!»، كان يلثغ؛ وهذه هي الحال حين تكون مصاباً

بالشلل النصفي، تلثغ، أعني تلثغ حقاً. ذات ليلة قصدني إلى منزلي في سنسيناتي وقال لي فلنذهب إلى تكساس لكي نرى دال. كان عائداً من مين. ادعى أنه اشترى منزلاً ـ أوه، كتبت قصة مستوحاة منه في الكلية، حيث تغرق سفينة ويحاول الركاب الصعود إلى قارب النجاة، والرجل العجوز هناك يحمل منجلاً، ويروح يبتر أصابعهم. ابتعدوا يا عثبة الحثالة، هذا قاربي أنا. أوه، كان رهيباً. يمكنني أن أخبرك عنه قصصاً طوال اليوم. قل لي، أليس يوماً جميلاً؟».

وكان كذلك بالتأكيد. النسائم العليلة التي تهب من الخليج تعوّض مشقة الرحلة كلها. تبعنا بال إلى المنزل لكي نأخذ مقاس الجدار حيث سنثبت الرف. أرانا طاولة الطعام التي صنعها بنفسه من الخشب السميك، «هذه الطاولة ستدوم ألف عام!»، قال بال، وهو يطلّ علينا برأسه الطويل، مطرقاً على الطاولة.

في المساء جلس إلى الطاولة، وراح يأكل ويرمي العظام للقطط. كان لديه سبع قطط، «أحب القطط، لا سيما تلك التي تصرخ حين أحملها فوق مغطس الحمام». أصرّ على أن يرينا كيف يفعل ذلك، لكن الحمام كان مشغولاً. «حسناً»، قال، «لا يمكننا فعل ذلك الآن. لقد تشاجرت مع الجيران». وأخبرنا عن جيرانه؛ كانوا عائلة كبيرة وفيها أولاد وقحون يرشقون الحجارة من فوق السياج على طفليه دودي وراي وأحياناً عليه هو. فطلب إليهم الكف عن ذلك، لكن خرج والدهم العجوز من البيت وجعل يشتمه بالبرتغالية. فما كان من بال إلا أن دخل البيت وأحضر بندقيته واتكأ عليها منتظراً برزانة، بينما ابتسامته الحيية، تلك الابتسامة المتكلفة الرهيبة، تبرز من تحت القبعة، وجسده كله يتمعّج كالأفعى، مهرج وحيد، عجيب ونحيل تحت السماء. لا بد أنه حين رآه البرتغالي حسبه خارجاً من كابوس شيطاني قديم.

طفنا في الفناء بحثاً عن أشياء نفعلها. كان بال يعمل على تشييد سياج ضخم يفصله عن جيرانه البغيضين، لن ينجز هذا السياج أبداً، إذ يتطلب إنجازه جهداً هائلاً. أخذ بال يهزه ليظهر لنا صلابته. فجأة صار تعباً وصموتاً، فدخل إلى البيت واختفى في الحمام ليحقن نفسه بجرعة ما قبل الغذاء. ثم خرج هادئاً بعينين خاليتين من أي تعبير، وجلس تحت ضوء مصباحه، فيما شعاع الشمس يتمدد خجولاً «قولوا لي لما لا تجربون جامع الأورغون خاصتي؟ من شأنه أن يجعل بعض السائل يتدفق في عظامكم. دائماً بعد خروجي منه أنطلق بسرعة تسعين ميلاً بالساعة إلى أقرب كرخانة، هور - هور - هور!»، كانت هذه طريقته في محاكاة الضحك حين لا يكون يضحك حقاً. جامع الأورغون هذا كناية عن صندوق عادي يتسع لرجل ليقعد فيه على كرسي، ويتكون من ثلاث طبقات، واحدة من الخشب، وأخرى من المعدن، وثالثة من الخشب، ووظيفته أن يلتقط الأورغونات من الجو ويحتفظ بها مدة كافية حتى يمتص الجسد البشري منها قدراً أكبر مما يحصل عليه عادة. وبحسب رايخ، الأورغونات هي ذرات اهتزازية يكمن فيها أصل الحياة، والناس برأيه يصابون بالسرطان بسبب جفاف الأورغونات في أجسادهم. أولد بال كان يظن أنه كلما كان الخشب المستعمل في صنع جامع الأورغون أكثر عضوية، كانت النتيجة أفضل، لذا جمع بعض الأغصان المتشابكة والأماليد من النهر وشبكها حول هذا الصندوق الغامض، الذي وضعه في الفناء؛ آلة من القشور متجمعة ومتشابكة مع أشياء مخترعة جنونية. تعرى أولد بال ودخل ليجلس فيها محملقاً في بطنه. «سال، لم لا نذهب معاً بعد الغذاء ونراهن على الجياد في غراتينا». كان مزاجه رائعاً. أخذ قيلولة بعد الغذاء على كرسيه ذاك، بينما بندقيته الهوائية ملقاة في حجره وراي الصغير ملتفاً حول عنقه، نائماً. كان منظراً جميلاً، الأب وابنه، أب

بكل تأكيد لا يحتمل ابنه حين يتعلق الأمر بفعل أشياء معه أو التحدث إليه. أجفل فجأة من نومه وأخذ يحملق بي، وبعد قليل عرف من أكون. «لماذا تذهب إلى الساحل يا سال؟»، سألني، وغفا من جديد.

عصراً، ذهبنا أنا وهو فقط، بسيارته التشيفروليه القديمة إلى غراتينا. كانت سيارة دين واطئة وهزيلة، أما سيارته فعالية ومتينة. بدا الأمر شبيهاً بأيام ١٩١٠. كان مكتب المراهنات يقع بجوار الرصيف البحري، داخل حانة ينفتح بارها الجلدي على صالة واسعة علقت على جدرانها نمر المراهنات، وانتشر فيها أشخاص لويزيانيون يحملون استمارات السباق. احتسينا الجعة، ومن وقت لآخر كان بال يتجه إلى ماكينة «السلوت»، ويضع نصف دولار فيها. وذات مرة توقفت ثلاث من خانات العجلات الدوارة عند علامة «جاكبوت» (الجائزة الكبرى)، مصدرة تكة، أما الخانة الرابعة فلبثت علامة «جاكبوت» عندها لثانية قبل أن ينزلق الدولاب إلى رسم «تشيري» (الكرزة). كان يمكن لو أصاب الخانة الرابعة أن يربح ما يزيد عن مئة دولار، لكنه خسر بفارق شعرة. «اللعنة»، صرخ بال. «إنهم يتلاعبون بهذه الآلات. هل رأيت ما حدث، لقد حصلت على جاكبوت والآلة أرجعتها إلى تشيري. حسناً، ما باليد حيلة». أمعنا النظر في برنامج السباق. آخر مرة راهنت فيها على الخيل كانت قبل سنوات، فحيرتني كل تلك الأسماء الجديدة. كان هناك جواد يدعى بيغ بوب، جعلني اسمه أشرد لثوان متذكراً أبي الذي كان يراهن معي على الخيل. كنت على وشك أن أذكر ذلك لأولد بال حين قال: «حسناً أظن أنني سأجرب هذا الجواد المسمى إبوني كورساير».

ثم قلت أخيراً، «بيغ بوب يذكرني بأبي».

شرد لبرهة، وحملقت عيناه الزرقاوان فيّ ساهمتين، فلم أستطع أن أعرف ما الذي يفكر فيه أو أين هو الآن. ثم راهن على إبوني كورساير. فاز بيغ بوب وكان المردود نصف دولار لقاء كل دولار.

«اللعنة»، قال بال، «كان عليّ أن أعرف أكثر، لقد خضت تجربة كهذه من قبل، أوه متى نتعلم من تجاربنا؟».

«ما الذي تقصده؟».

«أقصد بيغ بوب. لقد أبصرتَ رؤيا، يا فتى، رؤيا. وحدهم الحمقى لا يعيرون اهتماماً للرؤى. كيف تعرف أن أباك الذي كان مراهناً قديماً على الخيل، لم يكن يتواصل معك في تلك اللحظات ليخبرك بأن بيغ بوب سيفوز؟ الاسم ولّد هذا الإحساس في داخلك، لقد استغل أبوك الاسم لكي يتواصل معك. هذا ما كنت أفكر به حين ذكرت لي الاسم. ذات مرة راهن ابن عمي في ميزوري على جواد ذكّره اسمه بأمه، ففاز بمبلغ كبير. الأمر نفسه حدث اليوم». هزّ رأسه. «آه، لنذهب. لن أراهن ثانية وأنت معي؛ كل هذه الرؤى تجعلني أفقد تركيزي». في السيارة ونحن عائدين إلى منزله قال: «سوف تدرك البشرية ذات يوم أن ثمة اتصالاً فعلياً بيننا وبين الموتى والعالم الآخر، أياً يكن شكل هذا العالم، الآن يمكننا التنبؤ، إذا ما بذلنا ما يكفي من الطاقة الذهنية، بما سيحدث بعد قرن، ويمكننا اتخاذ إجراءات تجنبنا مسبقاً كافة الكوارث. حين يموت الإنسان يتحول دماغه على نحو نجهله تماماً الآن، لكنه سيصبح جلياً لنا يوماً ما، إذا ما انكب العلماء على ذلك. الأوغاد ليسوا مهتمين حالياً إلا باحتمالات تفجير العالم».

أخبرنا جاين عن الأمر. استنشقت، «يبدو الأمر سخيفاً لي»، كانت تكنس أرض المطبخ. ودخل بال إلى الحمام ليحقن نفسه بجرعة بعد الظهر.

على الطريق خارجاً كان دين وإد دانكل يلعبان كرة السلة بكرة دودي، ودلو علقاه على عامود الإنارة كسلة. انضممت إليهما. ثم انتقلنا إلى منافسات رياضية أخرى. أذهلني دين تماماً، إذ راح يقفز، ممسكاً

بركبتيه، فوق قضيب حديد أمسكناه وإد كل من طرف وصرنا نرفعه تدريجياً حتى وصل إلى خاصرتينا، «هيا ارفعاه أكثر»، رفعناه إلى مستوى الصرة وأيضاً قفز من فوقه بسهولة. ثم تمكن من القفز جرياً مسافة تزيد عن عشرين قدماً. ثم سابقته على الطريق. أستطيع قطع مئة متر في عشر ثوان ونصف، لكنه تجاوزني. وبينما نركض راودتني تلك الرؤية المجنونة لدين وهو يركض عبر الحياة على هذا النحو تماماً ـ وجهه العظمي مندفع نحو الحياة، ذراعاه ترفرفان بعنف، جبينه يتصبب عرقاً، ورجلاه تزفّان مثل غروتشو ماركس، صارخاً، «مرحى، مرحى، يا رجل، بكل تأكيد يمكنك الانطلاق!». والحقيقة أن أحداً لا يستطيع مجاراته في الجري. ثم خرج بال حاملاً خنجرين وبدأ يعلمنا كيف يمكن أن ننزع سلاح لص في زقاق معتم. أنا بدوري أريته حركة جيدة جداً، وهي أن تقع على الأرض أمام خصمك وتمسك به بركبتيك وتقلبه على يديه ثم تمسك به من معصميه وتشل حركته. قال إنها حركة جيدة بالفعل. أرانا بعض حركات «جوجيستو». نادت دودي الصغيرة أمها لتخرج إلى الشرفة قائلة لها «أنظري إلى هؤلاء السخفاء». كانت غنوجة ظريفة ولم يستطع دين أن يحيد نظره عنها.

«واو. انتظر حتى تصبح صبية! أتتخيلها ماشية في كانال ستريت بعينيها الحلوتين هاتين. آه، أوه». دمدم من خلال أسنانه.

أمضينا مع إد وزوجته يوماً رائعاً في وسط نيوأورلينز. كان دين مجنوناً ذلك اليوم. حين رأى قطارات «شركة ت. ش. غ»، للشحن في الفناء أراد أن يريني كل شيء دفعة واحدة. «ستصبح فرملجياً قبل أن أنتهي من تعليمك!». ركضت أنا وهو وإد دانكل عبر السكة ووثبنا إلى عربة عند ثلاث نقاط منفصلة؛ ماري لو وغالاتيا انتظرتا في السيارة. ركبنا القطار نصف ميل باتجاه الجسر، ملوحين لعمال المحولات وعمال

الراية. علمني دين الطريقة الصحيحة للقفز من عربة قطار متحركة؛ الرجل الخلفية أولاً ودع القطار يبتعد عنك ثم أنزل الرجل الثانية. وأراني عربات الثلاجات، وحجرات الثلج، المناسبة للركوب في أي ليلة شتائية حيث تكون فارغة. «أتذكر ما حكيته لك عن الرحلة من نيومكسيكو إلى ل. أ.؟»، صرخ دين، «هكذا قمت بها...».

عدنا إلى الفتاتين بعد ساعة وكانتا غاضبتين بالطبع. قرّر إد وغالاتيا استئجار غرفة في نيوأورلينز وإيجاد عمل هناك. كان هذا حسناً بالنسبة إلى بال، الذي بدأ يسأم من الزمرة كلها، وكان في الأساس قد دعاني وحدي. في الغرفة الأمامية، حيث نام دين وماري لو، عمت الفوضى وانتشرت بقع القهوة وأعقاب الماريغوانا على الأرض، أكثر من ذلك كانت هذه الغرفة ورشة بال، ولم يكن قادراً على صنع رفوفه. المسكينة جاين كانت تعيش اضطراباً كاملاً جراء نطنطة دين المستمرة في أرجاء البيت. كنا ننتظر وصول حوالة راتب الخدمة العسكرية الذي طلبت من عمتي أن ترسله لي، ثم نستأنف أنا ودين وماري لو رحلتنا. حين وصلت الحوالة أدركت أنني غير راغب بمغادرة منزل بال الرائع بمثل هذه الفجائية، لكن دين كان متحمساً جداً للذهاب.

في غسق أحمر حزين ركبنا أخيراً السيارة فيما جاين ودودي وراي الصغير، وبال وإد وغالاتيا واقفين على العشب الطويل، مبتسمين. كان الوداع. وفي اللحظات الأخيرة نشأ سوء تفاهم بين بال ودين حول المال، إذ طلب دين من بال أن يقرضه المال، ورفض هذا الأخير طلبه. يرجع الأمر إلى أيام تكساس، حين كان دين يحتال على الناس ويجفلهم منه. أمام رفض بال ضحك دين بجنون ولامبالاة؛ حك سرته، دس إصبعه في فستان ماري لو، رفعه حتى ركبتها، سال لعابه، مخاطباً إياها «حبيبتي، أنت تعلمين وأنا أعلم أن كل شيء بيننا على ما يرام أخيراً أبعد

من أبعد التعريفات المجردة في المعايير الميتافيزيقية أو أي معايير تريدينها. . .»، وأشياء من هذا القبيل. ثم انطلقنا إلى كاليفورنيا.

ـ ٨ ـ

أي إحساس ذاك الذي ينتابك، إذ تبتعد بك السيارة عن أناس يتقلص مشهدهم شيئاً فشيئاً حتى تراهم وقد صاروا نقطاً صغيرة؟ إنه العالم الكبير جداً، وهو الوداع. لكننا نتطلع قدماً إلى مغامرة جديدة تحت السماء.

مضينا عبر أضواء ألجيرز القديمة الحارة، إلى العبّارة، إلى البواخر الملطخة بالوحول في النهر، إلى القناة، وخروجاً؛ في العتمة الأرجوانية على طريق سريعة من خطين إلى باتون روج، ثم غرباً من هناك إلى مسيسيبي عند بلدة تدعى بورت ألن، حيث النهر كله أمطار وورود مكسوة بالضباب، وحيث سلكنا طريقاً دائرية في ضوء ضبابي أصفر وفجأة رأينا النهر الضخم تحت الجسر، وعبرنا الأبدية ثانية. ما هو المسيسيبي؟ كتلة طينية منجرفة في الليل الماطر، بقبقة ناعمة على ضفاف ميزوري الذابلة، اضمحلال التيار المتطاول إلى الضفة الأزلية، الزبد البني مضيئاً عبر أشجار وأكمة لا نهائية، ثم انحدرنا، عبر ممفيس، غرينفيل، إيدورا، فيكسبرغ، ناتشيز، بورت ألن، وبورت أورلينز، وبورت الدلتا، عبر بوتاش، فنيس، وخليج الليل العظيم، وإلى الخارج.

كان الراديو يبث برنامجاً بوليسياً، وحين نظرت من النافذة رأيت لافتة إعلانية تقول «استعمل دهانات يو أس كوبر»، وقلت، «حسناً، سأفعل». ثم مضينا عبر سهول لويزيانا الضبابية، مروراً بلوتيل، أونيس، كيندر، ودي كوينسي، بلدات غربية رثة ازدادت شبهاً بالمستنقعات مع وصولنا إلى سابين. في أولد أوبيلوساس ذهبت إلى محل بقالة لكي أشتري الخبز والجبن بينما تولى دين أمر الوقود والزيت. كان محل البقالة كناية عن

كوخ حقير فارغ، وسمعت دمدمة العائلة التي تملكه تتناول العشاء في الخلف. انتظرت دقيقة فلم يأت أحد. فأخذت الخبز والجبن وانسللت من المتجر، كان ما معنا من مال بالكاد يكفينا للوصول إلى فريسكو. وفي الأثناء نشل دين رزمة من السجائر من محطة الوقود، فأصبح لدينا ما يكفي للرحلة من وقود وسجائر وطعام..

في مكان ما قرب بلدة ستاركس رأينا وهجاً أحمر كبيراً في السماء وتساءلنا عما تراه يكون، وبعد دقيقة مررنا بمحاذاته. كانت ناراً خلف الأشجار، حيث العديد من السيارات المركونة على جانب الطريق السريعة. لا بد من أنهم يقلون السمك، أو شيئاً من هذا القبيل. مع اقترابنا من ديوفيل بات المشهد غريباً ومعتماً. فجأة وجدنا أنفسنا في قلب المستنقعات.

«أتتخيل يا رجل كيف سيكون الأمر لو أننا نجد حانة جاز في هذه المستنقعات، يعزف فيها شباب سود ضخام يغنون «البلوز» ويحتسون سنايكجويس ويخاطبوننا بالإشارات؟».

«أجل!».

كان المكان غريباً. ومضت السيارة على طريق موحلة بين ضفاف المستنقعات المعشبة. رأينا شبحاً، نيغرو بقميص أبيض يمشي رافعاً ذراعيه نحو السماء المدلهمة. لا بد من أنه كان يدعو الله أو يشتمه. مررنا بقربه، ونظرت لأرى عينيه البيضاوين «واو»، قال دين، «احذر، يجدر ألا نتوقف في هذا المكان». بعد ذلك علقنا عند تقاطع طرق وأوقفنا السيارة. أضاء دين المصباحين الأماميين. كنا محاطين بأحراج واسعة وشعرنا أننا نسمع فحيح مليون أفعى فيها. كل ما استطعنا رؤيته كان الزر الكهربائي الأحمر في لوحة مفاتيح الهادسون. أخذت ماري لو ترتعد خوفاً، وبدأنا نضحك ضحكات مجنونة لكي نخيفها، وكنا خائفين

بدورنا. أردنا الخروج من جحر الأفاعي هذا، من هذه العتمة الموحلة، والعودة إلى الأرض الأميركية الأليفة. كانت رائحة نفط ومياه ميتة في الهواء. مخطوطات ليلية لا نجيد قراءتها. نعقت بومة. جربنا حظنا وسلكنا إحدى الطرق الموحلة، وبعد قليل كنا نعبر نهر سابين الشرير، مصدر كل هذه المستنقعات. وفجأة تلألأت الأضواء أمامنا. «تكساس! إنها تكساس! مدينة النفط بومونت!». كانت خزانات نفط ضخمة ومصافي تجثم كالمدن في ذلك الهواء النفطي.

«كم يسعدني أننا خرجنا من هناك»، قالت ماري لو، «لنستمع إلى المزيد من البرامج البوليسية الآن».

تقدمنا داخل بومونت، إلى جسر ترينيتي عند بلدة ليبرتي، ومباشرة باتجاه هيوستن. تذكر دين الأيام التي أمضاها هناك في ١٩٤٧. «هاسل! ذلك المجنون هاسل! كنت أبحث عنه في كل مكان، فلا أجده، لقد جعلنا نمضي وقتاً عصيباً في تكساس هذه. ذهبت مرة مع بال لشراء البقالة وحين عدت وجدنا هاسل قد اختفى. اضطررنا إلى البحث عنه في كل أندية التدريب على الرماية في المدينة». بدأنا بدخول هيوستن، «أمضينا الوقت باحثين عنه يا رجل في الأمكنة الحقيرة من المدينة. . . كان يمضي وقته مع كل شاب يلتقيه. ذات ليلة أضعناه واستأجرنا غرفة في فندق. كان يفترض أن نجلب معنا حين نعود الثلج لجاين لأن الطعام لديها بدأ يتعفّن، استغرق الأمر يومين حتى نعثر عليه. أنا أيضاً تسكعت في المدينة، متصيداً النسوة المتسوقات بعد الظهر، هنا تماماً، في وسط المدينة، حيث المتاجر الكبرى». عبرنا مسرعين الشوارع الليلية الشاغرة، «وعثرت على فتاة خرقاء جميلة حقاً، كانت مجنونة وتتجول بمفردها فحسب، محاولة سرقة برتقالة. كانت من وايومنغ، ولم يكن من شيء يوازي جمال جسدها إلا بلادة عقلها. وجدتها تهذر ورجعت بها إلى

غرفتي. بال كان سكران ويحاول أن يُسكر ذاك الفتى المكسيكي. كارلو كان يجرب كتابة الشعر بتأثير الهيروين. هاسل لم يظهر حتى منتصف الليل راكباً الجيب. وجدناه نائماً في المقعد الخلفي. كان الثلج كله قد ذاب، وأخبرنا أنه تناول نحو خمس حبات منومة. يا رجل، لو تخدمني ذاكرتي جيداً لرويت لك ما فعلناه بالتفصيل. آه، لكننا نعرف الزمن. كل شيء يعتني بنفسه. يمكنني أن أغمض عيني، وهذه السيارة القديمة ستقود نفسها بنفسها».

في شوارع هيوستن الفارغة عند الرابعة فجراً مر فتى على دراجة نارية، كان مرصعاً ومزوقاً بأزرار لماعة على سترته الجلدية السوداء اللماعة، واضعاً خوذة، شاعر ليل تكساسي، وثمة فتاة وراءه على المقعد، يتطاير شعرها، مثل هندية حمراء، مغنية «هيوستن، أوستن، فورت وورث، دالاس ـ وأحياناً كانزاس ـ وأحياناً أنطون العجوز، آه ـ هاااا!». واختفيا. «يا للروعة، تأمل هذه الفتاة الرائعة التي على خاصرته! لنلعب جميعاً!». حاول دين اللحاق بهما، «ألن يكون رائعاً لو انضممنا إليهما وعربدنا معاً حيث الجميع لذيذ وطيب، من دون مشاحنات، ولا تربية أطفال أو احتجاجات أو أجساد تتألم؟ آه! لكننا نعرف الزمن». انحنى على المقود واندفع بالسيارة.

بعد هيوستن، وعلى الرغم من أنه لا زال بكامل حيويته، توليت القيادة عنه. بدأ المطر يهطل لحظة استلامي المقود. كنا على سهل تكساس العظيم، ومثلما قال دين «مهما قطعنا من مسافات فسنجد أنفسنا ليل غد لا نزال في تكساس». انهمل المطر غزيراً. عبرت بلدة صغيرة قديمة شارعها الرئيسي موحل ووصلت إلى طريق مسدودة. «هاي، ماذا أفعل الآن؟». كانا كلاهما نائمين. عدت إلى البلدة. لم يكن من شخص على الطريق ولا أي ضوء. فجأة ظهر أمامي رجل على حصان. كان

«الشريف»، واضعاً قبعة عريضة، يقطر من حافتها المطر. «كيف أذهب إلى أوستن؟». دلني بتهذيب. خارج البلدة توهجت فجأة في عيني أضواء المصباحين الأماميين لسيارة قادمة باتجاهي، فحسبتني على الجانب الخطأ من الطريق، انحرفت يميناً ووجدتني أخوض في الطين، عدت إلى الطريق، وكان الضوء لا يزال يتجه نحوي مباشرة. أدركت أخيراً أن السائق الآخر هو الذي يقود على الجانب الخطأ ولم يكن يعرف ذلك. حدت إلى اليمين بسرعة ٣٠ ميلاً بالساعة والحمد لله لم يكن هناك مزراب. توقفت السيارة. أربعة مزارعين متجهمين، يلبسون قمصاناً بيضاء وأذرعهم متسخة، جلسوا في سيارتهم ينظرون إلي ببلاهة. بدا السائق مترعاً من السكر.

سألني «كيف أذهب إلى هيوستن؟». أشرت بإصبعي إلى الخلف. تملكني الغضب من فكرة أنهم قد يكونون فعلوا ذلك عمداً فقط لكي يسألوني عن الاتجاه، تماماً مثلما يرتطم بك نشال على الرصيف لكي يسرقك. نظروا بأسى إلى أرضية سيارتهم، حيث تتدحرج مقعقعة الزجاجات الفارغة. شغلت السيارة؛ كانت عجلاتها منغرزة بالطين بعمق قدم. تنهدت في براري تكساس الماطرة.

«دين»، قلت، «استيقظ».

«ما الأمر؟».

«لقد علقنا في الطين».

«ماذا حدث؟». أخبرته. فراح يصبّ اللعنات نزولاً وطلوعاً. وضعنا حذاءين قديمين وكنزتين وخرجنا من السيارة تحت وابل من المطر. أسندت ظهري إلى الدعامة الأمامية ورحت أرفع وأدفع بقوة. دين حشر سلاسل تحت العجلات البالية. بعد دقيقة صرنا ملطخين كلياً بالوحل. أيقظنا ماري لي على هذه الويلات وطلبنا منها أن تقود السيارة بينما نقوم

بدفعها. بذلت الهادسون المعذبة أقصى جهدها، وفجأة خرجت من الطين ومضت متزحلقة على الطريق، قبل أن توقفها ماري لو في اللحظة المناسبة، وركبنا. استغرق انتشال السيارة نصف ساعة كانت كافية لينفذ المطر إلى عظامنا.

غفوت، وكلي وحل؛ في الصباح حين استيقظت كان الوحل قد جفّ عليّ وفي الخارج كان ثلج. كنا قرب فردريكسبورغ، في السفوح العالية. كان أحد أسوأ الشتاءات في تاريخ تكساس والغرب، حيث اختفت المواشي كالذباب في عواصف ثلجية هائلة وسقط الثلج على سان فرانسيسكو ول. أ. كنا كلنا في حال بائسة. تمنينا لو أننا في نيوأورلينز مع إد دانكل. كانت ماري لو تقود، ودين نائماً. قادت بيد على العجلة والأخرى ممتدة نحوي في المقعد الخلفي. قطعت لي وعوداً سال لها لعابي حول الأوقات التي سنمضيها معاً في سان فرانسيسكو. وعند العاشرة استلمت القيادة، كان دين نائماً منذ ساعات، وقدت بضع مئات من الأميال الموحشة عبر الأحراج المثلجة والتلال المنخسفة. مررنا برجال كاوبوي يعتمرون قبعات البايزبول وأكمام الأذنين، بحثاً عن الأبقار، وعلى طول الطريق، من وقت لآخر، كانت تظهر بيوت صغيرة يتصاعد الدخان من مواقدها. تمنيت الدخول إلى أحدها لتناول الحليب بالزبدة والفاصولياء أمام الموقد.

في سونورا نشلت مجدداً الخبز والجبن بينما البائع يتحدث إلى مزارع ضخم في نهاية المتجر. صاح دين استحساناً حين عرف بالأمر، كان جائعاً، ولم نكن قادرين على إنفاق سنت على الطعام. «مرحى، مرحى»، قال، متفرجاً على المزارعين يمضون صعوداً ونزولاً في سونورا ستريت الرئيسي، «كل واحد منهم مليونير لعين، يملك ألف رأس من الماشية، والأيدي العاملة، والعقارات، والمال في المصرف. لو عشت

هنا فسأكون أرنباً برياً في الغرب الأميركي، سألعق الغصون، سأبحث عن راعيات الأبقار الجميلات ـ هي ـ هي ـ هي ـ هي! اللعنة! بام!». لكم نفسه. «أجل! صحيح!». لم نعد نعرف ما الذي يتحدث عنه. استلم القيادة بقية الطريق عبر تكساس، نحو خمسمائة ميل، مباشرة إلى إل باسو، لنصل عند الغسق من دون أن نتوقف سوى مرة واحدة حين نزع ملابسه، قرب أوزونا، وركض عاوياً وعارياً على العشب. اقتربت منا السيارات ولم تره. هرع عائداً إلى السيارة وانطلق مجدداً. «الآن سال وماري لو، أريدكما أن تفعلا مثلما أفعل، حررا نفسيكما من هذه الثياب ـ ما الجدوى من الثياب أساساً؟ هذا ما أقوله الآن، وشمّسا بطنيكما الصغيرين معي. هيا!». كنا نتجه غرباً باتجاه الشمس، التي ينفذ شعاعها عبر النافذة الأمامية. «اكشفا بطنيكما لها بينما نقود نحوها». استجابت ماري لو بلا تحفظ، وتبعتها. جلسنا ثلاثتنا في المقعد الأمامي. ماري لو أخذت تلطخنا بالكريم البارد على سبيل اللهو. وبين الحين والآخر كانت تقترب منا شاحنة كبيرة، ولمح سائقها جمالاً ذهبياً يجلس عارياً بين رجلين عاريين؛ رأينا السائقين ينحرفون قليلاً وهم يختفون وراء نافذتنا الخلفية. مررنا بسهول هائلة من القصعين، بلا ثلج الآن. وصلنا بعد فترة قصيرة إلى بيكوس كانيون ذي الصخور الحمراء. مساحات زرقاء انفتحت في السماء. خرجنا من السيارة لكي نتفرج على أطلال هندية قديمة. فعل دين ذلك عارياً بالكامل. أنا وماري لو ارتدينا معطفينا. تجولنا بين الحجارة القديمة، عاويين وزاعقين. بعض السائحين رأى دين عارياً في السهل لكنه لم يصدق ما يراه وتابع سيره متذبذباً.

دين وماري لو ركنا السيارة قرب فان هورن ومارسا الجنس بينما كنت نائماً. أفقت مع انطلاقنا عبر وادي ريو غراند الهائل عبر كلينت ويلستا إلى إل باسو. انتقلت ماري لو إلى المقعد الخلفي، وأنا إلى

المقعد الأمامي. إلى يسارنا عبر مساحات ريو غراند الفسيحة كانت الجبال الحمراء للحدود المكسيكية. أمامنا مباشرة الأنوار البعيدة لإل باسو وخواريز، تغمر واد هائل إلى حد يمكنك أن ترى عدة قطارات تنطلق فيه في الوقت نفسه في كل الاتجاهات وكأنه وادي العالم. انحدرنا باتجاهه.

«كلينت، تكساس!»، قال دين، وثبّت الراديو على إذاعة كلينت. كل ربع ساعة كانوا يبثون أغنية، وبقية الوقت إعلانات حول صف دراسي ثانوي. «هذا البرنامج يبث في الغرب كله»، صرخ دين بحماسة. «يا رجل، كنت أستمع إليه ليل نهار في الإصلاحية والسجن. كلنا كنا نراسل هذا البرنامج. تحصل على شهادة ثانوية بالبريد، بالأحرى نسخة طبق الأصل عنها، إذا ما نجحت في الاختبار. كل صعاليك الغرب، في وقت أو آخر، راسلوا هذا البرنامج؛ هذا كل ما يسمعونه؛ تضبط المذياع في سترلنغ، كولورادو، أو في لاسك، وايومنغ، لا يهم أين، فتحصل على كلينت تكساس، كلينت تكساس. والموسيقى دائماً موسيقى «كانتري» ومكسيكية، أسوأ برنامج على الإطلاق في تاريخ البلد كله ولا أحد يمكنه فعل شيء حيال الأمر. لديهم إرسال هائل يصل إلى كل البلاد». رأينا الهوائي العالي وراء أكواخ كلينت. «أوه، يا رجل، كم هي الأشياء التي أود أن أخبرك عنها»، صرخ دين، بنبرة باكية تقريباً. بعيون متلهفة إلى فريسكو والساحل، دخلنا مع هبوط العتمة إلى إل باسو، مفلسين. كان علينا تدبير المال من أجل الوقود وإلا فلن نتمكن من الوصول.

جربنا كل السبل. اتصلنا بـ «مكتب السفريات»، لكن لا أحد كان متجهاً غرباً تلك الليلة. «مكتب السفريات» هو المكان الذي تقصده لكي تحصل على ركاب يشاركونك كلفة الوقود، وهو شرعي في الغرب.

مضينا إلى محطة حافلات غرايهاوند لكي نحاول إقناع أحدهم بإعطائنا المال بدلاً من ركوب حافلة إلى الساحل. كنا خجلين جداً من عرض ذلك على أحد. مشينا بحزن في البرد. كان ثمّة فتى جامعي يتصبّب عرقاً وهو ينظر إلى ماري لو، محاولاً أن يخفي اكتراثه. أنا ودين تشاورنا وقررنا أننا لسنا قوادين. فجأة تقرّب منا فتى مجنون أحمق، يبدو أنه خارج لتوه من الإصلاحية، وذهب ودين سعياً للجعة. «هيا يا رجل، لنضرب أحدهم على رأسه ونسرق ماله».

«أفهمك يا رجل»، صرخ دين. وانطلقا. قلقت لوهلة. كان دين يريد أن يلهو مع الفتى في شوارع إل باسو. أنا وماري لو انتظرنا في السيارة. أحاطتني بذراعيها.

قلت: «اللعنة لو، انتظري حتى نصل إلى فريسكو».

«لا يهمني.. دين سيهجرني على أية حال».

«متى ستعودين إلى دنفر؟».

«لا أعرف. لا يهمني ما أفعله، أيمكنني العودة إلى الشرق معك؟».

«سيكون علينا تدبير بعض المال في فريسكو».

«أعرف مطعماً يمكنك العمل فيه موظف صندوق، وسأعمل نادلة. وأعرف فندقاً يمكننا النزول فيه على الحساب. سنبقى معاً. يا إلهي كم أنا حزينة».

«لماذا؟».

«أنا حزينة بشأن كل شيء. أوه اللعنة، فقط لو لم يكن دين مجنوناً إلى هذا الحد». عاد دين يقفز فرحاً.

«يا له من شاب رائع، هووو! وهل أفهمه! لقد عرفت آلاف الشبان من أمثاله، جميعهم على الشاكلة نفسها، عقولهم تعمل بطريقة آلية، أوه يا لتلك العواقب التي لا تنتهي، لا وقت.. لا وقت». وانطلق سريعاً

بالسيارة، منكباً على المقود، وخرجنا من إل باسو. «سيكون علينا أن نقل المسافرين استوقافاً. أنا واثق من أننا سنعثر على بعضهم. هاب! هاب! ها نحن نمضي. انتبه»، زعق بسائق دراجة، والتف حوله، وراوغ سائق شاحنة وانطلق إلى طرف المدينة. عند الجانب الآخر من النهر كانت تتلألأ أنوار خواريز وأرض شيهواها البائسة الجافة ونجومها الساطعة. أخذت ماري لو تحملق بدين مثلما فعلت عبر البلاد وفي طريق العودة، من زاوية عينيها، بحزن وتجهم كما لو أنها تريد أن تبتر رأسه وتخبئه في خزانتها، حب غيور وآسف بشكل مذهل لما هو عليه، لفورانه وزهوه وأفكاره المجنونة، كانت ابتسامتها الحنونة، لكن التي تنم عن حسد جدي، تخيفني فيها، كانت تعلم أن حبها له لن يفضي إلى شيء لأنها حين تنظر إلى وجهه العظمي، المفعم بالثقة الذكورية بالنفس وبالشرود تعرف أنه مجنون. أما هو فكان مقتنعاً أنها عاهرة، وأسرّ لي بأنها كذابة بشكل مرضي. لكن نظرتها إليه على ذاك النحو تنطوي على حب أيضاً؛ وحين كان ينتبه دين إليها يلتفت دائماً بابتسامته الكبيرة المتصنعة، التي تبرز أسنانه البيضاء العاجية، بينما عيناه تطرفان دائماً، في حين يكون قبل لحظات شارداً فحسب في أبديته. ثم تضاحكت وماري لو، ولم يبد دين أي علامة على الارتباك، فقط ابتسامة فرحة تقول لنا أولسنا نحظى بالإثارة على أي حال؟ وهكذا كان الأمر.

على مشارف إل باسو، في العتمة، لمحنا أحدهم يؤشّر لنا. كان مستوقفنا الموعود. توقفنا «كم معك من المال أيها الفتى؟». لم يكن يملك مالاً؛ كان في السابعة عشرة تقريباً، شاحباً، وغريباً، يعاني شللاً في إحدى يديه ولا يحمل حقيبة. «أوليس وسيماً؟»، قال دين، ملتفتاً إليّ بأسى جدي. «اصعد أيها الشاب، سنخرجك من هنا». أغرانا الفتى قائلاً إن لديه عمة في تولاير، كاليفورنيا تملك متجر بقالة وما إن نصل

إلى هناك حتى يحصل لنا على بعض المال. انفجر دين ضاحكاً، متذكراً ذاك الفتى في نورث كارولينا، «أجل! أجل!»، صرخ، «كلنا لدينا عمات؛ حسناً لنمض. لنرى العمات والأعمام ومتاجر البقالة على طول الطريق!». وأصبح معنا مسافر جديد، واتضح أنه شاب طيب أيضاً. لم يقل أي كلمة، فقط أصغى إلينا، ولا بد من أنه بعد دقيقة من استماعه إلى دين اقتنع تماماً بأنه في صحبة حفنة من المجانين. قال إنه ينتقل استوقافاً من ألاباما إلى أوريغون، حيث منزله. سألناه ما الذي كان يفعله في ألاباما.

«ذهبت لزيارة عمي، الذي وعدني بان يؤمن لي عملاً في ورشة نجارة، لكن أحدهم سبقني إلى الوظيفة، لذا أنا عائد إلى البيت».

«عائد إلى البيت»، قال دين، «ذاهب إلى البيت، أجل، أعرف، سنأخذك إلى البيت، حتى فريسكو على الأقل». لكن لم يكن معنا أي مال، ثم خطر لي أنني أستطيع استدانة خمسة دولارات من صديقي القديم هال هنغام في توسون، أريزونا. وافق دين على الفور واتجهنا إلى هناك.

اجتزنا لاس كروسس، نيومكسيكو، ليلاً، ووصلنا فجراً إلى أريزونا. أفقت من نوم عميق لأجد الجميع نائمين مثل الحملان والسيارة مركونة يعلم الله أين، لأنني لم أستطع أن أتبيّن شيئاً من النافذة المكسوة بالضباب. فخرجت من السيارة. كنا في الجبال. كان شروق فردوسي، وهواء أرجواني بارد، وسفوح حمراء، مناظر طبيعية زمردية في الوديان، وندى، وغيوم ذهبية مسترسلة، وفي الأرض حفر السناجب، ونبات الصبير، والمسكيت الشائك. حان دوري لقيادة. أزحت دين والفتى وانحدرت على الطريق الجبلية، مطفئاً المحرك توفيراً للوقود.

على هذا النحو اجتزت بنسون، أريزونا. ثم تذكرت أنني أملك ساعة

جيب أهداني إياها روكو في عيد ميلادي، وتبلغ قيمتها أربعة دولارات. في محطة الوقود سألت الرجل إذا كان يعرف مكتباً للرهن في بنسون، فقال لي إنه بجوار المحطة تماماً. قرعت الباب، وسمعت أحدهم ينهض عن السرير، وفي غضون دقيقة كان معي دولار، وضعته ثمناً للوقود، فبات لدينا ما يكفي حتى نصل إلى توسون. لكن فجأة ظهر شرطي جوال ضخم يحمل مسدساً بينما أستعد للانطلاق وطلب رؤية رخصة القيادة، وقلت له «الشاب في المقعد الخلفي معه الرخصة». كان دين وماري لو نائمين معاً تحت الغطاء. طلب الشرطي من دين الترجل من السيارة، وفجأة استلّ مسدسه صارخاً: «ارفع يديك!».

«أوفيشاه»، سمعت دين يقول بأسخف نبرة وأكثرها حدة، «أوفيشاه كنت أهم بتبكيل بنطالي»، حتى الشرطي كاد يبتسم. خرج دين، موحلاً مجعد الثياب، لابساً الكنزة الخفيفة، فاركاً معدته، لاعناً، باحثاً عن رخصة القيادة وأوراق السيارة. ألقى الشرطي نظرة على صندوق السيارة. كل الأوراق كانت سليمة. «كنت أتأكد فقط»، قال بابتسامة عريضة، «يمكنكم الذهاب الآن. بنسون ليست سيئة في الحقيقة، يمكنكم تناول إفطار شهي هنا».

«أجل، أجل، أجل»، قال دين من دون أن يعيره أدنى اهتمام، ومضينا مبتعدين. تنهدنا كلنا بارتياح. رجال الشرطة يرتابون حين يرون زمرة من الشباب في سيارة ويبدو عليهم الإفلاس ويضطرون إلى رهن ساعاتهم «أوه، إنهم دائمو التطفل»، قال دين، «لكنه أفضل بكثير من ذاك الذي في ڤرجينيا. رجال الشرطة يسعون دائماً إلى القيام باعتقالات تحتل عناوين الصحف، يحسبون كل سيارة تمر هي لعصابة ما من شيكاغو. هذا شغلهم الشاغل». اتجهنا إلى توسون.

توسون مدينة جميلة تقع على ضفاف نهر محتشد بأعشاب المسكيت

الشائكة، وتطل عليها سلسلة جبال كاتالينا المكللة بالثلوج. وقتذاك كانت كناية عن ورشة بناء ضخمة، الناس فيها عابرون، جامحون، طموحون، منشغلون، جذلون؛ وتنتشر فيها حبال الغسيل، والشاحنات؛ ويمتلئ وسطها بالإعلانات؛ مشهد كاليفورني جداً على وجه الإجمال. تمتد طريق فورت لويل، حيث يقطن هنغام، بين أشجار جميلة على ضفتي النهر في الصحراء المنبسطة. وحين وصلنا رأينا هنغام جالساً يتأمل في الفناء. كان قد جاء إلى أريزونا لكي يتفرغ لكتابه. كان كاتباً ساخراً طويلاً وهزيلاً وخجولاً يحكي دمدمة ويلتفت دائماً في اتجاه آخر وهو يروي النكات. كان يعيش مع زوجته وطفله في المنزل الصغير الذي بناه زوج أمه الهندي، بينما تعيش أمه في مقابل الفناء في منزلها الخاص. كانت امرأة أميركية حماسية تحب الفخار والخرز والكتب. هنغام كان سمع بدين من خلال رسائل وصلته من نيويورك. هبطنا عليه كغيمة، الكل جائع، حتى ألفرد، ذلك المستوقف المعوق. كان هنغام يرتدي كنزة قديمة نافثاً دخان غليونه في الهواء الصحراوي اللطيف. جاءت أمه ودعتنا إلى مطبخها لنأكل. طبخنا النودلز في قدر كبيرة.

ثم ذهبنا جميعاً بالسيارة إلى متجر خمور عند تقاطع الطرق، حيث صرف هنغام حوالة بخمسة دولارات وناولني المال.

كان وداعاً قصيراً «سررت لرؤيتكم»، قال هنغام، ناظراً في اتجاه آخر. وراء بعض الأشجار، عند الجانب الآخر من الرمال، كانت تومض بالأحمر لافتة نيون كبيرة لنزل طريق، كان هنغام يتردد غالباً إليه لشرب الجعة حين يتعب من الكتابة. كان مستوحشاً جداً، وراغباً بالعودة إلى نيويورك، وحزنت لرؤيته يختفي في العتمة بينما السيارة تبتعد، تماماً كالآخرين في نيويورك ونيوأورلينز؛ يقفون مضطربين تحت سماوات واسعة مرصعة بالنجوم، وكل شيء في ملامحهم غائب. إلى أين

المصير؟ ما الهدف؟ ما العمل؟ النوم. أما زمرتنا الحمقاء هذه فكانت مصممة على المضي قدماً.

- ٩ -

على مشارف توسون رأينا مستوقفاً آخر على الطريق المعتمة. كان متشرداً من بايكرسفيلد، كاليفورنيا، وروى لنا قصته «لعنة لعناء، غادرت بايكرسفيلد بسيارة من «مكتب السفريات» وتركت غيتاري في صندوق سيارة أخرى، واختفى، هو وبنطالي الكاوبوي؛ أنا موسيقي، كنت متجهاً إلى أريزونا لكي أعزف مع فرقة جوني ماكاو «ساغبراش بويز». حسناً، اللعنة، ها أنا مفلس في أريزونا وغيتاري سرق. أعيدوني أيها الشباب إلى بايكرسفيلد وسأحضر لكم المال من أخي. كم تريدون». أردنا فقط ما يكفي من الوقود حتى نصل إلى بايكرسفيلد، أي نحو ثلاثة دولارات. الآن صرنا خمسة في السيارة «عمت مساء سيدتي»، خاطب ماري لو رافعاً قبعته، وانطلقنا.

عند منتصف الليل أشرفنا على أنوار بالم سبرينغس من طريق جبلية. عند الفجر في طرق مثلجة، وصلنا بجهد إلى بلدة موجاف، التي هي المدخل إلى معبر تيهاتشابي. استيقظ المتشرد وراح يروي قصصاً مضحكة، ألفرد الصغير العذب جلس مبتسماً. أخبرنا المتشرد عن رجل غفر لزوجته أنها أطلقت الرصاص عليه وأخرجها من السجن، فلم يكن منها إلا أن أطلقت النار عليه ثانية. كنا نمر بجوار سجن النساء حين أخبرنا هذه القصة. أمامنا رأينا بداية معبر تيهاتشابي. استلم دين المقود واتجه بنا مباشرة إلى قمة العالم. مررنا بمصنع اسمنت ضخم كئيب في الوادي. ثم أخذت الطريق بالانحدار، فأطفأ دين المحرك، مراوغاً بالكابح اليدوي السيارات والمنعطفات بشكل ممتاز. تشبثت بقوة. أحياناً

كانت الطريق تمضي صعوداً مجدداً لفترة وجيزة، كان يتجاوز السيارات الأخرى من دون إصدار أي صوت. كان يعرف كل حيل التجاوز. حين آن أوان الانعطاف يساراً حول جدار حجري منخفض يطل على قاع العالم، انحرف إلى أقصى اليسار، ومضى بها على هذا النحو؛ ثم انحرف نحو اليمين ثانية، جاعلاً ماري لو وأنا نميل معه. بهذه الطريقة هبطنا إلى وادي سان واكيم، الذي يمتد على بعد ميل أمامنا، ليبدو وكأنه أرض كاليفورنيا، أخضر وعجائبي. قطعنا ثلاثين ميلاً دون تشغيل المحرك.

فجأة شعرنا جميعاً بالحماسة. أراد دين أن يخبرني عن تجربته في بايكرسفيلد ونحن نبلغ حدود المدينة. أراني الفنادق التي نزل فيها، التي إلى جوار محطات القطارات، وصالات البلياردو، والمطاعم، والأسيجة التي تسلقها لقطف العنب، والمطاعم الصينية التي أكل فيها، ومقاعد الحدائق التي واعد فيها فتيات، وأمكنة أخرى لم يفعل فيها شيئاً سوى الجلوس والانتظار. كاليفورنيا دين، جامحة، تتصبب عرقاً، الأرض التي يقصدها العشاق الوحيدون والمشارون وغريبو الأطوار ويتجمعون فيها كالطيور، الأرض التي يبدو كل من فيها ممثلاً سينمائياً مهزوماً، وسيماً ومدمراً. «أمضيت ساعات على هذا المقعد بالذات أمام الصيدلية!». تذكر كل شيء - كل لعبة ورق، كل امرأة، كل ليلة حزينة. وفجأة عبرنا من أمام فناء المحطة حيث جلست وتيري تحت ضوء القمر، واحتسينا النبيذ، على تلك الأقفاص الخشبية في أكتوبر ١٩٤٧ وحاولت أن أخبره عن ذلك. لكنه كان مفرط الإثارة إلى حدّ ألا يسمع شيئاً. «هنا أمضيت ودانكل صباحاً كاملاً نحتسي الجعة، محاولين مضاجعة نادلة صغيرة جميلة حقاً من واتشونفيل، لا من ترايسي، بلى ترايسي، وكان اسمها إزميرالدا، أوه يا رجل شيء من هذا القبيل». كان بال ماري لو مشغولاً

بما ستفعله حال وصولها إلى فريسكو. قال ألفرد إن عمته ستعطيه الكثير من المال في تولار، وأخذنا المتشرد نحو منزل أخيه في السهل خارج البلدة.

توقفنا ظهراً أمام كوخ صغير مكسو بالورد، ودخل المتشرد وتحدث إلى امرأة في الداخل. انتظرنا ربع ساعة «بدأت أظن أن هذا الشاب ليس لديه مال أكثر مني». قال دين «لقد خُدعنا ثانية! على الأرجح ليس من أحد في العائلة سيعطيه فلساً». خرج المتشرد خجلاً ووجّهنا إلى البلدة.

«لعنة لعناء، أتمنى لو أنني أستطيع العثور على أخي». راح يستعلم عنه. شعر على الأرجح أنه أسيرنا. أخيراً ذهبنا إلى مخبز كبير، وخرج المتشرد مع أخيه، الذي كان يلبس «كوفرول» ويوحي شكله بأنه يعمل ميكانيكياً هناك. تحدث مع أخيه بضع دقائق. انتظرنا في السيارة. أخذ المتشرد يحكي للجميع مغامراته وكيف أضاع غيتاره. لكنه حصل على المال، وأعطاه لنا، وبتنا جاهزين للانطلاق إلى فريسكو. شكرناه وانطلقنا.

الوقفة التالية كانت في تولار. صعدنا عبر الوادي. اضطجعت على المقعد الخلفي مرهقاً، ومستسلماً كلياً، وفي وقت ما من بعد الظهر بينما أنا دائخ، اقتربت الهادسون الموحلة من الخيام خارج سابينال حيث عشت وأحببت وعملت في ذلك الماضي الشبحي. كان دين منكباً على المقود، يطرطق عليه. كنت نائماً حين وصلنا أخيراً إلى تولار؛ واستيقظت لأسمع التفاصيل المجنونة «سال استيقظ! الفتى عثر على متجر عمته، لكن أوتعرف ماذا حدث؟ عمته قتلت زوجها وسجنت. والمتجر أقفل. لم نحصل على سنت. فكر في الأمر! هذه الأمور التي تحدث؛ المتشرد أخبرنا القصة نفسها، المشكلات من كل جانب، تعقيدات الأحداث ـ ويي، اللعنة!». ألفرد كان يقضم أظافره. كنا نخرج

من الطريق المؤدية إلى أوريغون عند ماديرا، وهناك ودعنا ألفرد الصغير. تمنينا له الحظ الحسن وهرعنا نحو أوريغون. قال لنا إن هذه أفضل توصيلة حظي بها في حياته.

ما هي إلا دقائق حتى بدأنا نهبط التلال قبل أوكلاند وفجأة وصلنا إلى مرتفع ورأينا سان فرانسيسكو البيضاء الرائعة المستوية على هضابها الإحدى عشرة العجائبية على حافة المحيط الهادئ الأزرق، وضبابها الذي بلون البطاطا، والدخان والضوء الذهبي فترة بعد الظهر. «هنالك تنفث!»[1]، هتف دين، «يا للروعة، لقد نجحنا! فقط ما يكفي من الوقود! أعطوني ماء، لا مزيد من اليابسة! الآن ماري لو حبيبتي أنت وسال اذهبا مباشرة إلى الفندق وانتظرا اتصالي في الصباح ما إن أتفق مع كاميل على تدابير محددة وأتصل بفرنشمان حول عمل سكة الحديد، وأنت وسال اشتريا صحيفة وابحثا عن إعلانات الوظائف». واتجه إلى جسر خليج أوكلاند. كانت أضواء المكاتب في وسط البلد تتوهج؛ وذكرني ذلك بسام سبايد[2]. حين خرجنا مترنحين من السيارة في أوفاريل ستريت تنفسنا الصعداء وتبعجنا، كان الأمر أشبه بالوصول إلى الشاطئ بعد رحلة طويلة بالبحر؛ شعرت أن الطريق تميد تحت أقدامنا؛ وكانت رائحة «شوبسوي» تملأ الهواء آتية من تشايناتاون فريسكو. أخذنا أغراضنا من السيارة وكومناها على الرصيف.

---

(١) «هنالك تنفث» There She Blows: في الفصل الحادي والخمسين من رواية هرمن ملفل «موبي ديك» ترد هذه العبارة: «ولكن حين انبعث صوته الوحشي بعد هذا الصمت كله وسمعه البحارة يعلن عن وجود نفاثة مضيئة يضوّئها القمر، هبّ كل بحار مضطجع واقفاً على قدميه كأنما حلّت روح مجنحة في حبال السفينة وأهابت بالملاحين للقاء أجلهم «هنالك ينفث!».

(٢) سام سبايد Sam Spade: اسم بطل رواية داشييل هاميت البوليسية «وادي المالتيز».

فجأة قال دين وداعاً. كان مستعجلاً لرؤية كاميل ومعرفة ما حدث. أنا وماري لو وقفنا بخرق في الشارع وتفرجنا عليه وهو يقود مبتعداً. «أترى مدى سفالته؟»، قالت ماري لو «دين مستعد لتركك في العراء في أي وقت إذا كان ذلك في مصلحته».

«أعرف»، قلت ونظرت ورائي إلى الشرق وتنهدت. لم يكن معنا مال. لم يقل دين شيئاً بخصوص المال. «أين سنمكث؟». تجولنا، حاملين رزم ثيابنا في الشوارع الرومنسية الضيقة. الجميع بدا ككومبارس سينمائي مكسور، أو نجمة ذاوية؛ رجال حيل سينمائية باهتون، متسابقو سيارات صغيرة، شخصيات كاليفورنية مؤثرة بحزنها الذي ترى فيه نهاية القارة، رجال وسيمون، فاسقون، كازانوفيون، شقراوات من نزيلات الموتيلات منتفخات العيون، محتالون، قوادون، عاهرات، مدلكون، عمال فنادق، زمرة فاشلة، وكيف يمكن أن يتدبّر المرء أموره مع زمرة كهذه؟

- ١٠ -

مع ذلك فقد كانت ماري لو تعرف هؤلاء الناس جيداً، ليس بعيداً عن منطقة تندرلوين المنحطة، فسمح لنا حاجب فندق متجهّم بالحصول على غرفة على الحساب. كانت تلك الخطوة الأولى. ثم كنا جائعين، ولم نأكل حتى منتصف الليل، حين عثرنا على مغنية ملهى ليلي تعرفها ماري لو في غرفة فندقها، سخّنت لنا علبة من اللحم والفاصولياء بأن وضعت المكواة بالمقلوب على علاقة ملابس في سلة القمامة. نظرت من النافذة إلى لمبات النيون المرتعشة، وتساءلت في سري أين هو دين، ولماذا ليس مبالياً بنا؟ فقدت ثقتي به وقتذاك، وعشت أسوأ أسبوع في حياتي. تجولت وماري لو لأميال، باحثين عن مال لشراء الطعام. حتى

أننا عرّجنا على فندق رخيص تعرفه ماري لو في ميشن ستريت، ولم نحصل من البحارة السكارى هناك إلا على بعض الويسكي.

في الفندق عشنا معاً ليومين. لاحظت أنها بعد خروج دين من الصورة، لم تعد مكترثة لأمري فعلاً، فكل ما كانت تريده الوصول إلى دين من خلالي، بما أني صاحبه. تشاجرنا في الغرفة، كما أمضينا ليالي معاً في السرير ورويت لها أحلامي. حكيت لها عن أفعوان العالم الكبير الذي يلتف تحت الأرض مثل الدودة داخل تفاحة، وكيف أنه ذات يوم سيزيح تلاً من مكانه ليصبح معروفاً باسم **أفعوان الهضاب** ثم سينشر جسمه فوق السهل، على امتداد مئة ميل، مفترساً كل شيء في طريقه. قلت لها إن هذا الأفعوان ليس إلا ابليس. «ما الذي يحدث بعدها؟»، سألتني وهي تعانقني بقوة.

«يقوم ساحر يدعى دكتور ساكس بالقضاء عليه بأعشاب سرية يقوم حالياً بتحضيرها في كوخه السري في مكان ما من أميركا. نكتشف بعدها أن هذا الأفعوان ليس إلا القشرة التي تخفي وراءها أسراب الحمام، وحين يموت تخرج منه أسراب ضخمة من الحمام الذي يجلب السلام إلى العالم». كنت أهذي من الجوع والمرارة.

ذات ليلة اختفت ماري لو مع صاحب ملهى ليلي. كنا اتفقنا على أن أوافيها عند مدخل مبنى في الجهة المقابلة من الشارع، عند تقاطع لاركن وغراي، فانتظرت هناك أتضور جوعاً، حتى خرجت فجأة من الفندق الفخم مع صديقتها، وصاحب الملهى، وعجوز سمين يضع شعراً مستعاراً. كانت دخلت إلى هناك أساساً فقط لكي ترى صديقتها. عرفت عندها كم أنها عاهرة. تفادت الإشارة إلي حتى، مع أنها رأتني واقفاً هناك. هرعت إلى الكاديلاك وذهبوا جميعاً. الآن لم يعد لدي أحد أو شيء.

مشيت ململماً أعقاب السجائر عن الأرض. مررت بواجهة مطعم بائس في ماركت ستريت، وإذا بالبائعة هناك تحملق بي بجزع، لا بد من أنها حسبتني سأقتحم المكان وأسطو عليه بقوة السلاح. مشيت بضع خطوات. وشعرت فجأة أنني الآن في إنكلترا قبل نحو قرنين من الزمن، وأن هذه المرأة ليست إلا أمي، وأنني ابنها قاطع الطريق، الذي خرج من السجن، لكي يطارد عمالها النزيهين في الملحمة. وقفت مشلولاً على الرصيف. نظرت إلى نهاية ماركت ستريت، ولم أستطع أن أميزه عن كانال ستريت في نيوأورلينز الذي يؤدي إلى المياه، المياه الكونية الغامضة، تماماً مثلما يؤدي فورتي سكند ستريت في نيويورك إلى المياه، ولا تعرف أبداً أين أنت. تذكرت شبح إد دانكل في تايمز سكواير. كنت أهذي. أردت أن أرجع وأنظر شزراً إلى أمي الديكنزية الغريبة في الملحمة. أخذ جسمي يرتعش، واجتاحتني طائفة كاملة من الذكريات التي تعود بي إلى إنكلترا في ١٧٥٠، وأنني لست موجوداً الآن في سان فرانسيسكو إلا في حياة أخرى وفي جسد آخر. «لا»، بدا أن تلك المرأة تقول لي بنظرتها الجزعة. «لا تعد بالمصائب لأمك النزيهة المكافحة. لم تعد ابني ـ ومثل أبيك، زوجي الأول، قبل أن يرفق بحالي هذا اليوناني اللطيف (كانت المرأة إغريقية لها ذراعان مشعران) لست بنافع، تحب السكر والشغب وسرقة جهد عمالي المتواضعين. أوه بني! ألن تركع وتدعو طلباً للخلاص من خطاياك وأفعالك المشينة؟ أيها الابن الضال! ارحل، لا تطارد روحي؛ لقد فعلتُ حسناً بنسيانك، فلا تعاود نكء الجراح القديمة، كن كما لو أنك لم تعد أبداً وتنظر إلي، لترى كفاحي المذل، وقروشي القليلة التي تتلهف لسرقتها مني، يا ابن لحمي القاتم الشرير الكريه. بني! بني». ذكرني ذلك أيضاً بالرؤية التي تراءت لي حول الجواد بيغ بوب في غراتينا مع أولد بال. ولوهلة بلغت النشوة التي

لطالما رغبت بها، التي هي القفز الكلي عبر الزمن المتسلسل إلى الظلال اللازمنية، والتجوال في عراء العالم الفاني والإحساس بالموت يركلني لكي أمضي قدماً، كشبح يجرّ نفسه بنفسه، وأنا أحث السير حتى أصل إلى لوح خشبي تقفز منه الملائكة إلى الفراغ المقدس، بينما الإشعاعات القوية وغير المدركة تلتمع في **جوهر العقل** الصافي، والأراضي الفسيحة المفروشة باللوتس تنفتح في قلب الفردوس. سمعت صوتاً هادراً، ليس في أذني بل في كل مكان، ولم تكن له صلة بالأصوات. أدركت أنني مت وولدت عدداً لا يحصى من المرات لكنني فقدت الذاكرة لأن الانتقال من الحياة إلى الموت ثم إلى الحياة ثانية سهل جداً، فعل سحري من أفعال العدم، مثل النوم والاستيقاظ مجدداً لملايين المرات، تلك الاعتيادية المطلقة والغفلة. أدركت أنه فقط بسبب ثبات **العقل الجوهري** تحدث تموجات الحياة والموت، مثل جريان الريح على صفحة ماء ساكنة وصافية كالمرآة. شعرت بنعمة عذبة تخترقني مثل جرعة كبيرة من الهيروين في الوريد، مثل جرعة من النبيذ عند العصر تجعلك ترتعش. شعرت بوخز قوي في رجلي. حسبتني سأموت في لحظتها. لكنني لم أمت، ومشيت أربعة أميال والتقطت عشرة أعقاب سجائر طويلة وعدت بها إلى غرفة الفندق وحشوت غليوني القديم بها. كنت أصغر من أن أعرف ما الذي حدث لي. من النافذة اخترقت أنفي رائحة كل أطعمة المدينة. هناك في الخارج مطاعم تقدم الطعام البحري حيث الخبز طازج، وحتى السلال التي يوضع فيها تصلح للأكل، حيث قوائم الطعام نفسها ناعمة كما لو أنها غمست في المرق الساخن وحُمصت بحيث أصبحت تليق بالأكل. أرني فقط لمعان سمك القنبر على لائحة الطعام وسآكلها، دعني أشتم دهن الكركند. في الخارج أيضاً أمكنة متخصصة بتقديم لحم العجل السميك الأحمر مع البرتقال، أو

الدجاج المحمّر المنقوع بالنبيذ. هناك أمكنة تطشّ فيها الهامبرغر في المقالي، وتباع القهوة بسعر نكل فقط. وأوه، هواء القلي الممزوج بالنكهات كان يهب إلى غرفتي من تشاينتاون، لا تزاحمه إلا صلصات السباغيتي في نورث بيتش، وسلاطعين فيشرمن في وارف، وضلوع فيلمور وهي تتقلب على النار! فلترم في ماركت ستريت حبوب التشيلي، والبطاطا المقلية لليل الإمباركارديرو، والبطلينوس المسلوق من سوساليتو عند الطرف الثاني من الخليج، وهذا، آه، هذا هو حلمي في سان فرانسيسكو. وأضف الضباب، الضباب الخام صانع الجوع، وأضواء النيون في الليل الرقيق، وطرطقة كعوب الفتيات الجميلات، والحمامات البيضاء في واجهة بقالة صيني...

- ١١ -

وجدني دين على هذه الحال حين قرر أخيراً أنني أستحق الإنقاذ. أخذني إلى بيت كاميل «أين ماري لو يا رجل؟».

«العاهرة تخلت عني». كانت كاميل إنقاذاً لي بعد ماري لو. شابة حسنة التربية ومهذبة، وكانت تعرف أن الثمانية عشرة دولاراً التي أرسلها لها دين كانت مني. لكن أين ذهبت أيتها الحلوة ماري لو؟ استرحت بضع أيام في منزل كاميل. من نافذة غرفة معيشتها في ذلك البناء الخشب في ليبرتي ستريت تمكن رؤية كل سان فرانسيسكو تتوهج بالأحمر والأخضر في الليل الماطر. وخلال إقامتي معه مارس دين أسخف عمل في حياته المهنية كمندوب مبيعات لنوع جديد من قدور الضغط. أعطاه الباعة أكواماً من العينات والكراسات. في اليوم الأول كان إعصاراً من الطاقة. ورافقته بالسيارة وهو يجري المقابلات مع الزبائن، وكانت الطريقة المثلى أن يذهب إلى حفل عشاء ثم يقوم هناك بعرض قدر

الضغط. «يا رجل»، صرخ دين بحماسة، «هذا أروع حتى من الوقت الذي عملت فيه مع سينا، بائع الموسوعات في أوكلاند. لم يكن أحد يستطيع أن يرفض الشراء منه. كان يقوم بخطب طويلة، ويقفز، ويضحك، ويصرخ. وذات مرة دخلنا إلى منزل يستعد أصحابه لمراسم جنازة، فركع سينا وأخذ يصلي لخلاص الميت، وبدأ الجميع بالبكاء، ثم باع مجموعة كاملة من الموسوعات. كان الأكثر جنوناً في العالم. أين تراه يكون اليوم. كنا نقف إلى جوار البنات الصغيرات ونتحسس أجسادهن في المطابخ. بعد ظهر اليوم التقيت أروع ربة بيت في مطبخها الصغير ـ وأحطتها بذراعي، وأنا أعرض لها القدر. آه! هممم! واو!».

«استمر على هذه الشاكلة»، قلت له، «وربما تصبح عمدة سان فرانسيسكو يوماً ما». كان يتمرن على عرض القدور أمامي وأمام كاميل كل مساء.

ذات صباح وقف عارياً أمام النافذة، ناظراً إلى سان فرانسيسكو فجراً. . بدا كما لو أنه ذات يوم سيكون العمدة الوثني لسان فرانسيسكو. لكن طاقته نفدت. ذات عصر جاء الباعة ليطمئنوا إلى سير الأعمال، فوجدوه ممدداً على الكنبة «هل حاولت أن تبيع هذه؟».

«لا»، قال دين، «سأنتقل قريباً إلى عمل آخر».

«حسناً، ما الذي ستفعله بكل هذه العينات؟»

«لا أعرف». بصمت تام جمع الباعة قدورهم البائسة وغادروا. بدأت أسأم من كل شيء، وكذلك دين.

لكن ذات ليلة جننا معاً فجأة من جديد، ذهبنا لكي نستمع إلى سليم غايلارد[1] في ملهى ليلي صغير في فريسكو. سليم غايلارد هو «نيغرو»

---

(١) سليم غايلارد Slim Gaillard (١٩١٦ ـ ١٩٩١): عازف بيانو وغيتار وكاتب أغنيات ومغن أفرو كوبي.

هزيل طويل، تنم عيناه الواسعتان عن حزن عميق، لكنه يردد دائماً أشياء من قبيل: «مظبوطوني»، و«ما رأيك ببعض البوربوروني؟»، وكان في فريسكو عدد كبير من أنصاف المثقفين المتحمسين له يجلسون عند قدميه ليستمعوا إلى عزفه على البيانو والغيتار والبونغو والطبول. حين يحمى، ينزع قميصه وفانيلته وينطلق حقاً. يقول ويفعل كل ما يخطر على باله. يغني «يا خالط الإسمنت، بوتي بوتي»، وفجأة يبطئ الإيقاع وينتقل إلى طبول البونغو وأطراف أصابعه بالكاد تطرق عليها بينما الجميع يرنو إليه منقطع الأنفاس، تحسبه سيفعل ذلك لدقيقة أو اثنتين، لكنه يستمر، لساعة كاملة، مصدراً صوتاً بالكاد يُسمع بأطراف أصابعه، ويتضاءل الصوت أكثر فأكثر حتى لا يعود مسموعاً بينما ضوضاء السيارات تتسرّب من الباب المفتوح. ثم ينهض متثاقلاً ويحمل الميكروفون ويقول ببطء شديد «عظيموني... رائعوني، هالوروني.... بوربونوروني.... الجميع أوروروني... كيف يدبر الفتيان في الصف الأول أنفسهم مع الفتياتوني... أوروني.. فوتي... أورونيروني....». يظل يحكي هكذا لربع ساعة، وصوته ينعم تدريجياً حتى يكاد يختفي، بينما عيناه الحزينتان الواسعتان تتأملان الحضور.

وقف دين في الخلف، قائلاً «يا إلهي، أجل!»، شابكاً يديه بالصلاة والعرق يتصبب منه. «سال، سليم هذا يعرف **الوقت**، إنه يعرف **الوقت**». جلس سليم إلى البيانو ونقر نوتتين سي، ثم اثنتين أخريين، ثم واحدة، ثم اثنتين، ثم فجأة صحا عازف الباص الضخم من حلم يقظته وانتبه إلى أن سليم يعزف «سي جام بلوز»، فنقر على الوتر لينطلق الإيقاع الكبير، وليبدأ الجميع بالرقص بينما سليم حزين كعادته، وعزفا لنصف ساعة، ثم جن سليم وحمل البونغو وعزف إيقاعات كوبية سريعة صارخاً أشياء جنونية بالإسبانية، والعربية، والبيروفية، والمصرية، وبكل

لغة يعرفها، وهو يعرف عدداً هائلاً من اللغات. أخيراً انتهى الأداء؛ كل أداء يستغرق ساعتين. مضى غاليار واتكأ على عمود، ناظراً بحزن فوق رؤوس الجميع بينما يقترب بعضهم للتحدث إليه. أحدهم يضع كأس بوربون في يده «بوربونوروني ـ شكراً أوفوني. . .». لا أحد يعرف في أي عالم يتيه سليم غايلارد وبماذا يفكر. حلم دين مرة أنه كان ينجب طفلاً وبطنه تنتفخ وتزرق بينما هو ممدد على عشب ساحة مستشفى في كاليفورنيا. تحت شجرة، مع مجموعة من السود، يرى سليم غايلارد جالساً، وينظر إليه بعيني أم متضرعتين. يقول سليم «ها أنت تمضيووني». اقترب منه دين، اقترب من إلهه، فهو كان يعتقد أن سليم هو الله. ركع أمامه ورجاه الانضمام إلينا. «حسنانوني»، قال سليم، فهو يوافق على الانضمام إلى أي كان لكنه لا يوافق على أن يكون معه بروحه. دين أمّن طاولة، وطلب الشراب، وجلس مأخوذاً أمام سليم، الذي راح ينظر من فوق رأسه، حالماً. كل مرة يقول سليم «أوروووني»، يرد دين «أجل!». جلست هناك مع هذين المجنونين. لا شيء يحدث بالنسبة إلى سليم غايلارد، العالم كله كناية عن «أوروووني» كبيرة.

تلك الليلة رأيت لامبشايد عند تقاطع فيلمور وغيري، وهو شاب نيغرو ضخم يتنقّل بين حانات فريسكو لابساً معطفاً وواضعاً قبعة ووشاحاً، ثم يقفز إلى المنصة ويبدأ بالعزف، وعروقه تبرز من جبينه، وهو يأخذ نفساً وينفخ البلوز بكل عضلة في روحه، زاعقاً بوجه الجمهور «لا تموتوا لكي تذهبوا إلى الجنة. . ابدأوا بشراب دكتور بابر واختموا بالويسكي!». صوته يغمر كل شيء. يلوي قسمات وجهه ضاحكاً، ويتلوى، ويفعل كل شيء. جاء إلى طاولتنا وانحنى فوقنا وقال «مرحى!». ثم خرج مترنحاً إلى حانة أخرى. ثم هناك كوني جوردان، مجنون يغني مصفقاً وينتهي به الأمر مطرطشاً العرق على الجميع ومائلاً

على المذياع وصارخاً كالنساء، وتراه في ساعة متأخرة من الليل، مرهقاً، يستمع إلى مقطوعات الجاز الجامحة في «جايمسون نوك» بعينيه الواسعتين المدورتين وكتفيه الصغيرين، ناظراً نظرة ضبابية إلى الفضاء، والكأس أمامه. لم أر في حياتي موسيقيين مجانين كهؤلاء. الكل في فريسكو يعزف. كانوا في نهاية القارة، وما كانوا يبالون بشيء. قمت دين بجولات عدة كهذه في سان فرانسيسكو حتى وصلتني الحوالة المالية التالية وبدأت أستعد للعودة إلى البيت.

ما الذي أنجزته بمجيئي إلى سان فرانسيسكو؟ لا أعرف. كاميل كانت راغبة بمغادرتي، ولم يكترث دين بحضوري أو عدمه. اشتريت الخبز واللحم وحضّرت عشرة سندويتشات لكي أعبر البلاد بها ثانية؛ ستكون كلها قد فسدت حين أصل إلى داكوتا. في الليلة الأخيرة جن جنون دين وعثر على ماري لو في مكان ما في وسط البلد واتجهنا بالسيارة إلى رتشموند عند الجانب الآخر من الخليج، قاصدين الملاهي الليلية السوداء بجوار حقول النفط. ماري لو ذهبت لتجلس وقام نيغرو بسحب الكرسي من تحتها، وتحرشت بها الفتيات في التواليت. وأنا أيضاً تحرش بي شبان، ودين تصبب عرقاً في الأرجاء. كانت تلك النهاية، أردت الرحيل.

فجراً ركبت الحافلة المتجهة إلى نيويورك وودعت دين وماري لو. طلبا مني أن أعطيهما بعض سندويتشاتي. فرفضت. كانت لحظات كئيبة، وحسبنا أننا لن نلتقي مجدداً ولم نكترث للأمر.

الجزء الثالث

- ١ -

تمكنت في ربيع ١٩٤٩ من ادخار بعض المال وسافرت إلى دنفر، معتزماً العيش هناك. رأيت نفسي مستوحداً كبطريرك. لم أجد أحداً هناك: بايب وراي راولينز وتيم غراي وبتي غراي وورولاند مايجور ودين موريارتي وكارلو ماركس وإد دانكل وروي جونسون وتومي سنارك، لا أحد منهم. تسكعت بين شارعي كورتيس ولاريمير، وعملت لمدة في سوق الخضار حيث كدت أحصل على عمل في ١٩٤٧ - كان أصعب عمل مارسته في حياتي. كان عليّ وشبان يابانيون أن نجر قاطرة على السكة لمائة قدم وأن نحركها ربع إنش مع كل دفعة. كما قمت بشقل أقفاص البطيخ من الثلاجات إلى الشمس الحارقة، ساعلاً طوال الوقت. باسم الرب، لماذا أتكبد كل هذا العناء؟

عند الغسق تركت العمل. شعرت أنني ذرة غبار على سطح الأرض الحمراء الحزينة. مررت بجوار فندق وندسور، حيث عاش دين موريارتي مع أبيه في الثلاثينات خلال «الكساد الكبير»، وكما في الأيام الخوالي نظرت باحثاً عن السنكري المسكين. إما أن تجد أحداً يشبه أبيك في أمكنة مثل مونتانا أو تبحث عن أب صديق حيث لم يعد موجوداً.

جلت في عتمة المساء، شاعراً بالألم في كل عضلات جسمي، وسط أضواء تونتي سفنث وولتون في الناحية السوداء من دنفر، متمنياً لو كنت نيغرو، شاعراً أن أفضل ما قدّمه العالم الأبيض ليس فيه ما يكفي

من النشوة، ومن الحياة، ومن الفرح، ومن الإثارة، ومن العتمة، ومن الموسيقى، وليس ما يكفي من الليل. توقفت عند كشك صغير واشتريت التشيلي الأحمر الحار في حاويات ورقية. تمنيت لو أنني مكسيكي دنفري، أو حتى ياباني مكدود، أو أي شيء سوى ما أنا عليه حقاً «مجرد رجل أبيض» بلا أوهام. طوال حياتي كانت تطلعاتي تطلعات رجل أبيض، وهذا ما جعلني أهجر امرأة طيبة مثل تيري في وادي سان يواكيم. مررت بالشرفات المعتمة لبيوت المكسيكيين والزنوج وسمعت همساً ينبعث من هناك، ومن وقت لآخر كنت ألمح الركبة السمراء لفتاة شهوانية ما، ووجوه الرجال القاتمة وراء العرائش الزهر، والأطفال الجالسين مثل الحكماء على كراسي قديمة هزازة. مرت بي زمرة من النسوة كبيرات السن شبيهات بالأمهات باستثناء واحدة صبية هرعت نحوي مسرعة، «مرحباً جو!» ـ لتفاجأ بأنني لست جو، ولتركض عائدة، وقد تورد وجهها خجلاً. تمنيت لو أنني جو. كنت أنا فحسب، سال بارادايز، أمشي بحزن في تلك العتمة الأرجوانية، في ذاك الليل العذب إلى حدّ لا يطاق، متمنياً لو أنني أستطيع مبادلة العوالم مع زنوج أميركا السعداء، الصادقين، الحماسيين. وذكرتني الأحياء الرثة بدين وماري لو، اللذين خبرا مثل هذه الشوارع جيداً منذ الطفولة. تمنيت العثور عليهما.

عند تقاطع ٢٣ وولتون كانت مباراة «سوفتبول» تحت الأضواء الساطعة التي تنير أيضاً محطة الوقود. جمهور كبير متحمس يزعق عند كل رمية. كان اللاعبون من كل الأعمار، بيض وسود، مكسيكيون وهنود، وكانوا يلعبون بجدية تعتصر القلب. مجرد أولاد يلعبون على الرمل ببذات الرياضة. طوال حياتي كرياضي لم ألعب على هذا النحو أمام العائلات والصاحبات وأولاد الحي، في الليل، وتحت إنارة الشارع. كل مبارياتي لعبتها في الكلية، حيث الوجوه الجدية،

والمباريات المهمة، من دون مسرات طفولية إنسانية كهذه. الآن فات الأوان. جلست بجوار نيغرو عجوز من الواضح أنه يتفرج على المباريات كل ليلة، وإلى جانبه متشرد أبيض عجوز، ثم عائلة مكسيكية، ثم بعض الفتيات، وبعض الفتيان، كله إنساني. أوه، يا للأضواء الحزينة تلك الليلة! حارس المرمى بدا شبيهاً بدين، وشعرت أن فتاة شقراء جميلة كانت بين الجمهور تشبه ماري لو. كنت في ليل دنفر، وكل ما كان يسعني فعله أن أموت.

هناك في دنفر، هناك في دنفر
كل ما فعلته كان أن أموت.

في الجهة المقابلة من الشارع كانت تجلس عائلات من النيغرو على أدراج البيوت، ويثرثر أفرادها متأملين عبر الأشجار السماء المليئة بالنجوم ومتفرجين على المباراة أو مسترخين فحسب في الهواء الناعم. سيارات عدة عبرت الشارع في الأثناء، لتقف عند الإشارة الحمراء في الزاوية. كانت حماسة والجو مليء بذبذبات الحياة الفرحة حقاً التي لا تعرف شيئاً عن خيبة الأمل و«الندم الأبيض»، وما إلى ذلك. فتح النيغرو العجوز علبة جعة كان يضعها في جيب معطفه، ورمقه والعجوز الأبيض بعينين حاسدتين وبحث في جيبه ليرى إذا ما كان بحوزته المال ليشتري الجعة هو الآخر. كم شعرت بالموت! مشيت مبتعداً من هناك.

زرت فتاة ثرية أعرفها هناك. في صباح اليوم التالي أخرجت من جوربها الحرير مئة دولار وقالت: «قلت لي إنك تريد القيام برحلة إلى فريسكو. . خذ هذا واذهب واستمتع بوقتك». كل مشاكلي حلت إذاً، وتمكنت أيضاً من الحصول عبر «مكتب السفريات» على سيارة لقاء ١١ دولاراً ثمناً للوقود إلى فريسكو.

كان شابان قوادان يتبادلان قيادة السيارة، بينما ركب شابان آخران إلى جانبي في الخلف. اجتزنا معبر بارثود، نزولاً إلى السهل الكبير، ثم تابيرناش، ترابلسم، كرملينغ، ثم نزولاً عبر معبر رابيت إيرز إلى ستيمبوت سبرينغز، وخروجاً منها؛ خمسون ميلاً من المنعطفات الترابية؛ ثم كرايغ، والصحراء الأميركية الكبرى. وبينما نعبر حدود كولورادو، يوتاه، رأيت الله في السماء على هيئة نجوم ذهبية عملاقة فوق الصحراء وبدت ترسم إصبعاً وتشير نحوي قائلة «امض من هنا، أنت على طريق الفردوس». لكن للأسف، كان جل همي منصباً على العربات الرثة وطاولات البلياردو في صحراء نيڤادا إلى جوار كشك كوكا كولا، وحيث أكواخ بليت لافتاتها لا تزال ترفرف في الريح الصحراوية وقد كتب عليها «راتلسنايك بيل عاش هنا»، أو «آني محطمة الفك عاشت هنا لسنوات». في سالت لايك سيتي مرّ القوادان على الفتيات العاملات معهن ثم انطلقنا. وقبل أن أحس بمرور الزمن رأيت مجدداً سان فرانسيسكو الخرافية ممتدة على الخليج في منتصف الليل. هرعت فوراً إلى دين. أصبح لديه منزل صغير الآن. كنت أتحرق شوقاً لمعرفة ما يفكر به وما الذي سيحدث الآن، لأنه لم يكن ثمة ما يشغلني، كل جسوري انقطعت ولم أكن مكترثاً لشيء على الإطلاق. قرعت بابه عند الثانية فجراً.

ـ ٢ ـ

فتح الباب عارياً تماماً ولم يكن يهمه لو كنت رئيس الجمهورية شخصياً، فهو يستقبل العالم مثلما هو. «سال!»، قال بفرح حقيقي، «لم أظن أنك ستفلح حقاً في الوصول. أخيراً جئت إلي».

«أجل»، قلت، «كل شيء فيّ قد انهار. كيف حالك أنت؟».

«لست في أفضل أحوالي، لست في أفضل أحوالي. لكن هناك

ملايين الأشياء لنتحدث بشأنها. سال، لقد آن الأوان أخيراً لكي نـ تـ كلّم». اتفقنا على أنه آن الأوان ودخلنا. كان دخولي إلى البيت أشبه بدخول ملاك شرير إلى منزل بياض الثلج، فبينما كنت ودين نتحدث بحماسة في المطبخ في الطابق السفلي، تناهت إلى سمعي التنهدات في الطابق العلوي. كان دين يجيب عن كل ما أقوله بـ«أيوا!» بصوت مرتجف وهامس ومتحمس. أدركت كاميل ما الذي يجري. يبدو أن دين كان ملتزماً الهدوء منذ بضعة أشهر، أما الآن فقد وصل الملاك الشرير ودين سيجنّ من جديد، «ما مشكلتها؟»، سألته همساً.

«حالتها تسوء أكثر فأكثر، يا رجل، غالباً ما تبكي وتعيش نوبات غضب، ولا تسمح لي بالخروج لرؤية سليم غايلارد، ويجن جنونها كلما تأخرت بالعودة إلى البيت، وحين أبقى في البيت ترفض أن تكلمني وتقول لي إنني وحش مطلق». صعد لكي يهدئها. سمعتها تصرخ به «أنت كاذب، كاذب، كاذب!». تفرجت في الأثناء على بيتهما الرائع. كان كناية عن كوخ خشبي قديم من طابقين يقع وسط حي سكني، أعلى روشن هل، ويطل على الخليج؛ كان يتكون من أربع غرف، ثلاث فوق وواحدة تستعمل كمطبخ ومستودع في الأسفل. باب المطبخ ينفتح على فناء معشب علقت فيه حبال الغسيل. وراء المطبخ كان المخزن حيث يقبع حذاء دين القديم الموحل من تلك الليلة التي غرزت فيها الهادسون في الوحل عند نهر برازوس، بالطبع لم تعد الهادسون موجودة، إذ لم يتمكن دين من إكمال أقساطها. أخبرني أنه سيرزق عما قريب بولد ثان، بالخطأ أيضاً. كان رهيباً سماع كاميل تنشج على ذاك النحو، ولم نطق الأمر فخرجنا لشراء الجعة وعدنا إلى المطبخ. أخيراً نامت كاميل أو أمضت الليل محملقة في العتمة. لم يكن لدي فكرة كيف ساءت الأمور بينهما، ربما أفقدها دين صوابها في نهاية الأمر.

أخبرني أنه بعد مغادرتي الأخيرة لفريسكو جن جنونه بحثاً عن ماري لو مجدداً وأمضى أشهراً يتلصص على شقتها في ديفيساديرو، حيث كانت كل ليلة تضاجع بحاراً مختلفاً، وكان يتلصص عليها صباحاً عبر فتحة البريد في الباب الأمامي فيراها مضطجعة في السرير مع هذا الشاب أو ذاك. راح يقتفي أثرها عبر البلدة، بحثاً عن دليل نهائي على كونها عاهرة. كان يحبها، وكله توق للحصول عليها مجدداً. أخيراً حصل عن طريق الصدفة على بعض الحشيشة السيئة، ماريغوانا خضراء غير معالجة، ودخن الكثير منها.

«في اليوم الأول»، قال، «تمددت متخشباً على السرير ولم أتمكن من الحراك أو النطق بكلمة، شخصت فحسب إلى السقف بعينين مفتوحتين، وسمعت طنيناً في رأسي ورأيت كل شيء بالألوان الطبيعية وانتابني إحساس رائع. في اليوم التالي اجتاحني كل شيء، كل ما فعلته أو عرفته أو قرأته أو سمعت عنه أو حدست به عاد إلي وأعاد تنظيم نفسه في عقلي بطريقة منطقية جديدة كلياً ولأنني لم أكن قادراً في خضم جمودي وانجراري وراء ذهول وروعة ما كنت فيه لم أكن قادراً على التفكير بشيء، وكل ما أمكنني قوله كان «أيوا، أيوا، أيوا، أيوا!» بصوت خافت جداً. مجرد «أيوا»، هادئة حقاً، ورافقتني هذه الرؤى الخضراء حتى اليوم الثالث. كنت فهمت كل شيء عندها، وقررت ما الذي سأفعله بحياتي، عرفت أنني أحب ماري لو، عرفت أنني ينبغي أن أعثر على أبي أينما كان وأن أنقذه؛ وعرفت أنك صديقي.. وعرفت كم أن كارلو رائع. عرفت آلاف الأشياء عن الجميع في كل مكان. ثم في اليوم الثالث بدأت أعاني كوابيس صحو رهيبة، وكانت رهيبة وخضراء ومليئة بالشحم بحيث أنني ارتميت هناك فحسب بيدين مرتخيتين، مردداً «أوه، أوه، أوه، آه، أوه...»، فسمعني الجيران وأرسلوا بطلب الطبيب.

كانت كاميل مع الطفلة في زيارة لذويها، واعتنى بي الجيران حين دخلوا ووجدوني ممدداً على السرير، ماداً ذراعيّ نحو الأبدية. سال، هرعت إلى ماري لو ومعي بعض هذه الحشيشة. وأتعرف أن الأمر نفسه حدث مع تلك الخرقاء الصغيرة؟ الرؤى نفسها، المنطق نفسه، القرار الأخير نفسه حول كل شيء، ورؤية كل الحقائق في كتلة واحدة مؤلمة تفضي إلى الألم والكوابيس، ثم عرفت أنني متيم بها إلى حدّ أنني أردت قتلها. فهرعت إلى البيت وضربت رأسي بالجدار، ثم ذهبت إلى إد دانكل؛ كان عاد إلى فريسكو مع غالاتيا، وسألته عن شاب نعرفه يملك سلاحاً، ثم قصدت الشاب، وأحضرت السلاح، وهرعت مجدداً إلى ماري لو، نظرت من فتحة البريد، فوجدتها نائمة مع أحدهم، ترددت واضطررت إلى التراجع، وعدت بعد ساعة، تسللت إلى الشقة، كانت وحدها، فناولتها السلاح وطلبت منها أن تقتلني. صوبت السلاح نحوي وقتاً طويلاً. ورجوتها عهداً بالحب. فرفضت. فقلت لها إنه على أحدنا أن يموت. فرفضت. ورحت أضرب رأسي بالجدار. لقد جننت يا رجل. ستخبرك هي بذلك، هي التي جعلتني أعدل عن الفكرة».

«ماذا حدث بعدها؟».

«كان هذا قبل أشهر، وبعدها رحلت. تزوجت أخيراً من بائع سيارات مستعملة، وتوعّد السافل اللعين بقتلي إذا ما رآني، وإذا ما اضطررت فسأدافع عن نفسي وأقتله وسأسجن في سان كونتن، لأنه يا سال، جنحة واحدة، أياً يكن حجمها، وسأمضي بقية حياتي في السجن، ستكون نهايتي. ويدي معطوبة وما إلى ذلك». وأراني يده، لم أكن لاحظت في غمرة الحماسة أنه أصيب بحادثة رهيبة في يده «ضربت ماري لو على جبهتها في السادس والعشرين من فبراير عند السادسة مساء، بل عند السادسة وعشر دقائق، لأنني أذكر أنه كان عليّ أن أصل

إلى القطار بعد ساعة وعشرين دقيقة، كانت المرة الأخيرة التي التقينا فيها، والتي حسمنا فيها كل شيء، والآن اسمع هذا: إبهامي زحط فحسب على حاجبها ولم تخدش هي بل راحت تضحك أما إبهامي فانكسر عند المعصم وقام طبيب رهيب بجبر العظام خلال ثلاث جلسات منفصلة، بعد ثلاث وعشرين ساعة من الانتظار على المقاعد القاسية.. الخ، وفي الجلسة الأخيرة أدخل وتداً في إصبعي، وفي أبريل حين نزعوا الوتد التهبت عظامي بسببه، وصار الالتهاب مزمناً، وبعد عملية فاشلة وجبره لمدة شهر، كانت النتيجة بتر جزء صغير من طرف الإبهام».

فكّ الضمادة وأراني. نحو إنش من اللحم تحت الظفر كان مبتوراً.

«ومن سيئ إلى أسوأ. عليّ أن أعيل كاميل وآمي، وعلي أن أحافظ على نشاطي في فايرستون للإطارات، معالجاً العجلات المجددة، ثم حاملاً عجلات تزن الواحدة منها خمسين باونداً من الأرض إلى أعلى السيارات، كل هذا بيدي السليمة، بعد أن أرهقت يدي الأخرى حتى كسرتها ثانية، وجبرتها مجدداً، وها هي تلتهب. لذا الآن علي الاعتناء بالطفلة بينما تعمل كاميل. أترى؟ أنا دين موريارتي المولع بالجاز تؤلمني مؤخرتي، لأن زوجتي تحقنني يومياً بالبنسلين بسبب إبهامي، مما ينتج الطفح الجلدي، بسبب حساسيتي من البنسلين. يجب أن أتناول ٦٠ ألف وحدة من عقار فلمينغ شهرياً. يجب أن آخذ حبة دواء كل أربع ساعات خلال هذا الشهر لكي أعالج الحساسية التي يسببها لي هذا العقار. يجب أن أتناول الكوداين لكي أسكّن ألم إبهامي. يجب أن أخضع لجراحة في رجلي بسبب التهاب ما. يجب أن أنهض صباح الاثنين المقبل عند السادسة صباحاً لكي أقوم بعملية غسيل لأسناني. يجب أن أرى طبيب القدم مرتين في الأسبوع. يجب أن آخذ دواء السعال كل ليلة. يجب أن أنخر باستمرار لكي أنظف أنفي، الذي انهار تماماً بعد أن أضعفته عملية

جراحية قبل سنوات. كما فقدت إبهام يدي اليمنى. أنا أعظم عداء في تاريخ إصلاحية نيومكسيكو. ومع ذلك، ومع ذلك، لم أشعر قط بأنني أفضل أو أسعد حالاً حين أرى الأطفال يلعبون في الشمس، وكم تسرني لرؤيتك أيها الصديق الرائع سال، وأنا واثق من أن كل شيء سيكون على ما يرام. ستراها غداً، طفلتي الحبيبة الرائعة، تستطيع الآن الوقوف بمفردها ثلاثين ثانية متواصلة، تزن ٢٢ باونداً، وطولها ٢٩ إنشاً، لقد قمت بحسبة بسيطة واستنتجت أنها إنكليزية بنسبة ٣١ ونصف، و٢٧ ونصف إيرلندية، و٢٥ ألمانية، و٨ وثلاثة أرباع دانماركية، وسبعة ونصف بالمئة اسكتلندية، ومائة بالمائة رائعة». هنأني بفخر على إنهائي الرواية وقبول نشرها. «نحن نعرف الحياة، سال، إننا نكبر، كل واحد منا، شيئاً فشيئاً، وبتنا نعرف الأشياء. ما تخبرني إياه عن حياتك أفهمه جيداً، لطالما فهمت مشاعرك، والآن في الحقيقة لقد بتّ مستعداً للارتباط بفتاة حقيقية رائعة إذا ما تمكنت فقط من العثور عليها وتكريس نفسك لها وجعلها تهتم بروحك مثلما حاولت أقصى جهدي مع هاتين الامرأتين. خراء! خراء! خراء!» صرخ.

وفي الصباح طردتنا كاميل، مع الأمتعة وكل شيء. بدأت المشكلة حين اتصلنا بروي جونسون، لكي يأتي ويحتسي الجعة معنا، بينما دين يهتم بالطفلة ويغسل الأطباق ثم الملابس في الفناء الخلفي، لكنه ارتكب شيئاً أخرق بسبب حماسته. اتفق وجونسون على أن يوصلنا بسيارته إلى ميل سيتي لكي نبحث عن ريمي بونكور. عادت كاميل من عملها كسكرتيرة في إحدى العيادات، ورمقتنا جميعاً بتلك النظرة الحزينة النموذجية لدى النساء المتعبات. حاولت أن أؤكد لها حسن نواياي تجاه حياتها المنزلية، فبادرت بالسلام عليها وحاولت محادثتها بأدفأ نبرة ممكنة، لكنها حسبتني أخادعها، على نحو ما يفعل دين، وابتسمت لي

باقتضاب فحسب. وفي الصباح كان المشهد رهيباً؛ هي مرمية على السرير تنشج بالبكاء، وفي وسط هذا شعرت فجأة بالحاجة للذهاب إلى الحمام، والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي عبر غرفتها، «دين، دين»، صرخت، «أين أقرب حانة؟».

«حانة؟»، قال متفاجئاً؛ كان يغسل يديه في مغسلة المطبخ في الأسفل. حسبني راغباً بالشراب. فشرحت له أزمتي وقال، «اصعد إلى الحمام، إنها تفعل ذلك طوال الوقت»، لا، لا يمكنني فعل ذلك. هرعت أبحث عن حانة، مشيت مسافة أربعة شوارع ولم أعثر على شيء سوى الغسالات الكهربائية، وعمال النظافة، ومحلات المشروبات الغازية، وصالونات الحلاقة. عدت إلى البيت الصغير الكئيب، فوجدتهما يزعقان على بعضيهما بينما دخلت بابتسامة صفراء وأقفلت الباب على نفسي في الحمام. بعد دقائق قليلة راحت تبعثر أشياء دين على أرض الغرفة آمرة إياه بأن يحزمها. لدهشتي رأيت رسماً زيتياً بالحجم الكامل لغالاتيا دانكل على الكنبة. فجأة أدركت أن كل هؤلاء النسوة يمضين أشهراً من الوحدة النسوية معاً، مثرثرات حول جنون الرجال. سمعت ضحكة دين المجنونة عبر المنزل، مختلطة ببكاء طفلته. بعدها رأيته يمضي في البيت مثل غروتشو ماركس، وإبهامه المكسور الملفوف بضمادة بيضاء كبيرة يبرز مثل منارة بين الأمواج الهائجة. مرة جديدة رأيت جسمه الضخم المدمر بالجوربين والثياب الداخلية المتسخة؛ جمع الثياب، ثم وضعها في حقيبته، أعتق حقيبة في أميركا، صنعت من الكرتون وغلفت برسم يجعلها تبدو جلدية، وثمة شرخ عظيم على سطحها. ثم حمل حقيبته ورمى فيها أشياءه. جلبت حقيبتي، ووضعت بها أشيائي، ووسط صراخ كاميل «كاذب! كاذب! كاذب»، خرجنا من البيت ومشينا متعثرين بأشيائنا باتجاه أقرب عربة ترولي، وكانت فوضى كاملة وتلك الضمادة البيضاء الضخمة تبرز في الهواء.

أصبح الإبهام رمزاً لأحدث محطات دين. لم يعد يبالي بأي شيء (كما من قبل) لكنه الآن يهتم فقط بكل شيء من حيث المبدأ؛ أي أن كل شيء سيان عنده وأنه ينتمي إلى العالم ولا يمكنه فعل شيء حيال الأمر. أوقفني فجأة في وسط الشارع.

«الآن يا رجل أعرف أنك على الأرجح مستاء للغاية؛ لقد وصلت تواً إلى المدينة وتم طردنا في أول يوم وأنت تتساءل ما الذي فعلته لأستحق هذا كله وما إلى ذلك ـ وكل توابع ذلك ـ هي ـ هي ـ هيي! ـ لكن أنظر إلي. أرجوك سال، أنظر إلي».

نظرت إليه. كان يرتدي كنزة خفيفة، وبنطالاً ممزقاً، وحذاء رثاً، وكان شعره كثاً ومبعثراً، وعيناه محمرتين، وذلك الإبهام الهائل المضمد يرتفع في الهواء حتى مستوى الصدر (كان مضطراً إلى رفعه بهذه الطريقة إلى أعلى)، وعلى وجهه أحمق ابتسامة رأيتها في حياتي. راح يدور متعثراً وناظراً حوله.

«ما الذي تراه عيناي؟ آه ـ السماء الزرقاء....»، راح يتأرجح ويرمش ويفرك عينيه «والنوافذ ـ هل فكرت يوماً بالنوافذ؟ لنتحدث الآن عن النوافذ. لقد رأيت نوافذ مجنونة حقاً تنظر إلي، وبعضها له ظلال ويرمش». أخرج من حقيبته نسخة من كتاب يوجين سو «أسرار باريس» ومسوياً كنزته، بدأ يقرأ بنبرة متحذلقة: «الآن حقاً سال لنستكشف كل شيء بينما نسير...». نسي هذه الدعوة بثانية وراح ينظر حوله بفراغ. سررت بمجيئي إليه، فقد كان بأمس الحاجة إلي.

«لماذا طردتك كاميل؟ ما الذي ستفعله؟»

«إيه» قال «إيه؟ إيه؟». فكرنا إلى أين سنذهب وماذا سنفعل. أدركت أن الأمر عائد إلي. المسكين، المسكين دين، الشيطان نفسه لم يسقط أعمق من ذلك؛ في بلاهة، مع إبهام ملتهب، محاطاً بالحقائب المحطمة

لحياته المحمومة اليتيمة عبر أميركا وعائداً مرات لا تحصى، طائر مهمل. «لنذهب سيراً على الأقدام إلى نيويورك»، قال، «وبينما نفعل ذلك لنأخذ رزماً من كل شيء على الطريق ـ أجل» أخرجت مالي وعددته وأريته له.

«أملك»، قلت، «ما مجموعه ٨٣ دولاراً وفكة، يمكننا أن نذهب إلى نيويورك ثم إلى إيطاليا».

«إيطاليا؟»، قال. وأشرقت عيناه «إيطاليا، أجل، كيف نصل إلى هناك، عزيزي سال؟».

تفكرت بالأمر «سأجني بعض المال، سأحصل على ألف دولار من الناشر. سنذهب ونستكشف جميلات روما، وباريس، وكل هذه الأمكنة، سنجلس على مقاهي الرصيف، سنعيش في المواخير. لماذا لا نذهب إلى إيطاليا؟».

«مرحى»، قال دين، ثم أدرك أنني جدي ونظر إلي من زاوية عينيه للمرة الأولى، ذلك أنها المرة الأولى التي ألزم نفسي تجاهه بأمر ما، وكانت نظرته نظرة رجل يقوم بحساباته للمرة الأخيرة قبل القيام بالرهان. كان ثمة كبرياء في عينيه، نظرة شيطانية، وظل يحملق بي وقتاً طويلاً، وبادلته النظر وقد توردت خجلاً.

سألته «ما الأمر؟» وشعرت بالبؤس وأنا أطرح عليه هذا السؤال. لم يجب بل ظل شاخصاً نحوي بالطريقة الحذرة نفسها.

حاولت أن أتذكر كل ما فعله في حياته لأرى ما إذا كان فيها ما يجعله متشككاً من شيء ما الآن. كررت بثبات وعزم ما قلته «رافقني إلى نيويورك، لدي المال»، نظرت إليه بعينين طافرتين بالدموع من شدة الحرج. ومع ذلك ظل يحدق بي، وقد باتت نظراته فارغة. كانت على الأرجح النقطة المحورية في علاقتنا حين أدرك أنني أمضيت فعلاً بضع

ساعات مفكراً به وبمشكلاته، محاولاً ترتيب ذلك ضمن تصنيفاته الذهنية المعذبة. شيء ما حدث داخل كل منا. بالنسبة إلي كان فجأة القلق على شاب يصغرني بخمس سنوات، ومصيره خلال السنوات الأخيرة يتقاطع مع مصيري. أما ما حصل في داخله فيمكنني الحدس به من حاله بعد ذلك، حيث صار شديد الابتهاج وقال إننا اتفقنا على كل شيء. «ما كانت تلك النظرة؟»، سألته. عبس متألماً لسؤالي هذا. كان من النادر أن يعبس. شعرنا بالتشوش والاضطراب. كنا نقف على قمة هضبة في يوم رائع مشمس في سان فرانسيسكو، وظلانا يمتدان على الرصيف. وعلى الرصيف المشمس خارج المبنى إلى جوار منزل كاميل كان يصطف أحد عشر رجلاً وامرأة يونانيين بينما رجل آخر يقف قبالتهم في الشارع الضيق حاملاً الكاميرا ومبتسماً لهم. نظرنا إلى هؤلاء البشر التاريخيين الذين كانوا يقيمون حفل زفاف لإحدى بناتهم، هي على الأرجح الابنة الألف في جيل متصل من الابتسام في الشمس. كانوا متأنقين للمناسبة، وكانوا غرباء. كان يمكن أن نكون نحن أيضاً في قبرص. علت النوارس فوقنا في الفضاء المنير.

«حسنا»، قال دين بنبرة بالغة الخجل والرقة، «هل نمضي؟».

«أجل»، قلت، «إلى إيطاليا». وهكذا حملنا حقائبنا، هو حمل الصندوق بذراعه السليمة، وأنا البقية، ومضينا متمايلين إلى موقف الترولي؛ في غضون لحظة كنا نهبط الهضبة وأرجلنا متدلية على الرصيف، بطلان منكسران من ليل الغرب.

- ٣ -

أول ما فعلناه هو الذهاب إلى حانة في ماركت ستريت واتفقنا على البقاء معاً حتى الموت. كان دين هادئاً وبدا عليه انشغال البال، وهو

ينظر إلى المتشردين العجائز في الحانة الذين ذكروه بأبيه، «أظن أنه في دنفر، هذه المرة يجب أن نعثر عليه، ربما يكون في سجن المقاطعة، ربما يكون في لاريمير مجدداً، لكن علينا العثور عليه، اتفقنا؟».

أجل، اتفقنا. كنا سنفعل كل ما لم نفعله في الماضي بسبب غبائنا. ثم وعدنا أنفسنا بإمضاء يومين من الإثارة في سان فرانسيسكو، قبل أن ننطلق في رحلتنا، وقررنا السفر عن طريق «مكتب السفريات» توفيراً للمال. زعم دين أنه لم يعد بحاجة إلى ماري لو مع أنه لا يزال يحبها. اتفقنا أنه سيعوض عنها في نيويورك.

ارتدى بدلته المقلمة وكنزة خفيفة، وضعنا أمتعتنا في خزنة في محطة غرايهاوند مقابل عشر سنتات، وذهبنا للقاء روي جونسون الذي سيكون سائقنا في فريسكو. وافق روي عبر الهاتف على ذلك. وصل إلى تقاطع ماركت والثالث بعد فترة وجيزة وأقلنا. كان روي يعيش في المدينة ويعمل حاجباً، وكان متزوجاً من شقراء جميلة تدعى دوروثي. أسرّ لي دين بان أنفها كان طويلاً جداً، وكان ذلك مأخذه الأكبر عليها لسبب غريب، علماً أنه لم يكن بالمأخذ الصحيح. روي جونسون فتى وسيم طويل أسمر حاد الملامح يمشط شعره دائماً ويرفعه إلى الوراء عند الصدغين. بدت ملامحه بالغة الجدية وهو يبتسم لنا. من الواضح أن دوروثي تجادلت معه حول فكرة أن يكون سائقنا وقررت أن تلعب دور رجل البيت (كانا يعيشان في غرفة صغيرة)، لكنه قرر الالتزام بوعده لنا، متحملاً العواقب. جال بنا في فريسكو ليلاً ونهاراً دون أن ينبس ببنت شفة، متجاوزاً إشارات السير ومنعطفاً بحدة، مما يشي بالمأزق الذي وضعناه فيه. كان عالقاً بين زوجته الجديدة وزعيم زمرته القديمة. كان دين مسروراً وبالطبع غير منزعج من القيادة. لم نعر روي أي اهتمام وجلسنا نثرثر في المقعد الخلفي.

الخطوة التالية كانت محاولة العثور على ريمي بونكور في ميل سيتي. لاحظت أن السفينة القديمة «أدميرال فيبي» لم تعد راسية في مياه الخليج، وبالطبع لم يعد ريمي في كوخه القديم ذاك. فتحت لنا الباب فاتنة نيغرو، تحدثت ودين معها طويلاً، بينما روي جونسون ينتظر في السيارة، قارئاً كتاب يوجين سو. ألقيت نظرة أخيرة على ميل سيتي، مدركاً أنه لا جدوى من نبش الماضي. ذهبنا إلى غالاتيا دانكل لننام عندها. كان إد هجرها مجدداً، وذهب إلى دنفر، وكانت تخطط لإرجاعه من جديد. جلست مقرفصة على السجادة شرقية في شقتها المكونة من أربع غرف في ميشن العليا فاردة أمامها ورق اللعب. فتاة طيبة. كان ثمة إشارات محزنة على أن إد دانكل عاش في هذا البيت لوقت ثم غادر بسبب النفور والحماقة فقط.

«سيرجع»، قالت غالاتيا، «هذا الشاب لا يمكنه الاعتناء بنفسه من دوني». نظرت بسخط إلى دين وروي جونسون، «كان تومي سنارك الذي فعلها هذه المرة. قبل مجيئه كان إدي سعيداً ويعمل وكنا نخرج معاً ونعيش أحلى الأوقات. دين أنت تعرف ذلك. ثم جلسا معاً في الحمام لساعات، إد في حوض الاستحمام وسناركي على مقعد التواليت، وتحدثا وتحدثا وتحدثا في أمور سخيفة».

ضحك دين. طوال سنوات كان نبي هذه الزمرة وها هم الآن بدأوا يتعلمون تقنياته. تومي سنارك أرخى لحيته وأتى إلى فريسكو باحثاً بعينيه الواسعتين الحزينتين الزرقاوين عن إد دانكل؛ ما حدث (فعلاً وليس كحجة كاذبة)، أن إبهام تومي بتر في حادث ما في دنفر فتقاضى تعويضاً كبيراً من المال، ومن دون أي سبب قررا أن يتركا غالاتيا ويذهبا إلى بورتلاند، مين، حيث يبدو أن سنارك له عمة تقيم هناك. لذا هما الآن إما يعبران دنفر، أو وصلا إلى بورتلاند.

«حين ينفد مال توم سيعود إد»، قالت غالاتيا شاخصة إلى أوراق الحظ أمامها. «الأحمق اللعين، لا يفقه شيئاً ولم يفقه شيئاً في حياته، ليس عليه سوى أن يعرف أنني أحبه».

بدت غالاتيا شبيهة بابنة اليونانيين ذوي الكاميرا المشمسة وهي جالسة هناك على السجادة، وشعرها الطويل منسدل إلى الأرض، فوق ورق الحظ. أعجبت بها. حتى أننا قررنا أن نخرج تلك الليلة ونستمع إلى الجاز، ودين سيصحب معه ماري الشقراء الطويلة التي تعيش في الجوار.

ذهبنا بعدها لكي نحضر ماري التي تعيش مع طفلتها في قبو صغير، ولديها سيارة قديمة بالكاد تسير بحيث كان علي ودين أن ندفعها عبر الشارع حتى تقلّع. عدنا إلى منزل غالاتيا. جلسنا، ماري، وطفلتها وغالاتيا وروي جونسون وزوجته دوروثي، جلسنا متجهمين على الأثاث المكتظ، بينما وقفت في الزاوية حيادياً تجاه مشكلات فريسكو، ووقف دين في وسط الغرفة بإبهامه المنفوخ كالبالون ضاحكاً، «اللعنة... إننا جميعاً نفقد أصابعنا».

«دين لماذا تتصرف بهذه الحماقة؟»، قالت غالاتيا، «كاميل اتصلت وقالت إنك هجرتها. ألا تدرك أن لديك طفلة؟».

«لم يتركها، لقد طردته!»، قلتُ، خارجاً عن حيادي. رمقوني جميعاً باشمئزاز، أما دين فابتسم ابتسامة عريضة. «وبمثل هذا الإبهام ما الذي تتوقعون من المسكين فعله؟»، أضفت. حملقوا جميعاً بي، خصوصاً دوروثي جونسون التي نظرت إلي بلؤم. لم تكن إلا محكمة، المتهم فيها دين بأنه المسؤول ربما عن كل الأخطاء. نظرت من النافذة إلى ليل ميشن ستريت الصاخب أردت الخروج وسماع الجاز العظيمة في فريسكو، لم تكن سوى ليلتي الثانية في المدينة.

«أعتقد أن ماري لو كانت حكيمة جداً في هجرك، دين»، قالت غالاتيا، «لقد ارتكبت الكثير من الفظائع، لا أعرف ما أقول لك».

وفي الواقع كانت هذه النقطة الجوهرية، كلهم جلسوا ينظرون إلى دين نظرات كارهة مشمئزة، ووقف هو على السجادة في وسطهم مقهقهاً، مقهقهاً فحسب. رقص قليلاً. كانت ضمادته تتسخ أكثر فأكثر مع الوقت، وبدأت بالانحلال. أدركت فجأة أن دين بخطاياه التي لا تحصى بدأ يتحول إلى أن يكون أحمق المجموعة وقديسها في آن.

«لا تقيم أي اعتبار لأي كان سوى لنفسك ولملذاتك اللعينة. كل ما تفكر به هو هذا الذي يتدلى من بين فخذيك وكم من المال أو المتعة يمكنك أن تحصل عليه من الناس قبل أن تتخلى عنهم بكل خفة، يا لسخفك، لا يخطر لك أبداً أن الحياة جدية وأن هناك أناساً يسعون إلى القيام بشيء محترم فيها بدلاً من التبطّل طوال الوقت».

هذه ماهية دين «المتبطل المقدس».

«كاميل تبكي من كل جوارحها الليلة، لكن لا تحسب للحظة أنها تريدك أن تعود، قالت إنها لا تريد أن تراك مجدداً، وإنه قرار نهائي هذه المرة. ومع ذلك ها أنت واقف هنا ترسم على وجهك تعبيرات سخيفة، ولا أظن أنه هناك أي قدر من الحب في قلبك».

لم يكن هذا صحيحاً. كنت أعرف أكثر منهم وكان يمكنني أن أخبرهم جميعاً، لكنني لم أرَ أي جدوى من فعل ذلك. أردت بشدة أن أحتضن دين وأن أخاطبهم قائلاً، الآن اسمعوني جيداً، جميعكم، تذكروا شيئاً واحداً: هذا الشاب لديه مشكلاته أيضاً، وهو لا يتذمر البتة حيالها، وقد منحكم جميعاً وقتاً رائعاً بأن يكون هو نفسه فحسب، وإن لم يكن يكفيكم ذلك فأرسلوه إذن إلى كتيبة الإعدام، يبدو أن هذا ما تودون فعله على أي حال.

كانت غالاتيا الوحيدة في الزمرة التي لا تشعر برهبة دين ويمكنها الاسترخاء في حضوره، وأن توبخه أيضاً. مضت أيام في دنفر كان دين يجعل الجميع يجلس في العتمة ويتحدثون ويتحدثون ويتحدثون، بصوت كان مرة تنويمياً وغريباً وقيل إنه يجعل الفتيات يتواصلن معه بقوة الإقناع المحض. كان ذلك حين كان في الخامسة أو السادسة عشرة. الآن تزوج حواريوه وها هن زوجاتهم يحاسبنه على الشبق الجنسي والحياة اللذين ساعد على نشوئهما. استمعت أكثر.

«الآن أنت راحل إلى الشرق مع سال»، قالت غالاتيا، «وما الذي تحسب نفسك فاعله بذلك؟ ستضطر كاميل للبقاء في البيت ورعاية الطفلة، كيف يمكنها الاحتفاظ بوظيفتها؟ وهي لا تريد أن تراك مجدداً وأنا لا ألومها. إذا ما رأيت إد على الطريق قل له ألا يرجع وإلا قتلته».

بمثل هذه الفجاجة. كانت أحزن ليلة. شعرت كما لو أنني مع إخوة وأخوات غرباء في كابوس. ثم غرق الجميع بالصمت، ومعهم دين الذي لم يحاول التبرير هذه المرة، فقط وقف بينهم، تحت اللمبة تماماً، بثيابه الرثة، وخرقه وإفلاسه، ووجهه العظمي المجنون الذي يتصبب عرقاً وشرايينه الناتئة، قائلاً «أجل، أجل، أجل»، كما لو أن وحياً هائلاً يتدفق في داخله طوال الوقت الآن، وأنا واثق من أنه كان كذلك، والآخرون ظنوا كذلك أيضاً وارتعبوا. كان مثال **البيت**، الجذر، روح **البيت**. ما الذي كان يعرفه؟ حاول بكل طاقته أن يخبرني ما الذي يعرفه، وقد حسدوني على ذلك، على كوني معه، أدافع عنه وأستوعبه مثلما حاولوا أن يفعلوا في السابق. ثم التفتوا إلي. ما الذي أفعله هنا، أنا الغريب هذه الليلة؟ رجعت إلى الفكرة.

«سنذهب إلى إيطاليا»، قلت. غسلت يدي من المسألة كلها. ثم، أيضاً، كان هناك حس غريب بالرضا الأمومي في الجو، لأن الفتيات كن

ينظرن إلى دين بالطريقة التي تنظر بها أم إلى أعز أطفالها وأكثرهم ضلالاً، وهو بإبهامه البائس وكل تعبيراته يعرف ذلك جيداً، ولذلك كان قادراً، في صمته ذاك، أن يخرج من الشقة دون قول كلمة، لكي ينتظرنا في الأسفل، بينما نعزم أمرنا حول الوقت. هذا ما حدسنا به بشأن الشبح على الرصيف. نظرت من النافذة. كان يقف وحيداً عند المدخل، ناظراً إلى الشارع، واضعاً المرارة، والاتهامات والوعظ والأخلاقيات والحزن وكل شيء وراء ظهره، وأمامه الفرح النشواني بالكينونة الخالصة.

«هيا غالاتيا، ماري، لنذهب إلى حانات الجاز وننسى الأمر. سيموت دين ذات يوم. ثم ما الذي يمكنكن قوله له؟».

«كلما عجل في الموت كان أفضل»، قالت غالاتيا، وتحدثت بجفاء مع جميع الموجودين تقريباً.

«حسن جداً»، قلت، «لكنه الآن حي وأراهن أنكن ترغبن في معرفة خطواته التالية، ذلك لأنه يملك السر الذي نسعى جميعاً إليه وأنه يشق رأسه ويفتحه، وإذا ما جن فلا تقلقن، لأنه لن يكون ذنبكن بل ذنب الله».

اعترضن على ذلك؛ قلن إنني لا أعرف دين حقاً، وإنه أكبر نصاب في التاريخ وسأكتشف ذلك ذات يوم وأندم. كنت مسروراً لسماعهن يحتججن بهذه القوة. نهض روي جونسون ليدافع عن السيدات وقال إنه يعرف دين أفضل من أي كان، وليس إلا محتالاً نصاباً مسلياً لا أكثر. خرجت لأجد دين وتحدثنا قليلاً عن الأمر.

«لا تشغل بالك يا رجل، كل شيء على أفضل حال»، قال فاركاً معدته وماصاً شفتيه.

- ٤ -

نزلت الفتيات وانطلقنا إلى ليلتنا الكبيرة، دافعين السيارة مجدداً إلى طرف الشارع. «أيوا! فلننطلق!»، صرخ دين، وقفزنا إلى المقعد الخلفي مقعقعين إلى ليتل هارلم في فولسوم ستريت.

ترجلنا من السيارة في الليل الدافئ المجنون، وسمعنا صوت مغن جامح في حانة مقابل الشارع، يردد «أيـ وا، أيـ وا أيـ وا»، بينما الأيدي تصفق مع الإيقاعات وشبان يصرخون «هيا، هيا، هيا!». هرول دين إلى المكان صارخاً رافعاً إبهامه في الهواء، «العب يا رجل العب!». كانت زمرة من الزنوج المتأنقين تهتف في المقدمة. كانت حانة بائسة فيها منصة صغيرة احتشد عليها العازفون معتمرين قبعاتهم، وعازفين فوق رؤوس الناس، مكان مجنون، ونساء مجنونات كن يجلن مرتديات البرانس أحياناً، بينما زجاجات الجعة تقرقع في الأزقة. وخلف الحانة في زقاق معتم وراء الحمامات القذرة حشود من الرجال والنساء يستندون إلى الجدار متجرعين النبيذ والويسكي وباصقين على النجوم. ثم وصل المغني حاسر الرأس إلى ذروة ارتجال رائع، مع لازمة تمضي هادئة من «إيه ياه» وتصير أكثر جموحاً «إي دي لي ياه»، ثم متماشياً مع الطبول المجنونة التي يعزف عليها نيغرو ضخم الجثة رقبته عريضة كثور، ولا يكترث لشيء سوى لطبوله التي يفجّر موسيقاه عليها، وكان المغني **يملكها** وكان الجميع يعرف ذلك. اقتحم دين الجموع المجنونة التي تحث المغني على الاستمرار بالوتيرة نفسها، صارخين بأفواههم وعيونهم، والعازف يهبط ويعلو حاملاً آلته، مدوياً بها فوق الصخب. امرأة سوداء طويلة أخذت ترقص بكل جسدها على إيقاعات الرجل وكان هو يعطيها المزيد «إي! إي! إي!».

رقص الجميع. غالاتيا وماري قفزتا ورقصتا على الكراسي حاملتين

زجاجتي الجعة. وتدفقت مجموعات من الزنوج من الشارع، متعثرين ببعضهم في محاولة للوصول. «حافظ على الإيقاع يا صاح»، زعق أحدهم بصوت جهوري لا بد من أنه وصل إلى مسامع الناس في ساكرامنتو. «آهـ ها! واو»، قال دين، فاركاً صدره ومعدته، ووجهه يتصبب عرقاً. بوم، كيك، كان عازف الطبل ذاك يضرب السقف بعصويه الضخمين، حاملاً الإيقاع إلى الأعلى. بوم!. رجل سمين راح يقفز على المنصة جاعلاً إياها تصر. «يو!». كان عازف البيانو ينشر يديه على لوح المفاتيح، في الأوقات التي يكون فيها المغني العظيم يلتقط أنفاسه مهيئاً لانفجار آخر. قفز المغني عن المنصة ووقف بين الحشد، نافخاً في الأنحاء، وحافة قبعته تغطي عينيه، فقام أحدهم برفعها. عاد إلى المنصة ونفخ انفجاراً هائلاً وسحب أنفاسه ورفع الآلة وعزف بقوة وسعة، صارخاً في الجو. كان دين أمامه مباشرة ورأسه منخفض إلى بوق الساكسفون، مصفقاً بيديه، ساكباً عرقه على الرجل، والعازف لاحظ وضحك ضحكة مجنونة مرتعشة طويلة، ورقص الجميع معه، وأخيراً قرر أن يصل إلى الذروة، فربض وراح يعزف نوتة سي طويلة بينما كل شيء يتحطم والصرخات تتعالى حتى حسبت أن الشرطة ستأتي من أقرب مخفر. كان دين غارقاً بالنشوة، والعازف يحملق به، منتشياً بدوره بأنه لديه مستمع رائع كهذا، ليس مهتماً فحسب، بل يريد أن يفهم ويهضم أكثر مما هو موجود أصلاً، وبدأوا يتبارزون على هذا؛ كل شيء خرج من الساكسفون، لا مزيد من العبارات، فقط صرخات وصرخات «باف»، ثم «بيب» ثم صعوداً إلى «إيبيبي!»، ثم نزولاً إلى نغمات ناشزة، ثم صعوداً إلى أصوات جانبية صدوية من الساكس. جرب كل شيء، صعوداً، وهبوطاً، وعلى الجانبين، وبالمقلوب، وأفقياً، وبزاوية ثلاثين درجة، وأربعين درجة، وأخيراً وقع بين ذراعي أحدهم واستسلم وتدافش

الجميع صارخاً «أجل! أجل! لقد نفخ هذه الواحدة»، دين مسح عرقه بمنديله.

ثم وقف المغني على المنصة وطلب إيقاعاً بطيئاً، وشخص بحزن نحو الباب المفتوح وشرع يغني «أغمض عينيك». ساد الهدوء لبرهة. كان يلبس سترة بالية، وقميصاً أرجوانياً، وحذاء قديماً، وبنطالاً مزوقاً مجعلكاً، لم يكن يكترث بهيئته. بدا النسخة السوداء عن هاسل. كل ما يشغل عيناه البنيتان الواسعتان هو الحزن، والغناء ببطء وبوقفات طويلة متفكرة. لكن في الجولة الثانية تحمس وحمل الميكروفون وانحنى عليه وقفز عن المنصة، مغنياً بقوة جعلته يترنح، ثم عاد في الوقت المناسب لغناء النوتة البطيئة التالية «فلتعززززف الموووووسيقى!». مال إلى الخلف ووجهه إلى السقف، والميكروفون متدل من يده. اهتز، ورقص. ثم مال إلى الأمام وكاد يقع تقريباً. «اجعلها حالمة من أجل الرقص»، ونظر إلى الخارج وشفتاه مكورتان بسخرية على طريقة بيلي هوليداي الرائعة، «بينما نمارس الحب»، متمايلاً «الحب عطلة»، هز رأسه باستغراب وقرف من العالم كله «سنجعله يحدث»، ما الذي سيجعله يحدث؟ انتظر الجميع، راح ينشج «أوكي» عازف البيانو نقر نقرة واحدة «لذا حبيبي اقترب مني وأغمض عينيك الجميلتين»، ارتعش فمه، نظر إلينا، أنا ودين، وكأنه يقول لنا: هاي الآن، ما الذي نفعله جميعاً في هذا العالم الحزين القاتم؟ ثم وصل إلى نهاية أغنيته، ولهذا الغرض كان ينبغي أن يكون هناك تحضيرات محكمة، يمكنك خلالها أن ترسل كل الرسائل حول العالم أحد عشر مرة وأي فرق يحدثه ذلك لأي كان؟ لأنه ها نحن نخوض الحياة البائسة الحزينة في هذه الشوارع المريعة من الرجال، لذا قالها وغناها «أغمض. . .» وأطلقها عالياً إلى السقف وعبر

النجوم «عينيك» ثم نزل عن المنصة ليستريح. جلس في الزاوية مع حفنة من الفتيان دون أن يكترث لأمرهم وراح يبكي حانياً رأسه. كان الأعظم.

ذهبت ودين لنتحدث إليه. دعوناه إلى السيارة. في السيارة صرخ فجأة «أجل! ليس هناك أفضل من الإثارة الجيدة! إلى أين نذهب؟». دين راح يقفز في مقعده، ضاحكاً بهستيرية. «لاحقاً! لاحقاً!»، قال المغني. «سأطلب من فتاي أن يوصلنا إلى جايمسون نوك، يجب أن أغني يا رجل. أعيش لأغني. إنني أغني أغمض عينيك منذ أسبوعين ولا أريد أن أغني سواها. ما الذي تنويان فعله أيها الشابان؟»، أخبرناه أننا ذاهبان إلى نيويورك بعد يومين، «يا إلهي، لم أذهب إلى هناك قط ويقولون لي إنها مدينة مثيرة حقاً، لكن ليس لدي سبب للتذمر من مدينتي. أنا متزوج وتعرفان».

«أوه حقاً؟»، قال دين مبتهجاً. «وأين هي حبيبتك الليلة؟».

«ما الذي تقصده؟»، قال المغني، ناظراً إليه من زاوية عينيه، «قلت لك إنها زوجتي ألم أقل لك ذلك؟».

«أوه أجل، أوه بلى»، قال دين، «كنت أسأل فحسب، ربما كانت لديها صديقات أو شقيقات؟ فتاة جميلة كما تعرف، إنني أبحث عن فتاة جميلة فحسب».

«أيوا، ما نفع اللهو، الحياة حزينة جداً حتى نضيعها باللهو طوال الوقت»، قال مرسلاً نظره عبر الشارع، «اللعنة»، قال، «ليس لدي مال ولا أبالي الليلة».

عدنا من أجل المزيد من الموسيقى. الفتاتان انزعجتا منا لأننا خرجنا وذهبتا إلى جايمسون نوك سيراً على الأقدام. رأينا منظراً رهيباً في الحانة؛ لوطي هيبي أبيض يرتدي قميص هاواي دخل وسأل عازف الطبول الضخم إذا كان يمكنه العزف مكانه. نظر إليه الموسيقيون

متشككين «هل تجيد العزف؟»، فأجابهم بدلال إنه يعزف. نظروا إلى بعضهم البعض وقالوا «بلى، بلى هذا ما يفعله الرجل، اللعنة!». فجلس اللوطي وراء الطبل وبدأوا بمقطوعة سوينغ وأخذ هو يقرع بنعومة، ملوحاً برقبته بنشوة قانعة لا تعني شيئاً سوى أنه تعاطى الكثير من الحشيشة والأطعمة الخفيفة والإثارة البلهاء الرائقة. لكنه لم يهتم. ابتسم بفرح في الفضاء وحافظ على الإيقاع، وإن كان يعزف بنعومة ورقة لا تتناسب والعزف القوي للموسيقيين الآخرين الذين بدوا منتبهين لعزفه. جلس النيغرو الضخم ذو رقبة الثور منتظراً دوره «اللعنة!»، قال «خراء!»، وأبعد نظره عنه باشمئزاز.

جاء الفتى المرافق، نيغرو أنيق يركب سيارة كاديلاك كبيرة. قفزنا جميعاً إلى داخلها. انطلق في شوارع فريسكو من دون أن يتوقف مرة، بسرعة سبعين ميلاً بالساعة، متجاوزاً إشارات السير، ولم يلاحظه أحد، كان بارعاً جداً في القيادة. كان دين غارقاً بالنشوة. «أنظر إلى هذا الشاب! أنظر كيف يجلس هناك ولا يحرك عظمة ويمضي بهذه السيارة ويمكنه التحدث طوال الليل بينما يفعل ذلك، سوى أنه غير مهتم بالكلام، آه يا رجل، الأشياء، يا للأشياء. يمكنني، أتمنى، أوه، بلى. لننطلق، فلننطلق بلا توقف ـ انطلق الآن! مرحى!»، وانعطف الفتى وأنزلنا مباشرة أمام جايمسون نوك. توقفت قربنا سيارة أجرة خرج منها نيغرو ضئيل يحمل الساكسفون رمى دولاراً إلى السائق وصرخ «اعزف!»، وركض إلى الملهى واندفع عبر الدرج إلى أسفل صارخاً «اعزف، اعزف، اعزف!». وتعثر وكاد يقع على وجهه، وفتح الباب ووقع مباشرة على لامبشايد الذي كان يعمل نادلاً هناك خلال ذلك الموسم، وكانت الموسيقى تشتعل وتشتعل ووقف مشلولاً عند الباب المفتوح صارخاً «اعزفوا من أجلي، اعزفوا!». وقال دين من الواضح إنه يعيش مع جدته مثل توم سنارك، ينام طوال النهار ويعزف طوال الليل.

«إنه كارلو ماركس!»، علا صراخ دين فوق الصخب.

وكان يشبهه حقاً، وراح يقفز عازفاً على الساكسفون ناظراً إلى الجمهور الضاحك (الموزع على ١٢ طاولة، الغرفة واطئة السقف؛ ٣٠ بـ ٣٠ قدماً)، ولم يتوقف أبداً. كانت جمله الموسيقية بسيطة جداً، لكنه يحب المفاجأة في التنويعات البسيطة، ماضياً من «تا توب تاديرارا.... تاتوب تاديرارا» التي يكررها مرسلاً القبل والابتسامات، إلى «تا توب إيي دا دي ديرا ـ راب»! تابوب إيي دا دي ديرا راب!» ومعها كل لحظات الضحك العظيمة وفهمنا له ولكل من يسمع. كانت نغماته واضحة كجرس، عالية، صافية، وكان يعزف مباشرة في وجوهنا على بعد قدمين. وقف دين أمامه، حاني الرأس، شابك اليدين، غافلاً عن العالم بأسره، وجسمه كله يقفز والعرق، دائماً العرق، يتصبب ويطرطش على ياقته البائسة مشكلاً بركة تحت قدميه. وجدنا هناك غالاتيا وماري. ليالي فريسكو، نهاية القارة وكل شك، كل شك بليد. كان لامبشايد يتنقل في المكان بسرعة حاملاً قناني الجعة، متحركاً مع الإيقاع؛ صارخاً على النادلة «هاي بايبي، أفسحي الطريق، أفسحي الطريق، هذا لامبشايد آت في اتجاهك»، ويمر عاصفاً من قربها مخترقاً الباب الدوار إلى المطبخ حيث يرقص مع الطباخين ويعود متعرقاً من جديد. جلس العازف بلا حراك عند طاولة في الزاوية وأمامه شراب لم يلمسه بعد، محدقاً في الهواء، ويداه متدليتان إلى جانبيه حتى تكادا تلمسان الأرض، ورجلاه ممدودتان مثل لسانين مرتخيين، وجسده ذابل في غرابة مطلقة وحزن جلي وكل ما يدور في تفكيره أنه مجرد رجل ينهك نفسه كل مساء تاركاً الآخرين يبثون فيه روعة الليل، وكل شيء يتراقص حوله كغيمة. وذلك العازف الحفيد، كارلو ماركس الصغير، يرقص كالقرد بآلته السحرية عازفاً مئات أغنيات البلوز، كل واحدة أكثر حماسة من التي قبلها،

ولليس ما يؤشر إلى خمود طاقته أو إلى رغبته بالتوقف. كانت الغرفة كلها ترتعش.

عند زاوية فورث وفولسوم وقفت بعد ساعة مع إد فورنير، عازف من سان فرانسيسكو انتظر معي بينما دين يتصل من الحانة بروي جونسون لكي يأتي ويقلنا. لم يحدث الكثير، تبادلنا الحديث، سوى أننا فجأة رأينا مشهداً غريباً جداً ومجنوناً. أراد دين أن يدل روي جونسون على مكان الحانة، لذا طلب منه أن ينتظر على الهاتف وخرج ليرى، وليفعل ذلك كان عليه أن يشق طريقه مسرعاً بين حشد من السكارى، ويذهب إلى وسط الشارع، وينظر إلى اللافتات. فعل ذلك رابضاً إلى الأرض مثل غروتشو ماركس، ورجلاه تحملانه بخفة هائلة من الحانة، مثل شبح، وإبهامه البالوني ناتئ في الليل، ثم وقف بسرعة في منتصف الشارع ناظراً في كل مكان فوقه بحثاً عن اللافتات التي تصعب رؤيتها في العتمة، ودار عدة مرات على الطريق، رافعاً إصبعه مثل إوزة تهبط من السماء، ملتفاً وملتفاً في العتمة، داساً يده الأخرى في جيبه. إد فورنير كان يقول «إنني أعزف أشياء جميلة أينما أذهب وإذا لم تعجب الناس فلا يسعني فعل شيء حيال الأمر. قل لي، صاحبك هذا شاب مجنون، أنظر إليه هناك» ونظرنا. صمت كبير في كل مكان بينما دين ينظر إلى اللافتات ويعجل عائداً إلى الحانة، ماراً عملياً من تحت أرجل بعضهم أثناء خروجهم متجهاً بسرعة إلى البار بحيث يضطر الجميع إلى النظر مرتين لرؤيته. بعد دقيقة ظهر روي جونسون، وبالخفة المذهلة نفسها. خرج دين إلى الشارع وإلى السيارة، من دون صوت. انطلقنا مجدداً.

«الآن روي، أعرف أنك متخاصم مع زوجتك حول هذا الشيء لكن علينا الوصول إلى ٤٦ وغيري بوقت قياسي، ثلاث دقائق وإلا ضاع كل شيء. إحم، أجل! (سعل) في الصباح أنا وسال سنغادر إلى نيويورك وهذه ليلتنا الأخيرة من الإثارة هنا، وأعرف أنك لا تمانع».

لا، لم يمانع روي جونسون، وقاد السيارة فحسب متجاوزاً كل الإشارات الحمراء. عند الفجر عاد إلى البيت لينام. انتهى بنا الأمر أنا ودين مع شاب نيغرو يدعى والتر طلب المشروبات على البار وضعها أمامه قائلاً «نبيذ سبوديودي!»، وهو يعني جرعة من النبيذ وجرعة من الويكسي وجرعة من النبيذ «حاوية جميلة لكل هذا الويسكي السيئ!»، قال صارخاً.

دعانا لشرب الجعة في منزله. كان يعيش خلف هوارد ستريت، وحين دخلنا كانت زوجته نائمة. الإنارة الوحيدة في الشقة هي اللمبة التي فوق سريرها. كان علينا الصعود إلى كرسي وفك اللمبة بينما هي مضطجعة مبتسمة هناك؛ تولى دين المهمة. كانت الزوجة تكبر والتر بنحو خمسة عشر عاماً وكانت ألطف امرأة في العالم. ثم كان علينا أن نصل القابس بالشريط الذي فوق رأسها وظلت تبتسم وتبتسم. لم تسأل والتر أبداً أين كان، وما هي الساعة، ولا أي شيء. أخيراً جلسنا في المطبخ حول طاولة صغيرة نشرب الجعة ونثرثر. الفجر. حان وقت المغادرة وإعادة وصلة الإنارة إلى غرفة النوم. زوجة والتر ابتسمت وابتسمت بينما أعدنا الحركة المجنونة نفسها. ولم تقل شيئاً.

في الشارع، فجراً، قال دين «الآن أترى يا رجل، هناك نساء حقيقيات. ولا كلمة قاسية، ولا تذمر، أو تقييد، يستطيع زوجها العتيد العودة إلى البيت في أي وقت مع أي كان ويتبادل الأحاديث معهم في المطبخ ويشرب الجعة كيفما يشاء. هذا رجل. وذاك البيت هو قصره». وأشار عالياً إلى الشقة. مشينا مترنحين. الليلة الكبيرة انتهت. تبعتنا سيارة دورية متشككة لبضع شوارع. اشترينا الفطائر المحلاة الطازجة من فرن في ثيرد ستريت. رجل طويل متأنق يضع نظارة جاء متمايلاً عبر الشارع مع نيغرو يعتمر قبعة سائق شاحنة. كانا ثنائياً غريباً. مرت شاحنة

كبيرة وأشار النيغرو إليها بحماسة وحاول أن يعبر عن شعوره. الرجل الأبيض الطويل اختلس النظر من فوق كتفيه وعد المال. «إنه أولد بال لي!»، ضحك دين، «يعد ماله قلقاً حول كل شيء، وكل ما يريده هذا الفتى الآخر هو الحديث عن الشاحنات والأمور التي يعرفها». تبعناهما لبعض الوقت.

أزهار مقدسة تطير في الهواء، كانت تلك الوجوه المتعبة في فجر أميركا الجاز.

كان يجب أن ننام، ولم يكن وارداً اللجوء إلى غالاتيا دانكل. كان دين يعرف «فرملجياً» يدعى إرنست بورك يعيش مع أبيه في فندق في ثيرد ستريت. في السابق كانت علاقته طيبة بهما، لكنها الآن لم تعد كذلك، واقترح دين أن أحاول إقناعهما بالسماح لنا بالنوم على الأرض. كان الأمر رهيباً. كان علي الاتصال من مطعم. أجاب الرجل على الهاتف مرتاباً. تذكرني مما حكاه له ابنه، وفاجأنا بالنزول إلى ردهة الفندق وسمح لنا بالدخول. كان فندقاً بائساً. صعدنا إلى الطابق العلوي وكان الأب لطيفاً بحيث ترك لنا السرير كله. «عليّ أن أنهض على أي حال»، قال ودخل إلى المطبخ الصغير لكي يحضّر القهوة، مخبراً القصص عن أيامه في سكك الحديد. ذكرني بأبي. بقيت مستيقظاً أستمع إلى القصص. دين، من دون إصغاء، كان يغسل أسنانه وينطنط في الأرجاء قائلاً، «أجل! هذا صحيح»، على كل ما يقوله الرجل. أخيراً نمنا؛ وفي الصباح عاد إرنست من عمله ونام على السرير بينما نهضت أنا ودين. الآن أبوه السيد بورك يحضر نفسه لموعد مع حبيبته الأربعينية. ارتدى سترة خضراء، وقبعة خضراء أيضاً، ودس وردة في ياقته.

«أولئك الفرملجية المكسورون العجائز في فريسكو يعيشون حيوات حزينة إنما شغوفة»، قلت لدين في الحمام، «كان لطيفاً جداً منه أن يسمح لنا بالنوم هنا».

«مرحى، مرحى»، قال دين، من دون أن يصغي. وخرج مهرولاً لتأمين سيارة من «مكتب السفريات». كانت مهمتي أن أذهب بسرعة إلى منزل غالاتيا دانكل وأحضر حقائبنا.

«حسناً، وداعاً غالاتيا، وأتمنى أن تمضي الأمور على ما يرام».

«حين يرجع إد سأصحبه إلى جايمسون نوك كل ليلة وأدعه يحصل على امتلائه من الجنون. أتظن أن هذا سينجح سال؟ لا أعرف ما الذي أفعله».

«ماذا تقول أوراق الحظ؟».

«أص البستوني بعيد جداً عنه. أوراق القلب تحوطه دائماً، ملكة القلوب ليست بعيدة أبداً. أترى شاب البستوني هذا؟ هذا دين، إنه دائماً في الجوار».

«حسناً إننا مغادران إلى نيويورك بعد ساعة».

«ذات يوم سيذهب دين في إحدى رحلاته هذه ولن يرجع».

سمحت لي بأن أستحم وأحلق ذقني عندها، ثم ودعتها وحملت الحقائب وأوقفت سيارة أجرة من النوع الاعتيادي التي يمكنك أن تؤشر لها من أي زاوية وتمضي بها إلى أي زاوية تريد لقاء ١٥ سنتاً، مع ركاب آخرين كما في حافلة، لكنهم يثرثرون ويخبرون القصص كما لو أنهم في سيارة خاصة. كان ميشن ستريت في ذلك اليوم الأخير ورشة صاخبة، أطفال يلعبون، زنوج يرجعون من العمل صارخين، غبار، حماسة، الدمدمة المستمرة والصخب العظيم في الهواء في ما هو بالفعل أكثر مدن أميركا إثارة، وفوقنا السماء الزرقاء الصافية وروعة البحر المغطى بالضباب الذي يمضي دائماً في الليل لكي يجعل الجميع جائعاً للطعام وللمزيد من الإثارة. أمضيت هناك ستين ساعة عجيبة وكنت كارهاً المغادرة. برفقة دين الهائج كنت أهرول في العالم من دون فرصة لرؤيته. بعد الظهر كنا في طريقنا إلى ساكرامنتو، وإلى الشرق من جديد.

ـ ٥ ـ

كان صاحب السيارة لوطياً طويلاً نحيلاً عائداً إلى منزله في كانزاس، يضع نظارات سوداء ويقود بتؤدة شديدة، «بلايموث لوطية»، مثلما لقّبها دين، لا حول لها ولا قوة، «سيارة مخنثة!». وكان هناك راكبان آخران، زوجان، سائحان نموذجيان ألحّا على التوقف في كل مكان. استراحتنا الأولى، بحسب الخطة، ستكون في ساكرامنتو، التي لا تشكل حتى بداية رحلتنا الطويلة إلى دنفر. فجلست ودين نثرثر في المقعد الخلفي تاركين الأمر لهم. «الآن يا رجل ذلك العازف أمس كان **يملكها**، لقد تشبث بها ما إن عثر عليها، لم أر أحداً يتمكن من الاحتفاظ بها طوال هذه المدة». سألته إلام يرجع ضمير الـ«ها» هنا. «آه حسناً»، ضحك، «تسألني الجواب عن شيء لا يمكن قياسه بدقة، إحم! لديك هذا الشاب المسؤول عن ترجمة ما يدور في خلد الجميع، يبدأ باللازمة الأولى، ثم بترتيب أفكاره، والمستمعون يفكّرون حسناً لا بأس، لكن هيا احصل عليها، ثم ينهض إلى مصيره، ويكون عليه أن يرتقي إلى مستوى هذا المصير. فجأة في مكان ما، وسط الأغنية، **يملكها**، ويحدس الجميع بذلك وينظر إليه ويصغي، وهو يلتقطها وينطلق منها، وعندها يتوقف الزمن. إنه يملأ الهواء الشاغر بجوهر حياتنا، باعترافات سلالته، بالذكريات والأفكار القديمة وباستعادة المعزوفات القديمة. عليه أن يعبر الجسور ويرجع، فاعلاً ذلك بإحساس مطلق، كاشف للروح، بإيقاع اللحظة الذي يعرف الجميع أنه ليس الإيقاع بل **هي**. لم يستطع دين مواصلة الشرح، كان يتصبب عرقاً من شدة الحماسة.

ثم شرعت بالكلام، ولم أتحدث بهذا القدر في حياتي. حكيت له كيف أنني، حين كنت أركب السيارة صبياً، كنت أتخيل نفسي حاملاً منجلاً كبيراً أقص به كل الأشجار والأعمدة والهضاب التي تعبر بالنافذة.

«مرحى! مرحى!»، صرخ دين، «كنت أفعل ذلك كثيراً كل مرة بمنجل مختلف، سأقول لك لماذا، فالتجوال بالسيارة في تلك المساحات الهائلة في الغرب يتطلب منجلاً أطول بكثير لكي يصل إلى الجبال البعيدة وفي الوقت نفسه يقص كل عامود على الطريق. لهذا السبب، أوه يا رجل، عليّ أن أخبرك، الآن عرفت ما أريد قوله، يجب أن أخبرك عن الوقت الذي رافقنا فيه، أنا وأبي، متشرد بائس من لاريمير ستريت في رحلة إلى نبراسكا فترة الكساد الكبير لكي نبيع مبيدات الحشرات. وكيف كنا نصنع هذه المبيدات برأيك؟ كنا نشتري قطعاً من الشاش العادي، وقطعاً من الأسلاك نثنيها مرتين ونحيك قطعاً صغيرة من القماش الأزرق والأحمر عند الحواف، وكل هذا يكلف سنتات فقط، وصنعنا الآلاف منها ومضينا بها في سيارة المتشرد العجوز إلى نبراسكا وبعناها للمزارعين هناك لقاء نكل للقطعة، وغالباً كانوا يدفعونها من قبيل الصدقة، وكان ذلك رائعاً، وكان أبي في تلك الأيام يغني دائماً هللويا، إنني متشرد، متشرد من جديد، واسمع هذا الآن، بعد أسبوعين من التجول في الشمس اللاهبة لبيع هذه الأشياء الرهيبة تجادلا حول تقاسم المردود وتشاجرا شجاراً عنيفاً على جانب الطريق ثم تصالحا واشتريا النبيذ وبدآ يشربان لخمسة أيام وليال متواصلة بينما أنا في خلفية ذلك كله أبكي مهملاً، وحين انتهيا كانا أنفقا كل المال وعدنا إلى نقطة الصفر، إلى لاريمير، ثم سجن أبي وكان عليّ أن أقدّم التماساً في المحكمة لكي يطلق القاضي سراحه لأنه أبي وليس لدي أم. سال، قمت بخطب عظيمة بالغة في سن الثامنة. . .». ازداد الحر، كنا متجهين شرقاً، وكنا متحمسين.

«سأخبرك بالمزيد»، قلتُ، «وفقط على هامش ما كنت تقوله ولكي أختم فكرتي الأخيرة، كنت كطفل في المقعد الخلفي في سيارة أبي أتخيل نفسي أيضاً على حصان أبيض يقفز فوق كل عائق محتمل يبرز

أمامه فجأة، وهذا يتضمن الأعمدة المفاجئة، والعدو حول البيوت، وأحياناً القفز فوقها حين أشعر أنني تأخرت، والركض إلى التلال، وفي الساحات حيث الزحمة المفاجئة والاضطرار إلى المراوغة لاجتيازها بوقت قياسي».

«مرحى! مرحى! مرحى!»، تنهّد دين منتشياً، «الفرق بالنسبة إلي كان أنني كنت أركض، لم يكن هناك حصان. كفتى من الشرق من الطبيعي أن تحلم بالجياد، وبالطبع لن نفترض أشياء كهذه بما أن كلانا يعرف أنها أفكار أدبية، لكن أنا ربما في أشدّ انفصامات شخصيتي جموحاً كنت أركض على رجلي أمام السيارة وبسرعة مذهلة، أحياناً بسرعة تسعين ميلاً بالساعة، متجاوزاً كل أجمة وسياج ومزرعة وأحياناً مسرعاً إلى الهضاب وعائداً في أقل من دقيقة واحدة. . .».

كنا نحكي ونتصبب عرقاً، ونسينا تماماً أولئك الجالسين في المقدمة الذين بدأوا يتساءلون عما يجري في المقعد الخلفي، وفي مرحلة ما خاطبنا السائق، «بحق الرب، إنكما تهزان السيارة في الخلف»، وفي الواقع كنا نهزها، كانت السيارة تتأرجح وأنا ودين نتمايل مع الإيقاع ومع **الهي** في ذروة متعتنا وعيشنا آخر نشوات التفاصيل الإنجيلية الماكثة في أرواحنا منذ الأزل.

«أوه، يا رجل! يا رجل! يا رجل!»، أنّ دين «وليست حتى البداية، فها نحن أخيراً متجهين إلى الشرق معاً للمرة الأولى، سال فكر في الأمر، سنستكشف دنفر معاً ونرى ما الذي يفعله الجميع مع أن هذا لا يعنينا إلا قليلاً، لكن المغزى هو أننا نعرف **الشيء** ونعرف **الوقت** ونعرف أن كل شيء على ما يرام حقاً». ثم تشبّث بكم قميصي «الآن، أنظر إليهم في المقدمة، إنهم قلقون، يعدّون الأميال، يفكرون أين سينامون الليلة، وكم من المال يلزمهم للوقود، وحال الطقس، وكيف سيصلون

إلى هناك، ومع أنهم سيصلون إلى هناك في النهاية غير أنهم يحتاجون إلى القلق وإلى خيانة **الوقت** بأمور طارئة زائفة وغيرها، إنهم قلقون للغاية ودائمو التذمر، ولن تهدأ نفوسهم قبل أن يعثروا على قلق أكيد ويرسموا على وجوههم التعبيرات التي تناسبه، وهي كما تعرف تعبيرات التعاسة، التي تعبر خواطرهم طوال الوقت ويعرفون ذلك وهذا يقلقهم أيضاً بلا حدود. انظر! انظر ماذا سأفعل بهم»، وأخذ يتكلم بنبرة درامية «حسناً الآن، لا أعرف، ربما لا يجدر بنا تعبئة الوقود من هذه المحطة. قرأت مؤخراً في مجلة ناشيونال بتروفيوس بتروليوم نيوز، أن هذا النوع من الوقود يحتوي على كمية كبيرة من الزيرو أوكتان وأخبرني أحدهم ذات مرة أنه يحتوي على نسبة تذبذب عالية، ولا أعرف، لكنني أشعر بالنفور من هذه المحطة على أي حال. . . . أنظر إلى هذا كله»، أخذ يلكزني بقوة في وركي. حاولت جهدي للتواطؤ معه، مردداً، «أجل! أجل! أجل»، وأخذ الجالسون في المقدمة يمسحون جباههم رعباً، متمنين لو لم يقلونا معهم، ولم تكن هذه إلا البداية.

في ساكرامنتو حجز اللوطي غرفة في فندق ودعانا إلى الشراب، بينما ذهب الزوجان للنوم عند أقرباء لهما، وخلال السهرة حاول دين كل الحيل التي يعرفها لكي ينتزع مالاً من اللوطي. كان ذلك مجنوناً. بدأ اللوطي بالقول إنه مسرور لسفرنا معه لأنه يحب الشبان من أمثالنا، وهل نصدق ذلك، لكنه لا يحب الفتيات وقد أنهى مؤخراً علاقة مع أحدهم في فريسكو لعب فيها دور الرجل والآخر دور الأنثى. وأمطره دين بأسئلة منهجية هازاً رأسه بحماسة، وقال اللوطي إنه يتوق إلى سماع رأي دين حول هذا كله، وأخبره دين بأنه كان مرة عاهراً في شبابه، قبل أن يسأله كم من المال بحوزته. كنت في الحمام، وتجهم اللوطي مرتاباً بدوافع دين، ولم يظهر أي مال، بل أطلق وعوداً غامضة حول دنفر، وظل يعد

ماله ويتفحص حافظة نقوده. ثم فض دين يده من الأمر: «أترى يا رجل، من المستحسن ألا ترهق نفسك معهم، قدم لهم ما يتوقون إليه سراً وبالطبع سيرتجفون هلعاً»، لكنه أقنعه على الأقل بأن يتولى هو القيادة ولم يعارض الرجل، لتبدأ رحلتنا حقاً.

غادرنا فجراً واجتزنا صحراء نيڤادا ظهراً، بعد عبور السييرا بسرعة جعلت اللوطي والسائحين يتشبثون ببعضهم في المقعد الخلفي. كنا في المقدمة. انفرجت أسارير دين مجدداً. فكل ما كان يحتاج إليه عجلة قيادة بين يديه وأربعة على الطريق. وراح يخبرني عن مدى رداءة قيادة أولد بال لي، محاولاً برهان ذلك عملياً، «كلما ظهرت شاحنة ضخمة كهذه يحتاج بال إلى وقت هائل لكي يلمحها لأنه لا يبصر، يا رجل، لا يمكنه أن يبصر». فرك عينيه بقوة محاكياً أولد بال، «وأنا أصرخ به انتبه، بال، ثمة شاحنة آتية في اتجاهنا»، فيجيبني: «ماذا، ماذا تقول دين؟». «شاحنة، شاحنة!»، وفي اللحظة الأخيرة ينحرف هكذا باتجاه الشاحنة»، وحرف دين السيارة نحو الشاحنة المسرعة نحونا، ومكث في مواجهتها للحظة، ورأينا وجه سائقها يشحب هلعاً، وتنهد الجالسون في الخلف رعباً، قبل أن يحيد عنها في اللحظة الأخيرة. «هكذا، أترى، تماماً هكذا، يا له من سائق رديء». لم أخف إطلاقاً، فقد كنت أثق بقيادة دين، أما الإخوان في الخلف فكانوا عاجزين عن النطق، وفي الواقع كانوا خائفين من التذمر حتى، ولا بدّ من أنهم فكروا بأن دين يمكن أن يرتكب أي فعلة جنونية إذا ما حاولوا التذمر. اجتاز الصحراء على هذا النحو، مستعرضاً أنماطاً عدة من القيادة الرديئة، كيف كان أبوه يقود الشاحنات، وكيف يتصرف السائقون البارعون عند المنعطفات، كيف يخففون سرعتهم قبل وقت طويل عند البداية ويضطرون إلى رفع سرعتهم عند نهاية المنعطف، وهكذا دواليك. كانت فترة بعد ظهر لاهبة، وعبرنا

رينو، باتل ماونتن، إلكو، والبلدات الأخرى على طريق نيڤادا، ووصلنا عند الغسق إلى سالت ليك سيتي التي كانت تتوهج أضواؤها عن بعد مئة ميل تقريباً من سهول سالت لايك، بادية مرتين، فوق مستوى الأرض وتحته، مرة ضبابية ومرة أخرى واضحة. قلت لدين إن ما يربطنا جميعاً ببعضنا في هذا العالم غير مرئي، ولكي أثبت ذلك أشرت إلى أعمدة الهاتف الممتدة في خط طويل لتختفي عن النظر بعد مئة ميل من سالت لايك سيتي. أصبحت ضمادته المتهلهلة متسخة كلياً الآن، وهي ترفرف في الهواء، فيما يشع وجهه «أوه، أجل يا رجل، مرحى! مرحى!». فجأة أوقف السيارة وانهار، التفت ورأيته وقد كوم نفسه في زاوية المقعد ونام، مسنداً وجهه إلى يده السليمة، فيما الأخرى المضمدة معلقة بشكل أوتوماتيكي في الهواء، وسمعت في الخلف زفرات الارتياح، تلاها همس تآمري «لا يجب أن نسمح له بالاستمرار في القيادة، إنه مجنون كلياً، لا بد من أنه خارج من مصحّ عقلي أو ما شابه».

دافعت عنه «ليس مجنوناً، سيكون على ما يرام، ولا تقلقوا بشأن قيادته، إنه الأفضل في العالم».

«لكن أعصابي ستنهار»، قالت الفتاة بصوت هستيري مكبوت. جلست مستمتعاً بمشهد هبوط الليل على الصحراء بانتظار أن يصحو الملاك المسكين. كنا على مرتفع يطل على أضواء سالت لايك سيتي وفتح دين عينيه على ذاك العالم الشبحي الذي ولد فيه قبل سنوات متسخاً وبلا اسم.

«سال، سال، أنظر لقد ولدت هنا، فكر في ذلك! الناس يتغيرون، يأكلون اللحم سنة بعد سنة ويتغيرون مع كل وجبة. يا إلهي! أنظر!». كان متحمساً إلى حد جعلني أرغب بالبكاء. إلى أين سيفضي هذا كله؟ أصر السائحان على تولي القيادة بقية الطريق إلى دنڤر. فليكن، لم

نكترث. جلسنا نثرثر في الخلف، حتى استولى عليهم التعب صباحاً، فعاود دين استلام القيادة في صحراء إيست كولورادو عند كرايغ، بعد أن أضعنا الكثير من الوقت بالسير زحفاً معظم الليل فوق معبر ستروبري في يوتاه. غفوا، وقاد دين مسرعاً نحو معبر برثود الذي ينتصب جداره الهائل المغطى بالسحاب على بعد مئة ميل أمامنا عند سقف العالم. اجتاز المعبر بسرعة قصوى، وبعده معبر تيهاشابي، مطفئاً المحرك، متجاوزاً السيارات الأخرى، حتى أشرفنا على ساحل دنفر العظيم الحار، وأصبح دين في مدينته.

أنزلونا عند تقاطع تونتي سفنث وفديرال بقدر كبير من الارتياح. تكومت حقائبنا البالية على الرصيف مجدداً، أمامنا طرق أطول نقطعها، لكن لا يهم، الطريق هي الحياة.

ـ ٦ ـ

كان ثمة أمور عدة ينبغي أن نقوم بها في دنفر، وهي ذات طبيعة مختلفة تماماً عن تلك التي عرفناها في ١٩٤٧. كان يمكننا أن نستقل فوراً سيارة من «مكتب السفريات»، أو نمكث بضعة أيام لبعض المغامرة ومحاولة العثور على أبيه.

كنا مرهقين كلياً ووسخين. في تواليت مطعم كنت أتبول ساداً الطريق على دين إلى المغسلة فقطعت بولي وانتقلت إلى مبولة أخرى، قائلاً لدين «أنظر إلى هذه الحيلة».

«أجل يا رجل»، قال وهو يغسل يديه، «إنها حيلة جيدة جداً لكنها مؤذية لكليتيك لأنك تكبر قليلاً كل مرة تفعل فيها ذلك حتى تصل إلى أوقات مزرية في كهولتك، وتعاني مشكلات رهيبة في كليتيك في الأيام التي تجلس فيها في الحدائق».

أغضبني كلامه هذا، «من الذي تسميه مسناً؟ لست أكبر منك بكثير!».

«لم أقل ذلك يا رجل!».

«آه»، قلت، «إنك دائماً تسخر من سني. لستُ بلوطي عجوز كذاك اللوطي، لست مضطراً إلى إسداء النصائح لي بشأن كليتي». عدنا إلى المائدة، وبينما النادلة تضع على الطاولة شطائر العجل المحمص الساخنة، التي سينقض عليها دين كالذئب كعادته، قلت له متوجاً غضبي «ولا أريد سماع المزيد من هذه التعليقات». وفجأة اغرورقت عيناه بالدموع ونهض وخرج من المطعم. تساءلت ما إذا كان سيرحل إلى الأبد، ولم أهتم، كنت حانقاً جداً عليه، وبعد أن تأملت الموقف لبرهة حمّلته المسؤولية كاملة. لكن مشهد طعامه على الطاولة أشعرني بحزن لم أشعر بمثله منذ سنوات. لم يكن يجدر بي قول ذلك... إنه يحب الأكل كثيراً... لم يسبق له أن ترك طعامه هكذا... لم أكترث. هذا سيؤدّبه على أي حال».

عاد بعد خمس دقائق وجلس «حسناً»، قلت، «ما الذي كنت تفعله في الخارج؟ تمرّن قبضتيك؟ تشتمني، تفكر في نكات جديدة حول كليتي؟».

هزّ رأسه بصمت، «لا يا رجل، لا، أنت مخطئ كلياً. إذا أردت أن تعرف، حسناً...».

«أكمل، قل لي»، قلت من دون أن أرفع رأسي عن طعامي. شعرت أنني وحش.

«كنت أبكي».

«آه، اللعنة، أنت لا تبكي أبداً».

«أنت من يقول هذا؟ لماذا تحسبني لا أبكي؟».

«لأنك لا تتعذب كفاية لتبكي». كل الأشياء التي قلتها كانت خنجراً أطعن به نفسي. كل المآخذ التي كنت أكنها سراً ضد أخي كانت تخرج مني، وكم كنت بشعاً وأي قذارة كنت أكتشفها في أعماق نفسيتي المريضة.

أخذ دين يهز رأسه، «لا يا رجل، لقد كنت أبكي».

«هيا يا رجل، أراهن أنك كنت غاضباً بحيث اضطررت إلى المغادرة».

«صدقني سال، صدقني حقاً، حتى، حتى لو لم تصدق يوماً أي شيء عني». كنت أعرف أنه صادق ومع ذلك لم أرد أن أزعج نفسي بالحقيقة وحين رفعت رأسي ونظرت إليه أدركت أنني مخطئ.

«آه يا رجل، دين، أنا آسف، لم أعاملك من قبل بهذه الطريقة. حسناً الآن أنت تعرفني. تعرف أنه لا تربطني علاقة وثيقة بأي كان، لا أعرف ماذا أفعل بهذه الأشياء. أكبت الأشياء في رأسي مثل القمامة ولا أعرف كيف أخرجها. لننس الأمر». شرع المحتال المقدس بالأكل «ليس هذا خطأي، ليس خطأي»، قلت له، «لا شيء في هذا العالم القذر خطأي، ألا ترى ذلك؟ لا أريد أن يكون ذلك ولا يمكن أن يكون ولن يكون».

«أجل يا رجل، أجل، لكن أرجوك راجع نفسك وصدقني».

«أنا أصدقك حقاً، حقاً». على هذا النحو المحزن انتهت فترة العصر تلك، لتبرز كافة أنواع التعقيدات تلك الليلة حين ذهبت ودين لنبيت في منزل أسرة مهاجرة، كنت جارها أثناء الفترة التي أمضيتها وحيداً في دنفر قبل أسبوعين. الأم امرأة رائعة ترتدي الجينز وتقود شاحنة فحم في الجبال شتاء لكي تعيل أولادها الأربعة، بعد أن هجرها زوجها قبل سنوات أثناء ترحالهما عبر البلاد في قاطرة انطلقا بها من إنديانا، وبعد

أوقات طيبة أمضياها معاً وسكرات أيام الأحد في الحانات عند تقاطعات الطرق والضحك وعزف الغيتار ليلاً، اختفى المغفّل الكبير فجأة في الحقل المظلم ولم يعد أبداً. كان أطفالها رائعين. أكبرهم صبي لم يكن في البيت ذاك الصيف بل في مخيم في الجبال، تليه فتاة جميلة في الثالثة عشرة اسمها جانيت تكتب الشعر وتقطف الأزهار من الحقول وتحلم بأن تكبر لتصبح ممثلة في هوليوود؛ ثم هناك الصغيران، جيمي الذي يجلس أمام النار ليلاً ويبكي طلباً لحبة «بطاطتي» قبل أن تكون قد تحمصت، ولوسي التي تعتبر الدود والضفادع الصغيرة، والخنافس، وكل ما يزحف، حيواناتها الأليفة وتطلق عليها أسماء وتخترع لها أمكنة لتعيش فيها. كان لديهم أربعة كلاب، وقد عاشوا أوقاتهم الجميلة والسيئة في الحي الجديد هذا وكانوا مثار تعليقات الجيران فقط لأن زوج المسكينة هجرها ولأنهم يرمون الفضلات في الفناء. ليلاً كل أنوار دنڤر تنتشر مثل عجلة عملاقة في السهل، لأن المنزل كان في ذلك الجزء من الغرب حيث تتدحرج الجبال إلى السهول وحيث لا بد أن أمواجاً ناعمة امتدت في زمنها البدائي من المسيسيبي، فشكلت قمماً ناعمة ومدورة مثل إيفانز وبايك ولونغز. دين سرّ كثيراً بهذه العائلة، ولا سيما بجانيت، لكنني حذرته من أن يلمسها، وعلى الأرجح لم أكن مضطراً لذلك. كانت الأم أخت رجال وانسجمت مع دين فوراً وإن بحياء متبادل، وقالت إنه يذكرها بزوجها الغائب «مثله تماماً، أوه لقد كان مجنوناً، أقول لك!».

كانت سهرة صاخبة في غرفة المعيشة الفوضوية، مع الجعة والعشاء بينما تصدح الأغنيات من إذاعة «لون رانجر». بدأت الأمور تتعقد مثل غيوم من الفراشات: المرأة، التي يناديها الجميع فرانكي، أزمعت أخيراً على شراء سيارة مستعملة كانت تحلم بها منذ سنوات، بعد أن تمكنت أخيراً من ادخار بعض المال لهذا الغرض. أخذ دين فوراً على عاتقه

مهمة اختيار السيارة وتحديد سعرها، لأنه بالطبع أراد أن يستعملها بنفسه كما في الأيام الخوالي لكي يتصيد الفتيات الخارجات من الثانوية عصراً ويصحبهن إلى أعالي الجبال. فرانكي المسكينة البريئة وافقت على الأمر، لكن حين وصلا إلى معرض السيارات ووقفا أمام البائع خشيت أن تخسر مالها. جلس دين في غبار ألميديا بولفار ضارباً على رأسه. «لا يمكنك لقاء مئة دولار الحصول على سيارة أفضل». وأقسم أنه لن يكلمها ثانية، وراح يشتم ويلعن حتى احمر وجهه، كان على وشك ركوب السيارة وقيادتها على أي حال. «أوه أولئك المهاجرون الأغبياء، الأغبياء، الأغبياء، حين يأتي وقت الفعل، يصابون بالرعب والشلل والهستيريا، لا شيء يخيفهم أكثر من الحصول على ما يريدونه، إنه أبي، أبي، أبي من جديد!».

كان دين ينتظر المساء بحماسة بالغة، لأن ابن عمه سام برايدي سيلاقينا في إحدى الحانات. كان يلبس كنزة خفيفة نظيفة ويشع كله، «اسمع الآن سال، علي أن أخبرك عن سام، إنه ابن عمي».

«بالمناسبة هل بحثت عن أبيك؟».

«ذهبت عصراً إلى جيغز بوفيه حيث اعتاد أن يشرب الجعة ويسكر قليلاً، لكنني لم أجده، فقصدت الحلاق العجوز قرب وندسور، ولم أجده هناك أيضاً، وقال لي العجوز إنه يظن أن أبي، تخيل، يعمل في مطعم محطة سكة حديد، أو في شركة «بوسطن ومارين» في نيو إنغلاند! لكنني لا أصدقه، فهؤلاء يخترعون أي قصة لقاء فلس. والآن اسمعني، في طفولتي كان ابن عمي سام برايدي، هو مثالي الأعلى. كان يهرّب الويسكي من الجبال وذات مرة خاض شجاراً عنيفاً مع أخيه استمر ساعتين في الفناء وسط جزع النساء وصراخهن. اعتدنا النوم جنباً إلى جنب. كان الشخص الوحيد في العائلة الذي يكترث لأمري، والليلة سأراه للمرة الأولى بعد سبع سنوات، لقد عاد لتوه من ميزوري».

«وما المغزى من ذلك؟».

«لا مغزى يا رجل، فقط أردت أن أخبرك بما كان يحدث في العائلة، وأنا لدي عائلة، تذكر، وبالأخص سال أريده أن يخبرني عن أشياء نسيتها من طفولتي. أريد أن أتذكر، حقاً أريد ذلك». لم أر دين سعيداً ومتحمساً هكذا من قبل. بينما ننتظر ابن عمه في الحانة تحدث إلى بضعة محتالين ومتسكعين يصغرونه سناً، مستفسراً منهم عن العصابات الجديدة وماذا يحدث. ثم استعلم عن ماري لو، بما أنها تعيش في دنفر مؤخراً. «سال، في أيام مراهقتي حين كنت آتي إلى هذه الزاوية لكي أسرق بعض القروش من كشك الصحف وأشتري بها اللحم، ذلك الشاب قوي الهيئة الذي يقف هناك ليس في قلبه إلا الجريمة، يخرج من شجار رهيب ليدخل في آخر، أتذكر حتى ندوبه، لكنه الآن بعد سنوات وسنوات من الوقوف على الزاوية صار أكثر ليناً، وأصبح طيباً وصبوراً مع الجميع، لقد أصبح من معالم الزاوية، أترى كيف تحدث الأمور؟».

ثم وصل سام، رجل في الخامسة والثلاثين، نحيل أجعد الشعر خشن اليدين. وقف دين أمامه مشدوهاً، «لا»، قال سام برايدي، «لقد أقلعت عن الشراب».

«أترى؟ أترى؟» همس دين، «أقلع عن الخمر وكان أكبر مهرب ويسكي في البلدة، لكنه أصبح متديناً الآن، لقد أخبرني بذلك عبر الهاتف، أنظر إليه، أنظر كيف تغير الرجل، بطلي أصبح غريباً جدا». كان سام برايدي يعامل ابن عمه الشاب بارتياب. اصطحبنا في جولة بسيارته الكوبيه القديمة وأوضح فوراً موقفه من دين.

«الآن، اسمعني دين، ما عدت أصدقك أو أصدق أي شيء مما ستحاول أن تخبرني به. جئت لأراك الليلة لأنه هناك ورقة تخص العائلة

أريدك أن توقع عليها. والدك ما عاد له ذكر بيننا ولا نريد أن يكون لنا أي شأن به، وأنا آسف للقول، ولا بك أيضاً، بعد الآن». نظرت إلى دين. كان وجهه مكفهراً.

«أجل، أجل»، قال. استأنف ابن العم الجولة وحتى إنه قدّم لنا الآيس كريم، وعلى الرغم مما قاله فقد أمطره دين بالأسئلة حول الأيام الماضية، وراح يجيبه، ولبعض الوقت بدأ دين يتصبب عرقاً ثانية من الحماسة. أوه، أين كان أبوه البائس تلك الليلة؟ أنزلنا ابن العم عند الأضواء الحزينة لمدينة الملاهي في بولفار ألميدا في فديرال ستريت. اتفق مع دين على موعد عصر اليوم التالي من أجل توقيع الورقة، وغادر. قلت لدين إنني آسف لأنه ليس لديه في العالم من يؤمن به.

«تذكّر أنني أؤمن بك. إنني آسف جداً على حردي الغبي منك بعد ظهر يوم أمس».

«لا بأس يا رجل، لقد اتفقنا»، قال دين. جلنا في مدينة الملاهي. كان هناك دوامة خيل، ودواليب، وبوشار، وعجلات روليت، ونشارة خشب، ومئات الفتيان بالجينز، والغبار يرتفع حتى النجوم على إيقاع أكثر الموسيقى كآبة على وجه البسيطة. كان دين يرتدي بنطال «ليفيز» ضيقاً محتوت اللون وكنزة خفيفة وبدا شخصية دنڤرية مجدداً. كان هناك فتيان على دراجات نارية مع شوارب وخوذات وسترات مزينة يتجولون بين حبال الصواري وراء الخيام مع فتيات جميلات ببناطيل «ليفيز» وقمصان زهرية. كان هناك الكثير من الفتيات المكسيكيات أيضاً، ومنهن واحدة فاتنة قصيرة، لكن لها أجمل وجه وأعذبه في العالم، التفتت إلى مرافقتها وقالت «فلنناد غوميز ونخرج من هنا». تجمد دين حين رآها. خنجر عظيم طعنه في قلب العتمة «يا رجل إنني أحبها، أوه أحبها...» كان علينا أن نمشي في أعقابها لوقت طويل. أخيراً اجتازت الأوتوستراد

لكي تجري اتصالاً هاتفياً في حجرة هاتف نزل وادعى دين أنه يبحث في صفحات الدليل لكنه لم يكن يفعل سوى التفرج عليها. حاولت أن أفتح حديثاً مع صديقات هذه الدمية الجميلة لكنهن لم يعرننا أي اهتمام. وصل غوميز بشاحنة عتيقة وأخذ الفتيات وانطلق. وقف دين على الطريق، ويداه على صدره، «أوه يا رجل، كدت أموت. . .».

«لماذا بحق الله، لم تتحدث إليها؟».

«لا أستطيع، لم أستطع. . .». قررنا أن نبتاع الجعة ونذهب إلى منزل فرانكي ونستمع إلى التسجيلات الموسيقية. جانيت الصغيرة، ابنة فرانكي ذات الثلاثة عشرة ربيعاً، كانت الأجمل في العالم وحين تكبر ستصبح امرأة مذهلة. الأجمل فيها أصابعها الطويلة الرقيقة التي اعتادت أن تؤشر بها هي تتحدث، مثل كليوباترا. جلس دين في الركن الأبعد من الغرفة، متفرجاً عليها بعينين مزمومتين مردداً «أجل، أجل، أجل». جانيت كانت واعية له، فلجأت إليّ للحماية. قبل أشهر من ذاك الصيف أمضيت معها وقتاً طويلاً، متحدثين عن الكتب وأشياء صغيرة كانت تثير اهتمامها.

ـ ٧ ـ

لم يحدث شيء تلك الليلة، فقط أوينا إلى النوم. حدث كل شيء في اليوم التالي. ذهبت ودين عصراً إلى وسط دنفر لإنجاز بعض الأعمال الروتينية، ولكي نحجز، عبر «مكتب السفريات»، مكاناً في واحدة من السيارات المتجهة إلى نيويورك. في طريق العودة قبيل المغرب، أعلى برودواي، دخل دين فجأة إلى متجر لبيع الأدوات الرياضية، وسرق كرة صغيرة راح يرميها في الهواء. لم يلاحظ أحد، لا أحد يلاحظ مثل هذه الأشياء. كان عصراً خاملاً وحاراً. رحنا نتقاذف الكرة أثناء سيرنا. «سنحصل غداً على سيارة».

كانت صديقة لي أعطتني ربعية بوربون «أولد غراندلاند»، وبدأنا نشربها في منزل فرانكي. في نهاية الحقل وراء المنزل كان ثمة فتاة رائعة راح دين يحاول التودد إليها منذ وصولنا، ومعها بدأت المشكلات، إذ يبدو أن دين رشق نافذتها بالكثير من الحصى حتى أفزعها، وبينما نشرب في تلك الغرفة الفوضوية بكلابها والألعاب المنثورة والأحاديث الحزينة، كان دين يخرج من المطبخ ويجتاز الحقل لكي يرمي الحصى ويصفر للفتاة، ومن حين لآخر تخرج جانيت لتختلس النظر إليه. وفجأة عاد دين شاحباً «مشكلات يا فتى، أم تلك الفتاة تطاردني حاملة بندقية ومعها حفنة من الشبان يريدون أن يضربونني».

«ما الذي تقوله؟ أين هم؟».

«بعد الحقل»، كان دين ثملاً وغير مبال. خرجنا معاً واجتزنا حقل الذرة تحت ضوء القمر. رأيت حشداً في الطريق الطينية المعتمة.

«ها قد جاءا!»، سمعت أحدهم يقول.

«على رسلكم»، قلت، «ما المشكلة رجاء؟».

الأم كمنت في الخلف حاملة بندقية ضخمة، «لقد أزعجنا صديقك الوغد هذا بما فيه الكفاية، ولست من النوع الذي يطلب الشرطة، وإذا عاد إلى هنا مرة أخرى فسأطلق الرصاص، وبقصد القتل». كان الشبان متجمعين عاقدين قبضاتهم. كنت ثملاً إلى حد أنني أنا أيضاً لم أكترث، لكنني أخذت أهدئ من روع الجميع.

قلت، «لن يفعل ذلك ثانية، سأراقبه، إنه أخي ويسمع كلامي. أرجوك ضعي بندقيتك جانباً ولا نهتمي لشيء».

«إذا تكرر الأمر»، قالت بحزم، «فحين يأتي زوجي سأرسله في أعقابكما».

«لن تضطري إلى ذلك، لن يزعجك بعد الآن، أتفهمين. والآن

اهدئي وكل شيء على ما يرام». كان دين يقف ورائي ويشتم همساً، أما الفتاة فكانت تسترق النظر من نافذة غرفة نومها. كنت أعرف هؤلاء الناس من قبل وكانوا يثقون بي بما يكفي لكي يهدأوا قليلاً. تأبطت ذراع دين وعدنا عبر الحقل المغمور بضوء القمر.

«وووهييي!»، صرخ، «سوف أسكر الليلة». عدنا إلى فرانكي والأولاد. فجأة غضب دين بسبب اسطوانة كانت جانيت تستمع إليها وحطمها على ركبته: كانت أسطوانة من نوع «هليبلي»[1]. كان ثمة أسطوانة قديمة يعشقها دين لديزي جيلبسي، «كونغو بلوز»، مع ماكس وست على الطبول، وكنت أهديتها لجانيت من قبل، فقلت لها وهي تبكي أن تحملها وتحطمها على رأس دين. فأحضرت الأسطوانة وفعلت ذلك. دين شده ببلادة، متحسساً كل شيء. ضحكنا جميعاً. كل شيء كان على ما يرام. ثم رغبت فرانكي بالخروج واحتساء الجعة في حانات نزل الطريق «لنذهب!»، هتف دين. «الآن، اللعنة، لو أنك اشتريت السيارة التي أريتها لك الثلاثاء لما كان علينا أن نذهب سيراً على الأقدام».

«لم تعجبني تلك السيارة اللعينة»، صرخت فرانكي. بدأ الأولاد بالبكاء. جهنم شبيهة بالعث فقست في الغرفة البنية المجنونة المكسوة بورق الجدران الكئيب، والمصباح الزهر، والوجوه المثارة. كان جيمي الصغير خائفاً؛ وضعته في الفراش على الكنبة وائتمنت الكلب عليه. فرانكي، ثملة، طلبت سيارة أجرة وفجأة بينما نحن ننتظرها جاءني اتصال هاتفي من صديقتي الدنفرية. كان لها ابن عم أربعيني يمقتني بشدة، وكنت عصر ذلك اليوم كتبت رسالة إلى أولد بال لي، في مكسيكو

(١) «هليبلي»: Hillibilly يستعمل هذا التعبير عادة لوصف الموسيقى الفلكلورية في جنوب أميركا، لكنه يستعمل أيضاً لوصف الأشياء التافهة، والأرجح أن كرواك قصد المعنيين معاً.

سيتي، أخبره فيها عن مغامراتي مع دين وعن ظروف عيشنا في دنڤر، وذكرت له أنه «ثمة امرأة أحصل منها على الويسكي والمال والوجبات الدسمة».

بغباء أعطيت الرسالة لابن العم الأربعيني لكي يرسلها بالبريد. فما كان منه إلا أن قرأ الرسالة، وأخذها فوراً إليها لكي يثبت لها أنني نصاب. الآن ها هي تتصل بي والدموع تطفر من عينيها قائلة إنها لا تريد أن تراني مجدداً. ثم استلم ابن العم المنتصر السماعة راح يدعوني وغداً. بينما سيارة التاكسي تطلق بوقها في الخارج والأولاد يبكون والكلاب تنبح ودين يرقص مع فرانكي، زعقت عبر الهاتف بكل شتيمة أعرفها وأضفت إليها شتائم جديدة، وفي غمرة ثمالتي قلت لهما عبر الهاتف أن يذهبا إلى الجحيم وأقفلت السماعة بعنف وخرجت لكي أسكر.

تعثرنا ببعضنا ونحن نخرج من التاكسي عند نزل الطريق، ودخلنا وطلبنا الجعة. كان كل شيء يتداعى، ولكي تصبح الأشياء أكثر جنوناً كان هناك شاب موتور ألقى ذراعيه على كتفي دين وراح يئن في وجهه، وجن جنون دين ثانية مع العرق المتصبب، ولكي يزيد أكثر إلى الإرباك الذي لا يحتمل خرج بعدها بقليل وسرق سيارة وانطلق إلى وسط دنڤر وعاد بسيارة أخرى أحدث منها. فجأة رأيت الشرطة وبعض الناس خارج الحانة يتحدثون على ضوء سيارة الدورية عن السيارة المسروقة. «ثمة من يسرق السيارات يمنة ويساراً هنا!»، قال الشرطي، بينما دين واقف وراءه مباشرة، مصغياً «آه بلى، آه بلى». ذهب رجال الشرطة للقيام بتحرياتهم، فدخل دين إلى الحانة وراح يرقص مع الشاب المتشنج الذي كان تزوج في ذلك اليوم ويريد أن يسكر سكرة كبرى بينما عروسه تنتظره في مكان ما. «أوه، يا رجل، هذا الشاب هو الأعظم في العالم!»، صرخ دين «سال، فرانكي، سأخرج وأجلب سيارة جيدة فعلاً هذه المرة وسنذهب

جميعاً ومعنا توني أيضاً إلى الجبال». وخرج مسرعاً. في الوقت نفسه دخل شرطي وقال إنه وجد سيارة سرقت من وسط البلد مركونة في الخارج. راح الموجودون يثرثرون حول الأمر. من النافذة رأيت دين يقفز إلى أول سيارة وينطلق، دون أن يلاحظه أحد. بعد دقائق عاد بسيارة مختلفة كلياً، سيارة مكشوفة جديدة تماماً، «هذه السيارة جميلة!»، همس في أذني، «السيارة الأخرى تركتها عند تقاطع الطرق، رأيت هذه الجميلة مركونة أمام مزرعة. قمت بجولة سريعة بها في البلد. هيا يا رجل لنذهب جميعاً». كل مرارة وجنون حياته السابقة كانت تتفجر من جسمه كالخناجر. كان وجهه أحمر يتصبب عرقاً وجدية.

«لا لن يكون لي أي صلة بسيارة مسروقة».

«أوه، هيا يا رجل، توني سيأتي معي، أليس كذلك، يا توني العزيز؟» وتوني، الشاب الهزيل غامق الشعر أجوف العينين المتألم الضائع مال على دين وراح يئن ويئن، لأنه شعر بالمرض فجأة ثم لسبب ما أجفل من دين ورفع يديه عنه والفزع واضح على وجهه. أحنى دين رأسه وتعرق. ثم هرع إلى الخارج وابتعد بالسيارة. أنا وفرانكي عثرنا على سيارة أجرة في الموقف واتجهنا إلى البيت، وبينما السائق يصعد بنا بولفار ألميدا الذي مشيته من قبل ليالي وليالي كثيرة خلال أشهر الصيف السابقة، مغنياً ومتأوهاً وملتهماً النجوم ومسيلاً عصير قلبي نقطة فنقطة على الزفت الحار، ظهر دين فجأة خلفنا بالسيارة المكشوفة المسروقة وبدأ يطلق بوقه وهو يقترب منا صارخاً. وجه السائق صار شاحباً.

«إنه مجرد صديق لي»، قلت له. سئم دين منا وانطلق بالسيارة بسرعة تسعين ميلاً بالساعة، نافثاً دخان العادم في وجهينا. ثم انعطف عند الطريق المؤدية إلى بيت فرانكي وركن السيارة أمام بيتها، لينطلق مجدداً عائداً إلى البلدة، بينما ندفع الأجرة للسائق. بعد بضع دقائق بينما ننتظر بقلق في الفناء المعتم، عاد بسيارة أخرى، كوبيه قديمة، وتوقف

مثيراً غيمة من الغبار أمام البيت، وخرج مترنحاً ومضى مباشرة إلى غرفة النوم وارتمى ميتاً من السكر على السرير. وها نحن مع سيارة مسروقة عند عتبة البيت تماماً.

كان عليّ أن أوقظه؛ لم أكن أعرف كيف أشغّل السيارة لكي أرميها بعيداً في مكان ما. خرج مترنحاً من السرير، لابساً فقط سرواله القصير، ودخلنا معاً إلى السيارة، بينما الأولاد يضحكون وراء النوافذ، وانطلقنا على الطريق الوعرة وبشق النفس وصلت السيارة إلى حقل قطن قرب الطاحونة القديمة «لا يمكننها المضي أبعد»، قال دين ببساطة وخرجنا وبدأنا نمشي في حقل الذرة، نحو نصف ميل. عدنا إلى البيت وذهب هو إلى النوم. كل شيء كان في فوضى رهيبة، كل دنفر، صديقتي، السيارات، الأطفال، فرانكي المسكينة، غرفة الجلوس الملطخة بالجعة والعلب الفارغة، وحاولت أن أنام. صرار الليل حرمني من النوم لبعض الوقت. ليلاً في هذا الجزء من الغرب تكون النجوم، مثلما رأيتها في وايومنغ، كبيرة كالشموع الرومانسية ووحيدة مثل أمير الدارما[1] الذي تخلى عن ميراث أسلافه وعبر السماوات بين النجوم مهتدياً بال«بيغ ديبر»[2]، محاولاً العثور على سرّ المعرفة. هكذا مضيا في الليل، ثم

(١) الدارما: Dharma تعبير سنسكريتي يعني «القانون الطبيعي»، أما محمولها الروحاني والديني فيشير إلى «سبيل الحقائق العليا». «أمير دارما» هنا هو «سيدهارثا غوتاما» أو باختصار بوذا مؤسس البوذية.

(٢) «بيغ ديبر»: Big Dipper التعبير الأميركي ل«الدب الأكبر»: في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، أبحر مكتشف إغريقي اسمه بيثياس بالقرب من المحيط القطبي الشمالي، وأوضح في تقرير له أن هناك بحراً متجمّداً على مسيرة ستة أيام إلى الشمال من الجزر البريطانية، وقد سمّى اليونانيون القدماء المنطقة القطبية باسم جرم سماوي يطلقون عليه أركتوس (الدب). واليوم تعرف هذه المجموعة من النجوم التي تشمل الدب الأكبر باسم أورسا ميجور، أو (الدب الأكبر والدب الأصغر)، وهو يظهر في السماء الشمالية.

وقبل وقت طويل من شروق الشمس انتشر الضوء الأحمر العظيم فوق الأرض الكئيبة وصولاً إلى وست كانزاس وفردت الطيور أجنحتها في سماء دنفر.

- ٨ -

استيقظنا صباحاً شاعرين بصداع عظيم، وذهب دين إلى حيث ركن السيارة لكي يرى إذا كانت تقدر على حملنا إلى الشرق، ومع أنني رفضت الفكرة، فقد ذهب على أي حال، ثم عاد مكفهر الوجه «إنها سيارة شرطي يا رجل وكل مخفر في البلدة يعرف بصمات أصابعي من تلك السنة التي سرقت فيها خمسمائة سيارة. أرأيت ما الذي فعلته بها، كل ما أبتغيه الذهاب في جولة! اسمع علينا أن نرحل!، سينتهي بنا الأمر في السجن ما لم ننطلق تواً».

«معك محق»، أجبته، ثم وضّبنا أشياءنا على عجل، وودعنا عائلتنا الصغيرة الجميلة وخرجنا متسربلين نحو مكان آمن لا يعرفنا فيه أحد. كانت جانيت الصغيرة تبكي حين رأتنا، أو حين رأتني، أو أياً يكن، أرحل، وكانت فرانكي بهية كملكة فقبلتها معتذراً.

«إنه مجنون حقا»، قالت، «يذكرني فعلاً بزوجي الفارّ. أتمنى ألا يصير ابني ميكي مثلهما، كلهم يصبحون كذلك هذه الأيام».

وودعت لوسي الصغيرة، وكانت تحمل الخنفساء في راحة يدها، وكان جيمي الصغير نائماً. كل هذا في غضون ثوان، ذات فجر يوم أحد جميل. مضينا مسرعين، متوجّسين من أن سيارة شرطة ستظهر في أي لحظة عند مفترق ما».

«إذا ما عرفت المرأة ذات البندقية بالأمر فقد قضي علينا»، قال دين «علينا تأمين سيارة أجرة، وعندها نصبح بأمان». كنا على وشك أن نوقظ

عائلة من المزارعين لكي نستعمل هاتفهم لكن كلبهم أبعدنا. كل دقيقة يزداد الأمر خطراً، الكوبيه سيعثر عليها مزارع ممن ينهضون باكراً. سمحت لنا عجوز طيبة باستعمال هاتفها، وطلبنا سيارة أجرة من وسط البلد، لكنها لم تأت، فمضينا نزولاً على الطريق. بدأت حركة السير المبكرة، وكل سيارة بدت بالنسبة إلينا شبيهة بسيارات الشرطة، ثم فجأة اقتربت منا سيارة وأدركت أنها نهاية حياتي مثلما أعرفها ودخولي في مرحلة جديدة وفظيعة من السجون والندم وراء القضبان. لكن السيارة كانت التاكسي التي انتظرناها، التي طارت بنا فوراً.

في «مكتب السفريات» حصلنا على عرض رائع لقيادة سيارة كاديلاك ليموزين، طراز ١٩٤٧ إلى شيكاغو، فالسائق خاض رحلة طويلة من المكسيك مع عائلته وتعب من القيادة، فوضعهم على متن قطار، وكل ما طلبه منا، حتى يضع السيارة بعهدتنا هو هوية تعريف، ووعداً بأن نوصل السيارة. أكدت له أوراقي أن كل شيء سيكون على ما يرام. قلت له ألا يقلق، وقلت لدين، «لا تحاول سرقة هذه السيارة». كان دين لا يطيق صبراً لرؤيتها حين يأتي بها صاحبها بعد ساعة. تمددنا على العشب قرب الكنيسة، حين أمضيت في العام ١٩٤٧ بعض الوقت مع المتسولين، بعد زيارة ريتا بتنكور، وعلى العشب غفوت من التعب الخالص ناظراً إلى طيور الأصيل، سامعاً نغمات الأرغن تنبعث من مكان ما. دين ذهب في جولة سريعة إلى البلدة. اتصل بفتاة كان يعرفها تعمل نادلة في كافيتريا، ووعدها بأن يصحبها بجولة في سيارته الكاديلاك بعد الظهر، وعاد وأيقظني بهذه الأخبار. كان صداعي قد خفّ الآن، لكنني استيقظت على التعقيدات الجديدة.

حين وصلت السيارة، ركبها دين فوراً «لكي أملأها بالوقود»، ونظر الرجل في «مكتب السفريات» إلي وسألني «متى سيرجع؟ الركاب

جاهزون للانطلاق». وأشار إلى شابين إيرلنديين من مدرسة جزويتية ينتظران وحقائبهما مكومة على المقاعد.

«ذهب ليملأ الوقود فقط، سيعود في الحال». مضيت إلى زاوية الشارع ورأيت دين وهو ينتظر النادلة بينما تغير ملابسها في غرفة الموتيل، كان يمكنني رؤيتها من حيث أقف، تسوي أمام المرآة جوربها النايلون، وتمنيت لو أنه يمكنني مرافقتهما. نزلت مهرولة وقفزت إلى السيارة. عدت لكي أطمئن مدير «مكتب السفريات» والراكبين، ومن مكاني عند الباب رأيت السيارة تعبر بسرعة كليفلاند بلايس وفيها دين، في قمة حماسته، يؤشر بيديه ويحادث الفتاة منكباً على عجلة القيادة فيما هي جالسة بحزن وافتخار قربه. ذهبا إلى مرآب سيارات، حيث ركن دين السيارة قرب الجدار القرميد في الخلف (مرآب عمل فيه دين سابقاً)، وهناك، بحسب زعمه، ضاجعها، ليس هذا فحسب بل أقنعها بأن تتبعنا بالحافلة، ما إن تحصل على أجرها الأسبوعي من «فرايداي»، وأن تلاقينا في شقة أيان ماك أرثر في لكسنغتون أفينيو في نيويورك. وافقت على المجيء؛ كان اسمها بيفرلي. بعد ثلاثين دقيقة عاد دين مسرعاً، أنزل الفتاة عند الفندق، مع القبل، والوداع، والوعود، وعاد إلى «مكتب السفريات» لكي يقل المجموعة.

«حسناً، لقد حان الوقت»، قال سام مدير المكتب، «ظننت أنك هربت بالسيارة».

«هذه مسؤوليتي»، قلت، «لا تقلق»، وقلت ذلك لأن الجميع رأوا اهتياج دين الذي يدل على مدى جنونه. تحرك دين وساعد الفتيين الجزويتيين على حمل حقائبهما. كانا بالكاد جلسا، وكنت بالكاد لوحت مودعاً دنفر، حين انطلق بالسيارة، ولم نكن خرجنا بعد من المدينة حين تعطل عداد السرعة لأن دين كان يقود بسرعة ١١٠ أميال بالساعة.

«حسناً، لم يعد هناك عداد سرعة. لن أعرف بأي سرعة أمضي. سأقود هذه السيارة إلى شيكاغو فحسب وأعرف من الوقت». لم يبدُ أننا نمضي حتى بسرعة سبعين ميلاً، لكن كل السيارات كانت تقع وراءنا مثل ذبابات ميتة على الطريق السريعة التي تؤدي مباشرة إلى غريلي. «سبب ذهابنا شمالاً يا سال هو أننا ينبغي بالتأكيد أن نزور مزرعة إد وال في ستيرلنغ، عليك أن تلتقيه وترى مزرعته وهذه السيارة سريعة مما يتيح لنا القيام بذلك ثم الذهاب إلى شيكاغو بعدها قبل أن يصل قطار ذلك الرجل». حسناً، وافقت على الفكرة. بدأت تمطر، لكن دين لم يخفض سرعته. كانت سيارة كبيرة رائعة، آخر ليموزين من الطرز القديم، سوداء، طويلة عجلاتها بيضاء، ونوافذها على الأرجح مضادة للرصاص. جلس الفتيان الجزويتيان، من مدرسة «سانت بونافينتورا»، في الخلف، سعيدين بالرحلة، ولم يكن لديهما أي فكرة عن سرعة السيارة. حاولا محادثتنا لكن دين قابلهما بالصمت ونزع كنزته وقاد عاري الصدر. «أوه، بيفرلي تلك فتاة رائقة حلوة، ستنضم إلي في نيويورك، سنتزوج حالما أحصل على أوراق الطلاق من كاميل، كل شيء ينطلق، سال، ونحن منطلقين. مرحى!». كلما ابتعدنا أكثر عن دنفر ازداد شعوري بالتحسن، وكنا نفعل ذلك بسرعة. أعتمت ونحن ننعطف في مكان ما على الطريق السريعة وسلكنا الطريق القذرة التي تقودنا عبر سهول إيست كولورادو إلى مزرعة إد وال في وسط كويوتي نوواير. لكنها كانت لا تزال تمطر والوحل زلق، وأخفض دين سرعته إلى السبعين، لكنني طلبت منه أن يخفضها أكثر من ذلك وإلا انزلقت السيارة، وأجابني «لا تقلق يا رجل، أنت تعرفني».

«ليس هذه المرة»، قلت، «أنت تبالغ حقاً». وكان يطير على ذلك الوحل الزلق وفي اللحظة التي قلت بها ذلك كان أمامنا منعطف حاد إلى اليسار وأدار دين العجلة بسرعة لكي يتمكن من عبور المنعطف لكن السيارة تزحلقت على الشحم.

«حذار!»، صرخ دين، الذي لم يبال قط وصارع لدقيقة، وانتهى الأمر بوقوع السيارة في المزراب من الخلف ومقدمتها إلى الطريق. ساد بعدها سكون رهيب. سمعنا الريح تئن. كنا وسط البراري. كان هناك مزرعة على بعد ربع ميل عند نهاية الطريق. لم أستطع التوقف عن الشتم، كنت غاضباً جداً من دين. لم يقل شيئاً ومضى إلى المزرعة تحت المطر، لابساً معطفاً، بحثاً عن المساعدة.

«هل هو أخوك؟»، سألني الشابان في المقعد الخلفي، «إنه الشيطان يقود سيارة، أليس كذلك، وبحسب ما يحكيه ينبغي أن يكون مع النساء».

«إنه مجنون»، قلت، «وأجل، هو أخي»، عاد دين مع مزارع على شاحنة جرّ زراعية. ربطا السيارة بالسلاسل وأخرجا السيارة من المزراب. أصبحت الآن ملطخة بالوحل، ودمّر الصاد الخلفي فيها. تقاضى منا المزارع خمسة دولارات. بناته راقبن في المطر. أجملهن وأكثرهن حياء اختبأت في الحقل لكي تتفرج وكان لها سبب وجيه لأنها كانت بالتأكيد وبشكل نهائي أجمل فتاة أراها أنا أو دين. كانت في السادسة عشرة تقريباً، وكانت سحنتها سهلية كالزهور البرية، ولها أجمل عينين زرقاوين في العالم، وأجمل شعر، وتواضع ظبي بري وخفته. عند كل نظرة منا كانت تجفل. وقفت هناك والرياح العاتية الآتية مباشرة من قمة ساسكاتشيوان تطير شعرها، مكورة إياه في خصل. كانت تتورد وتتورّد خجلاً.

أنهينا عملنا مع المزارع. ألقينا نظرة أخيرة على ملاك المروج، وانطلقنا، ببطء هذه المرة، حتى حلت العتمة وقال دين إننا أشرفنا على الوصول إلى مزرعة إد وال «أوه، فتاة كتلك تخيفني»، قلت، «يمكن أن أتخلى عن كل شيء وأرتمي تحت رجليها، وإذا رفضتني يمكن أن أرمي

نفسي عن حافة العالم». ضحك الفتيان الجزويتيان. كانا مليئين بالنكات المبتذلة وترهات أولاد الكليات وكان رأساهما الفارغان محتشدين بمقولات أسيء فهمها لتوما الأكويني، لكننا لم نعرهما أدنى اهتمام. بينما نعبر السهول الموحلة أخبر دين قصصاً عن أيامه كرجل كاوبوي، أرانا، ما إن وصلنا إلى مزرعة إد وال الواسعة، على المكان الذي امتطى فيه الخيل؛ وحيث قام بإنشاء السياج، وحيث أولد بال، ووالد إد، كانا يركضان على العشب مطاردين كفلاً صارخين «أمسك به، أمسك به، اللعنة!». «كان عليه الحصول على سيارة جديدة كل ستة أشهر»، قال دين «لم يكن يهمه الأمر. حين يشرد قطيع منا يمضي وراءه إلى البركة الأقرب، ثم يوقف السيارة ويطارده ركضاً. يعد كل سنت يجنيه ويضعه في قدر. عجوز مجنون. سأريك بعض خرائبه القديمة قرب المستودع. هناك حيث خضعت للمراقبة بعد آخر مرة سجنت فيها، وحيث كتبت تلك الرسائل التي أريتها لتشاد كنغ». خرجنا عن الطريق واجتزنا ممراً ملتفاً عبر المرعى الخريفي. حشد من الأبقار بيضاء الوجه اعترض فجأة طريقنا، «هاك هي! أبقار وال! لن نستطيع تجاوزها أبداً. علينا أن نخرج ونبعدها!». لكننا لم نضطر إلى فعل ذلك ومررنا بجوارها، مرتطمين بها برقة بينما تخور وتتموّج حول السيارة كالموج. رأينا أضواء مزرعة إد وال، المحاطة بمئات الأميال من السهول.

ذلك النوع من العتمة المطلقة التي تهبط على مروج كهذه لا يستطيع أن يستوعبها شخص من الشرق. لم يكن هناك نجوم، لا قمر، ولا أي نور سوى ذلك المنبعث من ضوء مطبخ السيدة وال. كل ما يمتد بعد ظلال الباحة كان مشهداً لانهائياً للعالم لا تمكن رؤيته حتى الفجر. طرقنا الباب ونادينا في العتمة إد وال، الذي كان في الحظيرة يحلب الأبقار، ثم قمت بنزهة قصيرة حذرة، نحو عشرين قدماً لا أكثر، وحسبتني

سمعت أصوات القيوط. قال وال إنه على الأرجح أحد جياد أبيه الهرمة تصهل في البعيد. كان إد وال بعمرنا تقريباً، طويل، ممشوق القامة، ناتئ الأسنان، قليل الكلام. هو ودين كانا يقفان في زوايا كورتيس ستريت ويصفّران للفتيات. وها هو الآن يستقبلنا بلطف في صالون بيته القاتم غير المستعمل، ثم يبحث عن مصابيح قديمة قائلاً لدين، «ما الذي بحق السماء حدث لإبهامك؟».

«لقد لكمت ماري لو والتهب حتى اضطروا إلى بتر طرفه».

«لماذا فعلت ذلك بحق السماء؟». بدا واضحاً بالنسبة إلي أنه كان بمثابة الأخ الأكبر لدين. هز رأسه؛ دلو الحليب كان لا يزال عند قدميه. «لطالما كنت وغداً معتوهاً على أي حال».

في الأثناء أعدت زوجته الشابة مائدة رائعة في المطبخ، معتذرة عن آيس كريم الدراق التي قدّمتها «ليست سوى كريما ودراق مجمدة معا». بالطبع كانت الآيس كريم الحقيقية الوحيدة التي تناولتها في حياتي، خفيفة ودسمة في آن. أثناء تناولنا الطعام كانت تضيف باستمرار أشياء جديدة إلى المائدة. كانت شقراء ممشوقة، ومثل جميع النساء اللواتي يعشن في الأمكنة النائية الفسيحة كانت تتذمر من الضجر، وعدّدت لنا البرامج الإذاعية التي تستمع إليها عادة في مثل هذا الوقت من الليل. إد وال جلس فحسب محملقاً في يديه. أكل دين بنهم. أرادني أن أتماشى معه في خبرية أن سيارة الكاديلاك لي، وأنني رجل ثري وهو صديقي وسائقي. لم يؤثر ذلك في إد وال. كل مرة كانت الماشية تخور في الحظيرة يرفع رأسه منصتاً.

«حسناً، أرجو أيها الفتيان أن تصلا بخير إلى نيويورك». لم يصدق قصة امتلاكي السيارة، وكان متيقناً من أن دين سرقها. مكثنا في المزرعة نحو ساعة. إد وال فقد ثقته بدين تماماً مثل سام برايدي، كان ينظر إليه،

حين ينظر، بارتياب. جمعتهما في الماضي أيام من الإفلاس أمضيا خلالها أوقاتاً صاخبة في شارعي لاريمير، ووايومنغ، لكن كل هذا انتهى الآن.

راح دين يقفز على الكرسي بتوتر «حسناً بلى، حسناً بلى، والآن أظن أنه يجدر بنا الانطلاق لأنه ينبغي أن نكون في شيكاغو غداً ليلاً، وقد أضعنا أساساً ساعات عدة». شكر الفتيان الجامعيان إد بدماثة وانطلقنا من جديد. استدرت لأرى ضوء المطبخ يغرق في لجة الليل.

ـ ٩ ـ

عدنا إلى الطريق السريعة وتلك الليلة رأيت ولاية نبراكسا كلها تمر أمام عيني. بسرعة ١١٠ ميل بالساعة، على طريق سهمية، أمام بلدات نائمة، بدون إشارات سير، وقطار «يونيون باسيفيك» يمضي وراءنا في ضوء القمر. لم أكن خائفاً البتة تلك الليلة؛ كانت سرعة ١١٠ شرعية تماماً، ومثلها أن نتحدث بينما كل بلدات نبراسكا مثل أوغالالا، غوثنبرغ، كيرني، غراند أيلند، كولمبس، تكرّ بسرعة حلمية بينما نقطع الوقت بالمحادثة. كانت سيارة مذهلة تتشبث بالطريق كقارب يتشبث بالمياه، أما المنعطفات المتتالية فأغنية سهلة بالنسبة إليها. «أوه يا رجل، يا له من قارب حلمي»، تنهد دين، «فكر ما الذي يمكن أن نفعله معاً لو كنا نملك سيارة كهذه. هل تعرف أن هناك طريقاً تقود من المكسيك إلى باناما مباشرة؟ وربما إلى قلب أميركا الجنوبية حيث الهنود بطول سبعة أقدام يزدردون الكوكايين عند سفوح الجبال؟ مرحى! أنا وأنت، سال، يمكننا استكشاف العالم كله بسيارة كهذه لأنه يا رجل الطريق في النهاية تقود إلى العالم كله. ليس من مكان آخر تذهب إليه، صح؟ أوه، أولن نجول بهذه في شيكاغو القديمة! فكر بذلك سال لم أزر شيكاغو في حياتي كلها، لم أتوقف فيها».

«سندخلها بهذه السيارة مثل رجال العصابات!».

«أجل! والفتيات! يمكننا أن نقل الفتيات، في الواقع لقد قررت زيادة السرعة لنكسب وقتاً إضافياً بحيث نتمكن من إمضاء أمسية متجولين بهذا الشيء. الآن استرخ فحسب وسأقود طوال الطريق».

«حسناً، بأي سرعة تمضي الآن؟».

«١١٠ ثابتة على ما أظن، لن تلاحظ ذلك. لا يزال أمامنا كل أيوا نهاراً ثم سأعبر إلنوي بسرعة الضوء». غفا الفتيان وتحدثنا وتحدثنا طوال الليل.

كان مذهلاً كيف يمكن أن يجن دين وفي الوقت نفسه يحافظ على هدوئه وعقله وروحه، التي أظن أنها كناية عن سيارة سريعة، وساحل ليبلغه، وامرأة عند نهاية الطريق. «أسمع مثل تلك التعليقات كل مرة في دنفر هذه الأيام، لم أعد أستطيع العيش في تلك المدينة بعد الآن. غوكلي غوكي، دين المخيف. زووم!». أخبرته أنني عبرت نبراسكا في ١٩٤٧. وهو أيضاً. «سال، حين كنت أعمل لدى مصبغة «نيو إرا» في لوس أنجيليس، في ١٩٤٤، كاذباً بشأن سني، قمت برحلة إلى مضمار سباق إنديانا بولس لمشاهدة سباق «ماموريال داي كلاسيك»، وكنت أتنقل استوقافاً نهاراً وأسرق السيارات ليلاً من أجل الجنس. أيضاً كان معي في ل. أ. سيارة بويك مهترئة تساوي عشرين دولاراً، وكانت سيارتي الأولى، ولم تستطع اجتياز فحص المكابح والضوء لدى شرطة المرور، فقررت الحصول على رخصة تسجيل من خارج الولاية لكي أقود السيارة من دون أن أعتقل لذا أتيت إلى هنا، وبينما كنت أعبر مستوقفاً إحدى هذه البلدات بالذات، مخفياً لوحة السيارة تحت معطفي، لمحني شريف فضولي وفكّر بأنني أصغر من أن أسافر مستوقفاً فأوقفني وعثر على نمر السيارة ورماني في سجن من زنزانتين مع جانح آخر من

المقاطعة كان يفترض أن يكون في بيته لأنه لا يستطيع إطعام نفسه (كانت زوجة «الشريف» تطعمه)، وظل طوال اليوم يثرثر ويسيل لعابه. بعد التحقيق، الذي تضمن أموراً سخيفة مثل امتحان أبوي، ثم إخافتي بالتهديدات، ومقارنة خط يدي، الخ، وبعد أن قمت بأروع خطاب في حياتي لكي أخرج من هناك، خاتماً إياه باعتراف بأنني كنت أكذب بشأن ماضيَ كسارق للسيارات وأنني أبحث فحسب عن أبي الذي يعمل في الزراعة في مكان ما هنا، أخلى سبيلي. بالطبع فاتني السباق. وفي الشتاء التالي فعلت الشيء نفسه لكي أشاهد مباراة نوتردام ـ كاليفورنيا في ساوث بند، إنديانا، ولم أواجه مشكلة هذه المرة، سال، كان معي المال من أجل التذكرة فقط فلم أضع في فمي لقمة طعام، سوى ما تمكنت من تسوله من كافة أنواع المجانين الذين التقيتهم على الطريق، باحثاً في الوقت نفسه عن الفتيات. لن تجد إلا في أميركا شاباً يقطع مسافة كهذه ويتكبد هذا القدر من العناء فقط لكي يشاهد مباراة كرة قدم».

سألته عن حياته في لوس أنجيليس في ١٩٤٤ «اعتقلت في أريزونا، أسوأ سجن عرفته في حياتي. وقمت بأعظم فرار في حياتي، هربت عبر الغابات والمستنقعات، زحفاً وصعوداً وهبوطاً. فلما كانت تنتظرني في السجن خراطيم المطاط والعمل الشاق وما يسمى بالموت العرضي كان علي عبور الغابة، بعيداً عن الطرق المكشوفة، وكان علي أن أتخلص من ثياب السجن فقمت بعملية نشل رشيقة لقميص وبنطال من محطة وقود خارج فلاغستاف، ووصلت إلى ل. أ. بعد يومين مرتدياً ثياب عامل محطة، واتجهت إلى أول محطة رأيتها وعملت هناك وتمكنت من استئجار غرفة، وغيرت اسمي إلى لي بلوياي وعشت سنة حافلة في ل. أ. مع زمرة جديدة من الأصدقاء وبعض الفتيات الرائعات حقاً، وذلك الفصل انتهى حين كنا جميعاً نقود على هوليوود بولفار ذات ليلة وقلت

لصديقي أن يستلم المقود قليلاً بينما أقبل فتاتي، ولم يسمعني فارتطمنا بعامود، لكنني كنت أقود بسرعة عشرين ميلاً بالساعة فقط، وكسرت أنفي. لقد رأيت أنفي من قبل، ذلك الاعوجاج في الأعلى. ذهبت بعدها إلى دنفر والتقيت ماري لو في محل للمشروبات الغازية. أوه يا رجل، كانت في الخامسة عشرة فقط، وترتدي الجينز وتنتظر أن يأتي أحدهم ويرحل بها. أمضينا ثلاثة أيام بلياليها نتحدث في فندق آيس، الطابق الثالث، الغرفة الجنوب شرقية، غرفة مقدسة ومشهد مقدس من أيامي، كانت حلوة جداً وقتذاك، فتية جداً، هممم، آههه! لكن هاي، أنظر في الأسفل، ثمة زمرة من المتشردين حول النار قرب الطريق». كاد يبطئ سرعته، «أترى لن أعرف إذا كان أبي بينهم أم لا». كان هناك بعض الأشخاص قرب السكة، متجمعين حول حطب مشتعل. «لا أعرف ما إذا كان ينبغي أن أسأل، يمكن أن يكون في أي مكان». تقدمنا. في مكان ما وراءنا أو أمامنا في الليل الضخم، أبوه يتمدد سكران تحت شجرة، ولا ريب في ذلك، البصاق على وجنتيه، البول في بنطاله، والشمع في أذنيه، والجرب على منخريه، والدم في رأسه، والقمر يشع فوقه.

أمسكت ذراع دين، «آه يا رجل بالتأكيد نحن ذاهبان إلى مدينتنا الآن». نيويورك ستصبح مدينته الدائمة للمرة الأولى. ضحك من كل قلبه، لم يكن يطيق الانتظار.

«وفكر، سال، حين نصل إلى بنسلڤانيا سنبدأ بسماع موسيقى الجاز الشرقي الرائعة تلك. هيا انطلق أيها القارب القديم انطلق». السيارة الرائعة جعلت الريح تعوي، والسهول تتكشف مثل لفافة ورق، لافظة الزفت الحار مثل قارب إمبراطوري. فتحت عيني على فجر رائع، كنا نسرع صعوداً إليه، ووجه دين الصخري المتعب كالعادة منحن على لوحة القياس.

«ما الذي تفكر به؟»

«آها ها ها، الشيء القديم نفسه، مثلما تعرف، البنات، البنات، البنات».

غفوت واستيقظت على طقس يوليو الجاف الحار يوم الأحد، وكان دين لا يزال يقود ويقود من دون أن يخفف سرعته، قطع طرقات أيوا المتعرجة بسرعة ٨٠ ميلاً بالساعة على الأقل وتلك المستقيمة بسرعة ١١٠، إلا حين يكون الطريق من خطين ويجبره الازدحام على خفض السرعة إلى ٦٠، مقتنصاً الفرص لكي يتجاوز السيارات مغرقاً إياها بالغبار، وقد رأى سائق مجنون يركب سيارة بويك جديدة هذا كله وقرر أن يتحدى دين، فعبر بمحاذاتنا فجأة مطلقاً بوقه وغامزاً بالمصابيح. انطلق دين في إثره كطائر ضخم. «سترى الآن»، قهقه دين، «سأزعج السافل لبضعة أميال، راقب». في البداية تركه يبتعد، ثم زاد سرعته وحاذاه تقريباً، فجن جنون السائق المجنون، وزاد سرعته إلى ١٠٠، وفي لحظة ما تمكنّا من رؤيته. بدا رجل عصابات من شيكاغو يسافر مع امرأة مسنة الأرجح أنها أمه، والله يعلم ما إذا كانت تتذمر مما يحدث، لكنه ظل يسابقنا. شعره قاتم وأشعث، إيطالي من شيكاغو القديمة، ويرتدي كنزة رياضية. ربما ظن أننا عصابة جديدة من لوس أنجيليس جئنا لنغزو شيكاغو، ربما حسبنا من رجال ميكي كوهين، لأن الليموزين توحي بذلك، خصوصاً وأن لوحة الأرقام صادرة من كاليفورنيا، لكن الأهم من ذلك كله بالنسبة إليه كانت الإثارة بشكل أساسي. قام بمجازفات رهيبة لكي يحافظ على تقدمه علينا، متجاوزاً السيارات عند المنعطفات وعائداً إلى الخط في اللحظة الأخيرة قبل بروز شاحنة ضخمة فجأة. ٨٠ ميلاً من أيوا قطعناها على هذا النحو، وكان السباق مثيراً جداً بحيث لم يكن من مجال للخوف. ثم استسلم الشاب المجنون، فتوقف

عند محطة وقود، على الأرجح نزولاً عند طلب السيدة العجوز، وبينما عبرنا بمحاذاته لوح لنا جذلاً. تقدمنا مسرعين، دين عاري الصدر، وأنا أمد رجلي على اللوحة الأمامية، والفتيان الجامعيان نائمان في الخلف. توقفنا لتناول الإفطار في مطعم تديره سيدة شائبة الشعر قدمت لنا كميات ضخمة من البطاطا، بينما أجراس الكنيسة ترن في البلدة القريبة. ثم انطلقنا ثانية.

«دين، لا تقد بسرعة في النهار».

«لا تقلق يا رجل، أعرف ما الذي أفعله». بدأت أخاف. كان دين يتقدّم خطوط السيارات مثل ملاك الرعب، وكاد يصطدم بعدد منها وهو يبحث عن مخرج. خفض السرعة وزادها وراوغ المنعطفات، عابراً إياها دائماً بمقدار شعرة قبل العودة إلى خط السير بينما السيارات التي تعبر الخط الثاني ترتعد خوفاً. لم يعد بوسعي الاحتمال. نادراً ما تجد خطاً مباشراً في أيوا، وحين بلغنا واحداً أخيراً عاد دين إلى سرعة ١١٠ الاعتيادية ورأيت مشاهد كثيرة في الخارج تمر ومضاً فتذكرت حين علقت في ١٩٤٧ أنا وإدي لساعتين على الطريق. كل طريق الحياة القديمة يمر كدوامة كما لو أن كأس الحياة انكسرت وكل شيء جن جنونه. بدأت عيناي تؤلمانني بسبب ضوء النهار الكابوسي.

«آه، اللعنة دين، سأجلس في المقعد الخلفي. لم يعد بوسعي الاحتمال، لا أستطيع النظر».

«هيي - هيي - هيي!»، صرخ دين وتجاوز سيارة عند جسر ضيق وانحرف عنها مثيراً الغبار وانطلق قدماً. قفزت إلى المقعد الخلفي وتكومت على نفسي لأنام. أحد الفتيان تقدم إلى المقعد الأمامي من أجل التسلية. سيطر علي حدس مرعب بأننا سنتعرض لحادث هذا الصباح بالذات فهبطت إلى أرضية السيارة وأغمضت عيني محاولاً أن

أغفو. حين كنت بحاراً كنت أفكر بالأمواج التي تندفع تحت السفينة والأعماق التي بلا قاع تحتها، وها أنا الآن أحس الطريق تحتي بعشرين إنشاً تقريباً، تهسهس وتطير بسرعة هائلة عبر القارة المتأوهة، مع ذلك المجنون وراء المقود. لم أستطع، حين أغمضت عيني، إلا أن أحس بالطريق تخترقني، وحين فتحتهما رأيت ومضاً ظلال أشجار ترتعش في أرضية السيارة. لم يكن من مهرب من هذه الأحاسيس، فاستسلمت لها. ودين لا يزال يقود، ولم يفكر بالنوم حتى وصلنا إلى شيكاغو. عصراً عبرنا دي موان مجدداً، وعلقنا في الزحمة واضطررنا إلى الإبطاء فعدت إلى المقعد الأمامي، ووقع معنا حادث غريب مؤسف. كان ثمة نيغرو سمين معه عائلته كلها يقود سيارة «سيدان» أمامنا مباشرة، وعلى الصادّ الخلفي كان معلقاً واحداً من أكياس الماء القماشية تلك التي يبيعونها للسائحين في الصحراء. توقف الرجل فجأة، وكان دين مشغولاً بالتحدث مع الفتيان في الخلف ولم ينتبه فارتطمنا به بسرعة خمسة أميال في الساعة وانفجر الكيس وهرق الماء في الهواء. لم يكن هناك من ضرر يذكر سوى انبعاج الصادّ قليلاً. خرجت ودين لنتحدث معه. تبادلنا العناوين وتحدثنا قليلاً، من دون أن ينزع دين عينيه عن نهدي زوجة الرجل السمراوين الرائعين اللذين بالكاد كانت تخفيهما الكنزة القطن، مردداً «بلى، بلى». أعطيناه عنوان الرجل في شيكاغو ومضينا.

عند نهاية دي موان سمعنا صفارة سيارة دورية في إثرنا. «هل تعرضتما لحادث؟».

«حادث؟ لقد حطمنا كيس ماء يخص رجلاً ما عند المنعطف».

«هو يقول إن زمرة من الشبان في سيارة مسروقة ارتطموا به وهربوا». كانت تلك واحدة من الحوادث القليلة التي رأينا فيها أنا ودين رجلاً من النيغرو يكون مرتاباً على هذا النحو الأخرق، وفاجأنا ذلك إلى حد

الضحك. كان علينا أن نتبع شرطي الدورية إلى المركز وهناك أمضينا ساعة ننتظر على العشب بينما اتصلوا بـ شيكاغو لكي يتأكدوا من مالك الكاديلاك من روايتنا. قال السيد بارون، بحسب الشرطي، «بلى، هذه سيارتي لكنني لا أتحمل مسؤولية أي شيء آخر قد يكون فعله هؤلاء الفتيان».

«لقد تعرضا لحادث بسيط هنا في دي موان».

«أجل، قلت لي ذلك، ما قصدته هو أنني لا أتحمل مسؤولية أي شيء ارتكباه في السابق».

تم إيضاح الأمر واستأنفنا سيرنا. وصلنا إلى نيوتن، أيوا، حيث قمت بتلك النزهة فجراً في ١٩٤٧، وعصراً اجتزنا دافنبورت القديمة الخاملة مجدداً، والمسيسيبي المنخفض في سريره الغباري، ثم روك أيلند، بضع دقائق من الازدحام، الشمس تغرب، ثم المشهد المفاجئ العذب للأنهار الصغيرة تتدفق بسلاسة بين الأشجار السحرية ومراعي إلنوي الخضراء. بدأ الأمر يبدو شبيهاً بالشرق الناعم ثانية، انتهينا من الغرب الجاف العظيم. انكشفت أمام عيني إلنوي في لحظة شاسعة واحدة استمرت ساعات بينما دين يمضى قدماً بالسرعة نفسها. وعلى الرغم من تعبه كان يقوم بأكثر مجازفاته خطراً. عند جسر ضيق فوق أحد تلك الأنهار الجميلة حشر السيارة في وضع شبه مستحيل. سيارتان بطيئتان كانتا تتقدمان أمامنا خبباً على الجسر، وعلى الخط المقابل قاطرة ضخمة يقودها سائق يجري تقديرات نسبية كم من الوقت ستستغرقه السيارتان البطيئتان حتى تعبرا الجسر، وتقديره كان أنه بوقت وصوله إلى الجسر تكونان قد عبرتا. لم يكن هناك أي فسحة على الجسر للشاحنة وأي سيارات تمضي في الاتجاه الآخر. وراء الشاحنة السيارات تنتظر فرصة لتجاوزها. أمام السيارتين البطيئتين سيارات أخرى بطيئة بالكاد تتحرك

قدماً. كانت الطريق محتشدة والجميع يسعى إلى المرور. وصل دين إلى هذه الزحمة بسرعة ١١٠ أميال ولم يتردد. تجاوز السيارات البطيئة، انحرف، وكاد يرتطم بالجانب الأيسر من الجسر، مضى قدماً في ظل الشاحنة المسرعة بدورها، قطع من أمامها مباشرة، وكاد يرتطم بعجلتها الأمامية اليسرى، وكاد يرتطم بالسيارة الأولى المبطئة، فانحرف عنها، ثم كان عليه أن يعود إلى الخط حين تقدمت سيارة أخرى من وراء الشاحنة أراد سائقها النظر بحثاً عن فسحة للمرور، كل هذا في غضون ثانيتين، وامضاً وتاركاً وراءه كتلة غبار بدلاً من حادث ارتطام مروع مع السيارات المندفعة من كل اتجاه والشاحنة الضخمة المنطلقة بسرعة في أصيل إلنوي اللاهب وحقولها الحالمة. لم أستطع إخراج المشهد من رأسي، خصوصاً وأنني تذكرت مقتل عازف كلارينت مؤخراً في حادث سير في إلنوي، على الأرجح في يوم كهذا، فعدت إلى المقعد الخلفي.

بقي الفتيان كذلك في الخلف. كان دين مصمماً على بلوغ شيكاغو قبل منتصف الليل. عند أحد المنعطفات أقلينا متشردين اشتركا بدفع نصف دولار من أجل الوقود. قبل ثوان كانا جالسين على أكوام من قضبان الحديد، شاربين آخر ما لديهما من النبيذ، والآن وجدا نفسيهما في ليموزين فاخرة وإن كانت موحلة، متجهة إلى شيكاغو، ولم يتمكن المتشرد الذي جلس إلى جوار دين من نزع عينيه عن الطريق وراح لسانه يلهج بأدعية مسكينة، «حسناً»، قالا، «لم يخطر لنا أن نصل إلى شيكاغو بهذه السرعة». اجتزنا بلدات إلنوي النائمة التي اعتاد أهلها الارتياب من عصابات شيكاغو الذين يمرون يومياً بسيارات الليموزين، ولا بدّ من أن مشهدنا كان غريباً بالنسبة إليهم: ذقون نابتة، السائق عاري الصدر، وثمة متشردان، أنا في المقعد الخلفي ممسكاً موسى ورأسي مائل إلى الخلف ناظراً إلى الريف بعين متعجرفة، تماماً مثل رجل عصابات جديد من

كاليفورنيا جاء ليتحدى زعران شيكاغو، كنا مثل زمرة من الديسبيرادو الهاربين من سجون يوتاه. حين توقفنا من أجل الكولا والوقود في محطة بلدة صغيرة خرج الناس لكي يتفرجوا علينا لكنهم لم يظلوا صامتين وأظن أنهم حاولوا حفظ أوصافنا في حال احتاجوا مستقبلاً إلى ذلك. لكي يتعامل مع الفتاة التي تدير مضخة الوقود بالكاد ألقى دين عليه قميصه مثل وشاح وكان حاداً وجافاً كالعادة ثم عاد إلى السيارة وانطلقنا هادرين مجدداً. صار الشفق أرجوانياً، بينما يومض بمحاذاة الطريق آخر الأنهر المسحورة، ثم لاح لنا دخان شيكاغو البعيد. لقد اجتزنا من دنفر إلى شيكاغو مروراً بمزرعة إد وال، ١١٨٠ ميلاً، في سبع عشرة ساعة بالضبط، من دون احتساب الساعتين اللتين علقنا خلالهما في المزراب، والساعات الثلاث في المزرعة، والساعتين مع الشرطة في نيوتن، بمعدل سبعين ميلاً بالساعة، بسائق واحد، وهو نوعاً ما رقم قياسي مجنون.

ـ ١٠ ـ

تلألأت أنوار شيكاغو الحمراء العظيمة أمام أعيننا. وجدنا أنفسنا فجأة في ماديسون ستريت بين حشد من المتشردين، بعضهم ممدد في الشارع وأقدامه على الأفاريز، ومئات الآخرين يتسكعون على أبواب الحانات ومداخل الأزقة. «واب! واب! ابحث جيداً عن دين موريارتي العجوز هنا، قد تكون حملته المصادفة إلى شيكاغو هذه السنة». تركنا متشردي هذا الشارع وراءنا واتجهنا إلى وسط المدينة. عربات الترولي الزاعقة، بائعو الصحف، الفتيات، رائحة الطعام المقلي والجعة في الجو، والنيون يومض «نحن في المدينة الكبيرة، سال! مرحى!». أول ما علينا فعله أن نركن السيارة في ركن متوار وأن نتأنق من أجل الليلة. مقابل «الواي» عثرنا على زقاق من الآجر الأحمر بين المباني ركنا فيه السيارة، ثم تبعنا

الفتيان إلى الجمعية، حيث كانت لهما غرفة سمحا لنا باستعمالها لساعة. حلقنا ذقوننا واغتسلنا، وأوقعت حافظة نقودي في الردهة، فانتشلها دين، وكان بصدد أن يضعها خلسة في قميصه حين اكتشف أنها تخصنا وخاب أمله كثيراً. ثم ودعنا الشابين، اللذين كانا مسرورين لوصولهما بالسلامة، وذهبنا لنتناول الطعام. شيكاغو القديمة السمراء بأهلها الغريبين، نصف الشرقيين، ونصف الغربيين، متجهين إلى أشغالهم، باصقين على الأرض. وقف دين في الكافيتيريا حاكاً بطنه ومحملقاً في كل شيء. أراد التحدث مع امرأة أربعينية سوداء دخلت إلى المكان قائلة إنها لا تملك مالاً لكنها تملك كعكاً وتريد أن يعطوها الزبدة. دخلت مهزهزة ردفيها، وخذلوها، وخرجت مهزهزة مؤخرتها «هووو!»، قال دين، «لنأخذها إلى السيارة. . سنتسلى كثيراً». لكننا نسينا الأمر ومضينا مباشرة إلى نورث كلارك ستريت، بعد الاستماع قليلاً إلى بعض الجاز. ويا لها من ليلة كانت. «أوه يا رجل»، قال دين ونحن واقفين أمام حانة «أنظر إلى شارع الحياة هذا، وإلى الصينيين الذين يعبرون المدينة، ويا لها من مدينة غريبة - واو، وتلك المرأة على تلك النافذة فوق، تنظر بعينيها الواسعتين إلى الشارع فحسب وثدياها الضخمان يقفزان من قميص نومها، سال ينبغي أن نمضي بدون توقف حتى نصل إلى هناك».

«إلى أين يا رجل؟».

«لا أعرف، لكن علينا أن نمضي». ثم رأينا زمرة من موسيقيي الجاز الشبان يحملون آلاتهم، ودخلوا إلى حانة فتبعناهم. استعدوا وشرعوا بالعزف. ها نحن مجدداً هناك! قائد المجموعة كان مغنياً هزيلاً نحيفاً أجعد الشعر، ضامراً عند الكتفين، فضفاضاً بكنزته الرياضية، رائقاً في الليلة الدافئة، والانغماس بالذات جلي في عينيه، حمل آلته وراح يعزف أنغاماً رائقة ومعقدة ضارباً الأرض بقدمه لكي يلتقط الأفكار، ومحنياً

رأسه بسرعة حين تفوته أفكار أخرى، مردداً «اعزف» بهدوء شديد حين يقوم الآخرون بعزف منفرد. ثم كان هناك بيريز، شاب أشقر وسيم ضخم يشبه الملاكمين، أنيق ببدلته «الشركسكين» مع الثنيات الطويلة والقبة مقلوبة إلى الخلف وربطة العنق مفكوكة من أجل الوضوح التام والاعتيادية، ويتصبب عرقاً ناخعاً آلته إلى أعلى متلوياً بها، عازفاً نغمات تشبه لستر يونغ نفسه «أترى يا رجل، بيريز هذا له الهيئة التقنية لموسيقي يربح المال، إنه الوحيد المهندم جيداً، أترى كيف يبدو عليه القلق حين ينشّز، لكن القائد، ذلك الشاب الرائق، يقول له ألا يقلق، وأن يعزف ويعزف فحسب، صوت الموسيقى بحد ذاته والحماسة فيها هما كل همه. إنه فنان. إنه يعلّم هذا الملاكم بيريز، والآخرون يتفرجون!». كان عازف الساكسفون الثالث نيغرو في الثامنة عشرة، رائق، تأملي، على نمط تشارلي باركر، فمه واسع، وقامته أطول من الآخرين، وجدي. حمل آلته ونفخ فيها بهدوء وتفكّر جملاً موسيقية كالطيور تذكر بنيتها الهندسية بمايلز دايفس. أولئك كانوا أطفال مجددي الجاز العظام.

كان ذات مرة لويس أرمسترونغ يقدّم أجمل ما عنده في أوحال نيوأورلينز، قبله كان ثمة موسيقيون مجانين عزفوا في المناسبات الرسمية قبل أن يحولوا مارشات سوسا(١) إلى الراغتايم. ثم جاءت السوينغ، وروي إلدردج، القوي الذي فجر الساكسفون بكل ما فيه من موجات قوة ومنطق وبراعة، منكباً عليه بعينين لامعتين وابتسامة عذبة ومرسلاً إياها عبر إذاعاتنا ليهز عالم الجاز. ثم ظهر تشارلي باركر، فتى يعيش مع أمه في كانزاس، ويعزف في الغابات، متمرناً في الأيام الماطرة، ويخرج

---

(١) جون فيليب سوسا John Philip Sousa (١٨٥٤ ـ ١٩٣٢): مؤلف موسيقي أميركي اشتهر بلقب «ملك المارشات»، إذ قام بوضع معظم المارشات الموسيقية العسكرية في أميركا.

ليتفرج على فرقة بايسي وبني موتن التي تعزف السوينغ التي تضم هوت ليبس بايج والآخرين، ثم انتقل تشارلي باركر إلى هارلم، والتقى المجنون تلينيوس مونك، والأكثر جنوناً كان تشارلي باركر نفسه في أيامه الأولى حين كان يتشقلب ويمشي في دوائر وهو يعزف. كان باركر أصغر سناً من لستر يونغ، ابن كانزاس سيتي أيضاً، ذلك القديس الكئيب الذي به تحدد تاريخ الجاز، ذلك لأنه حمل آلته عالياً وأطلق الموسيقى من فمه الأعظم، وبينما كبر شعره واستولى عليه الكسل والتعب، صار عزفه متوسط القيمة، حتى تداعى كلياً واليوم ينتعل حذاءه السميك بحيث لا يشعر بأرصفة الحياة، والساكسفون يتدلى على صدره، وهو يعزف عبارات سهلة وخفيفة. هنا كان أطفال ليل الجاز الأميركي.

وكنا في حضرة أزهار أكثر غرابة، فبينما العازف النيغرو يعزف متأملاً فوق رؤوس الجميع بكبرياء، راح الفتى الأشقر الطويل النحيف من شارع كورتيس، دنفر، لابساً الجينز وحزاماً مرصعاً بالأزرار، يمص فم آلته منتظراً انتهاء الآخرين؛ وحين انتهوا بدأ، وعليك أن تنظر حولك لترى من أين ينبع عزفه المنفرد، ذلك أنه يصدر من شفتين تبتسمان ابتسامة ملائكية، وكان عزفاً منفرداً عذباً وناعماً وسردياً، ووحيداً كأميركا، كان صوته المكبوت في الليل.

ماذا عن الآخرين والأصوات التي صنعوها؟ كان هناك عازف الباص، الغريب بشعره الأحمر وعينيه الشمعيتين، الذي يضرب الآلة بوركيه مع كل نقرة، وفي اللحظات الحماسية ينفتح فمه منتشياً. «يا رجل، هذا شاب يمكنه حقاً أن يفتن فتاته!». عازف الطبول الحزين، مثل العازف الأبيض الذي استمعنا إليه في فريسكو، كان غائباً بالكامل، يحدق في الفراغ، ماضغاً العلكة، هازاً رقبته بنشوة تشبه حركات رايخ. أما عازف البيانو فإيطالي ضخم يشبه سائقي الشاحِنات بيديه السمينتين وفرحه

العميق. عزفوا ساعة. ولا أحد كان يصغي. كان صعاليك نورث كلارك متراخين على البار، والعاهرات يصرخن سخطاً، ومر صينيون غامضون، وكان هرج ومرج. ثم دخل فتى في السادسة عشرة له لحية صغيرة ويحمل حقيبة ترومبون، شاب هزيل مجنون الوجه، أراد العزف مع الفرقة، لكنهم كانوا يعرفونه ورفضوا أن يعزف معهم، فزحف إلى البار وعلى حين غرة فتح حقيبته وأخرج الترومبون ووضعه على شفتيه، وأخذ يعزف ولم يلفت انتباه أحد. أنهى الموسيقيون عزفهم، وضبوا أغراضهم وغادروا إلى حانة أخرى. أراد أن يعزف، فتى شيكاغو الهزيل، وضع نظارته السوداء، رفع الترومبون إلى شفتيه وحيداً على البار، وأصدر صوت «باف!»، ثم نهض وركض مسرعاً في إثر الآخرين. لم يسمحوا له بالعزف معهم، فقط مثل فريق كرة القدم في الملعب الرملي وراء محطة الوقود. «كل هؤلاء الشبان يعيشون مع جداتهم مثل توم سنارك وصديقنا كارلو ماركس»، قال دين. خرجنا في إثر المجموعة. ذهبوا إلى «نادي أنيتا أوداي» حيث عزفوا حتى التاسعة صباحاً. أنا ودين كنا هناك مع الجعة.

بين الاستراحات كنا نقوم بجولة سريعة بالسيارة ونحاول شد الفتيات في وسط المدينة، لكنهن خفن من سيارتنا الكبيرة المقدسة. في سعاره المجنون دخن دين الهيروين وراح يقهقه بهوس. وبحلول التاسعة كانت السيارة صارت مدمرة، مكابحها معطلة، وصادّاها مهشمان، ولم يكن دين قادراً على إيقافها عند الإشارات الحمراء، ظلت تنطنط لا إرادياً على الطريق. المسكينة دفعت كلفة الليل، أصبحت حذاء موحلاً. «مرحى!». الفرقة كانت لا تزال تعزف في «نيتس».

فجأة حدق دين في عتمة زاوية وراء منصة الفرقة وقال «لقد وصل الله يا سال».

نظرت. إنه جورج شيرنغ، وكعادته يسند رأسه الأعمى على يده الشاحبة، فارداً أذنيه كالفيل، مستمعاً إلى الأصوات الأميركية ومستوعباً إياها من أجل استعمالها في ليله الصيفي الإنكليزي الخاص، ثم حثوه على العزف فاستجاب، وعزف مقطوعات لا تحصى بنغمات مذهلة تتصاعد وتتصاعد حتى طرطش عرقه على البيانو كله، وكل من في المكان يستمع بوجع ومهابة. أنزلوه عن المنصة بعد ساعة، فعاد إلى ركنه المعتم، الإله القديم شيرنغ، وقال الفتية «لم يعد هناك شيء بعد ذلك».

لكن قائد الفرقة النحيف هتف «لنعزف على أي حال».

شيء ما يمكن أن يخرج بعد. ثمة دائماً المزيد، الأبعد بقليل، لا ينتهي أبداً. بحثوا عن جمل جديدة بعد شيرنغ، وبذلوا كل طاقتهم. تمعجوا وتمايلوا وعزفوا. من وقت لآخر كانت نغمة هرمونية واضحة تقدم لهم احتمالات جديدة لنغمة قد تكون يوماً ما النغمة الوحيدة في العالم التي تنهض بأرواح الرجال إلى البهجة. عثروا عليها، أضاعوها، صارعوا من أجلها، عثروا عليها مجدداً، ضحكوا، أنّوا، وعرق دين ينسكب غزيراً على الطاولة صارخاً «هيا، هيا، هيا». عند التاسعة صباحاً الجميع، من الموسيقيين والفتيات، والندل، وعازف الترومبون الوحيد، خرجوا جميعاً مترنحين إلى صخب شيكاغو النهاري العظيم، لكي يناموا حتى يبدأ ليل الجاز الجامح مجدداً.

أنا ودين غرقنا في الرثاثة. آن الأوان لكي نرجع الكاديلاك إلى صاحبها الذي يعيش في لوك شور درايف في شقة فاخرة ذات مرآب كبير في الأسفل. اتجهنا إلى هناك وأعدنا الكاديلاك الموحلة. العامل الميكانيكي النيغرو لم يعرفها وأخذ يحك رأسه وهو ينظر إليها. سلمناه الأوراق وخرجنا على عجل. استقلينا الحافلة إلى وسط المدينة وهكذا

انتهى الأمر. ولم نسمع شيئاً من بارون عن حال سيارته، رغم أنه لديه عناويننا ويمكنه مقاضاتنا.

- ١١ -

آن أوان الرحيل. استقللنا حافلة إلى ديترويت. مالنا بدأ ينفد الآن. جرجرنا حقائبنا الرثة في المحطة. الآن أصبحت ضمادة دين سوداء كالفحم ومفكوكة بالكامل. كنا بهيئتين رثتين بطبيعة الحال بعد كل ما فعلناه. مرهقاً، غفا دين في الحافلة التي انطلقت عبر متشيغن، بينما رحت أُحادث فتاة ريفية جميلة تلبس بلوزة قطنية قصيرة، وأعلى ثدييها مسمراً من الشمس. كانت بلهاء. حدثتني عن الأمسيات في الريف وتحضير البوشار على الشرفة. كان يمكن في ما مضى أن يدخل هذا السرور إلى قلبي لكن لأن قلبها لم يكن مبتهجاً وهي تقوله عرفت أنه ليس من شيء في وصفها سوى فكرة ما عما ينبغي أن يفعله المرء. «وما الذي تفعلينه أيضاً للتسلية؟»، محاولاً أن أحثها على التكلم عن المواعدة والجنس، فنظرت إلي بعينيها السوداوين الواسعتين بفراغ وبنوع من الخجل المقيم في دمها منذ أجيال وأجيال جراء عدم فعل ما يستصرخ أن يفعل ـ أياً يكن هذا الشيء، والكل يعرف ما هو. «ما الذي تريدينه من الحياة؟». أردت أن أعصرها لكي أستخرج الحياة منها. لم يكن لديها أدنى فكرة عما تريده، وتمتمت كلاماً عن وظائف وأفلام، والذهاب إلى منزل جدتها في الصيف، متمنية أن تتمكن من زيارة الروكسي في نيويورك، واصفة الثياب التي ستلبسها، والتي ستكون شبيهة بما لبسته في الفصح الماضي، قلنسوة بيضاء، زهور، خف بزهور، ومعطف من الخزامى. «ماذا تفعلين بعد ظهر الآحاد؟»، سألتها. تجلس على الشرفة.

يمر الفتيان على الدراجات الهوائية ويتوقفون قليلاً ليتحادثوا. تتصفح المجلات الفكاهية، تجلس على الأرجوحة. «ماذا تفعلين خلال ليلة صيفية دافئة؟». تجلس على الشرفة، تراقب السيارات المارة. هي وأمها تحضران البوشار. «ماذا يفعل والدك في ليلة صيفية؟». يتجول على الدراجة الهوائية، ويذهب إلى محلات المشروبات الغازية. «ما الذي يتوق إلى فعله؟ ما الذي نتوق جميعاً إلى فعله؟ ما الذي نريده؟». لم تكن تعرف. تثاءبت. كانت نعسانة. كان ذلك لا يحتمل. لا أحد يمكنه أن يعرف. لا أحد على الإطلاق. كانت في الثامنة عشرة، وجميلة جداً، وضائعة.

ترجلنا بكل وسخنا من الحافلة في ديترويت، وقررنا أن نشاهد عروض الأفلام الليلية في ديترويت سكيد رو. كان برد شديد في الحدائق. هاسل كان هنا وذهب إلى كل معارض الرماية وشاهد الأفلام الليلية، وتسكع في جميع الحانات. كان شبحه يطاردنا. لن نعثر عليه في تايمز سكواير مجدداً. ظننا أنه ربما نعثر صدفة على دين موريارتي العجوز لكننا لم نعثر عليه أيضاً. مقابل ٣٥ سنتاً للشخص دخلنا إلى صالة السينما القديمة الخربة وبقينا حتى الصباح. الناس الذين كانوا في الصالة كانوا أسفل البشر. زنوج منهكون جاؤوا من ألاباما بحثاً عن عمل في شركات السيارات بناء على شائعة، عجائز بيض متشردون، شبان هبيون طوال الشعور وصلوا إلى نهاية الطريق وكانوا يحتسون النبيذ، وعاهرات، وأزواج عاديون، وربات بيوت ليس لديهن ما يفعلنه، ولا مكان ليذهبن إليه، ولا أحد ليؤمن بهن. إذا ما نخلت ديترويت بمنخل فإن أكثر الثفل كثافة ما كان ليجتمع فيه مثلما يجتمع في هذا المكان. كان الفيلم الأول المعروض «الكاوبوي المغني إدي دين وحصانه الأبيض الشجاع بلوب»، أما الثاني فكان من بطولة جورج رافت وسيدني

غرينستريت وبيتر لور وتدور أحداثه في اسطنبول[1]. شاهدنا كل من الفيلمين ست مرات طوال الليل. شاهدناهما ونحن صاحيان، وسمعناهما ونحن نائمان، وأحسسنا بهما ونحن نحلم، وحين حل الصباح كنا قد امتلأنا كلياً بخرافات الغرب الرمادية وخرافات الشرق القاتمة. كل أفعالي منذ ذلك الوقت أملتها بصورة آلية على لا وعيي تلك التجربة الرهيبة. سمعت غرينستريت الضخم يردد عباراته الساخرة مئات المرات؛ سمعت بيتر لور يقوم بدخوله الجدي، عشت مع جورج رافت مخاوفه الارتيابية، ركبت الحصان وغنيت مع إدي دين وأطلقت الرصاص على المجرمين مرات لا تحصى. الناس رموا الزجاجات والتفتوا ونظروا في كل مكان في الصالة المعتمة بحثاً عن شيء يفعلونه، وعن شخص يتحدثون إليه. في داخل رؤوسهم كان الجميع صامتاً كمذنب. عند الفجر الرمادي الذي انتشر كالشبح على نوافذ الصالة وأفاريزها كنت نائماً مسنداً رأسي إلى المقعد الخشبي بينما قام ستة عمال بجمع نتاج الليلة من الأوساخ والغبار وأنشأوا كومة غبار كبرى وكادوا يكنسونني معهم. هذا أخبرني به دين، الذي كان جالساً بعد عشرة مقاعد ورائي. كل أعقاب السجائر، الزجاجات، علب الكبريت، انتهت في هذه الكومة، ولو كنسوني معها لما رآني دين ثانية. كان سيضطر إلى البحث عني في أنحاء أميركا كلها وفي كل مكب نفايات من الساحل إلى الساحل قبل أن يجدني ملفوفاً كالجنين في قمامة حياتي وحياته وحياة من يعنيهم ومن لا يعنيهم الأمر.

(١) الفيلم الأول «الكاوبوي المغني» (١٩٣٦) فيلم من الدرجة الثانية تدور أحداثه في الغرب الأميركي من بطولة جين أوتري، ويتلاعب كرواك بعنوان الفيلم هنا حين يضم اسم صديقه «دين» إليه وكان قارنه سابقاً بجين أوتري»، أما الحصان «بلوب» فهو إشارة إلى موسيقى «البيبوب». الفيلم الآخر هو باكغراوند تو دينجر (١٩٤٣) ويرمز فيه إلى الشرق من خلال إسطنبول.

ما الذي كنت سأقوله له من مكاني الرحمي ذاك؟ لا تزعجني، يا رجل، أنا سعيد حيث أنا. لقد أضعتني ذات ليلة، في أغسطس ١٩٤٩ في ديترويت، وبأي حق تأتي الآن وتزعج أحلام يقظتي في هذا المستوعب الحقير؟». في ١٩٤٢ كنت نجم أحد أحقر القصص الدرامية في التاريخ. كنت بحاراً، وذهبت إلى إمبريال كافيه، في سكولي سكواير، بوسطن لكي أحتسي الخمر، شربت ستين كأساً من الجعة وذهبت إلى الحمام حيث عانقت المرحاض وغفوت. خلال الليل على الأقل مئة بحار ومن معهم من المدنيين دخلوا وبالوا عليّ حتى غرقت بالبول. أي فرق بعد هذا كله؟ أن تكون شخصاً غفلاً في دنيا البشر أفضل من أن تكون شهيراً في الآخرة. ولماذا الآخرة؟ وما الأرض؟ كل هذا في الرأس فقط.

فجراً خرجت ودين من حفرة البؤس هذه وذهبنا لنحجز سيارة من «مكتب السفريات». بعد إمضاء جزء لا بأس به من فترة الصباح في حانات الزنوج ومطاردة الفتيات والاستماع إلى الجاز، عبرنا بهيئتينا الرثتين خمسة أميال في حافلات محلية وذهبنا إلى منزل رجل قال إنه سيأخذ من كل واحد منا أربعة دولارات حتى يقلنا معه إلى نيويورك. كان أربعينياً أشقر يضع النظارات، ولديه زوجة وطفل ومنزل محترم. انتظرناه في الفناء بينما يستعد، وعرضت علينا زوجته الجميلة في مئزر الطبخ القطني القهوة لكننا كنا منغمسين بالتحدث. كان دين مرهقاً جداً وفاقداً صوابه بحيث كان يسره كل شيء. كان في سعار آخر من الجنون. ويتعرق ويتعرق. في اللحظة التي صعدنا فيها إلى سيارته الكرايزلر الجديدة إلى نيويورك انتبه المسكين إلى أنه يقل مجنونين معه، لكنه بذل جهده لكي يتحمل وفي الحقيقة اعتاد علينا مع مرورنا بـ«بريغز ستاديوم» وأخذ يتحدث عن فريق «ديترويت تايغرز».

في الليل الضبابي اجتزنا توليدو إلى أوهايو. لاحظت أنني بدأت

أعاود عبور المدن الأميركية كما لو أنني بائع جوال ـ أسفار رثة، بضاعة سيئة، فاصولياء عفنة في قاع حقيبة حيلي، ولا من يشتري. شعر الرجل بالتعب قرب وصولنا إلى بنسلڤانيا فتسلّم دين المقود مباشرة إلى نيويورك، واستمعنا إلى برنامج سيد شو على الراديو مع كل أغنيات الجاز الجديدة، حتى وصلنا في الصباح الباكر إلى المدينة العظيمة والأخيرة في أميركا. كانت تايمز سكواير تمور بالحركة، ذلك أن نيويورك لا تنام أبداً. بحثنا عن هاسل بطريقة آلية أثناء مرورنا.

بعد ساعة وصلنا إلى شقة عمتي الجديدة في لونغ أيلاند، وكانت منشغلة بمجادلة عاملي طلاء من معارف العائلة حول الأجرة بينما صعدنا إلى أعلى «سال»، قالت «،يستطيع دين البقاء هنا بضعة أيام ثم عليه أن يرحل، أتفهمني؟». انتهت الرحلة. أنا ودين قمنا بنزهة تلك الليلة بين محطات الوقود وجسور سكك الحديد وأعمدة الإنارة في لونغ أيلاند. أتذكره واقفاً تحت مصباح الشارع.

«لحظة عبورنا ذلك المصباح الآخر كنت سأقول لك شيئاً آخر، سال، لكنني الآن بشكل أبوي أتابع فكرة جديدة، وحين نصل إلى المصباح التالي سأعود إلى الموضوع الأصلي. اتفقنا؟». وافقت طبعاً. كنا اعتدنا السفر بحيث كان علينا السير في أرجاء لونغ أيلاند كلها حتى لم يعد المزيد من المساحات، فقط المحيط الأطلسي. شبكنا الأيدي وتعاهدنا على أن نظل أصدقاء إلى الأبد.

لم تمر خمس ليال بعد ذلك حين ذهبنا إلى حفلة في نيويورك ورأيت فتاة تدعى إنيز وقلت لها إن معي صديقاً أريد أن أعرفها إليه يوماً ما. كنت سكران وقلت لها إنه كاوبوي. «أوه، لطالما أردت التعرف إلى كاوبوي».

«دين؟»، صرخت عبر الصالة التي كان فيها أنغل لوز غارسيا،

الشاعر، والتر إيفانز؛ فيكتور فيلانوفا، الشاعر الفنزويلي، جيني جونز حبيبة سابقة لي، كارلو ماركس، جين دكستر؛ وعدد لا يحصى غيرهم. «تعال إلى هنا يا رجل». جاء دين خجلاً. بعد ساعة في غمرة سكر الحفلة وبهرجتها، (حفلة نهاية الصيف طبعاً)، رأيته راكعاً على الأرض وخده على بطن إنيز ويحكي لها ويعدها بكل شيء ويتصبب عرقاً. كانت شقراء ضخمة مثيرة، مثلما قال غارسيا، «شيء خارج من لوحات ديغا مباشرة»، وتشبه مغناجاً باريسية على العموم. في غضون أيام كانا عبر الهاتف يساومان كاميل في سان فرانسيسكو طلباً لأوراق الطلاق الضرورية بحيث يمكنهما الزواج. ليس هذا فحسب، لكن بعد أشهر قليلة ولدت كاميل طفل دين الثاني، نتيجة بعض الليالي من الألفة بينهما مطلع السنة. وبعد أشهر قليلة أيضاً ولدت إنيز طفلاً. إضافة إلى طفل غير شرعي في مكان ما في الغرب، أصبح لدى دين الآن أربعة أطفال ولا يملك سنتاً، وغارقاً في المشكلات وفي النشوة والسرعة المحمومة كعادته. لذا لم نذهب إلى إيطاليا.

الجزء الرابع

ـ ١ ـ

جنيت بعض المال من حقوق كتابي، وسدّدت ديني لعمتي عبر تسديدي إيجار بيتها لبقية السنة. كلما حل الربيع في نيويورك أجدني غير قادر على احتمال الغبار الذي يحمله النهر من نيوجيرزي، وكان علي الرحيل، فرحلت. للمرة الأولى أقول لدين وداعاً في نيويورك وأتركه هناك. عمل في مرآب سيارات عند تقاطع ماديسون وفورتيث، مهرولاً كعادته بحذائه الرث وكنزته الخفيفة وبطنه المندلقة من بنطاله، معالجاً زحمة السيارات ظهراً.

حين كنت أزوره قبيل الغروب كنا عادة لا نجد ما نفعله. يقف في الكوخ، عاداً التذاكر وفاركاً بطنه. الراديو كان دائماً شغالاً «يا رجل هل استمعت إلى ذلك المجنون مارتي كليكمان معلقاً على ألعاب البايزبول، أب تو، ميدكورت، باونس، فايك، ست، شوت، سويش، تو بوينت. أعظم مذيع رياضي سمعته في حياتي على الإطلاق». صارت تبهجه أمور صغيرة كهذه. عاش مع إنيز في شقة وضيعة في الإيست إيتيز. حين يعود إلى البيت ليلاً ينزع ملابسه ويرتدي عباءة صينية ضخمة ويجلس على كرسيه الهزاز مدخناً غليوناً يلقّمه بالحشيشة. تلك كانت مسراته المنزلية، إضافة إلى مجموعة من أوراق اللعب الخلاعية. «مؤخراً كنت أركز على زوج الديناري، هل لاحظت أين يدها الأخرى؟ أراهن أنك لن تحزر، تأمل وحاول أن تعرف». أراد أن يعيرني الورق الذي يصور شاباً طويلاً حزيناً وداعراً، وعاهرة حزينة يجربان وضعية جنسية معينة. «هيا يا

رجل، لقد جرّبت هذه الوضعية مرات عدة!». إنيز تطبخ في المطبخ وتنظر بابتسامة مريبة. كل شيء على ما يرام بالنسبة إليها. «انظر إليها؟ أنظر إليها يا رجل؟ هذه هي إنيز. أترى، هذا كل ما تفعله، تطل برأسها من الباب وتبتسم. أوه، لقد تكلمنا واتفقنا على كل شيء بأروع الطرق. سنذهب ونعيش في مزرعة في بنسلڤانيا هذا الصيف، قد أزور نيويورك من أجل المغامرة، لكنني سأعيش وإنيز في بيت كبير جميل، وسنرزق بالكثير من الأطفال خلال السنوات القليلة القادمة. إحم! هارومبف! إغاد!». قفز عن الكرسي ووضع تسجيلاً لويلي جاكسون «غاتور تايل»، ووقف، ماصاً راحتيه وراقصاً على الإيقاع. «هووو! ذلك الوغد! أول مرة سمعته ظننت أنه سيموت الليلة التالية، لكنه لا يزال حياً».

هذا بالضبط ما كان يفعله مع كاميل في فريسكو عند الضفة الأخرى من القارة. الجسم المعطوب نفسه يخرج من السرير، جاهز للطيران. إنيز تواصلت عبر الهاتف مع كاميل وتحدثتا عن تجربته في السجن، أو هذا ما زعمه دين، كما تبادلتا الرسائل حول أطواره الغريبة. بالطبع كان عليه أن يرسل إلى كاميل جزءاً من دخله الشهري لكي يعيلها وإلا انتهى به الأمر في إصلاحية لستة أشهر. ولكي يعوض المال الضائع كان يحتال بعض الشيء في المرآب، فهو فنان في الاحتيال عند صرف المال للزبائن. رأيته وهو يتمنى لرجل ميلاداً مجيداً بحيث إن الرجل لم ينتبه إلى أنه أرجع له لقاء خمسة دولارات بدلاً من عشرين دولاراً. خرجنا وأنفقنا المال في بيردلاند، حانة الجاز. كان لستر يونغ على المنصة، والجنة مشرقة في عينيه الواسعتين.

ذات ليلة تحدثنا عند زاوية ٤٧ وماديسون عند الثالثة فجراً، «حسناً، سال، اللعنة، أتمنى لو أنك لست راحلاً، فعلاً أتمنى ذلك، سأكون في نيويورك من دون صديقي الحميم». وقال، «نيويورك، إنها ممر بالنسبة

إلي، فريسكو هي مستقري. طوال وجودي هنا لم أضاجع إلا إنيز، وهذا لا يحدث لي إلا في نيويورك! اللعنة! لكن مجرد التفكير بعبور القارة الرهيبة مجدداً يرهقني... سال، لم نتحدث بصراحة منذ وقت طويل». في نيويورك كنا دائماً نتنقل مع حشد من الأصدقاء في حفلات سكر جامحة، وبدا ذلك على نحو ما غير ملائم لدين. كان يكون أكثر قرباً من ذاته وهو يتسكع تحت المطر البارد الضبابي في ماديسون أفنيو ليلاً، «إنيز تحبني؛ قالت لي ووعدتني إنه يمكنني فعل ما أشاء، ولن تسبب لي أي مشكلة. أترى يا رجل، يكبر المرء وتتراكم المشكلات. ذات يوم سنجد أنفسنا معاً عند الغروب في زقاق ما، باحثين في المستوعبات عما نأكله».

«أتعني أنه سينتهي بنا الأمر كعجوزين متشردين؟».

«لم لا، يا رجل؟ بالطبع سيحدث هذا إذا أردناه، وليست بالنهاية السيئة، عندها فقط يمكنك أن تعيش حياة كاملة من عدم التطفل على أمنيات الآخرين، بمن فيهم السياسيون والأغنياء، ولا أحد يزعجك وتمضي قدماً وتعيش على طريقتك». وافقت معه. كان يصل إلى استنتاجاته «التاوية» بأبسط الطرق وأكثرها مباشرة. «ما هو طريقك يا رجل؟ طريق الفتى المقدس، طريق الرجل المجنون، طريق قوس قزح، طريق الغابات، أي طريق. إنها أي طريق بالنسبة إلى أي كان على أي حال؟» أومأنا برأسينا تحت المطر «خراء، وعليك الاعتناء بفتاك. ليس رجلاً بقدر ما هو رجل قافز، افعل ما يأمرك به الطبيب. سأقول لك، سال صراحة، لا يهم أين أعيش، فإن جسدي سينهض دائماً من السرير، أنا مستعد للذهاب أو لأن أطرد. لقد قررت أن أترك كل شيء خارج سيطرتي. لقد رأيتني وأنا أحاول أقصى جهدي لكي أنجح وتعرف أنه لا يهم ونحن نعرف الوقت، وكيف نبطئه ونمشي ونستكشف الحياة على

الطريقة القديمة، أي مغامرة هناك أصلاً؟ نحن نعرف». تنهدنا تحت المطر. كان المطر يغمر وادي هادسون تلك الليلة. الأرصفة البحرية العظيمة غارقة بالمطر، المراكب البخارية القديمة الراسية في بوفكيبسي كانت غارقة به، سبليت روك بوند القديمة كانت غارقة به، فاندرواكر ماونت كان غارقاً به.

«إذاً»، قال دين، «سأدع الحياة تقودني. أتعرف أنني كتبت مؤخراً لأبي في سجنه في سياتل، لقد وصلتني منه قبل أيام رسالة هي الأولى منذ سنوات».

«أحقاً؟».

«أجل، أجل. قال إنه يريد أن يرى «البايببي» مع اثنين «ب» حين يستطيع الوصول إلى فريسكو. عثرت على شقة وضيعة بإيجار ١٣ دولاراً بالشهر في إيست فورتيث؛ إذا ما تمكنت من إرسال المال له فسيأتي ويعيش في نيويورك، إذا وصل إلى هنا. لم أخبرك الكثير عن أختي لكنك تعرف أن لي أختاً صغيرة؛ أحب أن آتي بها لتعيش معي أيضاً».

«أين هي؟».

«حسناً، هذه هي المسألة، لا أعرف، سيحاول العجوز أن يعثر عليها، لكنك تعرف ما الذي سيفعله حقاً».

«إذاً ذهب إلى سياتل؟».

«ومباشرة إلى السجن اللعين».

«أين كان؟».

«في تكساس، إذاً أترى يا رجل كيف هي روحي، وحال الأشياء، وأوضاعي، أتلاحظ أنني صرت أكثر هدوءاً».

«أجل، هذا صحيح». دين صار أكثر هدوءاً في نيويورك. أراد أن يتحدث. كنا نتجمد برداً تحت المطر. اتفقنا على أن نلتقي في منزل عمتي قبل أن أغادر.

جاء عصر اليوم التالي، وكان يوم أحد. شاهدنا مباراة كرة قدم على التلفزيون، واستمعنا إلى أخرى عبر المذياع، ورحنا نبحث عن ثالثة، وتابعنا كل ما يحدث لحظة بلحظة. «تذكر سال، هودجز على الخط الثاني في بروكلين، لذا بينما يدخل لاقط الكرات سننتقل إلى جيانتس بوسطن لنرى لاعبهم ديماجيو يسجل ثلاث نقاط. . . . ثم نكتشف سريعاً ما الذي حدث لبوبي تومسون حين تركناه قبل ثلاثين ثانية. . . مرحى!».

خرجنا بعدها ولعبنا البايزبول مع بعض الفتية في حقل موحل عند سكة حديد لونغ أيلاند. لعبنا أيضاً كرة السلة بجنون بحيث قال لنا الفتية الأصغر سناً «هوّنا عليكما، ليس عليكما أن تقتلا نفسيكما». غلبونا بسهولة. أنا ودين كنا نتصبب عرقاً. في لحظة ما وقع دين على وجهه على الأرض الحجرية. حاولنا أقصى جهدنا لكي نحتفظ بالطابة، لكنهم كانوا يأخذونها منا، ويرمونها من فوق رأسينا مباشرة إلى السلة. رحنا نقفز إلى السلة مثل المجانين، بينما الفتية الأصغر يرتفعون ببساطة ويستولون على الكرة من أيدينا المتعرقة ويجرون بها. كنا مثل مغن في الأزقة الخلفية لأميركا نحاول أن نلعب كرة السلة ضد ستان غيتز وكول تشارلي. ظن الفتيان أننا مجنونان. عدنا إلى البيت لاعبين «الكاتش» بين رصيفي الشارع. حاولنا القيام بحركات صعبة، قافزين فوق الأشجار ومرتطمين بالأعمدة. حين مرت سيارة ركضت بمحاذاتها ورميت الكرة إلى دين، فالتقطها وركض بها على العشب وعاود رميها نحوي لكي ألتقطها عند الجانب الآخر من عربة خبز مركونة. تمكنت من التقاطها ورميها مجدداً بحيث اضطر دين إلى الالتفاف والانقلاب على ظهره عبر الأسيجة. حين عدنا إلى البيت أخرج دين حافظة نقوده، تنحنح، ونقد عمتي الخمسة عشرة دولاراً التي اقترضها منها لتسديد مخالفة السرعة في واشنطن. فوجئت بالأمر وفرحت كثيراً، وحضرت لنا عشاء ضخماً.

«حسناً، دين» قالت عمتي «أتمنى أن تتمكن من الاعتناء بطفلك المقبل وتظل متزوجاً هذه المرة».

«أجل، أجل، أجل».

«لا يمكنك الاستمرار بالتنقل عبر البلاد منجباً الأطفال بهذه الطريقة. أولئك المساكين الصغار سيكبرون بلا حول ولا قوة. عليك أن تمنحهم فرصة للعيش». أطرق وهز رأسه. ودعته عند الغروب، على جسر فوق طريق سريعة».

«آمل أن أجدك في نيويورك حين أرجع»، قلت له «كل ما أرجوه، دين، هو أن نكون قادرين يوماً ما على العيش في شارع واحد مع عائلتينا ونكون صديقين قديمين معاً».

«هذا صحيح، يا رجل، تعرف أنني أصلي لذلك واعياً للمشكلات التي تعترض كلانا والتي ستأتي، كما تعرف عمتك وتنبهني. لم أرد الطفل الجديد. إنيز أصرت، وتشاجرنا. أتعرف أن ماري لو تزوجت تاجر سيارات مستعملة في فريسكو وسترزق بطفل؟».

«أجل، جميعنا نصل إلى هذه المرحلة الآن». الماء يتموج على صفحة بحيرة الفراغ المقلوبة رأساً على عقب، هذا ما كان ينبغي أن أقوله. قاع العالم ذهبي والعالم مقلوب رأساً على عقب. أخرج من حافظة نقوده صورة لكاميل في فريسكو مع الطفلة الجديدة. ثمة ظل رجل يغطي الطفلة على الرصيف المشمس، رجلان طويلتان في الحزن.

«من هذا؟».

«ليس إلا إد دانكل. لقد رجع إلى غالاتيا، ذهبا إلى دنفر، وأمضيا نهاراً يلتقطان الصور».

إد دانكل، حنوه غير ملاحظ كحنو القديسين. أخرج دين صوراً أخرى. أدركت أن هذه هي الصور التي سينظر إليها أولادنا يوماً ما

بعجب، وسيظنون أن أهلهم عاشوا حياة مستقرة سلسة ومنظمة، مثلما تبدو في الصور، وسينهضون في الصباح ويمشون بافتخار على أرصفة الحياة، غير مدركين لذلك الجنون الرث والاضطراب في حيواتنا الفعلية، في ليلنا الحقيقي، في جحيمه، في الطريق الكابوسية الصلدة. هذا كله، في قلب فراغ بلا بداية ولا نهاية. «وداعاً، وداعاً». ابتعد دين في الغسق الطويل الأحمر، ودخان المصانع يرتفع فوقه، وظله يتبعه، محاكياً مشيته وأفكاره وكيانه كله. استدار إلى الخلف ولوح لي بخفر. راح يقفز، وصرخ شيئاً ما. لم أفهم ما قاله. ركض دائرياً، مقترباً من الزاوية الحجرية لجسر سكة الحديد. قام بإشارة أخيرة. لوحت له بدوري. فجأة اتجه نحو حياته ومشى سريعاً مبتعداً عن نظري. تنهدت على قتامة أيامي أيضاً. كانت تنتظرني طريق طويلة فظيعة أيضاً.

ـ ٢ ـ

منتصف ليل اليوم التالي، ركبت حافلة واشنطن، مدمدماً هذه الأغنية الصغيرة:

بيت في ميسولا
بيت في تروكي
بيت في أوبيلوسس
ولا بيت لي.
بيت في ميدورا القديمة،
بيت في واندردني،
بيت في أوغالالا
وأنا لن أصل إلى البيت أبداً

أضعت بعض الوقت بالتسكع؛ حدت عن مسار رحلتي لكي أرى البلو ريدج، سمعت شدو طائر شينونواه وزرت ضريح ستونويل جاكسون، وعند الغسق كنت واقفاً أبصق البلغم في نهر كاناوا، وعبرت ليل تشارلستون، وست ڤرجينيا، وعند منتصف الليل كنت في أشلاند، كنتاكي، حيث رأيت فتاة وحيدة تقف تحت سقيفة مسرح مقفل. ثم أوهايو الغامضة والمعتمة، وسنسيناتي عند الفجر. ثم حقول إنديانا مجدداً، وسانت لويس كعادتها بغيومها الضخمة عصراً، ثم الحصى الموحلة وزنود الأشجار في مونتانا، والمراكب البخارية المعطلة، واللافتات التاريخية، والعشب والحبال المنشورة عند النهر. تلك القصيدة اللانهائية. ثم ليلاً في ميزوري، حقول كانزاس وأبقارها التي تجوب ليلاً المساحات السرية الواسعة، ثم بلدات سباق الزوارق، حيث كل شارع ينتهي بالبحر، وفجراً في أبلين. أعشاب إيست كانزاس تتحول إلى سلسلة جبال وست كانزاس التي تمضي صعوداً باتجاه ليل الغرب.

كان ثمة في الحافلة شخص يدعى هنري غلاس. كان صعد في تيري هوت، إنديانا، وها هو يقول لي «لقد قلت لك لماذا أكره هذه البدلة التي أرتديها، إنها رثة، لكن هذا ليس كل شيء». أراني بعض الأوراق التي تفيد بأنه قد أطلق سراحه تواً من سجن «تير هوت» الفدرالي بعد أن سجن بتهمة سرقة السيارات وبيعها في سنسيناتي. كان فتى أجعد الشعر في العشرين. «حين أصل إلى دنفر سأبيع هذه البدلة في محل رهن وأشتري بنطال جينز. أتعلم ما فعلوه بي في ذلك السجن؟ وضعوني في الحبس الانفرادي مع كتاب التوراة، فاستعملته لأجلس على الأرض الحجرية، وحين اكتشفوا ذلك أخذوا الكتاب وأحضروا نسخة أخرى من التوراة طبعة الجيب. لم أستطع الجلوس عليه لذا قرأته كله». لكزني وهو يمضغ الحلوى، كان باستمرار يتناول الحلوى لأن معدته تخربت في

السجن ولم تعد قادرة على تحمل شيء سوى الحلوى، «أتعرف ثمة أشياء مثيرة حقاً في التوراة». أخبرني معنى التعليم، «كل شخص على وشك مغادرة السجن ويبدأ بالحديث مع الآخرين عن موعد رحيله، هو «يعلّم» بذلك على الآخرين المضطرين للبقاء، فنمسكه من عنقه ونقول له لا تعبث معنا! أمر سيئ، أن تصرح بوقت إطلاق سراحك، أتسمعني؟».

«لن أعلّم يا هنري».

«حين يفعل أي ذلك كان يجن جنوني. أتعرف لماذا أمضيت عمري في السجن؟ لأنني فقدت أعصابي حين كنت في الثالثة عشرة. كنت في صالة سينما مع فتى وراح يسخر من أمي، تعرف تلك الكلمة البذيئة، فاستللت خنجري وطعنته في حنجرته وكنت سأقتله لو لم يبعدوني عنه. قال القاضي أكنت تعرف ما الذي تفعله حين اعتديت على صديقك؟، أجل سيدي، كنت أعلم، أردت أن أقتل ابن العاهرة ولا أزال أريد. لذا لم أحظ بإطلاق سراح مشروط ونقلت مباشرة إلى الإصلاحية. أصبت بالبواسير أيضاً من كثرة الجلوس في السجن الانفرادي. لا تذهب قط إلى سجن فدرالي، إنهم الأسوأ هناك. اللعنة، أستطيع التكلم طوال الليل لقد مضى وقت طويل منذ تكلمت إلى أحدهم. لا تعرف كم أشعر بالراحة لخروجي. رأيتك جالساً في هذه الحافلة لدى صعودي، بم كنت تفكر؟».

«كنت جالساً فحسب».

«أنا كنت أغني. جلست إلى جوارك لأنني كنت خائفاً من الجلوس قرب أي فتاة لأنني أخشى أن يجن جنوني وأمد يدي تحت فستانها، عليّ أن أتريث قليلاً».

«جنحة أخرى وستسجن مدى الحياة. عليك أن تتحلى بالصبر هذه المرة».

«هذا ما أنوي فعله، سوى أنني أفقد صوابي فجأة ولا يعود بوسعي السيطرة على أفعالي».

كان متجهاً للعيش مع أخيه وزوجته في كولورادو، وكان ثمة وظيفة تنتظره هناك. الشرطة الفدرالية ابتاعت له التذكرة بعد إطلاق السراح المشروط. ها هو فتى يشبه دين حين كان في سنه، دمه يفور أكثر من قدرته على الاحتمال، وأعصابه تفور، ولا قديس يمكن أن يخلصه من قدره الشاق.

«كن صديقي، سال واحرص على ألا أفقد أعصابي في دنفر، أيمكنك ذلك يا سال؟ ربما أمكنني الوصول إلى أخي بسلامة».

حين وصلنا إلى دنفر اصطحبته إلى لاريمير لكي يرهن البدلة. اليهودي العجوز أدرك ماهيتها قبل أن يراها كلياً «لا أريد هذه البدلة اللعينة هنا، أحصل على مثلها يومياً من فتيان كانيون سيتي».

كان لاريمير يعجّ بالمحكومين السابقين الذين يحاولون بيع بدلات السجن. هنري انتهى به الأمر متأبطاً البدلة الملفوفة بكيس ورقي، لكنه اشترى جينزاً جديداً وكنزة خفيفة. ذهبنا إلى حانة دين القديمة في غلينارم ستريت، على الطريق رمى هنري البدلة في القمامة، واتصلنا بتيم غراي. كان حل المساء.

«أنت؟»، قهقه تيم غراي بصوت خافت، «أنا آت فوراً».

بعد عشر دقائق دخل إلى الحانة مسرعاً مع ستان شيبرد. كلاهما كان في رحلة إلى فرنسا مما زاد من خيبة أملهما من حياتهما في دنفر. أحبا هنري فاشتريا له الجعة. بدأ ينفق كل أموال الإصلاحية ذات الشمال وذات اليمين. مجدداً، عدت إلى ليل دنفر الناعم المعتم، وأزقتها المقدسة ومنازلها الرائعة. بدأنا نقصد كل حانات المدينة، وحانات نزل الطرق في وست كولفاكس، وحانات فايف بوينتس النيغروية.

كان ستان شيبرد ينتظر أن يلتقيني منذ سنوات والآن ها نحن نغامر معاً للمرة الأولى. «سال، منذ عدت من فرنسا ليس لدي أدنى فكرة عما سأفعله بحياتي. أصحيح أنك ذاهب إلى المكسيك؟ يا للروعة، أيمكنني الذهاب معك؟ أستطيع تأمين مئة دولار، وما إن أصل إلى هناك أتقدم بطلب المنحة لكلية مكسيكو سيتي».

حسناً. تم الاتفاق. ستان سيأتي معي. كان فتى دنڤرياً طويلاً خجولاً أشعث الشعر وله ابتسامة محكوم سابق وحركته بطيئة سلسة تشبه حركة غاري غرانت، «منتهى الروعة!»، قال وحشر إبهامه في حزامه متبختراً في الشارع، من جهة إلى أخرى لكن ببطء. كان جده متخاصماً معه، فهو عارض سفره إلى فرنسا والآن هو معارض لفكرة الذهاب إلى المكسيك. كان ستان يهيم في دنڤر كمتشرد بسبب خصامه مع جده. تلك الليلة بعد أن ثملنا ومنعنا هنري من أن يفقد السيطرة على نفسه في حانة «هوت شوب» في كولفاكس، ذهب ستان لينام في غرفة فندق هنري في غلينارم ستريت «لا أستطيع حتى العودة متأخراً إلى البيت، جدي يبدأ بالتشاجر معي، ثم مع أمي. أقول لك، سال، يجب أن أغادر دنڤر بسرعة وإلا فقدت صوابي».

بقيت في شقة تيم غراي ثم لاحقاً دبرت لي بايب راولينز غرفة صغيرة في قبو وانتهى بنا الأمر جميعاً نحتفل كل ليلة طوال الأسبوع. اتجه هنري إلى أخيه ولن نعرف إذا كان هناك من «سيعلّم» عليه وإذا كان انتهى به الأمر في السجن أم أنه ينطلق حراً في الليل.

أمضيت مع تيم غراي وستان أوقات العصر طوال أسبوع في حانات دنڤر الجميلة حيث النادلات يرتدين البناطيل ويعبرن بعيون محبة خجولة، لسن نادلات متصلبات ولكن ممن يقعن في غرام الزبائن ويعشن علاقات عاطفية متفجرة ويتصببن عرقاً ويكدحن من حانة إلى أخرى، وأمضينا

الليالي من الأسبوع نفسه في فايف بوينتس ستريت مستمعين إلى الجاز، محتسين الخمر في حانات نيغروية رائعة ومثرثرين حتى الخامسة فجراً في غرفتي. أوقات الظهر كنا نمضيها في فناء بايب الخلفي بين الصغار الذين يلعبون لعبة رعاة البقر والهنود، ويقفزون علينا من أشجار الكرز المثمرة. كنت أمضي وقتاً رائعاً والعالم كله كان مفتوحاً أمامي لأنني كنت بلا أحلام. أنا وستان خططنا أن نقنع تيم غراي بالمجيء معنا، لكن هذا الأخير كان متشبثاً بحياته في دنفر.

كنت أستعد للسفر إلى المكسيك حين فجأة اتصل بي دنفر دي دول ذات ليلة وقال «إذاً سال، احزر من سيأتي إلى دنفر؟». لم تكن لدي أي فكرة «إنه في طريقه إلى هنا الآن. وصلتني الأخبار من مصادري. دين اشترى سيارة وسيأتي لينضم إليك». فجأة تراءى لي دين، ملاك مخيف مشتعل يتقدم نحوي عبر الطريق، مثل غيمة، بسرعة هائلة، مطارداً إياي مثل المسافر المكفّن في السهل، هابطاً عليّ من فوق. رأيت وجهه الضخم بعظامه البارزة ونظراته المشتعلة فوق السهول؛ رأيت جناحيه؛ رأيت عربته القديمة التي تشرقط منها النيران؛ رأيت الطريق التي تلهبه وراءها على الطريق؛ حتى أنها تشق طريقها الخاص عبر حقول الذرة، عبر المدن، مدمرة الجسور، مجففة الأنهار. ثم تحل كبلاء على الغرب. عرفت أن دين جن مجدداً. لم يكن هناك أمل بأن يرسل مالاً لأي من الزوجتين إذا كان سحب كل مدخراته من المصرف واشترى سيارة. كل شيء كان جاهزاً لرحلته، والدخان يتصاعد من الخرائب وراءه. مضى مسرعاً من جديد نحو الغرب، فوق القارة المتأوهة والفظيعة، وقريباً يصل. قمنا بتحضيرات متعجلة. وكانت الأخبار تفيد بأنه سيقودني بسيارته إلى المكسيك.

«أتظن أنه سيسمح لي بالذهاب معكما؟»، سأل ستان بتوجس.

«سأحدثه بهذا الشأن»، قلت بجدية، لم نكن نعرف ما نتوقعه.

«أين سينام؟ ماذا سيأكل؟ هل من فتيات له؟» كان ذلك مثل الوصول المحدق لإعصار «غارغانتوا»، ينبغي توسيع مصافي المياه في مزاريب دنفر لكي تتناسب ونشواته المتفجرة.

- ٣ -

كان وصول دين إلى منزل بايب ذات عصر مشمس أشبه بفيلم قديم. ينبغي أن أقول شيئاً عن هذا البيت. كانت أمها مسافرة إلى أوروبا، وكانت تعيش معها عمتها تشاريتي، التي بلغت الخامسة والسبعين لكنها لا تزال نشطة كدجاجة. كانت تتنقل بين منازل آل راولينز الممتدة في الغرب كله، وتحاول أن تكون مفيدة. في زمن سابق كانت محاطة بعشرات الأبناء، لكنهم رحلوا؛ كلهم تخلوا عنها. وعلى الرغم من سنها المتقدمة فقد كانت تبدي اهتماماً بكل ما نفعله ونقوله، فتهز رأسها أسفاً حين نحتسي الويسكي في غرفة المعيشة، «الآن يمكنك الخروج إلى الباحة لفعل هذا، أيها الشاب». في الطابق الأعلى، كان البيت نوعاً من المضافة ذلك الصيف، كان يعيش شاب يدعى توم، وكان مغروماً ببايب، لكنه حب بلا أمل. يتحدر من ڤيرمونت، من عائلة ثرية، وقيل إن ثمة حياة مهنية واعدة تنتظره هناك وما إلى ذلك، لكنه يفضل البقاء قرب بايب. في الأمسيات كان يجلس في غرفة المعيشة ووجهه يحترق وراء الصحيفة، وكل مرة يقول فيها أحدنا شيئاً يسمعه لكن لا يبدي أي إشارة. كان يحترق بشكل خاص حين يسمع صوت بايب. وحين أجبرناه مرة على إزاحة الصحيفة نظر إلينا بسأم وعذاب لا مثيل لهما «إيه؟ أوه بلى، أفترض ذلك». عادة كان يجلس ساكناً فحسب.

تلك الليلة كانت تشاريتي جالسة في الزاوية، مشغولة بالحياكة،

وتراقبنا بزاوية عينيها الصغيرتين، حريصة على ألا يتلفظ أي منا بكلمات نابية. بايب جلست تقهقه على الكنبة، وتوزعت وتيم غراي، وستان شيبارد على المقاعد. عانى توم المسكين الأمرين، ثم نهض متثائباً «حسناً، يوم آخر دولار آخر،عمتم مساء»، واختفى في الأعلى. لم تكن بايب تهتم بأمره، فقد كانت مغرومة بتيم غراي الذي باستمرار يتملص كحنكليس من قبضتها. كنا جالسين على هذا النحو قرابة وقت العشاء حين أوقف دين سيارته في الخارج وقفز منها ببذلة تويدية مع صديري وسلسال.

«هاب! هاب!»، سمعت صوته في الخارج. كان بصحبة روي جونسون، الذي عاد لتوه من فريسكو مع زوجته دوروثي ويعيش في دنفر من جديد. كذلك كان هناك إد وغالاتيا دانكل وتوم سنارك. الجميع في دنفر مجدداً. خرجت إلى الشرفة «مرحى يا صاحبي»، قال ماداً يده الكبيرة، «أرى أن كل شيء على ما يرام هنا. هالو، هالو، هالو»، قال للجميع. «أوه أجل، تيم غراي، ستان شيبارد، كيف حالكما!» عرفناه بتشاريتي «أوه أجل كيف حالك. هذا صديقي روي جونسون، كان لطيفاً جداً فرافقني، هرومبف! إيغاد! كاف! كاف! مايجور هوبل، سيدي»[(١)]، قال ماداً يده إلى توم الذي حدق به «مرحى، مرحى، حسناً صديقي سال، ما القصة، متى نقلع إلى المكسيك؟ بعد ظهر يوم غد؟ حسناً، حسناً، إحم! والآن، سال لدي بالضبط ١٦ دقيقة حتى أصل إلى منزل إد دانكل، حيث سأصلح ساعتي القديمة التي يمكنني رهنها في لاريمير ستريت قبل الإقفال، في الأثناء أذهب بسرعة وبقدر ما يسمح الوقت

---

(١) مايجور هوبل: Major Hoople بطل منشورة أميركية كوميدية ظهرت عام ١٩٢١ واستمرت حتى ١٩٨١ بعنوان «أور بوردينغ هاوس»، أما «هرومبف» و«إيغاد» و«كاف» فهي على الأرجح تعبيرات بلا معنى كانت تستعملها هذه الشخصية.

لأرى إذا كان يمكنني العثور بالصدفة على أبي في جيغز بوفيه أو أي حانة أخرى ثم لدي موعد مع الحلاق الذي ينصحني دول دائماً أن أتعامل معه، وأنا لم أتغير على مر السنوات ومستمر بهذه السياسة. . .عند السادسة بالضبط، السادسة تماماً، أتسمعني؟ أريدك أن تكون هنا حيث سآتي مسرعاً لآخذك إلى منزل روي جونسون، نستمع إلى جليبسي والجاز، ونمضي ساعة من الاسترخاء تسبق أي سهرة قد تكونون أنت وتيم وستان وبايب خططتم لها الليلة من أجل وصولي، الذي كان بالمناسبة قبل خمسة وأربعين دقيقة بالضبط في سيارتي الفورد ٣٧ القديمة المركونة في الخارج. وصلت إلى هنا بعد وقفة طويلة في كانزاس سيتي لرؤية ابن عمي، ليس سام برايدي بل الأصغر. . .» وخلال قوله كل هذه الأشياء كان منهمكاً بتغيير بدلته بكنزة خفيفة وبنطال أخرجهما من حقيبته القديمة نفسها، متوارياً.

«وماذا عن إنيز؟»، سألته، «ما الذي حدث في نيويورك؟».

«رسمياً، سال، هذه الرحلة هي بهدف الحصول على طلاق في المكسيك، أرخص وأسرع من أي طلاق آخر، لقد حصلت أخيراً على موافقة كاميل واتفقنا على كل شيء، كل شيء على ما يرام، كل شيء جميل، ونحن نعرف ذلك فلسنا قلقين حيال أي شيء، ألسنا كذلك، سال؟».

حسناً، حسناً. أنا مستعد دائماً للحاق بدين، وتحمسنا جميعاً للخطط الجديدة وخططنا لليلة كبيرة، وكانت ليلة لا تنسى. كان ثمة حفلة في منزل شقيق إد دانكل. اثنان من أشقائه كانا سائقا حافلة. جلسا هناك مترقبين كل ما يجري. كان هناك مائدة طعام جميلة، كعك وشراب. بدا إد دانكل سعيداً ومنطلقاً، «إذاً، هل كل شيء على ما يرام مع غالاتيا الآن؟».

«أجل عزيزي»، قال إد «بكل تأكيد. سأنتسب إلى جامعة دنفر، أنا وروي».

«ماذا ستدرسان؟».

«أوه، علم الاجتماع وهذه الأشياء. قل لي، ألا يصبح دين أكثر جنوناً عاماً بعد عام؟».

«بكل تأكيد».

كانت غالاتيا دانكل هناك، تحاول محادثة أحدهم، لكن دين سيطر بصخبه على المكان كله. وقف يهرج أمام شيبارد وتيم وبايب وأنا، الذين جلسنا جنباً إلى جنب على كراسي المطبخ الممتدة على طول الجدار. راح إد دانكل يحوم متوتراً وراءه، بينما أخوه المسكين محشور في الخلف. «هاب! هاب!» راح دين يقول شاداً قميصه، فاركاً معدته، قافزاً. «أيوا، إذاً، نحن جميعاً معاً الآن وقد مرت السنوات وراءنا ومع ذلك فإن أحداً منا لم يتغير حقاً، هذا المذهل حقاً. الاسـ. . الاسـ. . تمرارية، في الحقيقة لكي أثبت ذلك جلبت معي مجموعة ورق لعب يمكنني أن أخبر بدقة من خلالها مستقبل كل منكم». كان ورق اللعب الخلاعي. دوروثي وروي جونسون جلسا في الزاوية. كانت حفلة حزينة. ثم فجأة صار دين هادئاً وجلس على كرسي بين ستان وبيني ناظراً أمامه بشرود من دون أن يكترث لأحد. ببساطة اختفى لدقيقة لكي يستجمع بعض الطاقة. لو لمسته لتأرجح كجلمود معلق على فقاعة على حافة جرف. قد يقع مرتطماً أو يهتز ببساطة كصخرة. ثم انفجر الجلمود إلى زهرة وأشرق وجهه ابتسامة جميلة ونظر حوله كمن استيقظ تواً وقال «آه، انظر إلى كل هؤلاء الناس اللطفاء هنا معي. أليس هذا لطيفاً! سال! تماماً مثلما كنت أقول لا أدري لمن قبل يومين، يا للروعة، آه، بلى!». نهض وقطع الغرفة، ماداً يده لمصافحة أحد سائقي الحافلة. «كيف

حالك، اسمي دين موريارتي. أجل، أتذكرك جيداً. هل كل شيء على ما يرام؟ حسن، حسن، أنظر إلى الكعكة الجميلة. أوه، أيمكنني الحصول على بعضها؟ فقط لي؟ أنا المسكين؟». وافقت أخت إد، «أوه يا عين، الناس لطفاء جداً. الكعك وأشياء جميلة على الطاولة وكل هذا من أجل المسرات الصغيرة. هممم، آه، أيوا، ممتاز، رائع، هارومبف، إيغاد!». ووقف متأرجحاً في وسط الغرفة آكلاً الكعك وناظراً إلى الجميع بذهول. التفت ونظر خلفه، مذهولاً من كل شيء. أخذ الحاضرون يتحدثون في مجموعات وظل دين يردد «أجل! هذا صحيح!»، ثم لفتت انتباهه صورة على الجدار، فقفز ليراها عن كثب، تراجع، جثم، ثم قفز، أراد أن يرى من كل المستويات والزوايا الممكنة، ثم شد كنزته بذهول «اللعنة!». لم تكن لديه فكرة عن الانطباع الذي يثيره ولم يكن عابئاً بذلك. بدأ الحاضرون ينظرون إلى دين الآن وعاطفة أبوية وأمومية تغمر وجوههم.. أخيراً صار ملاكاً، كما كنت أعرف دائماً أنه سيصير؛ لكن مثل أي ملاك لا تزال لديه نوبات غضبه ورعبه، وتلك الليلة حين غادرنا الحفلة جميعاً إلى حانة وندسور، ثمل دين على نحو مسعور وشيطاني.

وندسور هذا كان فندقاً مزدهراً زمن البحث عن الذهب في الأزمنة الغابرة، ثم تحول إلى معلم سياحي، ومن نواح عدة لا يزال مثار اهتمام، فلا تزال آثار الطلقات على جدران حانته. هذا الفندق كان ذات مرة منزل دين. لم يكن بالسائح فيه. راح يشرب في الحانة كما لو أنه شبح أبيه، متجرعاً النبيذ والجعة والويكسي كالماء. احمرّ وجهه وتصبب عرقاً وراح يصرخ جذلاً عند البار ويترنح على حلبة الرقص حيث يرقص شبان وفتيات من الغرب، وعانق محكومين سابقين وشاركهم الصخب. في الأثناء جلسنا نحن على طاولتين كبيرتين ضمتا إلى بعضيهما. كان

هناك دنفر دي دول، دوروثي وروي جونسون، وصديقة لدوروثي من بوفالو، وايومينغ، وستان، وتيم غراي، وبايب، وإد دانكل، وتوم سنارك، وآخرون، ثلاثة عشر شخصاً بالإجمال. كان دول يستمتع كثيراً بوقته، أحضر آلة فول سوداني ووضعها على الطاولة، وراح يضع الفرنكات فيها تباعاً ويلتهم الفول السوداني. اقترح أن نكتب جميعاً بطاقة بريدية بفلس ونرسلها بالبريد إلى كارلو ماركس في نيويورك. كتبنا أشياء مجنونة. دوت الموسيقى الصاخبة في لاريمير «أليس مرحاً؟»، صرخ دول. في حمام الرجال أنا ودين رحنا نركل الباب وحاولنا كسره لكنه كان سميكاً جداً، وكسرت عظمة في سبابتي الوسطى ولم أكتشف ذلك إلا في اليوم التالي. كنا متخمين من الثمالة. خمسون كأساً من الجعة استقرت على طاولتنا، ويكفي أن يشرب الواحد منا جرعة من كل كأس منها حتى يسكر. دخل إلى المكان محكومون سابقون من كانيون سيتي وتسامروا معنا. في الردهة خارج الحانة جلس عجائز، منقبون سابقون عن الذهب، يحلمون وأمامهم علب الجعة، تحت الساعة القديمة التي تتكتك. هذا الصخب عرفوه في أيام أعظم. كل شيء كان هائجاً. كان هناك حفلات في كل مكان. كان ثمة حفلة في قصر اتجهنا جميعاً إليه، ما عدا دين، الذي ذهب إلى مكان ما، وفي ذاك القصر جلسنا إلى طاولة ضخمة في الصالة ورحنا نصرخ. كان هناك في الخارج كهوف مصطنعة وبركة سباحة. وجدت أخيراً القصر الذي ستنهض منه أفعى العالم الضخمة.

ثم في وقت متأخر من الليل بقينا أنا ودين وستان شيبارد وتيم غراي وإد دانكل وتومي سنارك في سيارة واحدة وكل شيء أمامنا. ذهبنا إلى بلدة مكسيكية، قصدنا حانات فايف بوينتس، تسكعنا هنا وهناك. ستان شيبارد كان سكران بالفرح. ظل يصرخ «يا للروعة، أخت الشرموطة!»

بصوت مرتفع وضارباً على ركبتيه. جن دين به. ظل يردد كل ما يقوله ويبصق ويمسح العرق عن وجهه. «هل سنمضي وقتاً مثيراً، سال، مسافرين إلى المكسيك مع هذا الشاب ستان! أجل!». كانت ليلتنا الأخيرة في دنفر المقدسة، وجعلناها جامحة وكبيرة. وانتهت بالنبيذ في غرفتي على ضوء الشموع، وتشاريتي تمشي فوق بثياب نومها مع مصباح يدوي. كان معنا شاب نيغرو يسمي نفسه غوميز. كان يمشي في فايف بوينتس غير مكترث بشيء البتة. حين رأيناه نادى تومي سنارك عليه «هاي، هل اسمك جوني؟».

تراجع جوني وتجاوزنا من جديد وقال «هلا كررت ما قلت؟».

«قلت هل أنت الشاب المدعو جوني؟».

عاد غوميز وحاول ثانية «هل أبدو هكذا أكثر شبهاً به؟ لأنني أحاول جهدي لكي أكون جوني لكنني لا أجد السبيل إلى ذلك».

«حسناً، يا رجل، اصعد معنا!»، صرخ دين، وقفز غوميز إلى السيارة وانطلقنا. في الغرفة أخذنا نتحادث همساً لكي لا نزعج الجيران. عند التاسعة صباحاً غادر الجميع ما عدا دين وشيبارد، اللذان ظلا يثرثران كمهووسين. نهض الجيران لكي يحضروا الإفطار وسمعوا صوتاً تحت الأرض يردد «أجل! أجل!». حضرت بايب إفطاراً كبيراً. حان موعد المكسيك.

أخذ دين السيارة إلى أقرب محطة لكي يجروا عليها فحصاً عاماً. كانت فورد سيدان طراز ٣٧ بابها الأيمن بلا مفصلة وتم ربطها يدوياً بالهيكل. الباب الأمامي الأيمن كان بدوره مكسوراً وتجلس على المقعد مائلاً إلى الخلف ووجهك إلى السقف الممزق. «سنذهب ساعلين وقافزين إلى المكسيك؛ سيستغرق ذلك أياماً وأياماً»، قال دين. راجعت الخارطة: سنقطع نحو ألف ميل، معظمها عبر تكساس، إلى الحدود عند

لاريدو، ثم ٧٦٧ ميلاً إضافية عبر المكسيك وصولاً إلى المدينة العظيمة قرب أطلال حصن إيثموس ومرتفعات أوكساكان. رحلة خيالية، الأروع على الإطلاق. لم يعد الأمر ثنائية الشرق والغرب، بل الجنوب السحري. رأينا وست هامشاير كلها تنزلق مباشرة إلى تييرا ديل فويغو ونحن طائرين عند منعطف العالم إلى مدارات أخرى وعوالم أخرى. «يا رجل، هذا سيقودنا أخيراً إليه!» قال دين بيقين تام. لكز ذراعي «انتظر وسترى. هووو! وييي!».

ذهبت مع شيبارد لكي يختتم آخر شؤونه في دنڤر، والتقينا بجده المسكين الذي وقف عند باب البيت قائلاً «ستان، ستان. . .».

«ما الأمر جدو؟».

«لا تذهب».

«أوه لقد حسم الأمر، عليّ أن أذهب الآن؛ لماذا عليك أن تفعل هذا؟». كان شعر العجوز رمادياً وعيناه واسعتين لوزيتين ورقبته مشدودة.

«ستان»، قال ببساطة، «لا ترحل، لا تبكِ جدك العجوز، لا تتركني وحدي ثانية». لوّع قلبي أن أرى هذا كله.

«دين»، خاطبني العجوز «لا تأخذ ستان بعيداً عني. كنت أصحبه إلى الحديقة حين كان صغيراً وأحكي له عن البجعات. ثم غرقت أخته الصغيرة في البركة نفسها. لا أريدك أن تأخذ ولدي».

«لا»، قال ستان، «نحن ذاهبون الآن. وداعاً». وراح يسحب يده منه.

أمسكه جده من ذراعه، «ستان، ستان، لا تذهب، لا تذهب، لا تذهب».

مشينا مطأطئي الرأسين، وكان العجوز لا يزال واقفاً على الباب الذي علق عليه الخرز والأثاث الفائض عن الحد في الردهة. كان أبيض

كالورقة. ظل ينادي على ستان. كان ثمة ما يشل في تلك اللحظات، وهو لم يغادر المدخل، بل وقف هناك متمتماً «ستان» و«لا ترحل»، ولاحقنا بنظراته بقلق بينما ننعطف عند الزاوية.

«يا إلهي شيب! لا أعرف ماذا أقول».

«لا تهتم!»، همهم ستان، «لطالما كان كذلك».

التقينا والدة ستان في المصرف حيث كانت تسحب المال لأجله. كانت امرأة جميلة بيضاء الشعر، لا يزال شكلها شاباً. هي وابنها وقفا يتهامسان على الأرض الرخام في المصرف. كان ستان يلبس بنطال «ليفيز»، وسترة، وبدا بالتأكيد مثل رجل ذاهب إلى المكسيك. كانت تلك لحظاته الحنونة في دنفر، وكان منطلقاً مع دين الملتهب. جاء دين من الزاوية ولاقانا في الوقت المحدد. أصرت السيدة شيبارد على أن تقدّم لنا جميعاً القهوة.

«اعتن بابني»، قالت، «لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث في ذاك البلد».

«سنعتني جميعاً ببعضنا»، قلت. ستان وأمه مشيا في المقدمة وأنا خلفهما مع دين المجنون؛ كان يخبرني عن الكتابة على جدران الحمامات في الشرق وفي الغرب.

«إنها مختلفة كلياً؛ في الشرق يكتبون الدعابات الجنسية واضحة المراجع، نثرات من الرسومات، في الغرب يدونون فحسب أسماءهم، رد أوهارا، بلافتاون مونتانا، مر من هنا، ثم التاريخ، شيء كئيب جداً». كان ثمة شاب وحيد يمشي أمامنا، لأن أم ستان كانت رائعة ولم ترد أن يرحل ابنها لكنها تعرف أن عليه أن يرحل. كان واضحاً أنه يفر من جده. ها نحن الثلاثة، دين يبحث عن أبيه، أبي ميت، وستان يفر من جده، وننطلق إلى الليل معاً. قبّل أمه في زحام في الشارع ١٧ ولوّحت لنا من سيارة الأجرة. وداعاً، وداعاً.

صعدنا بالسيارة عند منزل بايب وودعناها. كان تيم سيركب معنا إلى بيته خارج البلدة. كانت بايب رائعة ذلك اليوم؛ كان شعرها طويلاً وأشقر، ونمشها ظاهراً في الشمس. بدت شبيهة بنفسها طفلة. كان ثمة ضباب في عينيها. ربما تنضم إلينا لاحقاً مع تيم ـ لكنها لم تفعل. وداعاً، وداعاً.

انطلقنا. تركنا تيم عند الفناء في السهول خارج البلدة ونظرت إلى الوراء لأراه يختفي. ذلك الشاب الغريب وقف هناك دقيقتين كاملتين يتفرج علينا نبتعد والله يعلم أي أفكار محزنة جالت في خاطره. صار يتضاءل ويتضاءل، وظل واقفاً بلا حراك وإحدى يديه على حبل غسيل، مثل قبطان وبقيت أنظر إليه حتى لم يعد هناك شيء سوى فراغ متسع في الفضاء والفضاء كان المشهد الشرقي نحو كانزاس الذي يؤدي إلى بيتي في أتلانتيس.

توجهنا جنوباً نحو كاسل روك، كولورادو، بينما الشمس تحمر والجبال غرباً تبدو مثل مصنع جعة في غسق نوفمبر. بعيداً، أعلى الظلال الأرجوانية للجبال كان ثمة من يمشي، ويمشي، لكننا لا نراه؛ ربما كان ذلك العجوز أشيب الشعر الذي حدست به منذ سنوات في الذرى، زاكاتيكان جاك. لكنه كان يقترب مني، من الخلف. ودنڤر تذوب وراءنا كمدينة الملح، ودخانها يتصاعد في الهواء ويختفي.

ـ ٤ ـ

كان مايو. وكيف يمكن لفترات بعد الظهر الحميمة في كولورادو بمزارعها وقنوات ريها ومزاريبها ووهادها الظليلة، تلك الأمكنة التي يقصدها الفتيان للسباحة، كيف لمكان كهذا أن ينتج حشرة كالتي لثغت ستان شيبارد؟ كان واضعاً ذراعه فوق الباب المخلوع ويتحدث بسعادة

حين حطّت الحشرة على ذراعه وغرزت إبرتها الطويلة وجعلته يصرخ ألماً. حشرة خارجة من أصيل أميركي. نتر ذراعه وصفعها، ولم تمر دقائق حتى بدأت ذراعه تنتفخ وازداد ألمه. لم نستطع معرفة نوع اللسعة. كان علينا أن ننتظر لنرى إذا كان الانتفاخ سيخمد. هاك نحن، متجهين إلى أراض جنوبية مجهولة، وبالكاد خرجنا ثلاثة أميال من بلدتنا، بلدة الطفولة المزرية، لتنبت حشرة إكزوتية غريبة من عفن سري ما وتلقي الذعر في قلوبنا. «ما هي؟».

«لم أر حشرة تُحدث ورماً كهذا».

«اللعنة!». بدت الرحلة ملعونة ومنحوسة من بدايتها. تابعنا السير. ساءت حال ستان. قررنا أن نتوقف عند أول مستشفى لكي يحقن بالبنسلين. اجتزنا كاسل روك، ودخلنا كولورادو سبرينغز ليلاً. لاح إلى يميننا الظل العظيم لقمة بايك ماونتن. انحدرنا على طريق بويبلو السريعة، «لقد سافرت مستوقفاً آلاف وآلاف المرات على هذه الطريق»، قال دين، «اختبأت وراء هذا السياج المكهرب ذات ليلة حين فجأة أجفلني شيء ما بلا أي سبب».

قررنا أن نحكي قصصنا، لكن الواحد تلو الآخر، وستان كان الأول، «الطريق طويلة أمامنا» قال دين ممهداً، «فعليك أن تتمهل للغاية وتروي كل تفصيل يطرأ على بالك، ومع ذلك لن تتمكن من سرد كل شيء. تمهل، تمهل»، حذرّ ستان، الذي شرع يخبر قصته «،عليك أن تسترخي أيضاً». بدأ ستان يحكي قصة حياته بينما نتقدم في العتمة. بدأ بتجاربه في فرنسا لكن لكي يعبر تماماً عن الصعوبات التي لا تنتهي عاد إلى البداية، أي إلى طفولته في دنڤر. هو ودين حاولا تذكر الأوقات التي رأيا فيها بعضيهما يتجولان على الدراجة الهوائية. «ذات مرة انا واثق من أنك نسيتها، قرب كاراج أرافاو؟ أتذكر؟ رميت كرة نحوك عند الزاوية

ورميتها لي لكنها وقعت في البالوعة. أيام غرامر. أتذكر الآن؟ كان ستان متوتراً ومحموماً. أراد أن يخبر دين كل تفصيل. دين الآن حكيماً، عجوزاً، قاضياً، مستمعاً، موافقاً، هازاً رأسه «أجل، أجل، تابع أرجوك». عبرنا والسنبورغ، ثم اجتزنا ترينيداد حيث ربما كان تشاد كنغ جالساً في مكان ما أمام نيران المخيم مع حفنة من الأنثروبولوجيين، وهو الآخر يحكي قصة حياته من دون أن يخطر على باله أننا الآن نعبر في اللحظة نفسها الطريق السريعة، متجهين إلى المكسيك، مخبرين قصصنا. يا لليل الأميركي الحزين! ثم وصلنا إلى نيومكسيكو وعبرنا صخرات راتون المستديرة وتوقفنا عند مطعم، وتناولنا الهامبرغر بنهم من شدة الجوع، ووضعنا ما تبقى في مناديل ورقية لكي نأكله عند الحدود. «تكساس العامودية كلها أمامنا، سال»، قال دين، «سيمر وقت طويل قبل أن تصير أفقية. سنكون في تكساس بعد بضع دقائق ولن نخرج منها قبل يوم غد وهذه المرة لن نتوقف. فكر في هذا».

تقدمنا. عبر السهل الليلي الكثيف ظهرت أولى بلدات تكساس، دلهارت، التي عبرتها في ١٩٤٧. ها هي تومض على الأرض القاتمة، على بعد خمسين ميلاً. الأرض تحت ضوء القمر مليئة بالبرغش والخرائب. في الأفق كان القمر الذي سمن وتضخم وصار بلون الصدأ، حتى ظهرت نجمة الصباح، وغمر الندى نوافذنا، وتابعنا تقدمنا. بعد دلهارت ـ مدينة أقفاص خشبية فارغة ـ اتجهنا إلى أماريلو، ووصلنا إليها عند الفجر بين أعشاب تهزها الرياح والتي قبل سنوات قليلة كانت تلتف حول مجموعة من خيم بوفالو. الآن صرنا نرى محطات وقود وعلب موسيقى جديدة من العام ١٩٥٠ مع مقدم بالغ الزخرفة وفتحات العشرة سنتات وأغنيات رهيبة. طوال الطريق من أماريلو إلى تشايلدرس، قمت ودين بسرد تفاصيل بعض الكتب التي قرأناها، نزولاً عند طلب ستان لأنه

يريد أن يعرف. في تشايلدرس في الشمس اللاهبة انعطفنا مباشرة إلى الجنوب على طريق جانبية ومضينا بسرعة عبر خرائب لا قاع لها إلى بادوكا، غوتري، وأبلين، تكساس. صار دين بحاجة إلى النوم، وأنا وستان جلسنا في المقعد الأمامي وقدنا السيارة. السيارة القديمة اشتعلت وهي تكد متقدمة. وهبت علينا رياح رملية هائلة. استمر ستان بسرد قصص عن مونت كارلو وكان سور مير والأمكنة الزرقاء بجوار منتون حيث البشر السمر يجولون بين الجدران البيضاء.

تكساس بكل وضوح: دخلنا أبلين التي ظهرت أمامنا فجأة «تخيل أن تعيش في هذه البلدة البعيدة آلاف الأميال عن المدن. ووب، ووب، هناك عند سكة الحديد، أبلين القديمة حيث كانوا يشحنون الأبقار ويذبحونها من أجل رجال المباحث ويحتسون رد آي، أنظر هناك!» صرخ دين من النافذة لاوياً فمه مثل دبليو. ك. فيلدز، لم يكن يكترث لتكساس أو أي مكان آخر. أهل تكساس بوجوههم الحمراء لم يعيروه اهتماماً وهم يعبرون الأرصفة الحارة. توقفنا لنأكل على الطريق السريعة جنوب البلدة. بدا الليل على بعد ملايين الأميال بينما تابعنا نحو كولمن وبرايدي، في قلب تكساس، حيث الحشائش البرية التي يبرز منها بيت من حين لآخر قرب جدول جاف وطريق ملتوية وسخة تمتد نحو خمسين ميلاً وحر لا يطاق. «كم أنت بعيدة أيتها المكسيك!»، قال دين ناعساً من المقعد الخلفي، «لذا فلندع السيارة تمضي يا شباب وسنجد أنفسنا في أحضان الجميلات قبيل الفجر لأن هذه الفورد القديمة يمكنها الجري إذا ما عرف المرء كيف يتحدث إليها ويروّضها، عدا عن أنها على وشك الانهيار لكنها ستوصلنا إلى هناك»، وغفا.

توليت القيادة إلى فريدريكسبورغ وهناك مرة أخرى كنت أتقاطع مع الخارطة القديمة، المكان نفسه الذي أمسكنا فيه أنا وماري لو أيدي

بعضنا ذات صباح مثلج عام ١٩٤٩، وأين هي ماري لو الآن؟ «اعزف!» صرخ دين في نومه وأظن أنه كان يحلم بأمسيات الجاز في فريسكو وربما المامبو المكسيكية التي نحن في طريقنا إليها. لم يتوقف ستان عن الكلام، لقد قام دين بشحذ طاقته الليلة الفائتة والآن لن يتوقف. وصل إلى إنكلترا الآن، متحدثاً عن مغامرات السفر استوقافاً على الطريق الإنكليزية، من لندن إلى ليفربول، بشعره الطويل وبنطاله الرث، وسائقو الشاحنات البريطانيون غريبو الأطوار. احمرت عيوننا من الرياح الرملية في تكساس. كان ثمة صخرة في معدة كل منا وعرفنا أننا نتقدم إلى هناك، وإن ببطء. السيارة تقدمت بجهد وكد بسرعة أربعين ميلاً بالساعة. انحدرنا من فريدريكسبورغ إلى السهول الغربية العظيمة. بدأ العث يرتطم بنافذة السيارة الأمامية «نهبط إلى البلد الحار الآن يا شباب، إلى فئران الصحراء والتكيلا. وهذه أول مرة أتقدم فيها جنوباً في تكساس إلى هذا الحد»، أضاف دين بعجب، «لعنة لعناء! إلى هنا يأتي أبي في الشتاء، متشرداً ومتسللاً خلسة».

فجأة وصلنا إلى حر استوائي مطلق عند قاع هضبة، وصعوداً رأينا أضواء سان أنطونيو. ينتابك إحساس أن هذه كلها كانت فيما مضى منطقة مكسيكية. المنازل على جوانب الطريق كانت مختلفة، محطات الوقود أكثر قدماً، مصابيح الإنارة أقل عدداً. استلم دين القيادة بسرور ليتقدم بنا إلى سان أنطونيو. دخلنا إلى المدينة حيث أكواخ جنوبية مكسيكية بلا أسقف وكراس هزازة قديمة على الشرفات. توقفنا عند محطة وقود جميلة لكي نشحّم الدواليب، وكان المكسيكيون متحلقين تحت ضوء اللمبات الحار التي اسودت بفعل حشرات الصيف، يمدون أيديهم إلى ثلاجة مشروبات غازية ويخرجون علب الجعة ويرمون المال للبائع. عائلات بأكملها لبثت هناك تفعل ذلك. من حولنا الأكواخ

والأشجار ورائحة كمون نافذة في الهواء. فتيات مراهقات مجنونات جئن برفقة فتيان. «هوو!» صرخ دين «سي! مانانا!»، وكانت الموسيقى تنبعث من كل مكان، كل أنواع الموسيقى. أنا وستان شربنا عدة علب من الجعة. أصبحنا الآن خارج أميركا تقريباً ومع ذلك وقطعاً فيها وفي قلب جنونها. مرت السيارات عاصفة.

«اسمعاني الآن، يمكننا أن نمضي ساعتين في سان أنطونيو ولذا سنذهب ونعثر على عيادة لذراع ستان وأنا وسال سنمضي بسرعة ونستكشف هذه الشوارع، أنظر إلى هذه المنازل عبر الشارع، يمكنك أن ترى عبر الغرفة الأمامية وكل أولئك الفتيات الجميلات ممددات يقرأن سلسلة ترو لاف، ويي! هيا، لنمض!».

قدنا من دون هدف وسألنا الناس عن أقرب عيادة. كانت قرب وسط البلد، حيث الأشياء بدت أكثر أميركية وأناقة، بضع أنصاف ناطحات سحاب والعديد من لافتات النيون والصيدليات، إنما السيارات تندفع مخترقة المدينة كما لو أنه ليس هناك إشارات سير، ركنا السيارة عند مدخل المستشفى ودخلت مع ستان لنرى طبيباً بينما بقي دين في السيارة ليبدل ملابسه. ردهة المستشفى كانت مليئة بالنساء المكسيكيات الفقيرات، بعضهن حامل، بعضهن مريض أو مصطحبات أولادهن المرضى. كان المشهد حزيناً. فكرت في المسكينة تيري وتساءلت عما تفعله الآن. ستان اضطر إلى الانتظار ساعة كاملة حتى جاء طبيب وفحص ذراعه المتورمة. كان ثمة اسم للالتهاب، لكن أياً منا لم يهتم بحفظه. حقنوه بالبنسلين.

في الأثناء ذهبت ودين لنستكشف الشوارع المكسيكية في سان أنطونيو. كان الهواء ناعماً وعبقاً ـ أنعم هواء عرفته على الإطلاق ـ وكانت عتمة، وغموض، وفتيات يضعن المناديل البيضاء ظهرن فجأة.

دين مشى ببطء ولم ينبس بحرف «أوه، هذا أروع من فعل أي شيء!» همس بعدها «فلنتسلل فحسب ونرى كل شيء. انظر! انظر! محل بليياردو رائع». دخلنا إليه. مجموعة من الفتيان توزعوا على ثلاث طاولات بليياردو، كلهم مكسيكيون. اشتريت ودين الكوكاكولا ووضعنا النيكلات في الجكبكس، واستمعنا إلى واينوني بلو هاريس وليونيل هامبتون ولاكي مليندر ورقصنا. في الأثناء نبهني دين لكي أتفرج.

«انظر الآن، من زاوية عينيك وبينما نستمع إلى وينوني ونشم أيضاً الهواء الناعم كما تقول، انظر إلى هذا الفتى، الفتى الأعرج الذي يلعب البلياردو عند الطاولة الأولى، إنه أضحوكة المكان، أترى، لقد كان الأضحوكة طوال حياته. الآخرون لا يرحمونه لكنهم يحبونه».

الفتى الأعرج كان أشبه بقزم مشوه الخلق وله وجه ضخم رائع، ضخم أكثر من اللازم، تلتمع فيه عينان بنيتان هائلتان. «ألا ترى، سال، إنه توم سنارك سان أنطونيو، القصة نفسها في كل العالم. أنظر إنهم يطاردونه بتلميحاتهم؟ ها ـ ها ـ ها! اسمعهم يضحكون. أترى، يريد أن يربح اللعبة، لقد راهن أربعِ رهانات. تفرج! تفرج!» تفرجنا بينما القزم الملائكي يسدّد ويخطئ ويضحك الآخرون. «آه، يا رجل»، قال دين، «والآن تفرج». أمسكوا الفتى من رقبته وراحوا يعاملونه بخشونة، لكن بقصد المزاح، وهو راح يصرخ. رحل أخيراً ملقياً على المكان نظرة أخيرة عذبة وخفرة. «آه يا رجل، أحب أن أعرف هذا الشاب الرائع وبمَ يفكر وأي فتيات يصاحب، أوه يا رجل، إنني منتش في هذا الهواء!». خرجنا ومشينا أحياء عدة معتمة وغامضة. بيوت لا تحصى وراء أفنية مخضوضرة؛ فتيات في الغرف الأمامية، فتيات على الشرفات، فتيات بين الأشجار مع فتيان «لم أرَ سان أنطونيو الرائعة هذه من قبل! تخيل كيف ستكون المكسيك! لنذهب!». عجلنا عائدين إلى المستشفى. كان ستان

جاهزاً وقال إنه يشعر بتحسن كبير. أحطناه بذراعينا وحكينا له كل ما فعلناه.

والآن صرنا مستعدين لآخر ١٥٠ ميلاً إلى الحدود السحرية. قفزنا إلى السيارة وانطلقنا. كنت مرهقاً فنمت كل الطريق عبر ديلي وإنسينال إلى لاريدو ولم أستيقظ حتى كان دين يركن السيارة أمام مطعم عند الثانية بعد منتصف الليل. «آه»، تنهد دين، «نهاية تكساس، نهاية أميركا، ما عدنا نعرف شيئاً الآن». كان الحر رهيباً: كنا نتصبب عرقاً. لم يكن من ندى ليلي، ولا نسمة هواء، لا شيء سوى ملايين الفراشات ترتطم باللمبات في كل مكان والرائحة الثقيلة الزنخة لنهر ريو غراندي، الذي يبدأ من روكي فالي الباردة، وينتهي مشكلاً وديان العالم مازجاً حرارته بوحول المسيسيبي عند الخليج العظيم.

كانت لوريدو مدينة كالحة ذاك الصباح، حيث كل أنواع سائقي التاكسي ومهربي الحدود. لم يكونوا كثراً، فقد كان الوقت متأخراً. كان القاع الذي يترسّب فيه أشرار أميركا كالثفل، المكان الذي يتوارون فيه. أعمال التهريب تزدهر في الهواء الثقيل المركز. رجال الشرطة حمر الوجوه ومتجهمون ويتصببون عرقاً، دون اختيال. النادلات مشمئزات وقذرات. وراء هذا كله تشعر بالحضور الهائل للمكسيك العظيمة كلها وتكاد تشتم ملايين كعك التورتيلا التي تقلى وتفوح روائحها في الليل. لم تكن لدينا أي فكرة كيف ستكون المكسيك. كنا مع مستوى البحر مجدداً، وحين حاولنا أن نأكل وجبة خفيفة بالكاد تمكنا من ابتلاعها. وضعنا الطعام في منديل ورقي. انتابنا إحساس مقيت وحزين، لكن تبدّل كل شيء حين عبرنا الجسر الغامض فوق النهر وانطلقت السيارة رسمياً على التربة المكسيكية، مع أنه لم يكن سوى ممر سيارات للتفتيش الحدودي. نظرنا بعجب. لذهولنا بدت تماماً مثل المكسيك. كانت

الثالثة فجراً، وشبان بقبعات قش وبناطيل بيضاء يتسكعون بالعشرات أمام واجهات المتاجر القديمة.

«أنظر إلى أولئك الشبان!» همس دين، «أوه»، تنهد بنعومة، «انتظر، انتظر». تقدم شرطة الحدود المكسيكيون، مبتسمين ابتسامة عريضة وطلبوا بتهذيب تفتيش أمتعتنا.. لم نستطع نزع أعيننا عن الجهة الأخرى من الحدود. كنا متشوقين لكي نذهب مباشرة إلى هناك والتشرد في تلك الشوارع الإسبانية الغامضة. كنا لا نزال في نوفو لاريدو، لكنها بدت مثل هولي لاسا بالنسبة إلينا «يا رجل، هؤلاء الشبان يبقون مستيقظين طوال الليل»، همس دين. عجلنا لكي ننهي أوراقنا. حذرونا ألا نشرب من مياه الصنابير بما أننا الآن عبرنا الحدود. فتش المكسيكيون أمتعتنا بسرعة. لم يكونوا يشبهون رجال الشرطة على الإطلاق. كانوا رقيقين وكسولين. دين لم يتوقف عن الحملقة بهم. «أترى كيف هم رجال الشرطة في هذا البلد. لا أصدق ذلك!». فرك عينيه «إنني أحلم». ثم حان الوقت لكي نستبدل دولاراتنا بمال مكسيكي. رأينا رزماً كبيرة من البيزو على طاولتنا وعلمنا أن ثمانية منها تساوي دولاراً أميركياً، أو نحوه. بدلنا معظم ما معنا وحشونا جيوبنا برزم ضخمة من المال.

ـ ٥ ـ

يمّمنا وجوهنا شطر المكسيك بخفر واستغراب بينما عشرات المكسيكيين يرمقوننا في العتمة من حواف قبعاتهم الغامضة، وفي الخلفية الموسيقى والمطاعم التي يتصاعد منها الدخان طوال الليل. «واو»، همس دين بنعومة فائقة.

«هذا كل شيء»، قال الشرطي المكسيكي مبتسماً، «يمكنكم العبور أيها الشبان أهلاً بكم. استمتعوا بوقتكم. انتبهوا إلى أموالكم، وقودوا

بحذر. أنصحكم بذلك بشكل شخصي، اسمي رد، الجميع هنا يناديني رد. فقط اسألوا عن رد. كلوا جيداً، ولا تقلقوا، كل شيء على ما يرام، ليس صعباً أن تمضوا وقتاً ممتعاً في مهيكو».

«أيوا!»، زعق دين وانطلقنا بهدوء إلى المكسيك. ركنّا السيارة، واتجهنا إلى قلب أنوار الشارع البنية الخافتة، متفرجين على رجال عجائز متهالكين على الكراسي مثل مدمني مخدرات وحكماء شرقيين. ولم يكن أحد ينظر إلينا مباشرة، ومع ذلك فالجميع كان يرانا. انعطفنا يميناً إلى المطعم الذي ينبعث منه الدخان حيث تصدح موسيقى الغيتارات في جكبكس أميركية من الثلاثينات، وحيث يجلس سائقو سيارات أجرة بقمصان طويلة الأكمام، وهبيون بقبعات قش، ملتهمين التورتيلا، والفاصولياء، والتاكو، وأطعمة أخرى. ابتعنا الجعة المحلية، اسمها «تشيرفيزا»، لقاء ثلاثين سنتاً مكسيكياً أو عشر سنتات أميركية للواحدة منها، كما ابتعنا السجائر المكسيكية بثمن ست سنتات للعلبة. وحملقنا طويلاً بأموالنا المكسيكية الرائعة، ولهونا بها ونحن نتلفّت يميناً ويساراً مبتسمين للجميع، وقد أدركنا أخيراً أن أميركا والحياة التي عرفناها، وحتى حياة الطريق، أصبحت وراء ظهورنا. ها نحن أخيراً في الأرض السحرية التي تفوق كل تصوراتنا. «تأمل كل هؤلاء الشبان الذين لا يعرفون النوم»، همس دين، «وتأمل هذه القارة الشاسعة أمامنا وجبال سييرا مادراس الضخمة التي رأيناها فقط في الأفلام، والأدغال على امتداد الطريق نزولاً والصحراء الشاسعة كصحرائنا وتؤدي إلى غواتيمالا والله أعلم إلى أين أيضاً! وما الذي سنفعله؟ ما الذي سنفعله؟ لنتحرك!». عدنا إلى السيارة، وألقينا نظرة أخيرة على أميركا عبر الأضواء المتوهجة على جسر ريو غراندي، الذي أدرنا له ظهورنا وسيارتنا وانطلقنا.

دخلنا فوراً في الصحراء ولم يكن من ضوء أو سيارة على امتداد خمسين ميلاً، ثم حل الفجر فوق خليج المكسيك وبدأنا نرى كاكتوس اليوكا والأورانجبايب منتشرة على الجوانب كافة. «يا له من بلد بري!» هتفت. أنا ودين كنا يقظين كلياً، لكن مع وصولنا إلى لاريدو بتنا نصف ميتين من التعب، أما ستان الذي زار من قبل بلاداً أجنبية، فنام بهدوء في المقعد الخلفي. أنا ودين كانت لا تزال أمامنا المكسيك كلها.

«الآن، سال، سننسى كل ما عرفناه، كل السنوات السابقة والمشكلات والمغامرات، وندخل في مرحلة جديدة ومجهولة من الأشياء. لقد وصلنا أخيراً ويمكننا بكل طمأنينة ألا نفكر بأي شيء آخر وأن نمضي قدماً ووجوهنا مشرئبة هكذا، أترى، ونفهم العالم كما لم - وأتحدث بجدية هنا - كما لم يفهمه الأميركيون الآخرون من قبل، لقد كانوا هنا، أليس كذلك؟ خلال حرب المكسيك، جاؤوا إلى هنا مع المدافع».

«هذه الطريق...»، قلت له «هي أيضاً طريق أوائل الخارجين على القانون من الأميركيين الذين كانوا يفرون عبر الحدود إلى مونتيري القديمة، لذا إذا نظرت إلى هذه الصحراء الرمادية وتخيلت شبح تومبستون العجوز وهو يعدو وحيداً في المجهول، سترى أكثر...».

«إنه العالم»، قال دين، «يا إلهي»، صرخ، ضارباً على المقود. «إنه العالم! ويمكننا الذهاب مباشرة إلى أميركا الجنوبية إذا كانت الطريق تؤدي إلى هناك. تخيل ذلك! يا للروعة، اللعنة!». ومضينا مسرعين، وانتشر ضوء الفجر سريعاً وظهر رمل الصحراء الأبيض وبعيداً عن الطريق كانت تلوح لنا من وقت لآخر الأكواخ التي أبطأ دين لكي يتأملها. «أكواخ قديمة حقاً، يا رجل، وهؤلاء الناس لا يبالون بالمظاهر». رحنا نتطلع بشوق للوصول إلى أولى البلدات المسجلة على الخارطة وتدعى

سابيناس هيدالغو. «وهذه الطريق لا تختلف إطلاقاً عن الطريق الأميركية»، صرخ دين، «سوى أن المسافات على لافتات السير مكتوبة بالكيلومتر وتشير كلها إلى مكسيكو سيتي. أترى، إنها المدينة الوحيدة في الأرض كلها، كل شيء يؤشر إليها». كان أمامنا ٧٦٧ ميلاً إضافية إلى تلك المتروبوليس، أما بقياس الكيلومترات فكانت المسافة تتجاوز الألف. «اللعنة! عليّ أن أسرع أكثر!» صرخ دين. لبرهة أغمضت عيني من شدة الإرهاق وظللت أسمع دين وهو يضرب المقود مردداً «اللعنة» و«يا للإثارة!» و«أوه، يا لها من أرض!»، و«مرحى!». وصلنا إلى سابيناس هيدالغو قرابة السابعة صباحاً. أيقظنا ستان، وأبطأنا لنتأملها جيداً، وكان الشارع الرئيسي موحلاً ومحفّراً، وعلى الجانبين انتشرت مبان طينية متهدمة، وكانت الحمير تعبر الشارع بأحمالها، ونساء حافيات الأقدام وقفن يتفرجن علينا من مداخل بيوتهن المعتمة، وعشرات البشر ينطلقون سيراً على الأقدام لكي يبدأوا يوماً جديداً في الريف المكسيكي. عجائز عريضو الشوارب حملقوا بنا، إذ لا بد من أن رؤية ثلاثة شبان أميركيين رثين ذقونهم نابتة، بدلاً من المشهد الاعتيادي للسائحين المتأنقين، كانت مثار اهتمام غير اعتيادي بالنسبة إليهم. تقّدمت سيارتنا في الشارع الرئيسي بسرعة عشرة أميال بالساعة، وكنا نمعن النظر في كل شيء، حين عبرت مجموعة من الفتيات أمامنا مباشرة، وخاطبتنا إحداهن، «إلى أين أنت ذاهب، يا صاح؟».

التفتّ إلى دين، مأخوذاً، «أسمعتها؟».

حافظ دين على سرعته، «أجل سمعت ما قالته. سمعت بالتأكيد ما قالته، أوه يا رجل، أوه، ماذا سأفعل، إنني متحمس جداً في هذا العالم الصباحي، لقد وصلنا أخيراً إلى الجنة، ولا يمكن أن يكون الأمر أروع، ولا أعظم، ولا أي شيء آخر».

«حسناً، لنرجع ونصحبهن معنا!»، قلت.

«أجل»، أجاب وقاد السيارة ببطء إلى الخلف. كان في ذروة حماسته، إذ لم يكن مضطراً إلى فعل الأشياء الاعتيادية التي يمكن أن يفعلها في أميركا. «هناك الملايين منهن على امتداد الطريق!»، قال. ومع ذلك عاد، واقترب منهن مجدداً. أخبرننا أنهن متجهات إلى العمل في الحقول، وابتسمن لنا، ولم يتوقف دين عن التحديق بهن. «اللعنة»، قال بنفس مقطوع. «أوه، هذا أروع من أن يكون حقيقياً. فتيات، فتيات. والآن تحديداً في وضعي وحالي، سال، إنني أستكشف هذه البيوت التي نمر بها، ومداخلها الرائعة تلك، وتنظر إلى الداخل فترى أسرّة من القش وأطفالاً سمراً على أهبة النهوض، وعقولهم لا تزال مستغرقة في النوم، وينهضون بينما الأمهات يحضرن الإفطار في مقالٍ معدنية، وانظر إلى المزاليج التي على النوافذ، وإلى هؤلاء العجائز، انظر ما أروعهم ولا يعكر صفوهم أي شيء، لا ارتياب هنا، ولا أشياء كهذه، الكل رائق، وينظر إليك مباشرة بعينين بنيتين ولا يقول شيئاً، أنظر فحسب، وفي تلك النظرة كل الصفات البشرية، ناعمة ومكبوتة، لكنها موجودة. وتذكّر كل تلك القصص البلهاء التي قرأناها عن المكسيك والجرينغو الكسالى وكل هذا الهراء، والبشر المداهنين وما إلى ذلك، الناس هنا مستقيمون ولطفاء ولا شأن لهم بالترهات». بدا دين، الذي روضته الطريق الليلية الخام في أميركا، وقد وصل إلى العالم الحقيقي أخيراً. مال على المقود ونظر في الاتجاهين ومضى ببطء. توقفنا للتزود بالوقود عند الطرف الآخر من سابيناس هيدالغو، وكان حشد من المزارعين المحليين بقبعاتهم القش وشواربهم الكثة يمزحون ويثرثرون أمام مضخات الوقود القديمة، وعبر الحقول كان عجوز يمشي متهادياً مع حماره حاملاً القضيب. لقد أشرقت شمس المكسيك الصافية على حراك بشري نقي وتاريخي.

ثم إلى مونتيري، ومباشرة باتجاه الجبال الشاهقة المكللة بالثلوج، قبل أن نجتاز ممراً جبلياً واسعاً، إلى الصحراء، ثم صعوداً في الهواء البارد على طريق طويلة يمتد على جانبها جدار حجري، ورأينا أسماء رؤساء جمهوريات سابقين نقشت على السفوح بالكلس الأبيض بأحرف كبيرة، ولم نصادف أحداً على الطريق الجبلية التي تشق الغيوم والتي قادتنا إلى البلاتو العظيم في الأعالي. وعند الجانب الآخر كانت مونتيري الصناعية الضخمة ترسل دخانها إلى سماء زرقاء تنتشر فيها السحب كالقطن، وكان دخولها شبيهاً بدخول ديترويت، بين جدران المعامل الكبيرة، باستثناء الحمير التي تتشمس على العشب أمام الجدران، والأحياء الطينية التي يحشّش على مداخلها مئات المتسكعين، والعاهرات وراء النوافذ، والمتاجر العجيبة التي تبيع على الأرجح كل شيء»، والأرصفة الضيقة المزدحمة ببشر شبه صينين. «يا للروعة!»، صرخ دين «وكل هذا في وضح النهار. أرأيت هذه الشمس المكسيكية، سال؟ تصيبك بالخدر، يا إلهي، أريد أن أمضي بلا توقف، أريد أن أدع هذه الطريق تقودني!». رغبنا بالتوقف في مونتيري المثيرة هذه، لكن اقترح دين أن نوفر الوقت للوصول إلى مكسيكو سيتي، وإلى ذلك كان يعرف أن الطريق ستصير أكثر إثارة قدماً، دائماً قدماً. قاد السيارة بلا استراحة. أنا وستان كنا مرهقين تماماً فتركنا الأمر له وغفونا. نظرت خارج مونتيري ورأيت قمتين غريبتين ضخمتين أعلى مونتيري القديمة، إلى هناك يلجأ الخارجون على القانون.

انخفضنا مجدداً بعد مونتيمورلوس إلى الطقس الحار الذي راح يرتفع باضطراد. وفجأة أيقظني دين «سال لا يجب أن تفوّت هذا». ونظرت. كنا نمر بمحاذاة المستنقعات وعلى امتداد الطريق يظهر من وقت لآخر مكسيكيون غرباء بثياب رثة ومناجلهم معلقة بأحزمتهم التي من حبال،

وبعضهم يقطع الأعشاب الطويلة، توقفوا ليتفرجوا علينا من دون أن تنم وجوههم عن أي تعبير. بين الأدغال المتشابكة رأينا أكواخاً من القش جدرانها شبه إفريقية من قصب البامبو. شابات غريبات الهيئة، سمراوات كالقمر، رمقننا من مداخل بيوت غامضة. «أوه يا رجل، كم أحب أن ألهو مع هؤلاء الصغيرات الجميلات»، صرخ دين، «لكن لاحظ أنه ثمة دائماً امرأة أو رجلاً عجوزاً في الجوار، يقف في الخلف عادة، أحياناً على بعد مئة ياردة، يجمع الأغصان أو يعتني بالحيوانات. لا يكنّ وحدهن أبداً. لا أحد وحده في هذا البلد. بينما كنتَ نائماً استكشفت هذه الطريق وهذا البلد، وفقط لو يمكنني أن أخبرك بكل الأفكار التي راودتني!». كان يتصبب عرقاً، وقد احمرّت عيناه وباتتا أكثر رقة أيضاً، لقد وجد نفسه بين بشر يشبهونه. تقدمنا عبر المستنقعات بسرعة ٤٥ ميلاً ثابتة. «سال، أظن أن المشهد لن يتغير قبل وقت طويل.. إذا توليت القيادة فسأغفو قليلاً».

استلمت المقود واجتزت، غارقاً بأحلام اليقظة، لينارس، مدينة المستنقعات المنبسطة الحارة، ثم ريو سوتو لا مارينا قرب هيدالغو. ثم ظهر واد أخضر عظيم، وتفرجت علينا مجموعات من الرجال ونحن نعبر جسراً قديماً ضيقاً. والنهر الحار يتدفق. ثم ارتفعت الطريق وعدنا إلى الصحراء. ثم لاحت مدينة غريغوريا. كان دين وستان نائمين، وكنت مستغرقاً في تأملاتي، والطريق تمضي مباشرة كسهم، ولم يكن الأمر شبيهاً بالقيادة في كارولينا أو تكساس أو أريزونا أو إلنوي، بل في العالم، وإلى الأماكن التي سنتعرف فيها أخيراً على أنفسنا بين الهنود الفلاحين، هنود العالم، العصب الجوهري للكائن البدائي الأساسي، الإنسانية الباكية التي تحزّم خاصرة العالم الإستوائية من مالايا (ظفر الصين الطويل) إلى الهند، شبه القارة العظيمة، إلى الجزيرة العربية

فالمغرب إلى الصحاري والأدغال المكسيكية وفوق أمواج بولينيسيا إلى السيام الغامض لـ **الحبل الأصفر** وأبعد وأبعد، بحيث تسمع العويل نفسه عند جدران كاديز، إسبانيا، الذي تسمعه على بعد ١٢٠٠٠ ميل في أعماق بنارس عاصمة العالم(١). هؤلاء البشر كانوا بلا شك هنوداً وليسوا بيدرو وبانشو في التقاليد الأميركية السخيفة المتحضرة ـ عظام وجناتهم بارزة، وعيونهم مائلة، وليسوا ببلهاء، ولا مهرجين، بل عظماء، هنود عظماء هم أصل الإنسانية وآباؤها. الموج عنصر صيني، أما التربة فهندية، وبقدر ما الصخور عضوية في الصحراء فهم كذلك في صحراء «التاريخ». وهم يدركون ذلك جيداً، وإذ نمر نحن بأرضهم، كيس مال أميركي مفعم بالتقدير الزائف للذات جاء للهو في بلادهم، فإنهم يعرفون من هو أب ومن هو ابن الحياة القديمة على الأرض، ولا يعلقون. فبالنسبة إليهم سيحل الدمار بوماً على دنيا «التاريخ» وستتحقق قيامة الفلاحين مثلما حدث مرات عديدة سابقة، وسيظل الناس يحدقون بالعيون نفسها من كهوف المكسيك كما من كهوف بالي، حيث بدأ كل شيء وحيث رضع آدم المعرفة. كانت هذه أفكاري المتنامية وأنا أتقدّم عبر غريغوريا التي تتحمّص في الشمس.

في وقت سابق، هناك في سان أنطونيو، وعدت دين، ممازحاً ومتحدياً، بأنني سأؤمّن له فتاة، وبينما أركن السيارة عند محطة الوقود قرب غريغوريا عبر فتى الطريق، حاملاً مظلة كبيرة، وحاول أن يبيعني إياها «أتريدها؟ ستون بيزو. هابلا؟ اسبانيول، سيسيناتو بيزو. اسمي فكتور».

(١) بنارس Benares أو فاراناسي Varanasi، مدينة هندية مقدسة تقع على ضفاف نهر الغانج في ولاية أوتار بريداش. واحدة من أقدم المدن المأهولة في التاريخ وتُعرف باسم «مدينة العلم والمعابد»، وقد كانت هذه المدينة المركز الديني في شمال الهند خلال آلاف السنين.

«لا»، قلت ممازحاً، «أريد سنيوريتا».

«بالطبع، بالطبع!»، هتف بحماسة «أؤمّن لك الفتيات في أي وقت، لكن الآن الحر شديد... لا فتيات جيدات في الحر. انتظر حتى المساء. أتريد المظلة؟».

أردت الفتيات فقط. أيقظت دين.

«هاي يا رجل ألم أقل لك إنني سأدبر لك فتاة في المكسيك، حسناً، مدد عظامك واستيقظ، الفتيات بانتظارنا».

«ماذا؟ ماذا؟» زعق، وهو يقفز ناهضاً، بشراسة. «أين؟ أين؟».

«هذا الفتى فكتور سيأخذنا إليهن».

«حسناً، لنذهب، لنذهب!»، مطّ دين قامته من السيارة وربت على يد فكتور. كان هناك مجموعة من الفتية يتسكعون بجوار المحطة ويبتسمون، نصفهم حافي القدم، ويعتمرون جميعاً قبعات قش كبيرة. «يا رجل»، خاطبني دين، «أليست هذه طريقة جميلة لتمضية بعد الظهر، أليست أروع بكثير من قاعات البلياردو في دنفر. فكتور، ألديك فتيات؟ أين؟ آدوندي»، صرخ بالإسبانية. «أترى يا سال، إنني أتحدث الإسبانية».

«اسأله إذا كان يمكنه أن يؤمّن لنا الحشيشة. اسمع يا فتى ألديك ماريغوانا؟».

أومأ الفتى برأسه بجدية، «بالتأكيد، وقتما تشاء، تعالوا معي».

«هيبي! ويبي! هووو!»، صرخ دين، وقد صحا بالكامل وراح يقفز في ذلك الشارع المكسيكي الناعس، «لنمض جميعاً». وزعت على الفتية الآخرين سجائر لاكي سترايك، وكانوا مغتبطين بوجودنا، ولا سيما بدين، وراحوا يتبادلون النظرات بأيد مضمومة مطلقين التعليقات حول هذا الشاب الأميركي الظريف، «انظر إليهم سال، إنهم يتحدثون عنا. أوه

يا إلهي، يا له من عالم رائع!». ركب فكتور السيارة. كان شيبارد يغط في نوم عميق قبل أن يستيقظ على هذا الجنون.

توجهنا إلى طرف البلدة خارج الصحراء وانعطفنا في شارع موحل ومليء بالحفر جعل السيارة تنطنط كما لم تفعل من قبل، حتى وصلنا إلى منزل فكتور الذي يقبع عالياً على حافة سهل من الصبار يعلوه عدد قليل من الأشجار، مجرد كوخ طيني، وكان نفر من الشبان جالسين في الفناء. «من هؤلاء؟»، صرخ دين، متحمساً.

«إنهم إخوتي. أمي هناك أيضاً، وأختي. هذه عائلتي. أنا متزوج وأعيش في وسط البلد».

«ماذا عن أمك؟»، أجفل دين، «ما قولها بشأن الماريغوانا؟».

«أوه، الماريغوانا سأجلبها منها». وانتظرنا في السيارة بينما مضى فكتور إلى البيت وتمتم بضع كلمات للسيدة العجوز، التي ذهبت فوراً إلى الحديقة وراء منزلها وبدأت تجمع وريقات الماريغوانا الجافة التي حُصدت وفرشت لتجف في الشمس. في الأثناء كان إخوة فكتور الجالسون تحت شجرة يبتسمون لنا، والأرجح أنهم كانوا راغبين بالتعرف علينا، لكن سيستغرق مجيئهم بعض الوقت. عاد فكتور، مبتسماً بعذوبة.

«يا رجل»، قال دين، «فكتور هذا أحلى وأروع شاب التقيته في حياتي. أنظر إليه فحسب، أنظر إلى مشيته البطيئة الرائقة. لا حاجة إلى العجلة هنا». هب نسيم صحراوي حار.

«أترون كم الحر شديد؟»، قال فكتور، جالساً في المقعد الأمامي مؤشراً إلى سقف الفورد الملتهب، «مع الماريغوانا يزول الحر، سترون».

«أجل»، قال دين، معدلاً نظارته السوداء، «سأنتظر بكل تأكيد يا عزيزي فكتور».

في الأثناء جاء أخ فكتور الطويل متمهلاً مع بعض الحشيشة في صفحة جريدة. وضعها في حضن فكتور ومال بشكل ودي على باب السيارة وابتسم لنا وهو يهز رأسه قائلاً «مرحباً»، دين هز رأسه وابتسم بغبطة له. وصمت الجميع حين شرع فكتور يلف أكبر سيجارة حشيشة رآها أي منا في حياته، مستعملاً ورقة بنية، والنتيجة سيجارة كورونا ضخمة من الحشيشة، أخذ دين يحدق بها بعينين جاحظتين. أشعلها فكتور ومررها لنا. كان تدخين هذه السيجارة أشبه بالاستنشاق مباشرة من مدخنة، فهي تدخل مباشرة إلى حلقك في شعلة واحدة. كتمنا أنفاسنا ونفثنا الدخان في آن، وشعرنا فوراً بالانتشاء، ثم جمد العرق على جباهنا وفجأة صار الجو شبيهاً بشواطئ أكابولكو. نظرت من النافذة الخلفية للسيارة، حيث يتكئ على عمود واحد آخر من إخوة فكتور، وهو أغربهم، هندي طويل له سحنة بيروڤية يضع وشاحاً على كتفيه، وكان يبتسم، لكنه بدا أشدّ خجلاً من أن يتقدّم ويصافحنا. أحيطت السيارة بالإخوة، بعد أن ظهر شقيق آخر عند جانب دين. ثم تخلينا عن الرسميات الاعتيادية وبدأنا نركز على الأمور ذات الاهتمام المباشر، حتى اندمجت الغرابة الأميركية بالمكسيكية وأكثر من ذلك، غرابة أن ترى عن كثب الوجوه ومسام الجلد وجسآت الأصابع وعظام الوجنات الخجولة التي تنتمي إلى عالم آخر. وبدأ الإخوة الهنود يتحدثون عنا بأصوات خفيضة ويعلقون، ناظرين، ومقارنين بين انطباعاتهم، أو مصححين ومعدلين، «أجل، أجل»، بينما أنا ودين وستان نتحدث عنهم بالإنكليزية.

«هلا رأيت هذا الأخ الغريب في الخلف الذي لم يتحرك قيد أنملة عن ذلك العمود ولم تتبدل مقدار شعرة الابتسامة الخجولة على محياه؟ والآخر إلى يساري هنا، إنه أكبر سناً، وأكثر ثقة بنفسه لكنه حزين، مثل

متشرد، بينما فكتور متزوج بكل احترام، إنه مثل ملك هندي لعين. هؤلاء الشبان رائعون حقاً، لم أر مثلهم في حياتي، وهم يتحدثون ويتساءلون حولنا، أترى؟ تماماً مثلما نفعل نحن، والأرجح أن جل اهتمامهم منصبّ على ثيابنا، مثل اهتمامنا نحن بهم، لكن غرابة الأشياء التي معنا في السيارة والطريقة الغريبة التي نضحك بها تختلف عنهم كثيراً، وربما اختلفت رائحتنا حتى مقارنة بهم، ومع ذلك أضحّي بعمري لأعرف ما الذي يقولونه عنا»، وحاول دين أن يعرف، «هاي فكتور، ما الذي قاله شقيقك تواً؟».

التفت فكتور بعينيه البنيتين الحزينتين إلى دين، «أجل، أجل».

«لا، لم تفهم سؤالي، سألتك ما الذي تتحدثون عنه؟».

«أوه»، قال فكتور باضطراب عظيم، «ألم تعجبك هذه الماريغوانا؟».

«أوه، بلى، إنها رائعة، لكن ما الذي تتحدثون عنه؟».

«نتحدث؟ أجل، نتحدث. ما رأيكم بالمكسيك؟». كان من الصعب التواصل لغوياً. والجميع صمت وصار رائقاً ومنتشياً مجدداً واستمتعنا فحسب بالنسيم الصحراوي واستغرقنا في التفكير بأفكار وطنية وشخصية وعرقية وأبدية منفصلة.

ثم جاء وقت الفتيات. الإخوة تقهقروا إلى مكانهم تحت الشجرة، والأم مكثت تراقب من مدخل بيتها المشمس، بينما عدنا ببطء إلى البلدة.

لكن الآن لم تعد نطنطة السيارة مزعجة، كانت أروع رحلة في العالم، كنا نتهادى كما فوق بحر أزرق، وتوهج وجه دين كالذهب وهو يقول لنا أن **نفهم** الآن للمرة الأولى وأن نتأمل الرحلة. صعوداً وهبوطاً نطنطنا، وحتى فكتور فهم وضحك، ثم أشار يساراً إلى حيث الفتيات، ودين سلك ذلك الاتجاه بسلاسة فائقة، مستمعاً في الأثناء إلى فكتور

وهو يحاول محادثته ومعلقاً بشموخ وفخامة، «أجل، بالطبع! ليس لدي أي شك! بالتأكيد، يا رجل! أوه، بكل تأكيد! إنك تتفوه بأروع الأشياء! بالتأكيد! أجل! تابع!». وكان فكتور يتكلم برزانة بنبرة إسبانية مذهلة. ولبرهة مجنونة حسبت أن دين يفهم كل ما يقوله فكتور بمحض التبصر والإلهام العبقري المفاجئ النابع من غبطته المتوهجة. في تلك اللحظة، أيضاً، بدا شبيهاً بفرانكلين ديلانو روزفلت، والفضل في ذلك لتلك الحشيشة التي جعلتني أغرق في مقعدي متنهداً بذهول، مجاهداً بين اللمعات اللانهائية من الإشعاع السماوي لكي أرى وجه دين، وبدا مثل الله. كنت في ذروة النشوة بحيث ألقيت ظهري على المقعد، ونطنطة السيارة ترسل إلى جسدي موجات متلاحقة من النشوة. مجرد التفكير بالنظر من النافذة إلى المكسيك، التي أصبحت الآن شيئاً آخر في عقلي، كان مثل التراجع خطوات عن صندوق كنز تخشى النظر في داخله حتى لا يعميك الوهج، فتنكفئ عيناك إلى الداخل، إلى الثروات التي يصعب استيعابها مرة واحدة. بلعت ريقي، وتراءت لي موجات من الذهب تنسكب من السماء وتخترق سقف السيارة القديمة المسكينة إلى عيني مباشرة، وبالتأكيد إلى داخلهما، وكان الوهج غامراً كل شيء. نظرت من النافذة إلى الشوارع الحارة ورأيت امرأة عند مدخل بيت وفكرت أنها تستمع إلى كل كلمة نقولها وتومئ برأسها، رؤى ارتيابية نمطية بفعل الحشيشة، لكن تيار الذهب استمر بالتدفق، ولوقت طويل ما عدت أدرك ما كنا نفعله وعدت إلى وعيي في وقت لاحق حين نظرت من الصمت والنار كالاستيقاظ من حلم إلى العالم، أو من الفراغ إلى الحلم، وقالوا لي إننا نركن السيارة خارج منزل فكتور الذي بات الآن واقفاً عند باب السيارة حاملاً طفله.

«أترون طفلي؟ اسمه بيريز، عمره ستة أشهر».

«يا عين»، قال دين، ووجهه لا يزال محاطاً بهالة من النشوة القصوى وحتى البركة، «إنه أجمل طفل رأيته في حياتي. يا لهاتين العينين». قال ملتفتاً إلينا بصوت عذب ورقيق، «أريدكما على وجه الخصوص أن تريا عيني هذا الطفل المكسيكي الذي هو ابن صديقنا فكتور، وأن تلاحظا كيف سيصير رجلاً يوماً ما بروحه الفردية الخاصة تعبر عن نفسها عبر هاتين النافذتين اللتين هما هاتان العينان، وعينان جميلتان كهاتين تبصران النبوءة وتؤشران إلى أروع الأرواح». كانت خطبة رائعة. وكان طفلاً رائعاً. فكتور نظر بحنان إلى ملاكه، وتمنينا جميعاً أن يكون لدينا طفل كهذا، ولا بدّ من أن نظراتنا إلى روح الطفل كانت كثيفة إلى حدّ أنه استشعر شيئاً ما وبدأ يلوي قسمات وجهه مما أدى إلى دموع مريرة وإلى حرد غير مفهوم ولم تكن لدينا وسيلة لتهدئته لأن حرده يمتد إلى ماض سحيق من الأسرار التي لا تحصى ومن الأزمنة. حاولنا كل السبل، حمله فكتور إلى رقبته وأخذ يهزهزه، أما دين فحاول ملاعبته، وأنا ربتّ على ذراعيه الصغيرتين. تصاعد بكاؤه. «آه»، قال دين، «أنا آسف جداً، فكتور لأننا أحزنّاه».

«هو ليس حزيناً، الأطفال يبكون». عند مدخل البيت وراء فكتور، خجلة جداً من الخروج، وقفت زوجته الصغيرة حافية القدمين، منتظرة بحنان قلق أن يعود الطفل إلى ذراعيها البنيتين الناعمتين. عاد فكتور إلى السيارة وأشار بفخر إلى اليمين.

«أجل»، قال دين وانطلق يميناً عبر شوارع ضيقة ووجوه الواقفين على الجانبين تراقبنا بعجب لطيف. ثم وصلنا إلى الماخور، حيث رمقنا شرطيان ناعسان وضجران بنظرة مقتضبة بينما ندخل، وبقيا هناك طوال الساعات الثلاث التي أمضيناها، حتى خرجنا عند الغسق وأعطينا كل منهما بإشارة من فكتور ما يعادل ٢٤ سنتاً، من باب مراعاة الشكليات فقط.

وهناك كانت الفتيات. كان بعضهن مستلقياً على مقاعد حول المرقص، وبعضهن الآخر يحتسي الخمر على البار الطويل إلى اليمين. وفي وسط الصالة قنطرة تفضي إلى حجرات صغيرة تشبه الأمكنة التي تضع فيها ثوب الاستحمام في الشواطئ العمومية. وراء البار كان يقف مدير الماخور الشاب، الذي هرع فوراً حين قلنا إننا نرغب بالاستماع إلى موسيقى المامبو وعاد بعدد من الاسطوانات، معظمها لبيريز برادو، وشغّل مكبرات الصوت. كل مدينة غريغوريا كان يسعها أن تسمع أصداء الأوقات الطيبة التي تشهدها صالات دي بايل. في القاعة انفجرت الموسيقى، وكانت هذه الطريقة المثلى للاستماع إلى الجكبكس وهذا هو الغرض من صنعها أساساً، وكان الصوت مرتفعاً إلى حد أننا صدمنا لإدراكنا بأنها المرة الأولى التي نجرؤ فيها على سماع الموسيقى بالحدّ الأقصى، الحدّ الذي نريده. شعرنا بأن الموسيقى ترتطم مباشرة بنا، وخلال بضع دقائق كان نصف سكان ذلك الحي واقفاً على النوافذ يتفرج على الأميريكانوس وهم يراقصون الفتيات. اصطفوا جميعاً بجوار الشرطيين، على الرصيف المتسخ، متكئين باعتيادية ولامبالاة. «المزيد من المامبو جامبو»، «شاتانوغو دي مامبو»، «مامبو نوميرو أوكو»، دوت كل هذه الأغنيات واشتعلت في ذلك الأصيل الذهبي الغامض، تماماً مثل الأصوات التي تتوقع سماعها في آخر يوم للعالم قبل القيامة الثانية. كان صوت الترومبيتات عال جداً حتى حسبت أنه يصل إلى مسامع الناس في الصحراء البعيدة، من حيث جاءت الترومبيتات أصلاً، ولم تكن إيقاعات الطبول أقل جنوناً. إيقاع المامبو هو إيقاع الكونغا من الكونغو، نهر إفريقيا والعالم، وهو بحق إيقاع العالم. أوم ـ تا، تا ـ بو ـ بوم ـ أووم ـ تا، تا ـ بوو ـ بووم. تدفقت إيقاعات البيانو من مكبرات الصوت، وكانت صرخات قائد الفرقة أشبه بلهاث جبار يملأ الهواء. لازمات

الترومبيت الأخيرة مع طبول الكونغا والبونغو، في أسطوانة الشاتانوغا المجنونة العظيمة، جمدت دين لدقيقة حتى بدأ يرتعش ويتصبب عرقاً، ثم حين ضربت الترومبيتات الهواء الناعس بأصدائها المرتعشة كما في كهف أو مغارة، اتسعت عيناه واستدارتا كما لو أنه يرى الشيطان، ثم أغمضهما بقوة. أنا أيضاً رحت أرتجف كدمية تحت تأثير الموسيقى، وسمعت الترومبيتات ترتطم بضوء البرق الذي لاح لي وارتجفت في حذائي.

راقصنا الفتيات بجنون على إيقاعات المامبو جامبو السريعة، متأملين شخصياتهن المختلفة، وكم كن رائعات، ولفتت انتبهي الفتاة الأكثر جموحاً بينهن، نصف هندية ونصف بيضاء، فنزويلية الأصل، لا تتجاوز الثامنة عشرة. بدا من مظهرها أنها تنتمي إلى عائلة محترمة، والله أعلم لماذا، بمثل جمالها وصغر سنها، تمارس الدعارة في المكسيك. كانت تحتسي الخمر بهوس، وتطلب المزيد حين يبدو عليها أنها بصدد كأسها الأخيرة. كانت تقلب الكؤوس باستمرار، والهدف أيضاً أن تجعلنا ننفق أكبر قدر ممكن من المال. لابسة رداءها المنزلي الشفاف، راقصت دين بهياج وتعلقت برقبته وراحت ترجوه وترجوه طلباً لكل شيء، وكان دين منتشياً إلى حد أنه لم يكن يعرف من أين يبدأ، بالفتيات أم بالمامبو، ثم هرع بها إلى الداخل. أما أنا فتعرضت لهجوم من قبل فتاة سمينة وغير جميلة ومعها جرو، وحردت مني لأنني لم أحب الجرو الذي كان يحاول أن يعضني، وقبلت في النهاية أن تضعه في الخلف، لكن حين عادت كنت صرت مع فتاة أخرى، أجمل منها وإن لم تكن الأفضل. تعلقت برقبتي ورحت أحاول التنصل منها لكي أصل إلى فتاة سوداء في السادسة عشرة جلست مكتئبة تتأمل سرتها عبر فتحة في فستانها القصير في نهاية الصالة. لم أتمكن من ذلك. كانت برفقة ستان فتاة في الخامسة عشرة

لوزية الجلد وتلبس فستاناً مزرراً إلى النصف من فوق ومن تحت. كان المشهد مجنوناً. عشرون رجلاً على الأقل وقفوا يتفرجون عند النافذة.

في مرحلة ما جاءت أم الفتاة السوداء، بل السمراء، وكان لقاؤهما قصيراً وحزيناً، وحين رأيت ذلك خجلت من محاولة الاقتراب من الفتاة التي كنت راغباً فيها حقاً، وسمحت للفتاة الأخرى بأن تجرني إلى الخلف، حيث كما في حلم، على جلبة الموسيقى المنبعثة من مكبرات صوت إضافية في الداخل، خضخضنا السرير لنصف ساعة. كانت حجرة صغيرة مربعة مع ألواح خشبية ودون سقف، وكان ثمة أيقونة في الزاوية، وفي الزاوية الأخرى مغسلة. في أرجاء القاعة المعتمة كانت الفتيات ينادين «أغوا، أغوا، كالينتي»، أي «مياه ساخنة». توارى ستان ودين أيضاً. أخذت فتاتي ثلاثين بيزو أي ما يعادل ثلاثة دولارات، أغدقت المال عليها، ثم هرعنا إلى صالة الرقص. صار الحشد أكبر عند النافذة. بدا الشرطيان ضجرين كالعادة. جرتني الفنزولية الجميلة التي ضاجعها دين عبر باب إلى بار آخر غريب من الواضح أنه تابع أيضاً إلى الماخور. هناك كان نادل شاب يمسح الكؤوس ويناقش عجوزاً طويل الشاربين بحماسة. وهناك أيضاً كانت المامبو تهدر عبر مكبر الصوت. بدا أن العالم كله يشتعل. تعلقت الفنزويلية برقبتي وراحت ترجوني أن أبتاع لها الشراب، لأن الساقي يرفض أن يعطيها المزيد. رجت ورجت وحين أعطاها الساقي الشراب سكبته على الأرض لكن ليس عن قصد لأنني رأيت الاضطراب في عينيها المسكينتين الرائعتين. «هوني عليك حبيبتي»، قلت لها. كان علي أن أمسك بها عند البار لئلا تقع من السكر. لم أر في حياتي امرأة سكيرة كهذه، وفي الثامنة عشرة فقط. قدمت لها كأساً أخرى، وبينما تشدني من بنطالي وتتوسل الرحمة، شربت الكأس دفعة واحدة. لم أتجرأ على محاولة النوم معها. الفتاة التي ضاجعتها كانت في

الثلاثين وتهتم بنفسها بشكل أفضل، وكانت الفنزولية تتلوى وتتعذب بين ذراعي وتقت لأن أمضي بها إلى الخلف وأعريها وأتحدث معها فقط، كنت أهجس بالرغبة بها وبتلك الأخرى السمراء.

فكتور المسكين ظل طوال الوقت واقفاً عند البار ويقفز فرحاً لرؤيته أولئك الأصدقاء الأميركيين وهم يلهون. قدمنا له الشراب. ومضت في عينيه الرغبة بالفتيات لكنه رفض مضاجعة أي منهن، لأنه مخلص لزوجته. دين أغدق عليه المال. في غمرة هذا الجنون رأيت دين الذي كان فاقداً صوابه حتى أنه لم يعرفني حين حدقت في وجهه. «أجل، أجل»، كان كل ما قاله. بدا أن هذا لن ينتهي. كان مثل حلم عربي في حياة أخرى، علي بابا والأربعين حرامي وفتيات الليل. مجدداً هرعت مع صاحبتي إلى حجرتها، تبادل دين وستان الفتاتين اللتين ضاجعاهما من قبل، وتوارينا لدقائق وكان على الجمهور أن ينتظر عودتنا حتى يستأنف العرض. صار العصر طويلاً وبارداً.

بعد قليل يهبط الليل على غريغوريا القديمة الرائعة. لم تتوقف المامبو، بل استعرت كرحلة بلا نهاية في الأدغال. لم أستطع نزع عيني عن الفتاة الصغيرة السمراء والطريقة التي تمشي فيها كملكة في المكان، رغم إكراه صاحب الماخور لها على القيام بمهمات صغيرة مثل إحضار الكؤوس لنا ومسح الأرض. بين كل الفتيات هناك كانت على الأرجح الأكثر احتياجاً إلى المال، ربما جاءت أمها لكي تأخذ منها مالاً من أجل إخوتها الصغار. المكسيكيون فقراء. ولم يخطر لي أبداً أن أقترب منها فحسب وأعطيها بعض المال. كان لدي شعور أنها ستأخذ المال بنوع من الازدراء، والازدراء من أمثالها يرعبني. كنت في الحقيقة مغروماً بها طوال الساعات القليلة من وجودنا هناك، وشعرت بالوجع والوخز نفسيهما في وجداني، وتنهدت التنهدات نفسها، وفوق ذلك كله كنت

خائفاً ومتردداً من الاقتراب منها، والغريب أن دين وستان أخفقا في التقرب منها أيضاً، كبرياؤها الجلي هو ما جعل منها فتاة فقيرة في ماخور قديم جامح. وفي لحظة ما لمحت دين مائلاً كتمثال أمامها، مستعداً للتحليق، والحيرة على وجهه بينما تنظر هي بجلال وهدوء، وتوقف عن فرك معدته وتنهد وأخيراً أحنى رأسه أمامها. لأنها كانت الملكة.

ثم فجأة استشاط فكتور غضباً وأخذ يلوح بيديه بعصبية.

«ما الأمر؟». حاول عبثاً أن يفهمنا، ثم ذهب إلى البار وجلب الفاتورة من الساقي، الذي عبس في وجهه. كانت قيمة الفاتورة أكثر من ثلاثمائة بيزو، أي ستة وثلاثين دولاراً، وهو مبلغ كبير في أي ماخور، ومع ذلك لم نستطع أن نقتصد في الإنفاق ولم نرد المغادرة، ومع أننا جميعاً كنا مرهقين فقد أردنا البقاء مع فتياتنا الجميلات في هذه الجنة العربية الغريبة التي عثرنا عليها أخيراً عند نهاية الطريق الكالحة. لكن الليل بدأ يهبط وعلينا أن نمضي حتى النهاية، ودين أدرك ذلك، وبدا عليه التجهم وهو يفكر ويحاول أن يحسم أمره، وفي النهاية بادرت إلى اقتراح المغادرة فوراً، «لا يزال هناك الكثير أمامنا، يا رجل، لن يشكل بقاؤنا فرقاً».

«هذا صحيح!»، صرخ دين، بعينين ملتمعتين، والتفت إلى فتاته الفنزويلية التي كانت فقدت الوعي أخيراً واستلقت على مقعد خشبي وساقيها الأبيضين يبرزان من فستانها. استمتع الجمهور عند النافذة بالعرض، ومن ورائه بدأت تمتد ظلال حمراء، وفي مكان ما سمعت طفلاً يبكي فجأة، فتذكرت أنني في المكسيك في نهاية الأمر وليس في الجنة في حلم يقظة حشيشي بورنوغرافي.

خرجت ودين مترنحين، وانتبهنا إلى أننا نسينا ستان، فعدنا لنحضره ووجدناه راكعاً كالمسحور أمام عاهرات المساء الجديدات، اللواتي

وصلن للتو من أجل النوبة الليلية. أراد أن نستأنف كل شيء من البداية. حين يثمل يصبح ثقيلاً ويصبح مستحيلاً إبعاده عن النساء، والعاهرات بدورهن كن متعربشات به كاللبلاب. أصر على البقاء وتجربة بعض السنيورات الأجدد والأغرب والأكثر خبرة، فاضطررنا إلى أن نجره جراً إلى الخارج، حيث لوح مودعاً الجميع، الفتيات، والشرطيين، والحشد، والأطفال في الشارع، رامياً القبل في جميع الاتجاهات احتفاء بغريغوريا وأهلها الذين حاول التحدث إليهم التعبير عن فرحه وحبه لكل شيء في أصيل الحياة الرائع هذا. الكل ضحك، وبعضهم ربت على ظهره. هرع دين ودفع المال للشرطيين وصافحهما وابتسم لهما وأحنى رأسه احتراماً، ثم قفز إلى السيارة والفتيات اللواتي عاشرناهن، حتى الفنزويلية التي تم إيقاظها لكي تودعنا، تجمعن حول السيارة، بثيابهن الشفافة، ورحن يقبلننا، وحتى إن الفنزويلية بدأت تبكي، وإن ليس من أجلنا، كنا نعرف، ليس من أجلنا تماماً، غير أنه كان جيداً كفاية. أما غرامي فاختفت في الداخل. انتهى الغرام. خرجنا وتركنا المسرات والاحتفالات وظلت المامبو تصدح خلفنا. انتهى كل شيء. «وداعاً، غريغوريا!»، صرخ دين، رامياً لها قبلة.

كان فكتور فخوراً بنا وبنفسه، «أتودون الاستحمام الآن؟»، سأل. أجل كلنا رغبنا بحمام رائع.

وأخذنا إلى أغرب مكان في العالم؛ حمام اعتيادي على الطريقة الأميركية يبعد ميلاً خارج البلدة على الطريق السريعة، محتشد بالأولاد الذين يلعبون في بركة وتحت الدوشات داخل مبنى حجري، استحممنا لقاء بضع سنتوفات، لقاء الصابون والمنشفة. إلى جانب هذا، كان ثمة حديقة بائسة فيها أرجوحات وعجلة دوارة معطلة، وفي ضوء الشمس الأحمر بدا المكان غريباً جداً ورائعاً جداً. أنا وستان أحضرنا المناشف

وأخذنا دوشات باردة كالثلج وخرجنا منتعشين وجديدين. لم يبال دين بالاستحمام، ورأيناه في الحديقة الحزينة، يمشي متأبطاً ذراع فكتور الطيب مغتبطاً بالحديث إليه، مائلاً نحوه بحماسة لكي يوضح وجهة نظر ما، وهو يلوح بيده. آن أوان توديع فكتور، لذا دين كان يغتنم فرصة إمضاء بعض الوقت وحده معه واستكشاف الحديقة ورؤية الأشياء على طريقته الخاصة.

كان فكتور حزيناً لرحيلنا. «ستعودون إلى غريغوريا لرؤيتي؟».

«بالتأكيد يا رجل!»، قال دين. حتى إنه وعد باصطحاب فكتور معنا إلى الولايات المتحدة إذا ما رغب بذلك. قال فكتور إنه عليه التفكير بذلك.

«لدي زوجة وطفل، وليس لدي مال». ابتسامته العذبة المهذبة توهجت في الغروب الأحمر بينما نلوح له من السيارة، وخلفه كانت الحديقة الحزينة والأطفال.

- ٦ -

ما إن خرجنا من غريغوريا حتى بدأت الطريق بالانحدار، وبرزت أشجار ضخمة على الجانبين، وفي داخلها، مع ازدياد العتمة، كنا نسمع هدير مليارات الحشرات التي بدا صوتها مثل صرخة واحدة ممتدة. «هووو!»، قال دين، وأضاء المصابيح الأمامية فوجدها معطلة. «ماذا! ماذا! اللعنة الآن ما هذا؟». وراح يقرع بغضب على لوحة القياس. «أوه، سيكون علينا أن نجتاز الأدغال بلا إنارة، تخيلوا ذلك، لن أكون قادراً على الرؤية إلا حين تمر سيارة أخرى، وليس من أي سيارات! وبالطبع لا أعمدة إنارة؟ أوه، ما الذي سنفعله، اللعنة؟».

«فلنتقدم فحسب، أو فلنعد أدراجنا».

«لا، أبداً أبداً! لنمض. بالكاد يمكنني تبيّن الطريق، لكننا سنصل». وانطلقنا في عتمة دامسة عبر أزيز الحشرات، والرائحة الهائلة العفنة، وتذكرنا أن الخارطة تشير إلى أنه بعد غريغوريا تماماً ندخل إلى مدار السرطان. «إننا في مدار جديد! لا عجب من الرائحة، اشتمّوا هذه الرائحة!». مددت رأسي من النافذة، فارتطمت الحشرات بوجهي. فجأة أضاءت مصابيح السيارة وأنارت أمامنا الطريق الموحشة الممتدة بين الأشجار العملاقة المتشابكة.

«اللعنة»، صرخ ستان في الخلف، «روعة الروعات!»، كان لا يزال منتشياً. أدركنا فجأة أنه لا يزال منتشياً وأن الأدغال والتعقيدات الأخرى لم تحدث أي فرق بالنسبة إلى روحه المغتبطة، وغرقنا في الضحك.

«أياً يكن، سنلقي بأنفسنا في خضم الأدغال اللعينة، وسنبيت فيها الليلة، هيا بنا!»، صرخ دين. «ستان محق. ستان لا يكترث! فهو لا يزال منتشياً من الفتيات والحشيشة والمامبو المجنونة تلك المتفجرة من عالم آخر التي يستحيل هضمها بصوت مرتفع إلى حد أن طبلتي أذني لا تزالان تعزفان معها، وييي! إنه منتش جداً حتى إنه يدرك ما الذي يفعله!». خلعنا كنزاتنا وتقدمنا عراة الصدور، ولم تظهر أي بلدة، أو أي شيء سوى الأدغال، على امتداد أميال وأميال، والطرق المنحدرة، والحر المتزايد، وأزيز الحشرات، والنبات الذي يصبح أعلى، والرائحة التي تصبح أكثر حدة ونفاذاً حتى بدأنا نعتاد عليها ونحبها. «أود فقط أن أتعرى وأركض في هذه الأدغال»، قال دين، «وهذا ما سأفعله ما إن أعثر على بقعة جيدة». وفجأة ظهرت ليمون، بلدة في قلب الأدغال، بعض الأضواء البنية، ظلال قاتمة، سماوات هائلة فوقنا، وحشد من الرجال أمام الأكواخ الخشب، عند تقاطع طرق استوائي.

توقفنا في تلك النعومة الخيالية. كان الهواء حاراً كما لو أنه ينبعث

من فرن، ويذكّر بليالي يونيو في نيوأورلينز. على امتداد الشارع تحلقت عائلات في العتمة، وكانت فتيات تمر من وقت لآخر، لكنهن كن صغيرات جداً وقذرات وحافيات الأقدام وكان لديهن فضول فحسب لرؤية أشكالنا. اتكأنا على الشرفة الخشبية لمحل عمومي متهدم حيث أكياس من الطحين والفول السوداني تحتشد بالحشرات. كان ثمة مصباح واحد في الداخل، وفي الخارج بعض الأضواء الخافتة، والباقي كله سواد بسواد. شعرنا بحاجة ماسة إلى النوم فانحدرنا بالسيارة بضعة أمتار إلى شارع قذر خلف البلدة. كان الحر فظيعاً فاستحال علينا النوم داخل السيارة، ففرش دين ملاءة على التراب الناعم الحار، أما ستان فاضطجع على المقعد الأمامي للسيارة تاركاً البابين مفتوحين، علماً أنه لم يكن هناك نسمة واحدة. أما أنا، في المقعد الخلفي، فقد وجدت نفسي غارقاً في بركة من العرق، فخرجت من السيارة ووقفت أتأرجح في العتمة. نامت البلدة كلها، ولم نعد نسمع سوى نباح الكلاب. كيف سيمكنني أن أنام؟ كان آلاف البرغش يلسعنا على مختلف أنحاء أجسادنا. ثم خطرت لي فكرة رائعة: قفزت إلى سقف السيارة الحديد وتمددت على ظهري. لا نسيم أيضاً، لكن برودة الحديد جففت ظهري من العرق، وأدركت أن الأدغال تتسلل إلي فأصير وإياها واحداً. كان استلقائي على سقف السيارة ووجهي إلى السماء المظلمة أشبه بالتمدد في شاحنة مغلقة في ليلة صيفية. للمرة الأولى في حياتي لم يكن الطقس شيئاً يلمسني، أو يداعبني، يبرّدني أو يعرقني، لكنه أصبح أنا. صرتُ والطقس واحداً. انتشرت موجات ناعمة شديدة الصغر من الحشرات الميكروسكوبية على وجهي وأنا أغفو تدريجياً، وكانت رائعة جداً. كانت السماء خالية من النجوم، غير مرئية وثقيلة. يمكنني التمدد هناك طوال الليل ناظراً إلى السماء. الحشرات الميتة امتزجت بدمي، وتلك الحية تغرف المزيد من

الجرعات، بدأ جسدي كله يخزني، وفاحت رائحة الدغل العفن، الحار والفاسد من رأسي إلى أخمص رجلي.. سمعت شخير دين وستان.

رأيت ضوءاً خافتاً يلوح بين وقت وآخر، كان «الشريف» يقوم بجولته الليلية بمصباح واهن ويتمتم لنفسه في ليل الأدغال. ثم رأيت الضوء يتقدم باتجاهنا وسمعت وقع خطواته تطأ برفق على الرمل والعشب. توقف ووجّه نور مصباحه إلى السيارة. جلست ونظرت إليه. بصوت مرتعش شبه خنثوي ورقيق جداً قال «دورميندو؟»، مشيراً إلى دين النائم على الأرض. عرفت أن هذا يعني «نوم».

«سي دورميندو».

«بوينو، بوينو»، قال بصوت خفيض وبتردد وحزن استأنف جولته الموحشة. يا له من شرطي لطيف لم تعرف أميركا مثيلاً له. لا شكوك، ولا جلبة، ولا إزعاج، كان فقط حارس البلدة النائمة، ونقطة على السطر.

عدت إلى سريري الحديد وتمددت فارداً ذراعي. لم أعرف حتى إذا كان السواد الذي فوقي هو سواد الأغصان أم السماء، ولم يشكل ذلك فرقاً بالنسبة إلي. فتحت فمي للسماء وتنشقت الأدغال. لم يكن هواء، بل الحضور المحسوس والحي للأشجار والمستنقعات. كنت لا أزال مستيقظاً حين بدأت الديوك تصيح مؤذنة بالفجر. ولم يكن من نسيم، ولا ندى، فقط ثقل مدار السرطان الذي يوثقنا جميعاً إلى الأرض. لم تلح بوادر الفجر في السماء، وفجأة سمعت الكلاب تنبح بقوة في العتمة، ثم سمعت طرق قوائم حصان. اقترب الصوت أكثر فأكثر. أي مجنون يمتطي حصانه في هذا الليل؟ ثم رأيت شبحاً: كان الحصان، أبيض كالشبح، يتقدم باتجاه دين مباشرة، ووراءه تنبح الكلاب التي لم أستطع رؤيتها، كانت كلاب أدغال قذرة، لكن الجواد كان أبيض كالثلج

وهائلاً وتقريباً شفافاً. لم أخف على دين. فالجواد رآه وابتعد عنه، ومر أمام السيارة مثل سفينة، وصهل بنعومة، وأكمل طريقه عبر البلدة، مضطرباً بسبب الكلاب، وعاد إلى الأدغال عند الطرف المقابل، وكل ما سمعته كان صوتاً خافتاً يضمحل في الغابة. خمدت الكلاب وأقعت تلحس نفسها. ما كان هذا الحصان؟ أي خرافة وشبح، أي روح؟ حين استيقظ دين أخبرته عنه، فحسب أنني كنت أحلم، ثم تذكر بشكل واهن أنه حلم بجواد أبيض، وقلت له إنه لم يكن حلماً. استيقظ ستان ببطء. لم نكد نتحرك حتى بدأنا نتصبب عرقاً من جديد. كانت لا تزال عتمة. «لننطلق بالسيارة عله يأتي بعض الهواء!»، صرخت «أكاد أموت من الحر».

«حسناً!». خرجنا من البلدة على الطريق السريعة وشعورنا تطير. وسرعان ما انتشر ضوء الفجر في الضباب الرمادي، كاشفاً مستنقعات كثيفة على الجانبين، وأشجاراً باسقة بائسة تعرش فوق الأعماق المتشابكة. مشينا لفترة بمحاذاة خط سكة الحديد، ثم ظهر لنا هوائي إذاعة «كويداد مانتي»، كما لو أننا في نبراسكا. عثرنا على محطة وقود وملأنا الخزان بينما آخر الحشرات الدغلية الليلية تحتشد حول اللمبات وتقع مرتعشة عند أقدامنا في مجموعات هائلة، وبعضها له أجنحة بسماكة أربعة إنشات، وبعضها من الضخامة بحيث يمكنه ابتلاع طائر. رحت أنطنط على الرصيف لأتخلص منها، وانتهى بي الأمر أخيراً في السيارة ويدي على رجلي ناظراً بجزع إلى الأرض حيث تحوم الحشرات حول عجلات سيارتنا. «لنمض!»، صرخت. دين وستان لم ينزعجا على الإطلاق من الحشرات؛ شربا بهدوء عصير «ميشن أورانج». لطخت ثيابنا بدماء آلاف الحشرات الميتة. اشتممنا أنفسنا بعمق.

«أتعرف لقد بدأت أحب هذه الرائحة». قال دين، «لن أبدل قميصي

حتى مكسيكو سيتي، أريد أن أهضم كل شيء وأتذكره». وانطلقنا من جديد، والهواء يهب على وجوهنا الحارة المحمصة.

ثم لاحت الجبال، خضراء بالكامل. سنصعد إلى البلاتو العظيم ثانية ثم مباشرة إلى مكسيكو سيتي. خلال وقت قصير صرنا على ارتفاع خمسة آلاف قدم، بينما الأبخرة تتصاعد من نهر موكتزوما العظيم على بعد ميل في الأسفل. بدأت أشكال الهنود تصير أكثر غرابة. كانوا أمة في حدّ ذاتهم، هنود الجبال، منقطعين عن كل شيء لولا الأوتوستراد الدولي الذي يربط المكسيك بأميركا. كانوا قصاراً وسمراً ومربوعين، بأسنان خربة، ويحملون كدساً هائلة على ظهورهم. عبر وهاد شديدة الخضرة رأينا رقعاً زراعية على منحدرات عميقة. كانوا يمضون صعوداً ونزولاً على هذه المنحدرات ويجنون الحصاد. قاد دين السيارة بسرعة خمسة أميال بالساعة لكي يرى. «هووووي، هذا لم أفكر يوماً أنه موجود!». على القمة التي توازي قمم روك ماونتن عظمة رأينا الموز. خرج دين من السيارة لكي يؤشر لنا، ووقف فاركاً معدته. كنا على رف صخري ورأينا كوخاً صغيراً من القش يقف معلقاً هناك على حافة العالم. الشمس أنشأت غمامات ذهبية غطت النهر.

في الفناء أمام الكوخ وقفت طفلة هندية في الثالثة تمص إبهامها، وأخذت تنظر إلينا بعينين بنيتين واسعتين. «على الأرجح لم تر من قبل أحداً يركن سيارته هنا!»، قال دين. «مرحباً أيتها الصغيرة. كيف حالك؟ هل تحبيننا؟». أنحت الطفلة نظرها بخجل. رحنا نكلمها حتى نظرت إلينا مجدداً وإبهامها لا يزال في فمها. «يا إلهي، أتمنى لو كان معي ما أعطيها إياه! تخيّل ذلك، أن تولد وتعيش على هذه الحافة، وأن يكون هذا المكان كل ما تعرفه عن الحياة. والدها على الأرجح يتلمس طريقه تحت في الوهد... لن تغادر أبداً هذا المكان ولن تعرف شيئاً عن العالم

الخارجي. إنها أمة. فكر في رئيسهم. إنهم على الأرجح فوق ذاك الجرف، على بعد أميال، ولا بد من أنهم أكثر جموحاً وغرابة، أجل، لأن الطريق الدولية تضع هذه الأمة على هذه الطريق. لاحظ العرق على جبينها». أشار دين مكشراً بألم «ليس نوع العرق الذي نعرفه، إنه مزيت ودائماً موجود لأنه دائماً حر على مدار السنة وهي لا تعرف شيئاً عن حالة عدم التعرق، لقد ولدت مع العرق وستموت مع العرق». كان العرق على جبينها الصغير كثيفاً وراكداً، ولا يبرح، فقط يلتمع كزيت زيتون. «ما الذي يفعله هذا بأرواحهم! ولا بد أنهم مختلفون كثيراً في شؤونهم الخاصة وفي تقديراتهم للأمور وفي تطلعاتهم!». قاد دين فاتحاً فمه ألماً، بسرعة عشرة أميال بالساعة، راغباً في رؤية كل كائن بشري على الطريق. صعدنا وصعدنا.

صار الهواء أبرد ورأينا زمرة فتيات هنديات يضعن الشالات على رؤوسهن وأكتافهن. هتفن لنا بكل عزمهن؛ فتوقفنا لنرى. أردن أن يبعننا قطعاً صغيرة من الكريستال الصخري. عيونهن الكبيرة البنية البريئة حملقت في عيوننا بكثافة روحية قضت على احتمال أي خاطر جنسي تجاههن، إلى ذلك كن صغيرات جداً. بعضهن في الحادية عشرة وإن بدا في الثلاثين. «أنظرا إلى هذه العيون»، قال دين. كانت عيون الصغيرات تشبه عيني مريم العذراء طفلة، ورأينا فيها نظرة يسوع المحبة والمتسامحة. ورحن يحدقن بثبات في عيوننا. فركنا عيوننا الزرقاء المرتبكة ونظرنا ثانية. ظلت عيونهن تخترقنا بإشعاع منوم وحزين. حين بدأن يتحدثن صرن فجأة هائجات وتقريباً سخيفات. في صمتهن كن أنفسهن «لقد تعلمن مؤخراً بيع هذه الكريستالات إذ أن الطريق الدولية السريعة أنشئت قبل نحو عشر سنوات، قبل ذلك لا بد أن هذه الأمة برمتها كانت صامتة!».

تجمعت الفتيات حول السيارة. إحداهن على وجه الخصوص أمسكت بذراع دين. وخاطبته بالهندية «آه بلى، آه بلى عزيزتي»، ردّ دين بحنان وتقريباً بحزن. خرج من السيارة وراح يبحث في ثنايا جسده الأميركي المعذب عن شيء ما، ثم أخرج ساعة معصم. أراها للطفلة. فتأوهت بفرح، وتحلقت الأخريات حولها مشدوهات. وبحث دين في يد الفتاة الصغيرة عن «أجمل وأصفى وأصغر قطعة كريستال انتقتها هي من الجبل من أجلي». وجد واحدة لا تتجاوز حجم حبة كرز. وأعطاها الساعة. اتسعت عيونهن كأفواه أطفال الكورس. وضعت الصغيرة المحظوظة الساعة في صدريتها البالية، وراحت الأخريات يمسدن على يد دين ويشكرنه. وقف بينهن رافعاً وجهه الرث إلى السماء، متطلعاً إلى الممر التالي الأعلى والأخير، وبدا مثل نبي جاء إليهن. لأطول وقت ممكن ونحن نبتعد عنهن، لوحن لنا وركضن خلفنا، واختفين حين انعطفنا أخيراً، وكن ما زلن يركضن وراءنا. «آه، هذا يحطم قلبي!». صرخ دين، لاطماً صدره. «إلى أي حد يمكن أن يستمررن في هذا الشكر والعجب! ما الذي سيحدث لهن؟ هل سيحاولن اللحاق بالسيارة إلى مكسيكو سيتي إذا قدنا ببطء كاف؟».

«أجل»، قلت، وكنت متأكداً من ذلك.

وصلنا إلى مرتفعات سييرا مادر أورينتال الشاهقة. أشجار الموز التمعت ذهبية في الضباب الذي برز كثيفاً وراء جدران حجرية على امتداد الحرف. في الأسفل، صار نهر موكتيزوما خيطاً ذهبياً رفيعاً مرسوماً على سجادة خضراء. مررنا ببلدات غريبة عند تقاطعات الطرق عند قمة العالم، ورأينا هنوداً يضعون الشالات ويرمقوننا من تحت حواف قبعاتهم. كانت الحياة كثيفة، قاتمة، تاريخية. راقبوا دين، الجدي والمجنون وراء مقوده المسعور، والذي له عينا صقر. كلهم مدوا

أيديهم. لقد نزلوا من الجبال الخلفية والأماكن الأعلى لكي يمدوا أيديهم إلى شيء ما يظنون أن المدنية قد تقدمه، ولم يخطر على بالهم الحزن والوهم المكسور البائس فيها. لم يعرفوا أنه تم اختراع قنبلة يمكنها أن تدمر كل جسورنا وطرقنا وتحولها إلى ركام، وأننا سنصبح يوماً ما فقراء مثلهم، ونمد أيدينا بالطريقة نفسها. سيارتنا الفورد المدمرة، الفورد الأميركية من الثلاثينات، قرقعت عابرة بينهم واختفت في الغبار.

دنونا من الطرق المؤدية إلى البلاتو الأخير. باتت الشمس ذهبية، والهواء أزرق ناصعاً، والصحراء بأنهرها التي تبرز من وقت لآخر في الرمل الحار وظلال الأشجار التوراتية المفاجئة. تولى ستان القيادة ونام دين. ظهر رعاة يرتدون ثيابهم القديمة كما لو أنهم في فجر التاريخ، حاملين حبالهم الطويلة، بينما النساء يحملن كدساً ذهبية من الكتان، ويتكئ الرجال على عكازات. تحت أشجار ضخمة في الصحراء المتلألئة اجتمع الرعاة، والقطيع يسرح في الشمس مثيراً الغبار وراءه. «يا رجل، يا رجل»، صرخت مخاطباً دين، «انهض لترى الرعاة، انهض لترى العالم الذهبي الذي جاء منه المسيح!».

رفع رأسه، وألقى نظرة واحدة ثم عاد إلى النوم. حين نهض وصف لي المشهد بالتفصيل وقال، «أجل يا رجل، أنا مسرور بأنك نبهتني إلى المنظر. أوه يا ربي، ماذا أفعل؟ إلى أين سأذهب؟». فرك معدته، نظر إلى السماء بعينين حمراوين، كاد يبكي.

أوشكت الرحلة على نهايتها. امتدت حقول شاسعة على الجانبين، وهبت نسمات نبيلة بين الأشجار وفوق الإرساليات القديمة التي يتحول لونها زهرياً كالسلمون عند الغروب. باتت الغيوم قريبة وضخمة وزهرية. «مكسيكو سيتي عند الغسق! لقد وصلنا، بعد أن قطعنا ما مجموعه ١٩٠٠ ميل من دنفر إلى هذه الأرض التوراتية الشاسعة، وها قد أصبحنا في نهاية الطريق.

«هل نبدل كنزاتنا؟».

«لا، لننتظر حتى نصل إلى المدينة». واتجهنا إلى مكسيكو سيتي.

أفضى بنا ممر جبلي قصير إلى مرتفع ظهرت بعده مكسيكو سيتي كلها ممتدة في الفوهة البركانية في الأسفل ودخان المدينة الفائض وأضواء الغسق الأولى. هبطنا إليها، عبر بولفار إنسورجنتس، مباشرة نحو قلب المدينة عند ريفورما. كان الأطفال يلعبون الكرة في حقول حزينة واسعة ويثيرون الغبار. وانقض علينا سائقو سيارات الأجرة وسألونا إذا كنا نريد فتيات. لا، لا نريد فتيات الآن، زواريب لبنية رثة طويلة امتدت أمامنا في السهل؛ رأينا أشكالاً وحيدة في الأزقة المعتمة. قريباً سيحل الليل. ثم دخلنا إلى المدينة وفجأة صرنا نمر من أمام مقاه مكتظة ومسارح وأضواء عديدة. صرخ بنا الأولاد باعة الصحف. الميكانيكيون مروا مترهلين، عراة الأقدام، حاملين مفاتيح الربط والخرق. سائقو سيارات مجانين حفاة الأقدام احتشدوا حولنا مطلقين أبواقهم متسببين بازدحام مروري خانق. كان الضجيج لا يطاق. «وييي!»، صرخ دين. «انتبه!». وشق طريقه عبر الزحام ممازحاً الجميع. قاد السيارة مثل هندي. دخل إلى دوار ضخم في ريفورما بولفار الذي تندفع السيارات من ممراته الثمانية نحونا من كل الاتجاهات، يميناً، ويساراً، ومباشرة، وكان دين يزعق ويقفز فرحاً. «هذه زحمة السير التي لطالما حلمت بها! الكل منطلق!». عبرت سيارة إسعاف مسرعة. سيارات الإسعاف الأميركية تغزل مسرعة عبر الزحام مطلقة الصفارات، أما سيارات الإسعاف في عالم الفلاحين الواسع هذا فتنطلق بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة وعلى الجميع أن يوسع لها الطريق فحسب ولا تتوقف لأي سبب كان. رأيناها تنعطف في الزحمة الرهيبة لوسط البلد. السائقون كانوا هنوداً. الناس، حتى السيدات العجائز، يهرعون وراء الحافلات التي لا

تتوقف. موظفون شبان يهرعون وراء الحافلات قافزين إليها برشاقة. سائقو الحافلات حفاة الأقدام، مجانين وساخرون، يجلسون منخفضين ومقرفصين لابسين الكنزات عند العجلات الضخمة المنخفضة، والأيقونات تشتعل فوقهم. والأنوار داخل الحافلات بنية وخضراء، ووجوه سمراء مصطفة على مقاعد خشبية.

في وسط البلد كان آلاف الهبيين بقبعاتهم القش الواسعة وستراتهم الطويلة فوق صدورهم العارية منتشرين على امتداد الشارع الرئيسي، بعضهم يبيع الصلبان والعشب في الأزقة، وبعضهم راكع في كنائس صغيرة متهدمة إلى جوار عروض هزلية مكسيكية في حجرات صغيرة. بعض الأزقة كانت خرائب، مع بواليع مفتوحة، وأبواب صغيرة تفضي إلى حانات بحجم الخزائن محشورة في جدران طينية. وعليك أن تقفز فوق مزراب لكي تحصل على شرابك، وفي عمق المزراب بحيرة الأزتيك التاريخية. تخرج من الحانة وظهرك إلى الجدار وإلى الشارع مباشرة. يقدمون القهوة ممزوجة بالرم وجوزة الطيب. والمامبو تصدح في كل مكان. ومئات العاهرات مصطفات في الشوارع الضيقة المعتمة وعيونهن الحزينة ترنو نحونا في الليل. تجولنا في هياج وفي حلم. أكلنا ستايك شهية لقاء ٤٨ سنتاً في كافيتيريا مكسيكية قرميدية غريبة يتجول فيها عازفو الماريمبا، حاملين غيتاراتهم، بينما عجائز في الزوايا يعزفون الترومبيت. ومررنا أمام النتن الحاد للحانات التي تقدم «البلكة»؛ يقدمون لك كأس ماء من عصير الصبار لقاء سنتين. والحركة لا تتوقف، والشوارع تنبض طوال الليل. المتسولون ينامون ملتفين بملصقات الإعلانات الممزقة. وعائلات بأكملها منهم تفترش الأرصفة، عازفة الفلوت وضاحكة في الليل. أقدامهم العارية تبرز، وشموعهم الخافتة تحترق، كل المكسيك كانت مخيماً بوهيمياً واسعاً. في زوايا الشوارع

نساء عجائز يقطعن رؤوس أبقار ويلفون المورسيلس بالتورتيلا ويقدمنها مع الصلصة الحارة على أوراق الصحف. كانت تلك أعظم وآخر مدينة فلاحين تشبه قصص الطفولة، مدينة خام، عرفنا أننا سنعثر فيها على نهاية الطريق. دين مشى عبر هذا كله ويداه مرتخيتان، وفمه مفتوح، وعيناه تلتمعان، وقمنا بجولة مقدسة استمرت حتى الفجر في الحقل مع فتى يعتمر قبعة قش وضحك وتحدث إلينا وأرادنا أن نلعب الكرة، لأنه لا شيء ينتهي أبداً.

ثم أصبت بالحمى وفقدت الوعي وصرت أهذي. كان الزحار. نظرت من العتمة التي كنت غارقاً فيها وعرفت أنني نائم على سرير ما على ارتفاع ثمانية آلاف قدم فوق البحر، على سطح العالم، وعرفت أنني عشت حياتي كلها وحيوات أخرى في القشرة الذرية لجلدي، ورأيت شتى الأحلام. ثم رأيت دين منحنياً فوق طاولة المطبخ. كانت مضت ليالٍ عدة وكان بصدد مغادرة مكسيكو سيتي، «ماذا تفعل يا رجل؟»، سألته متأوهاً.

«المسكين سال، المسكين سال، لقد مرضت. ستان سيعتني بك. الآن أنصت جيداً إذا كان يمكنك ذلك. لقد حصلت على الطلاق من كاميل هنا وسأعود إلى إنيز في نيويورك الليلة إذا صمدت السيارة».

«كل هذه الرحلة مجدداً؟».

«كل هذا مجدداً، يا صديقي العزيز. يجب أن أرجع إلى حياتي. كنت أتمنى البقاء معك. سأصلي حتى أتمكن من العودة إليك». ضغطت على معدتي بسبب التشنجات وتأوهت. حين نظرت ثانية كان دين النبيل الفج يقف بقامته المكسورة وينظر إلي. لم أعد أعرف من هو، وهو عرف ذلك، وتعاطف معي، وغطاني جيداً. «أجل، أجل، أجل، علي الذهاب الآن. سال المحموم العزيز، وداعا». ورحل. بعد ١٢ ساعة في

تلك الحمى الرهيبة أخيراً فهمت أنه رحل، في الوقت الذي كان يقود فيه عائداً عبر جبال الموز تلك، هذه المرة ليلاً.

حين تحسنت حالي أدركت كم هو وغد، لكن كان علي أن أتفهّم أيضاً تعقيدات حياته الهائلة، كيف اضطر إلى تركي، لكي يمضي في شؤونه مع زوجاته وويلاته. «حسناً، دين العزيز، لن أقول شيئاً».

الجزء الخامس

اتجه دين من مكسيكو سيتي إلى غريغوريا حيث التقى فكتور مجدداً، وتمكن من الوصول بالسيارة القديمة تلك إلى لايك تشارلز، لويزيانا، قبل أن ينهار المحرك على الطريق مثلما كان يعرف أنه سيحدث، فأرسل برقية إلى إنيز لكي تبعث له بأجرة الطائرة، واجتاز بقية الطريق بالطائرة، وحين وصل إلى نيويورك ومعه أوراق الطلاق، ذهب وإنيز مباشرة إلى نيوارك وعقدا قرانهما، وتلك الليلة بعد أن أكد لها أن كل شيء على ما يرام، وأنه لا داعي للقلق، بدأ يطلق الحجج والذرائع ويتصبب عرقاً، وقفز إلى حافلة وانطلق ثانية عبر القارة الرهيبة إلى سان فرانسيسكو ليعاود الانضمام إلى كاميل والطفلتين. إذاً، الآن صار متزوجاً ثلاث مرات، مطلقاً مرتين، ويقيم مع زوجته الثانية.

بدأتُ، في الشتاء، رحلة العودة من مكسيكو سيتي وذات ليلة خارج حدود لوريدو في ديلي، تكساس، كنت واقفاً على الطريق الحارة تحت مصباح على شكل قنطرة ترتطم به فراشات الصيف، فسمعت وقع أقدام في العتمة، ولعجبي، رأيت عجوزاً طويل القامة يتطاير شعره الأبيض ويمشي مشية خرقاء واضعاً رزمة ما على رأسه، وخاطبني قائلاً: «ابكِ من أجل الإنسان»، ثم اختفى في العتمة. هل كان يعني أنه علي المضي في طرق أميركا المظلمة؟ كابدت ووصلت أخيراً إلى نيويورك، وذات ليلة كنت واقفاً في شارع معتم في مانهاتن وناديت على نافذة طابق علوي حيث كنت أحسب أن أصدقائي يقيمون حفلة، فأطلت فتاة جميلة وقالت: «أجل؟ من هناك؟».

«سال بارادايز»، قلت وسمعت صدى صوتي يتردد في الشارع الحزين الفارغ.

«اصعد»، قالت، «إنني أحضّر الشوكولا الساخنة». صعدت وكانت هناك، الفتاة ذات العينين الجميلتين البريئتين اللتين لطالما بحثت عنهما. اتفقنا على أن نحب بعضنا بجنون. في الشتاء خططنا للانتقال إلى سان فرانسيسكو، وأن نحمّل كل أثاثنا القديم وأغراضنا المحطمة في شاحنة قديمة. راسلت دين وأخبرته بذلك، فرد عليّ برسالة طويلة من ثمانية عشر ألف كلمة، حكى لي فيها كل شيء عن سنوات نشأته في دنفر، وقال إنه سيأتي لكي يقلني وينتقي شخصياً الشاحنة ويقودها بنفسه. كان أمامنا ستة أسابيع لكي ندخر أجرة الشاحنة وبدأنا نعمل وندخر كل سنت. وفجأة وصل دين، قبل خمسة أسابيع ونصف من الموعد المحدد، ولا أحد منا كان معه المال للمضي فوراً في تنفيذ الخطة.

كنت أتنزه في منتصف الليل وعدت إلى فتاتي لأحكي لها ما فكرت به أثناء نزهتي، فوجدتها واقفة وسط الغرفة الصغيرة المعتمة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة غريبة. حكيت لها بضعة أشياء وفجأة لاحظت الصمت في الغرفة ونظرت حولي ورأيت كتاباً قديماً على المذياع «بعد ظهر أبدية عالية»، وعرفت أنه يخص دين. كما في حلم رأيت أطراف أصابعه في العتمة. لم يعد يمكنه الاختباء أكثر، فوثب من مكانه ضاحكاً، وراح يرفرف بيديه «آه، آه، عليكما أن تصغيا جيداً». وأصغينا بكل اهتمام. لكنه نسي ما كان يريد قوله، «حقاً اسمعا، إحم، آه، أجل» وراح يحملق بيديه بأسف صخري. «لا أستطيع التكلم، هل تفهمان ذلك، أو يمكن أن يكون ذلك، لكن اصغيا». وأصغينا. كان يستمع إلى أصوات في الليل. «أجل»، همس بوجع. «لكن لا حاجة إلى التكلم أكثر».

«لكن لماذا بكرت هكذا بالمجيء، دين؟».

«آه»، قال ناظراً إلي كأنما يراني للمرة الأولى، «قريباً جداً، أجل، فسوف، سوف نعرف، هذه هي، لا أعرف. جئت بقطار الشحن، جلست على تلك المقاعد الخشبية القديمة الصلبة، من تكساس، وعزفت

على الناي طوال الطريق». أخرج نايه الخشبي الجديد، وعزف بضع نوتات مشتتة وراح يقفز. «أترى؟»، قال، «لكن بالطبع سال، يمكنني التكلم كما دائماً ولدي الكثير من الأشياء أحكيها لك في الحقيقة كنت أقرأ وأقرأ بروست الرائع هذا طوال الطريق عبر البلاد واكتشف عدداً كبيراً من الأشياء ولن يكون لدي الوقت لكي أخبرك بها ولم نتحدث بعد عن المكسيك وافتراقنا هناك والحمى، لكن لا حاجة الآن إلى الكلام. إطلاقاً، أليس كذلك؟».

«حسناً، لن نتحدث». وبدأ يسرد بالتفصيل ما فعله في لوس أنجيليس، كيف زار عائلة معينة، وتناول العشاء، وتحدث إلى الأب، والأبناء، والأخوات، ووصف أشكالهم، وماذا أكلوا، وأثاثهم، وأفكارهم، واهتماماتهم، وأرواحهم، استغرق الأمر ثلاث ساعات من الكلام المتواصل، وعندما انتهى قال «آه، لكن ترى ما أردت حقاً أن أخبرك إياه لاحقاً هو عن عبوري أركنساس بالقطار، حيث عزفت على الناي، ولعبت الورق مع الفتيان، بورقي الخلاعي، وربحت المال. كانت رحلة طويلة ورهيبة لخمسة أيام وليال، فقط لكي أراك يا سال؟».

«ماذا بشأن كاميل؟».

«منحتني بركتها بالطبع، وهي تنتظرني. أنا وكاميل سنبقى معاً إلى أبد الآبدين. . .».

«وإنيز؟».

«أنا، أنا، أنا، أريدها أن ترجع معي إلى فريسكو وتعيش في الطرف الآخر من المدينة، ألا تظن ذلك؟ لا أعرف لماذا جئت». ثم قال بغتة «أجل وبالتأكيد أردت أن أرى فتاتك الحلوة، وأنت، كم أنني مسرور بك، أحبك كما دائماً». بقي في نيويورك ثلاثة أيام وقام بتحضيرات مترددة لكي يعاود عبور القارة بالقطار، خمسة أيام بلياليها على مقاعد مغبرة وقاسية، وبالطبع لم نكن نملك أجرة الشاحنة فلم نستطع العودة معه. أمضى ليلة يشرح لإنيز الأمور ويتشاجر معها وهو يتصبب عرقاً، ثم

طردته من البيت. وصلته رسالة، باسمي. قرأتها. كانت من كاميل «تحطم قلبي حين رأيتك ترحل على السكة حاملاً حقيبتك. أصلي باستمرار لرجوعك سالماً. . . أرغب حقاً بأن يأتي سال وصديقته ويعيشا معنا في الحي نفسه. . . أعرف أنك ستفلح بالعودة لكنني لا أستطيع منع نفسي من القلق، الآن بعد أن اتفقنا على كل شيء. . . عزيزي دين، إنها نهاية النصف الأول من القرن. مرحباً بعودتك، مع الحب والقبل، لكي تمضي النصف الآخر معنا جميعاً. ننتظرك جميعاً. التوقيع، كاميل، آمي، وجواني الصغيرة». استقرت حياة دين إذاً مع كاميل، أكثر زوجاته ثباتاً ودراية، وشكرت الله من أجله.

آخر مرة رأيته فيها كانت في ظروف غريبة وحزينة. كان ريمي بونكور وصل إلى نيويورك بعد أن جاب العالم بالسفن بضع مرات. أردته أن يلتقي دين ويعرفه. التقيا حقاً، لكن دين لم يكن بوسعه التكلم أكثر، وريمي انصرف عنه. كان ريمي اشترى تذاكر لحفلة ديوك إلنغتون في «أوبرا متروبوليتان» وأصرّ على أن أذهب ولورا معه ومع فتاته. ريمي كان سميناً وحزيناً لكنه لا يزال جنتلمان يحب الرسميات، والقيام بالأمور بالطريقة اللائقة، مثلما أكد لي. لذا طلب من الرجل الذي حجز له التذاكر أن يوصلنا إلى الأمسية بسيارة كاديلاك. كانت ليلة شتائية باردة. كانت الكاديلاك مركونة ومستعدة للانطلاق. وقف دين خارج النوافذ حاملاً حقيبته، مستعداً للتوجه إلى «محطة بن».

«وداعاً، دين»، قلت «أتمنى لو لم أكن مضطراً للذهاب إلى الأمسية».

«أتظن يمكنني الذهاب معكم إلى فورتيث ستريت؟» همس، «أريد أن أرافقك أكبر قدر ممكن من الوقت، إضافة إلى أن البرد شديد في نيويورك هذه. . .». سألت ريمي همساً. لكنه لم يوافق. كان يحبني لكنه لا يحب أصدقائي المجانين. ولم أكن مستعداً لتخريب خططه من جديد مثلما فعلت في «مطعم ألفرد» في سان فرانسيسكو في ١٩٤٧ مع رولاند مايجور.

«لا مجال لهذا إطلاقاً سال»، المسكين ريمي كان جلب ربطة عنق خاصة لتلك الليلة زينها برسم لتذاكر الأمسية ونقش عليها أسماء سال ولورا وريمي وفيكي، مع بعض النكات الحزينة وبعض أقواله المفضلة مثل «لا يمكنك أن تعلم المايسترو العجوز نغمة جديدة».

لم يستطع دين الركوب معنا إذاً، وكل ما فعلته التلويح له من المقعد الخلفي من الكاديلاك. لم يرق دين للسائق أيضاً. مشى وحيداً بمعطفه الرث، وآخر ما رأيته منه حين انعطف عند زاوية سفنث أفنيو. المسكينة لورا، حبيبتي، التي كنت أخبرتها كل شيء عن دين كادت تبكي.

«أوه، علينا ألا ندعه يمضي هكذا، ماذا سنفعل؟».

ها قد رحل دين، فكرت، وقلت بصوت مسموع «سيكون بخير». وانطلقنا إلى الأمسية التي لم تكن لدي أي رغبة فيها وكنت طوال الوقت أفكر بدين وكيف سيقطع بالقطار ثلاثة آلاف ميل على تلك الأرض الرهيبة، ولم يكن قد جاء أصلاً إلا لرؤيتي.

إذاً، في أميركا، حين تغيب الشمس، وأجلس على الرصيف المحطم عند النهر ناظراً إلى السماوات الممتدة فوق نيوجيرزي، شاعراً بكل تلك الأرض الخام تمضي بلا توقف نحو الغرب، وكل تلك الطريق تمضي، وكل الناس يحلمون، وفي أيوا أعرف أن ثمة الآن أطفالاً لا بد أنهم يبكون في الأرض التي يُسمح فيها للأطفال بالبكاء، والليلة ستشرق النجوم، وألا تعرف أن الله هو «الدب بو»؟ ونجمة المساء تلقي شعاعها المتوهج على البراري، قبل هبوط الليل الكامل الذي يبارك الأرض، ويعتم كل الأنهر، ويحجّم ذرى الجبال، ويطوي الشطآن، ولا أحد، لا أحد يعرف ماذا سيحدث لأي كان سوى رثاثة وبؤس أن يصير كهلاً، أفكر في دين موريارتي، أفكر حتى في دين موريارتي العجوز، الأب الذي لم نعثر عليه أبداً، أفكر في دين موريارتي.

ملحق رقم (١)

الأسماء الحقيقية لشخصيات «على الطريق»

١. دين موريارتي نيل كاسَدي
٢. سال بارادايز جاك كرواك
٣. تشاد كنغ هال تشايز
٤. كارلو ماركس ألن غنسبرغ
٥. ماري لو لوان هندرسن
٦. إد دانكل آل هنكل
٧. غالاتيا دانكل هلن هنكل
٨. توم سايبروك جون كليون هولمز
٩. إلمر هاسل هربرت هانكه
١٠. ستان شيبارد فرانك جفريز
١١. عمة سال غابرييل كرواك
١٢. رولاند مايجور ألن تمكو
١٣. جاين جوان فولمر
١٤. إد وال إد آل
١٥. أولد بال لي وليم بوروز
١٦. رولو غريب ألان أنسن
١٧. كاميل كارولين كاسيدي
١٨. آمي موريارتي كاثي كاسيدي
١٩. جواني موريارتي جايمي كاسيدي
٢٠. ريمي بونكور هنري كرو
٢١. إنيز ديانا هانسن

ملحق رقم (٢)

هذا هو «جيل البيت»

قبل بضعة أشهر نشرت إحدى المجلات الوطنية قصة في باب «شباب» بعنوان «أمي غاضبة مني»، حول فتاة من كاليفورنيا في الثامنة عشرة تروي تجربتها مع الماريغوانا. وبينما كان المحرر الصحافي يدوّن أفكارها عن اللغة المحمومة للـ«شاي» (أي الماريغوانا)، التقط أحدهم صورة لها. ضمن موقعها كجزء من ثقافة جديدة بالكامل، حيث كل واحد من خمسة شباب، هو متعاط، كانت صورة آسرة. ففي ذلك الوجه الشاحب، المتيقظ، بعينيه الناعمتين وفمه الجميل، لم يكن ثمة ملمح للفساد. إنه وجه لا يمكن حسبانه إجرامياً إلا عبر جهد هائل من التزمّت الأخلاقي. بدت شكواها الوحيدة: «لم لا يدعنا الناس وشأننا؟». إنه وجه «جيل البيت»[1].

(١) خلال لقاء جمع بين جاك كرواك وجون كللون هولمز عام ١٩٤٨ في إحدى الحفلات، وكان كلاهما لا يزال غير معروف وقتذاك، سأل هولمز كرواك عن وصفه لجيل الشباب، فأجابه: «إنه جيل بيت»، وهذه الكلمة «أي بيت» استمدّها كرواك من هربرت هنكه الصعلوك ومدمن المخدرات المعروف في أوساط شلل تايمز سكواير الذي تعرف إليه كرواك عبر وليم بورروز. كتب هولمز مقالته هذه نزولاً عند طلب «نيويورك تايمز ماغازين» بعد نشره روايته «انطلق» التي كان أسماها في البداية «جيل البيت».

هذا الوجه الشاب النظيف يظهر في الصحف منذ عشية الحرب (العالمية الثانية). تجده في إحدى محاكم برونكس يحاكم لسرقة سيارة، وهو ينظر مباشرة إلى الكاميرا بضحكة فضولية ومن دون إحساس بالذنب. الوجه نفسه، بمظهر أكثر جدية، تجده يحدّق من صفحات مجلة «لايف»، ممثلاً صفاً متخرجاً من الجنود السابقين، قائلاً إنه نتيجة إيمانه بموت الأعمال التجارية الصغيرة، يعتزم الاندماج في أكبر شركة يمكنه العثور على وظيفة فيها. أصغر منه بقليل، وأكثر ارتباكاً بقليل، كان الوجه نفسه الذي التقط المصورون صورته في إلنوي حين تم الكشف عن أول ناد للاعذراوات. موظف الإعلانات الشاب، الجالس وراء البار في ثيرد أفنيو، نيويورك، محتسياً الخمر بهدوء طلباً للاسترخاء، وسائق السيارات السريعة المفعم بالطاقة في لوس أنجيليس، اللذان يلعبان «الروليت الروسية» في سيارة قديمة، تفصل بينهما فحسب القارة وبضع سنوات. إنهما الحدّان النقيضان، وفي ما بينهما ثمة السكرتيرات المترددات بين مضاجعة أصحابهن الآن أم الانتظار بعض الوقت؛ والفتيات اللواتي يركبن مع الشبان بلمح البصر إلى ديترويت، وعارضات الأزياء اللواتي يتفاخرن بأسماء معارفهن البارزين في حفل كوكتيل. لكنه الوجه نفسه: لامع، واضح، واقعي، ومفعم بالتحدي.

أي محاولة لتصنيف جيل بأكمله لن تكون مجدية، غير أن الجيل الذي خاض الحرب الأخيرة، أو على الأقل، الذي بات يسعه الحصول على الخمر بسهولة بعد انتهائها، يبدو أنه يمتلك صفات عامة موحدة تحتاج إلى توصيف... أصول كلمة **بيت** غامضة، لكن معناها واضح جداً عند معظم الأميركيين. أكثر من كونها كلمة تشير إلى غرابة الأطوار فحسب، تولّد الكلمة الإحساس بشخص تم استغلاله، بشخص غرّ. وهي تتضمن نوعاً من العري العقلي، وبالمطلق العري الروحي أيضاً؛

إحساس بالهبوط إلى أسفل مدارك الوعي. باختصار، تعني أن يجد المرء نفسه، بطريقة غير دراماتيكية، في مواجهة جدار ذاته. يكون المرء **بيت** كلما راهن على كل ما يملكه، للوصول إلى هدف واحد محدد، والجيل الشاب يفعل ذلك مراراً منذ شبابه المبكر.

لدى أبناء هذا الجيل حس غريزي بالفردية، وهم لا يحتاجون إلى بوهيمية أو غرائبية مفروضة لكي يعبروا عنها. فبعد أن ولدوا في ظروف جماعية سيئة من الركود الكئيب (الكساد الكبير)، وفطموا مع انطلاق حرب كونية، باتوا لا يثقون بالحس الجماعي. لكنهم لم يتمكنوا أبداً من إبقاء العالم خارج دائرة أحلامهم. فتخيلات طفولتهم كانت مسكونة بالضوء الرمادي في ميونيخ، وبالاتفاقية النازية السوفيياتية، وبالانهيار التام التدريجي. وقد أمضوا يفاعتهم في عالم تعمه الفوضى من الاحتشاد الحربي، ودوريات المناوبة، وتحركات الفرق العسكرية، ووصلوا إلى سن النضج على خطوط الجبهة، وفي الثكنات، وفي تنظيمات الخدمة العسكرية، في الوصول بعد منتصف الليل والمغادرة قبل الفجر. إخوتهم، أزواجهن، آباءهم، أو أصحابهن، ماتوا فجأة في الطرف الآخر من التلغراف. في زوايا العالم الأربع المرتعدة، أو في البلدة التي غزتها المعامل والجنود المستوحشين، عرفوا عن كثب قاع السلوك البشري، ولم يكن لديهم وقت كثير لما جاء في خضم ذلك. السلام الذي ورثوه كان آمناً فحسب بوصفه العنوان العريض التالي. كان سلاماً بارداً. توقهم الخاص إلى الحرية، والعيش على وتيرة تقتل (عوّدتهم عليها الحرب) أدت إلى نشوء الأسواق السوداء، والبيبوب، والمخدرات، والاختلاط الجنسي، والتشرد، وجان بول سارتر. حالة **البيت** ترسخت لاحقاً.

إنه جيل ما بعد الحرب، وفي عالم يبدو أنه يؤرّخ مراحله بالحروب،

فإنه يُقارن سلفاً بذلك الجيل الآخر الذي ظهر بعد الحرب (الأولى)، ودعا نفسه «ضائعاً». فترة العشرينات الصاخبة، والجيل الذي جعلها صاخبة، تعرف اليوم إعادة إحياء عاطفية، والمقارنة قيمة. تم اكتشاف «الجيل الضائع» على عربة تمضي على الطريق، وهو يضحك بهستيرية لأنه لم يعد يكترث بشيء. هاجر إلى أوروبا، غير واثق إذا ما كان يبحث عن «المستقبل الماجن» أم يهرب من «الماضي البيوريتاني». رموزه كانوا «الفلابرز» (صفة للفتيات المتحررات في العشرينات)، ومهربو الويسكي، وموقف نزق يائس عبّر عنه على أفضل نحو في عبارة «أمن يرغب بلعب التنس معي؟»[1]. كان جيلاً منغمساً في رومانسية التحرر، إلى أن أصبح حتى هذا وهماً. كل فصل في دراما ضياع أبناء ذاك الجيل كان فصلاً ثالثاً دراماتيكياً أو ساخراً، وقصيدة إليوت «الأرض اليباب» كانت أكثر من إعلان أخير لشاعر ألمعي. فالمناخ المهيمن على هذه القصيدة هو الإحساس المطلق بالضياع، الذي يشعر القارئ خلاله أن تماسك الأشياء قد اختفى. كانت القصيدة، بالنسبة إلى جيل بأكمله، صورة عبرت بدقة مرعبة، عن وضعه الروحي الخاص.

لكن شبان هذا الزمن الجامحون ليسوا بضائعين. وجوههم الحيية، المستهزئة غالباً، تتعمّد دائماً التملّص من هذه الكلمة التي يعتبرونها زائفة. ذلك أنه من الجلي أن الجيل الراهن ليس لديه ذلك الحس البلاغي بالضياع الذي كان له الدور الأبرز في توظيف أفعال «الجيل

(١) هذه العبارة هي وصف كاريكاتوري للطبقة البورجوازية في إنكلترا العشرينات من القرن العشرين. وهي تعبر عن موقف هذه الطبقة من الطبقة الفقيرة وظروف عيشها القاهرة، وعن مدى انهماكها بنفسها، بحيث أن ميلها إلى التخلص من الضجر عبر لعب التنس والقول «أمن يرغب بلعب التنس معي»، هي طريقة للقول: «لا أبالي بأي شيء خارج دائرتي الصغيرة الخاصة».

الضائع» الرمزية. علاوة على ذلك فإن تلك المراجعة المتكررة للمثل المهشمة، والتفجع على الاتجاهات الأخلاقية الممرغة بالوحل، اللذان شغلا «الجيل الضائع» إلى حدّ كبير، لا يثيران اهتمام شباب اليوم. فهم يتعاملون مع هذا الواقع كأمر منجز، لأنهم نشأوا في هذه الخرائب حتى ما عادوا يلاحظون وجودها. هم يحتسون الخمرة حتى «يثوبوا إلى وعيهم» أو «يغيبوا عنه» لا لإثبات أي شيء. كذلك، تجاربهم مع المخدرات والجنس تنبع من الرغبة في الاكتشاف لا من النزعة التحررية.

فقط الأكثر مرارة منهم قد يسمي واقعه كابوساً أو يشتكي من أنه أضاع شيئاً ما، خصوصاً المستقبل. إذ أن هذا الجيل، منذ بات لديه الوعي الكافي لتخيل مستقبل ما، ينظر إلى هذا المستقبل بوصفه مهدداً باستمرار. غياب القيم الشخصية والاجتماعية بالنسبة إليه ليس بأمر يزلزل الأرض من تحته، بل إنه مشكلة تتطلب استنباط الحلول كل يوم بيومه. «كيف نعيش؟»، يبدو سؤالاً أهم بكثير، عند أبناء هذا الجيل، من «لماذا نعيش؟». وعند هذه النقطة بالذات يلتقي موظف الإعلانات مع سائق سيارات السباق، وتكتسب حال **البيت** المتماثلة بينهما، دلالتها، ذلك أنه بعكس الجيل الضائع الذي كان مهموماً بمسألة فقدان الإيمان، فإن همّ هذا الجيل المتزايد هو العثور على إيمان، وكأنه يترجم دعابة فولتير القديمة: «إذا لم يكن من إله فمن الضروري اختراع واحد». وبما أنه ليس قانعاً برثاء غياب هذا الإله، فإنه يعمل بدأب وبهمة وبشكل اعتباطي على اختراع طواطم لهذا الإله في جوانب الحياة كافة.

ذلك أن العدمي الساخر الذي يعبر الطريق السريعة بسرعة تسعين ميلاً بالساعة ممسكاً بالمقود برجليه، ليس هاري كروسبي، شاعر «الجيل الضائع» الذي خطط للتحليق بطائرته نحو الشمس يوماً ما لأنه لم يعد قادراً على احتمال العالم المعاصر. على النقيض منه، فإن سائق

السيارات السريعة اليوم يدعو الموت إليه فقط لكي يهزمه ويفوقه عليه ذكاء. إنه يؤكد على الحياة التي في داخله بالطريقة الوحيدة التي يعرفها، أي عند الحد الأقصى. الفتاة ذات الوجه المتلهف، التي قبض عليها بتهمة حيازة المخدرات، ليست واحدة من أولئك «النسوة والفتيات اللواتي يسقن من الأمكنة العامة وهن يصرخن تحت تأثير الكحول أو المخدرات»، اللواتي وصفهن فتزجيرالد. بدلاً من ذلك، تراها بجدية مقنعة، تصف الحس الجماعي الذي وجدته في الماريغوانا، والذي لم يمنحه إياها المجتمع. موظف الإعلانات، الثمل عند منتصف الليل بقدر أقرانه في جيل الضائع، يقرأ على الأرجح «الله والإنسان في يال» خلال ثمالته بعد ظهر يوم الأحد. الفرق هو تلك الإرادة التي يكاد يكون مبالغاً فيها لدى أبناء هذا الجيل بالإيمان بشيء ما، ولو بأنفسهم فحسب. إنها إرادة للإيمان، حتى مع انعدام القدرة على فعل ذلك بمعايير تقليدية. وهذا محكوم بالتطرف في هذا الاتجاه أو ذاك.

الصدمة التي يشعر بها الناس الأكبر سناً لدى مشاهدتهم جيل البيت هذا، ليست في أعمق مستوياتها، اشمئزازاً من الواقع، بقدر ما هي ابتئاس من المواقف التي تحرك هذا الواقع. وعلى الرغم من اغتمامهم، فإنهم غالباً ما يحاججون أو يشرّعون انطلاقاً من الوقائع لا المواقف. قارئ الصحيفة، الذي يمعن النظر بعيني مدمن شاب على المخدرات، يمكنه فحسب أن يجد متنفساً لرعبه وذهوله أمام المطالب بأن يعدم هؤلاء المدمنون على الكرسي الكهربائي. علماء الإجتماع ذوو الاهتمامات الأكاديمية، تقلقهم بالقدر نفسه فيالق الشبان الذين أقصى طموح لديهم هو أن يعثروا على بداية جديدة آمنة في شركة ضخمة. المؤرخون المعاصرون يعبرون عن دهشة خفيفة لافتقار الشباب إلى الحركات المنظمة، السياسية أو الدينية، أو غيرها، وتذكرنا مقالاتهم أنه: أن يكون

المرء سيد نفسه وأن يكون مندمجاً بشكل طبيعي هما اثنان من أكثر مميزاتنا تقديراً. في كل مكان الناس ذوو الأخلاقيات المتناغمة يهزون رؤوسهم أسفاً متساءلين عما يجري للجيل الشاب.

ربما لم يلاحظوا أنه وراء التطرف (أو الإسراف) من جهة، والاندماج من جهة ثانية، يكمن ذلك الانفصال عن المجتمع الذي لسان حاله يقول «فلننتظر ونر»، والذي ينتج عن الاضطرار إلى الاعتماد على قدرة المرء على الاستمرار في العيش أكثر مما على فلسفته في الحياة. هذا لا يعني أن **جيل البيت** منيعاً ضد الأفكار، فهي تغويهم. حروب هذا الجيل، الماضية والمستقبلية، كانت وستكون حروب أفكار. وهم يعرفون، على أي حال، أنه في لحظة الصراع الأخيرة الإنسان يقاتل فعلياً إنساناً آخر، وليس فكرة. وأن الأمر نفسه ينطبق على الحب. لذلك فإنه جيل يمتلك قدرة أعظم على أن يلعب بالأفكار أكثر مما يعتنقها. لكنه أيضاً الجيل الأول منذ قرون عدة الذي كانت مسألة الإيمان بالنسبة إليه مشكلة هوسية، بعيداً من أسباب اعتناق إيمان محدد أم عدمه، فهو يظهر من كل ناحية، وفي عدد مذهل من الأوجه، توقاً كاملاً للإيمان.

على الرغم من أنه حكماً جيل الحدود القصوى، يتضمن «الهبستر»[١] والجمهوري الراديكالي الشاب، فهو يعطي لقيصر (المجتمع) ما لقيصر،

---

(١) الهبستر Hipster: هو الشخص الذي كان في فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن الفائت يتسكع في «تايمز سكوير»، نيويورك، ويعيش حياة صاخبة من المخدرات والجنس بمختلف أشكاله ومن التشرد أيضاً والانعتاق من القيود الاجتماعية، هؤلاء صاروا يحملون الخمر علانية على خصورهم، (Hip تعني ورك) وليس مثل الذين كانوا يهربون الخمرة في أحذيتهم Bootleggers في العشرينات فترة منع الكحول في أميركا. هذا التفسير وضعه الكاتب الأميركي ليفي آشر، الذي يشير أيضاً إلى تفسير الكاتب كين كايسي (صاحب «طيران فوق عش الوقواق» الذي خاض نيل كاسيدي رحلات لاحقة معه عبر أميركا) وإرجاعه الكلمة إلى أوساط مدخني الأفيون الصينيين.

ولله ما لله. لا يرغب «الهبستر» الأكثر جموحاً، الذي يستنبط حساً صوفياً من الجاز والمخدرات وحياة الليل، بتهشيم المخدرات وحياة الليل، ولا بتهشيم المجتمع التقليدي الذي يعيش فيه، بل جل همه التملص من هذا المجتمع. وهو لذلك لا يجد معنى في اعتلاء منصة الخطابة أو كتابة مانيفستو... وبالتساوي مع ذلك فإن الجمهوري الشاب، وإن بدا متمسكاً بـ«بابيت»[1] بوصفه بطله الثقافي، فإنه ليس مبتذلاً ولا مادياً مثل «بابيت». إنه يندمج لأنه يعتبر ذلك عملياً من الناحية الاجتماعية لا لأنه يعتبره منطوياً على أي فضيلة. وعلى أي حال فإن الحالين ناتجتان إلى هذا الحد أو ذاك من القناعة نفسها، وهو أن هاوية انعدام القيم في الحياة المعاصرة لم تعد تُحتمل.

ذلك أنه تحت الإسراف (التطرف) والاندماج، هناك شيء غير الانفصال عن المجتمع. هناك إثارة البحث. ما يبحث عنه «الهبستر» في «رواقه» (انسحابه) أو في «صخبه» (نشواته) هو في النهاية الإحساس بالانتماء إلى مكان ما، وليس فحسب البحث عن إلهاء آخر. الجمهوري الشاب يشعر أنه هناك مرحلة يصبح فيها التغيير فوضى، وما يريده ليس ببساطة الامتياز أو الثروة، إنما وضعاً ثابتاً يمكنه التحرك فيه. كلاهما عرف ما يكفي من التشرد وانعدام القيم وانعدام الإيمان.

إن تنوع وجذرية الحلول التي يستنبطها أبناء هذا الجيل ليست إلا مؤشراً آخر على أنه لم يعد هناك قطب خارجي يمكنهم كجيل أن يحشدوا حوله رؤاهم وتطلعاتهم. ليس هناك فلسفة وحيدة، أو حزباً وحيداً، أو موقفاً وحيداً. وسبب ذلك على الأرجح يكمن في فشل أكثر

---

(١) «بابيت»: عنوان رواية سنكلاير لويس واسم بطل الرواية، التي ظهرت في العشرينات من القرن الفائت في أميركا، وباتت صفة للشخص الذي يسعى إلى الاندماج في المجتمع والذي غالباً ما يكون انتهازياً لا يبالي بالقيم وقد يفعل أي شيء من أجل تحقيق أهدافه.

المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية محافظة في أن تعكس بشكل واف الحياة التي خبروها، وبسبب هذا الفشل أصبح كل شخص كناية عن وحدة متحركة محتواة ذاتياً، مجبرة على مواجهة أو على الأقل الصمود في وجه أزمة أن يكون المرء شاباً في عالم يبدو بالنسبة إليه عاجزاً.

أكثر من أي شيء آخر، هذا هو المسؤول عن تردد هذا الجيل في تسمية نفسه، وتردده في مناقشة نفسه كمجموعة، وأحياناً تردده في أن يكون نفسه. ذلك أنه من الثابت أن الآلهة المخترعة تخيب آمال من يعبدونها. فقط الحاجة إليها تستمر، وهذه الحاجة بالذات، التي تستهلك كل شيء، تقود جيل البيت إلى المستقبل وذات يوم ستحرمه من حال **البيت** هذه.

كتب دوستيوفسكي في بداية ١٨٨٠ أن «روسيا الشابة لا يشغلها شيء سوى الأسئلة الداخلية الآن». أخذاً بالاعتبار للتغيرات، فإن شيئاً شبيهاً بهذا بدأ يحدث في أميركا، وبطريقة أميركية؛ هناك إعادة تقويم، ليست سلوكيات ومواقف هذا الجيل إلا من أعراضها. ليس هناك من مقارنة وحيدة بين جيل وآخر يمكنها أن تعيّن التأثيرات بدقة، لكن يبدو من الجلي أن جيلاً ضائعاً، مشغولاً بالتحرر ومحاولاً أن يشغل نفسه بين الحجارة المحطمة، يتحرك شعرياً من دون أن يشكل تهديداً جدياً. لكن **جيل بيت** تقوده لهفة يائسة للإيمان وغير قادر في الوقت نفسه على تقبل الوسائط المطروحة، هو مسألة أخرى. بعد ثلاثين سنة كان الجيل الذي تحدث عنه دوستيوفسكي يلتقي في الأقبية ويعدّ القنابل.

هذا الجيل لا يصنع القنابل؛ سوف يطلب منه على الأرجح أن يلقي ببعضها، وسوف يكون بينه من تُلقى عليه القنابل، وهذه الحقيقة ليست بغائبة عن تفكيره. هذا أحد الضغوط التي أنشأته وسوف تلعب دوراً كبيراً في تحديد مصيره. هناك أولئك الذين يعتقدون أنه في أجيال كهذا الجيل

هناك دائماً الاحتمال الثابت بنشوء فكرة أخلاقية عظمى، تتشكّل وتولد في خضم اليأس. آخرون يستوقفهم عند هذا الجيل ذلك الانغماس بالذات، والحس بالخسارة، وانعدام المسؤولية الاجتماعية الواضحة، ولا يوافقون.

لكن قدرة هذا الجيل على إبقاء عيونه مفتوحة، وتجنب الكلبية، وقناعته المتزايدة بأن مشكلة الحياة المعاصرة هي بشكل جوهري مشكلة روحية؛ وإمكان نشوء حكمة مفاجئة يمكن أن يحوزها الناس الذين يعيشون بصعوبة ويمضون بعيداً، هي كلها مميزات جديرة بالمشاهدة. وعلى أي حال، فإن تلك الوجوه الشابة الصافية المتحدية جديرة بها.

جون كللون هولمز

نيويورك تايمز ماغازين، ١٦ نوفمبر ١٩٥٢

الفهرس

هذا الكتاب

«آه، حسناً يا رجل»، قال دين، «لقد كنت أستكشفك طوال سنوات بشأن مسألة الزواج والبيت وكل هذه الأشياء الرائعة التي تملأ روحك». كانت ليلة حزينة، ومرحة أيضاً. في فيلادلفيا قصدنا مطعماً صغيراً وتناولنا الهامبرغر بآخر دولار معنا مخصص للوقود. كانت الثالثة فجراً وحين سمعنا صاحب المطعم نتحدث عن المال عرض علينا أن يقدم لنا الهامبرغر مجاناً، إضافة إلى مزيد من القهوة، إذا ما قمنا بغسل الأطباق في مطبخه، لأن الموظف الذي يفترض أن يقوم بذلك كان متغيباً، فوافقنا على الفور. قال إد دانكل إنه غاسل أطباق مخضرم، وشرع فوراً بالعمل. أما دين فوقف يلهو حاملاً منشفة، ومثله ماري لو، ثم بدآ يقبلان بعضيهما ويتعانقان بين القدور والمقالي، ثم تواريا في زاوية معتمة في غرفة المؤن. ولم يمانع صاحب المحل ما دمت وإد دانكل نقوم بالواجب. أنجزنا العمل في ربع ساعة، وحين بزغ النهار كنا نقترب من نيوجيرزي بينما ملامح نيويورك المتروبوليتية تلوح أمامنا في المسافة المثلجة. لف دين كنزة حول أذنيه لكي تدفئه، قائلاً «نحن زمرة عرب جاءت لتفجّر نيويورك». عبرنا نفق لنكلن إلى تايمز سكواير، لأن ماري لو رغبت برؤيتها.